

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

Zawya decheikhahmed elheiba
Receipt N°: FA 010000311105202202303
What Supp: 0022246304413
Tel: 0022246304413
Email: ck.mamine@gmail.com



زاوية الشيخ أحمد الهيبية
وصل رقم: FA010000311105202202303
واتساب: 0022246304413
إيميل: ck.mamine@gmail.com

كتاب الضياء المستبين في كرامات شيخنا الشيخ: الشيخ محمد فاضل بن شيخنا الشيخ مامين

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن فتح ببركة أوليائه أقفال مقفلات القلوب، وفتق بوجهاته مكائهم من رقت مرتتقات الغيوب، وأزال بهمهمم الحجاب عن كل محجوب، فأهب عليهم بعد إزالة الحجب أنهار فيضه أتم هبوب، وجعل خدمتهم وذكر مناقبهم فرجا لكل الكروب، وسببا لمغفرة الذنوب، وبها يصير المطرود والمقصي مقربا ومحبوبا أي محبوب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أكون بها عنده مقربا مخصصا بالزلفى منه وبكل مطلوب، وأشهد أن سيدنا محمدا μ عبده ورسوله وعلى آله وصحبه ما طلع في الأفق طالع ومال إلى الغروب، وبعد فإنه ما زال يخطر ببالي ويتلجل في خاطري أن أصنف كتابا مختصر الذكر فيه بعض كرامات شيخنا الشيخ محمد فاضل ومناقبه الشريفة الرفيعة القدر المنيفة وبعض سيرته المحمدية وآدابه القرآنية متطفلا به على موائد أهل تلك الحضرة المقدسة المطهرة مع علمي أنني لست ممن يهتدي بمنارهم بل ولا يمكنه أن يسرح في تيارهم، لكن الطمع يحمل على تجشم الأمور العظام، وينسي المرء نفسه وما هي متلبسة به من أسباب الملام، فعسى الله أن لا يحرم من استشفع إليه بهم وتوسل إلى جنابه الكريم بجنابهم، فإنهم الوسيلة الكبرى، وبذكرهم تنتزل الرحمات، وبخدمتهم تسهل المستصعبات وتفتح المقفلات، قال:

اسرد حديث الصالحين وسمهم فبذكرهم تنتزل الرحمات
والترم مجالسهم تتل بركاتهم وقبورهم زرها إذا ما ماتوا
والآن أشرع إن شاء الله في هذا الكتاب مستمدا بعون الملك الوهاب، وما توفيقى إلا
بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وسميته الضياء المستبين بكرامات الشيخ محمد فاضل
بن الشيخ محمد الأمين فأقول وبالله التوفيق وهو الهادي بمنه إلى سواء الطريق:
أردت أن أرتب الكتاب على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة، أما المقدمة ففي التعريف
بالشيخ رضي الله عنه وأرضاه، ومتعنا بحياته وعافاه، وحمد في كل ذلك حالته
ومسعاها، وفي ذكر نسبه الشريف وقدره الرفيع المنيف. وأما الباب الأول ففي ذكر
سيرته المحمدية، وآدابه القرآنية، وأما الباب الثاني ففي تبين طريقته وتأسيس فروعها

على أصولها، وأما الباب الثالث ففي جملة علومه وأنه في الرتبة العليا من كل علم، وأما الباب الرابع ففي تعداد كراماته، وهذا الباب هو الغرض من هذا الكتاب، وعسى الله أن يكرمني بالقبول والإتمام، وأن يشرح صدري لوعي الحكمة والإلهام، وأن ييسر لي المراد من كل مرام، وأما الخاتمة ففي ذكر ما ينبغي استجلابه مما لم يكتفه باب من الأبواب السابقة.

المقدمة

أقول وبالله التوفيق: التعريف بالشيخ يقتضي التعريف بقدره، وهو باب خطير وشأن عظيم كبير، لا يقدر قدره إلا العليم الخبير، وذلك أنه ولي الله والولي على قدر مولاه، كما روي أن بعض التابعين قال لعلي كرم الله تعالى وجهه: صف لنا رسول الله ﷺ فقال الرسول على قدر المرسل، واحتاج المتأمل في هذا إلى تبيين الولي من هو فأقول والله الموفق للصواب الولي وزنه فعيل من الولاية أي التولي وهي تحتل أن تكون بمعنى فاعل فتكون بمعنى متول وأن تكون بمعنى مفعول فتكون بمعنى متولى فعلى الأول يكون المعنى أن هذا الشخص تولى الله تعالى فكانت همته الله واشتغال قلبه في شهوده وجوارحه في خدمته، فكان الله له في مصالحه، وعلى الثاني يكون المعنى أن هذا الشخص أعني الولي تولاه الله تعالى، أي كان متوليا لأمره قائما في مصالحه، لا يكله إلى نفسه ولا إلى غيره، لا يدع للنفس عليه سبيلا، ولا للشيطان في جبره مستقرا ولا مقبلا، وكل ما كان أصلح له أخذ بيده إليه كما أن ولي الطفل يحضنه عن مضره ويعامله بجميع منافعه، وقد اختلف العلماء من المستحق لهذا الاسم فقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أن أولياءه هم الذين تذكروا الله رؤيتهم، وروى الطبراني بسنده عن سعيد بن جبير أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله فقال: هم الذين إذا ذكروا ذكر الله، وقال زيد هم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ ولن يقبل الإيمان إلا بالتقوى.

وفي كتاب الجواهر والدرر للشعراني: سألت الشيخ عليا الخواص عن حقيقة الإيمان والتقوى اللذين يسمى صاحبهما وليا فقال: أما الإيمان الذي هو هكذا أن يبلغ بك إيمانك أن تكون بحيث يمكنك أن تعطي جميع ما بيدك ثقة منك بوعده تعالى وضمانه الرزق، وأما التقوى الذي هو هكذا فهو أن تتقي شهود نفسك وغيرها في

الأفعال، حتى لا ترى الفعل إلا منه، ولا تنسبه إلا إليه، وبعبارة الولي في عرف الصوفية: من فني في شهود ذات الله تعالى عن شهود غيره من خلقه، وتأدب بالأداب الشرعية.

وقال قوم: الأولياء: هم المتحابون في الله كما يدل لذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن من عباد الله أناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله، قالوا: يا رسول الله: تخبرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، أخرجه أبو داود، ومعنى بروح الله أي على دين الله. ومن حديث أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: «اليوم أظلم يوم لا ظل إلا ظلي» أخرجه مسلم في صحيحه.

وعن معاذ بن جبل أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء، أخرجه الترمذي وروى البغوي بسنده عن مالك الأشعري قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء لقربهم ومقعدهم من الله تعالى يوم القيامة، قال: وفي ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيده ثم قال: حدثنا يا رسول الله من هم؟ قال: فرأيت في وجه رسول الله ﷺ البشر فقال: هم عباد من عباد الله من بلدان شتى وقبائل شتى لم تكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتبادلونها، يتحابون بروح الله يجعل الله وجوههم نورا ويجعل لهم منابر لؤلؤ قدام الرحمن يفرح الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون.

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: قال الله تعالى: إن أوليائي من عبادي الذين يذكروني بذكري وأذكركم بذكركم، هكذا ذكره البغوي من غير سند رحمه الله، وروى الطبراني بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل: منهم يا رسول الله لعنا نحبهم قال: هم قوم تحابوا في الله من غير أموال وجوههم نور وعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف

الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ الغبطة نوع من الحسد إلا أن الحسد مذموم والغبطة محمودة والفرق بين الحسد والغبطة هو أن الحاسد يتمنى زوال ما على المحسود من النعمة وتحولها والغبطة هي أن يتمنى الغابط مثل تلك النعمة التي هي على المغبوط من غير زوال عنه.

وقال أبو بكر الأصم: أولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة إليه، وأصل الولي من الولاء وهو القرب والنصرة، فولي الله الذي يتقرب إلى الله بكل ما افترض الله عليه ويكون مشتغلا بالله مستغرق القلب في نور معرفة جلال الله، فإن رأى دلائل قدرة الله وإن سمع سمع آيات الله، وإن نطق نطق بالثناء على الله، وإن تحرك تحرك في طاعة الله، وإن اجتهد اجتهد فيما يقربه إلى الله لا يفتر عن ذكر الله ولا يرى قلبه غير الله فهذه صفة أولياء الله، وإذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه، وأيضا ورد في كثير من الأحاديث الصحاح ما معناه أن الخلق إنما يرزقون وينصرون ويكثرون ويمطرون وينتفعون إلى غير ذلك ببركة أولياء الله تعالى.

فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: إن لله في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم، ولله في الخلق سبعون قلوبهم على قلب نوح، ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى، ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبريل ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل، ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من السبعين وإذا مات من السبعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة، فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلاء، قيل لابن مسعود: كيف يحيي بهم ويميت، قال: لأنهم يسألون من الله إكثار الأمم فيكثرن، ويدعون على الجبابرة فيقصمون، ويستسقون فيسقون ويسألون فتنتبت الأرض ويدعون فترفع عنهم أنواع البلاء، قال ابن عربي في الفتوحات المكية ما

معناه أنهم يتقلبون في المعارج الإلهية تقلب ذلك الشخص الذي يكون على قلبه إذا كانت واردات العلوم الإلهية إنما ترد على القلوب فكم علم يراد على قلب ذلك الكبير من ملك أو رسول يرد على هذه القلوب التي على قلبه، وربما يقول بعضهم: فلان على قدم فلان ومعناه ما ذكر، وأخرج بغن بن مجلد بسنده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: دعائم أمتي عصائب اليمين، وأربعون رجلا من الأبدال بالشام كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر، أما أنهم لم يبلغوا ذلك بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصيحة للمسلمين.

وروى الحكيم الترمذي أن الأنبياء كانوا أوتادا الأرض فلما انقطعت النبوة أبدل الله مكانهم قوما من أمة سيدنا محمد ﷺ لم يفضلوا الناس بكثرة صلاة ولا صوم، ولكن بحسن الخلق والنيات وصدق الورع وسلامة القلوب للمسلمين والنصح لله وابتغاء مرضاته بصبر وحلم ولين وتواضع من غير مذلة فهم خلفاء الأنبياء قوم اصطفاهم الله لنفسه واستخلصهم لعلمه يدفع الله بهم المكروه عن الأرض والبلايا عن الناس وبهم يرزقون ويمطرون، قال الحكيم فهؤلاء أمان هذه الأمة فإذا ماتوا فسدت الأرض وخربت الدنيا وذلك قوله تعالى: ﴿ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ وبهم ينصرون.

وأخرج أحمد في الزهد بسند صحيح عن ابن عباس قال: ما خلت الأرض من بعد نوح من سبعة يدفع الله بهم عن أهل الأرض، وعن ابن عمر مرفوعا لا يزال أربعون رجلا يحفظ الله بهم الأرض كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر، وعنه أيضا مرفوعا لا يزال أربعون رجلا يحفظ الله بهم الأرض كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر وهم في الأرض كلها.

وفي تاريخ بغداد للخطيب عن الكناني قال: النقباء ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد، فمسكن النقباء الم غرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن البدلاء الشام، والأخيار سياحون في الأرض والعمد في زوايا الأرض ومسكن الغوث مكة، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأخيار ثم العمد فإن أجيبوا وإلا ابتهل الغوث فلا تتم مسألة حتى تجاب دعوته لطفًا من الله تعالى بعباده. أخرجه ابن الخطيب في المواهب اللدنية.

فإن قلت: ما معنى اختصاص كل فريق منهم بمكان، قلت: لعله يكون نظر ذلك الفريق إلى حراسة ذلك المكان أكثر أو لعل كل فريق رتبته في الفضل على سائر الأولياء كرتبة ذلك المكان في الفضل على سائر الأمكنة، وإلا فلا خلاف بين اثنين من خلق الله تعالى بأن أفضل الخلق نبينا محمد ρ وهو غوث العالمين بأسرهم ولم يسكن مكة بعدما هاجر منها وأجمعوا أيضا أفضل الخلق بعده الخلفاء الراشدون المهديون ولم يسكن أحد منهم مكة، فإذا علمت هذا وفهمت مكان الولي وقربه من ربه وبما اتخذه تعالى وليا، وعلمت أنه ينبوع الخيرات الواصلة لجميع الكائنات وسور حصنهم عن جميع المضرات اتضح عندك وبان لك أنه لا تعريف لقدرته إلا بالعجز عنه قال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾، قال علي كرم الله وجهه: الرسول على قدر المرسل، والولي خليفة الرسول، وفي الخبر للتابع من الحكم ما لمتبوعه، وعنه أيضا: من مات عن حق فلوارثه، وثبت العلماء ورثة الأنبياء، ويعني بالعلماء العلماء الإلهيين وهم الأولياء فافهم، فإذا كان هذا هكذا للولي من حيث هو فما ظنك بالقطب الوجداني الذي ما على الأرض أتم منه معرفة لله تعالى ولا أكمل منه عبودية، وهو القائم بأعباء التدبير الكوني والمشرب الإلهي، والدليل على كونه هو ما ثبت متواترا عن أولياء الله الكمل أهل المكاشفات العارفين بخفايا المغيبات، فمن ذلك ما حدث به الأء الصادق العدل الرضى محمد بن محمد الأعبيد رحمة الله علينا وعليه مشافهة منه لي بغير واسطة، أخبرني رحمة الله علينا وعليه أنه كان يوما يسير مع الولي العارف بالله تعالى الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود في رفقة فسأله بأن قال له أيها الشيخ هل الشيخ سيد المختار هو قطب زمنه أم لا؟ فقال له: لا ما هو قطبه، فقال: ومن القطب في ذلك الزمن؟ قال: هو الشريف سيد الهادي فقال: ومن الشريف سيدي الهادي، قال له: لست تعرفه، فقال له: وأين أرضه؟ قال: باليمن، قال: أو قد اجتمعت معه، قال: نعم، قال: وكيف ذلك؟ قال: أتى بي الشيخ محمد الأغظف ليزوره بي، قال له أخبرني بكيفية ذلك قال: قدمنا إليه في وفد أهل المغرب في سبعمائة ولي، يقال له وفد الشيخ محمد الأغظف، وأتى قدر ذلك من أهل الهند وقدر ذلك من أهل الشام وأتى من كل ناحية قدر ذلك أو أقل أو أكثر، فوجدوا داره دار ابنه وأخته وصهره ليس غير وله مسجد كبير يسير فيه الراكب مقبلا، فلما أتوه قام لضيافتهم فلم

يبقى أحد منهم إلا فرشت له قطيفة، فلما غربت الشمس أتى فصلى المغرب وصلوا به ثم قام، فلما غاب الشفق الأول أتى فصلى العشاء فقاموا لزيارته بعد الصلاة فقال قائل من أهل الغيب: رحم الله من زار وخفف، فعلموا أن ذلك الوقت لا يسعهم أن يأتوا فيه فتركوا القيام إليه وذهب نحو بيته فلما كان وقت العشاء لم يبق أحد من ذلك الخلق الكثير إلا وأتاه طست صغير في عظم ظهر شاة وشاكلتها وشيء من الثريد أو الأرز وشفرة مشحودة فتعشوا وباتوا عنده، فلما بزغ الفجر أتاهم أول وقته فصلى بهم الصبح ثم حبس في مكانه حتى طلعت الشمس قال: فأتيناه للزيارة الشيخ محمد الأغظف فأخذ بأذني اليمنى وقال فيها الله وأخذ باليسرى وقال فيها حسبنا الله ونعم الوكيل وجعل يده على جبيني وقال: البر البر خمس مرات، قال: محمد ثم سألته متى توفي؟ فقال: توفي مدة موت اعل بن عمر بن اعل سلطان فاغنة قال: فقلت له ومن تخلف بعده؟ قال: فأخذ ذلك الولي فرسه ولعبه وأرقصه وهو يقول: تخلف بعده الشيخ محمد فاضل بن مامين، ثم كررها عليه مرارا.

ومن ذلك أيضا ما أخبرني به الأخ الثقة العدل سيد محمد بن محمود بن الحاج احمد أنه أتى بن أحمد الأسود ليشاوره عن شيخ يستند عليه فلما جلس بإزائه قال: يا أبناء الزوايا من كان في زمن ابن مامين فلم يأتته فإنما هو كمن كان في زمن رسول الله ﷺ ولم يأتته.

ومن ذلك أيضا ما أخبرني به الأخ الثقة العدل المأمون بن سيد عيسى بن سيد المختار بن سيد محمد مین أنه كان في زمن غائبا في أرض لادم فوجد فيهم الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود، فأتاه في جماعة من الناس فلما رآه الشيخ قادمًا قام إليه وهو يكرر الترحيب فلما وصل إلى مجلسه أخذ سجادته وأرسلها معه هدية للشيخ حفظه الله ورعاه، وقال له بمحضر الجم الغفير: ليس على ظهر اليوم من يعمر ويدمر إلا شيخك، فسأله شيخ لادم جد بن الشين قال له: ما معنى يعمر ويدمر، فقال: إن شاء أخذتلك الأمة الحاملة لذلك الحطب وجعلها في مكاني هذا وفي مكانك أنت فصلحت لما نحن فيه وإن شاء أخذني وأخذك فجعل من شاء منا في مكانها فلا يصلح بعد ذلك إلا لما تصلح هي له، فتعجب جدا ابن الشين رحمه الله من ذلك وقال له: لقد أخفنتي منه.

ومن ذلك أيضا ما أخبرني به والدي رحمة الله علينا وعليه أنه لما بايع شيخنا وصحبه علمه أسماء أعجمية وقال له: إذا جمعك الله مع باب أحمد بن الشيخ سيد المختار أو الشيخ محمد الأمين بن سيد محمد القلزمي أسمع من لقيت منها الأسماء وأخبره أنني أعطيتها فاجتمع ذات يوم بالقلزمي فلما خلا به وأسمعه الأسماء وأخبره أن شيخنا أعطاه إياها قال له: هذا لست أعرفه، ثم اجتمع مع باب أحمد فلما أسمعه الأسماء وأخبره أن شيخنا أعطاه إياها قال له: أفصحبته؟ قال: نعم، قال: عليك به ثم عليك به ثم عليك به، فإنه الإكسير الأكبر والكبريت الأحمر ليس على وجه الأرض اليوم مثله، ولا أرى أن يكون قبله أو بعده مثله.

ومن ذلك أيضا ما أخبرني به الشيخ الولي العارف بالله تعالى سيدي المصطفى بن شيخنا أنه أتى من مكة حاجا وجد بها وليا مكاشفا مشهور الولاية معروفا عندهم بكثرة لقاء المصطفى ρ يقال له عبد الرحمن أفند ومعنى أفندي السيد، فأخبره أن المصطفى عليه السلام أمره أن يحج عن شيخنا وأخبره أنه قطب هذه الأمة وولي أمرها ووفدها إلى الله تعالى في حوائجها.

وأخبرني أيضا الشيخ سيد المصطفى بن شيخنا أنه حدثه محمد المصطفى بن لحبيب بن سيد محمد أنه قدم على ولي من أولياء الله في أرض تيرس يقال له المام فلما سلم عليه قال له: من أي قوم أنت؟ قال له: من قوم لا تعرفهم لبعدهم أرضهم، قال: ومن هم قال: آل الطالب المختار، قال له: وهل في منهم مشهور فأعرفهم به، قال: فيهم ولكنك لا تعرفه أيضا، قال له: من هو، قال: هو الشيخ محمد فاضل بن مامين، قال: أي بني وكيف لا أعرفه وهو أخي، قال: فتعجبت من أين الأخوة بينهم فالتفت إلي وقال لي: الأخوت بيننا من حيث المرادين قال: فتحيرت أيضا في معنى ذلك فقال: أعني مردي نفسي مرديه هو فوالله إن تربيته موارد لوصل انتفاعها إليهم منه وما أنا لهم بمرب، والله ما على وجه الأرض اليوم انتفاع باطن ولا ظاهر إلا منه.

ومن ذلك أيضا ما أخبرني به الحاج جد رحمه الله وذلك أنه قال إنه لما وصل المدينة المشرفة لزيارة النبي ρ وجد بها وليا مشهور الولاية يقال له صالح بن المرحوم أحمد فلما رآه عرفه وقال له: هل أنت من موارد الشيخ محمد فاضل بن الشيخ محمد

الأمين، قال له صاحبنا: نعم، قال له: لتعلم أن شيخك هو تاج هذه الأمة وباشتها اليوم وبيده جميع تصاريدها.

وأخبرني أيضا الولي الرضي السخي محمد عبد الوهاب بن شيخنا أنه نزل بمحلة تندغ فأتاهم منهم ولي مشهور الولاية يقال له عبد الجليل، فجعل ذلك الولي يزور محمد عبد الوهاب ويتبرك منه ويقول له: أنت ابن ذلك القطب، فقال له بعض الحاضرين إن تلاميذ الشيخ سيدي يدعون له بالقطبانية، فغضب ذلك الولي وقال: والله لقد كذبوا، وإن الشيخ سيدي ليعلم أن الشيخ محمد فاضل هو القطب، ويعلم أن الأولياء اجتمعوا عنده الليلة الفلانية في الزمن الفلاني حتى عد ثلاث ليال أو أربعاً. وأخبرني أيضا محمد عبد الوهاب أنه أخبره محمد المصطفى بن لحبيب أنه سمع الشيخ سيدي يقول في جماعته: والله إن الشيخ محمد فاضل لخاض بحورا ما خاضها أحد بعد عبد القار الجيلي.

وأخبرني أيضا بعض الثقات ممن نقل عن الأكابر أن الطالب أبا بكر جد شيخنا لأمه صحب من أولياء الله ثلاثة أولهم الطالب جد بن نختير والثاني سيد عبد الله بن عبد الرزاق الكناني والثالث الشيخ سيد المختار بن أحمد بن أبي بكر وكل واحد من هؤلاء يقول له: ألا أخبرك ببشارة عظيمة فيقول له: نعم، فيقول كل منهم له: ستخرج من صلبك ابنة ولية من أولياء الله تعالى وتلك الولية ستلد وليا هو قطب زمانه وفريد عصره وأوانه.

وأخبرني أيضا الثقات الناقلون عن أبيه مامين أنه كان في شبابه قد سافر إلى أرض الساحل فوجد بها وليا مشهورا فقال له ذلك الولي امكث معي سنة أبشرك ببشارة لا تقاومها بشارة تصريحا فمكث معه تلك السنة فلما تمت قال له ارتحل لأهلك وستلد وليا يكون قطب زمانه وفريد أقرانه.

وأخبرني أيضا من أثق به أن شيخنا مدة رضاعه ركب الشيخ المختار بن أحمد بن عثمان حتى نزل بال الطالب المختار ولح أن يأتي ليزوره فلما أتاه أخذ بأذنه وعلمه أسماء من أسماء الله تعالى سرا بينه وبينه ثم قال جهرا: هذا الاسم أعطيتك لتجعلني من جملة أشياخك فكلمه بعض الحاضرين في ذلك وقال هو صغير فقال الشيخ إنه لقطب دهره وفريد عصره وإنه لأوعى لكلامي هذا منكم وكثيرا ما أسمع شيخنا حفظه

الله ورعاه يحكي هذه الحكاية ويقول إن ذلك الاسم لمعي الآن ومعني عدده كما قال الشيخ.

وأخبرني أيضا من أثق به أنه نقل عن يوثق به أن الولي الذي أهدى الطالب ابراهيم بن الطالب عبد الله لما أتاه مامين ليزوره قال له: إيتني بابنك فلان يعني شيخنا لأزوره فإني كنت أسأل الله أن لا يقبضني حتى ألقاه فأزوره فإني أخبرت أنه وسيلة العباد إلى ربهم، وأن من تشفع به إلى الله نال الأمان والمني فإنه ما على الأرض في زمنه مثله وأمثال هذه الحكايات من جميع الروايات المروية عن أولياء الله تعالى السادات إذا تتبعتها احتجت إلى مجلدات عظام ومصنفات جسام، ولكن في هذا كفاية لمن يستكفي بالحق، لأن هذا خبر جم غفير من أولياء الله تعالى يستحيل تواطؤهم على الكذب، ويجب تصديق خبره لو لم يكن من أولياء الله تعالى لأن خبر التواتر حجة شرعية يجب الرجوع إليه في كل حكم شرعي أو عقلي أو عادي.

وأما أولياء الله تعالى فيجب تصديقهم في كل ما أخبروا به مما تحتمله العقول والتسليم لهم فيما لا تحتمله من غير طعن ولا تكذيب، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: الولي في قومه كالنبي في امته، كما رأيت في نزهة الراوي وبغية الحاوي وقال اليدالي في الذهب الإبريز عند قوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾. فائدة يؤخذ من هذه الآية أنه لا يجوز لك الإنكار على الأولياء بما جاوز حد قصورك ولم يصل إليه فهمك ولم يبلغه علمك قال الثعالبي: ففي ذلك هلك المتشدقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلم المعقول والمنقول والجهل خير من علم يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور نعوذ بالله.

وفي كتاب الجواهر للشعراني قال شيخ الإسلام المخزومي: لا يجوز لعالم أن ينكر على صوفي إلا إن سلك طريقهم ورآهم خالفوا السنة ولا يسوغ له الإنكار عليهم حتى يعرف سبعين أمرا منها معرفة اصطلاحهم في التجلي الذاتي والصورى وما هو الذات وذات الذات ومعرفة حضرات الأسماء والصفات والفرق بين الحضرات والفرق بين الأحدية والواحدية ومعرفة سر الظهور والباطون والأزل والأبد وعالم الغيب، والكون والشهادة والشوق وعلم الماهية والهوية والسكر والمحبة ومن هو الصادق في السكر حتى يسامح، والكاذب حتى يؤاخذ، وغير ذلك.

وقيل لم يحارب الله عاصيا إلا المنكر على الأولياء، ويخشى على من حارب الله سوء الخاتمة، إذ لا يحارب إلا كافرا أو آكل الربا لقوله تعالى: ﴿وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ وأما الآخر فلحديث: «من أذى لي وليا فقد أذنته بالمحاربة» وزيد في رواية: وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الأسد الحرد، وقال سيدي زروق اعلم أن الاعتقاد أصل كل خير والانتقاد أصل كل شر، وقال المقرئ: الاعتقاد ولاية والانتقاد جنائية، فإن عرفت فاتبع وإن جهلت فسلم.

وفي كتاب الإرشاد للشيخ سيد المختار قال الجنيد رحمه الله: ما رأينا من ينكر على الأولياء إلا حكمنا بكفره، لأنه إما كافر الآن كفرا يظهره أو يستبطنه أو يقول أمره إلى الكفر لأن المنكر عليهم لا يخلو من سوء الخاتمة ولا يسلم منها أبدا والعياذ بالله. فإذا تأملت هذا وفهمته علمت انفراده بالقطبانية واتحاده فيها لأمرين أحدهما أن خبر التواتر حجة قطعية بإجماع الأمة، قال فيه صاحب المراقي كغيره من الأصوليين:

واقطع بصدق خبر التواتر وسو بين مسلم وكافر
واللفظ والمعنى وذاك خبر من عادة كذبهم منحظر
عن غير معقول وواجب العدد من غير تحديد على ما يعتمد
والثاني أن خبر الأولياء ولو لم يكن متواترا يجب تصديقهم فيه، وأحرى إن أخبروا بما لا مجال لغيرهم فيه مما أوجب الشرع وجوده أعني تخصيص أحدهم بالغوثة الباطنة التي يعبرون عنها بالقطبانية وليس يتعرض لهم بمقتضى عقله الفاتر ودليله القاصر إلا محجوب عن الأمور الغيبية مطرود عن الحضرة القدسية، فقد ثبت وصح عن كثير منهم أنه لا ينكر عليهم إلا مطرود كما أعطاهم الله مبعود من رحمة الله حظه من كتاب الله: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾.

قال الولي العارف بالله ابن عربي في كتاب الفتوحات: فأقل درجات الطريق التسليم فيما لا تعلمه وأعلها القطع بصدقه وما عدا هذين المقامين فحرمان والمتصف به مجروح، قال الإمام العارف بالله تعالى أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه لخديمه الإمام يعزه أبو موسى الديلي في وصية أوصاه بها: يا أبا موسى: إذا لقيت مؤمنا

بكلام أهل هذه الطريقة قل له: يدعو لك فإنه حجاب الدعوة، وقال رويم: من قعد مع الصوفية وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه، وقال الغزالي رحمه الله: لا ينكر على الصوفية إلا من حظه الحرمان وعقوبته سوء الخاتمة وإلى ذلك يشير شيخنا متعنا الله ببقائه معافى حيث يقول في تأليفه المسمى بكشف الحجاب:

فهذه طريقة مبادها تطهير القلب ومنتهاها
أن يفنى الجميع منه بالدوام في الله عنك ثم سائر الأنام
لأهلها نور جميل فضلوا ما لا يكاد تحت حصر يدخل
صاحبهم سعد بالمجالسه بغيضهم شقي بالمخالسه
ومنكر عليهم فدعه فسوء خاتمة قد يحطه
وأیضا العیان أقوى الأدلة فوالله لقد شاهدنا فيه عيانا جميع ما ذكره الأقدمون من صفات القطب.

فصل فإذا كان الأمر هكذا فلا بد إن شاء الله تعالى أن أبين لك ما بدا في كتب المحققين من صفات القطب.

قال ابن العربي في كتاب الفتوحات: وذلك أنه قائم بالله في جمعيته نافذ الهمة مؤثر في الوجود.

تقييد لكن على الميزان المعلوم عند أهل الله مجهول النعت والصفة عند الغير من جميع العالم من بشر وجن وملك وحيوان، لا يعرف فيجد ولا يفارق العادة فيميز، حامل الذكر مستور الحال عام الشفقة على عباد الله، يرحم من أمر برحمته حتى يجعل له خصوص وصف عارف بإرادة الحق في عبادته قبل وقوع المراد، فيريد بإرادة الحق لا ينازع ولا يقاوم ولا يقع في الوجود ما لا يريده، شديد في لين، يعلم مكارم الأخلاق من سفسافها فينزلها منازلها مع أهلها، تنزّل حكيم بريء ممن تبرأ الله منه، محسن إليه مع البراءة منه، مصدق مؤمن هدى الله من غوائله، شاهد تسببه المخلوقات على تنوعات أنكارها، لا يظهر إلا لعارف مثله، إذا تجلى له الحق يقول: أنا هو لقوة التشبيه في عموم الصفات الكونية والإلهية، إذا قال بسم الله كان عن

قوله ذلك كلما قصده بهمته لا يقول كن أدبا مع الله يعطي المواطن حقها كبير بحق صغير لحق متوسع مع حق جامع لهذه الصفات في حال واحد خير بالمقايير والأوزان يتأنت مع الإناث لتغيير الأحوال يسـتر مقامه بحاله وحالة مقامه فيجهله أصحاب الأحوال بمقامه ويجهله أصحاب المقام بحاله له عنف على شهوته، إذا لم يزوجه الحق يبذل لك لا له عطاؤه، غير معلوم، لا يؤاخذ الجاهل بجهله، فإن جهله له وجه في العلم لا يشعر المعطي من غيره عندما يعطيه يعرفه أن ذلك أمانة عنده أمر بإيصالها إليه، يفتح مغاليق الأمور المشكلة بالنور المبين، يأكل من فوقه، ومن تحت رجليه، يضم القلوب إليه إذا شاء من حيث لا تشعر يملك أزمة الأمور وتملكه بما فيها من وجه الحق لا غير، ينظر إلى العلو فينسى سفل بنظره وينظر إلى السفل فيعلو ويرتفع بنظرة، يحجر الواسع ويوسع المحجور ويسمع كل مسموع منه لا من حيثية ذلك المسموع، ويبصر كل مبصر لا من حيثية ذلك المبصر، يقضي بين الخصمين بما يرضي الخصمين فيحكم لكل واحد لا عليه مع تناقض الأمر، يميل إلى غير طريقه في طريقه لحكمة الوقت، الأمور كلها عنده ذوقية لا خبرية يعرف ربه من نفسه كما علم الحق العالم من علمه بنفسه لا يؤاخذ بالجريمة عظمته في ذله وصغاره، لا ينتقل عن ذلته في موطن عظمته دنيا وآخره هو في عمله بحسب علمه إن اقتضى العمل عمل وإن اقتضى أن لا عمل لم يعمل، عنده خزائن الأمور، بحكمه ومفاتيحها بيده، ينزل بقدر ما يشاء ويخرج ما يشاء من غير إشعار غواص في دقائق الفهوم عن ورود الصلوات له نعوت الكمال يدبر أمور الكون بينه وبين ربه كالمشير العالم الناصح في الخدمة القائم بالحرمة لا أبنية لستره لا ينحل عند السؤال ينظر في الآثار الإلهية الكائنة في الكون لتقابلها بما عنده يسمع نداء الحق من أسنة الخلق، يسمع الأشياء ولا يسمعه سوى ربه، فهو آيته وعينه مرتب للأوامر الإلهية الواردة في الكون، ثابت في وقت التزلزل لا تزلزله الحادثات ليست في الحضرة الإلهية صفة لا يراها في نفسه، يظهر في أي صورة شاء إن شاء بصفة الحياة مع الوقوف عند المحدود، يعرف حقه من حق خالقه، يتعرف في الأشياء بالاستخلاف ويصرف الحق فيها بالاستحقاق له الاقتدار الإلهي من غير مغالبة لا تنفذ فيه همم الرجال ولا يتوجه للحق عليه حق يتولى الأمور بنفسه لا بربه لأنه لا يرى نفسه لغلبة ربه عليه تعود

عليه صفات التنزيه مع وجود التشبيه، فهو وحيد في الكون غير معروف العين من الجأ إليه خسر ولا تقضى حاجته إلا به فإنه ظاهر في صورة العجز، وقدرته من وراء ذلك العجز، لا يمتنع عن قدرته ممكن كما لا يمتنع من قدرة خالقه محال، فهو وإن تأخر بظاهره متقدم بباطنه ليجمع بين الأول والآخر والظاهر والباطن، يحسن على المسيء والمحسن يرجع إلى الله في كل أمر ولا ينتقم لنفسه ولا لربه إلا بأمره الخاص فإن لم يأمره عفا بحق لشهوده السابقة في الحال القليل عنده كثير، والكبير عنده قليل، يجري مع المصالح فيكون الحق له ملكا يسبح أسماء الله عن أن تتألم أيدي الغافلين غيرة على الجناح الإلهي من حيث كونها دلائل عليه دلالة الاسم على المسمى، إن ولي منصبا يعطي العلو لم ير فيه متعاليا بالله وأحرى بنفسه، يعدل في الحكم ولا يتصف بالظلم جامع علوم الشرع من غير الجمع مستغن عن تعليم المخلوقين بتعليم الحق يعطي ما تحصل به المنفعة ولا يعطي ما تحصل به المضرة، إن عاقب فتطهير لا تبقى مع نور عدله ظلمة جور، ولا مع نور علمه ظلمة جهل، يبين عن الأمور بلسان إلهي فيكشف غامضها ويجليها في منصتها يرث ولا يورث بالنبوة العامة له البقاء في التلوين، يتصرف ويعمل ما ينبغي فيؤذى فيحلم عن مقدرة، وإذا أخذ فبطشه شديد لأنه خالص غير مشوب برحمة كما قال أبو يزيد: بطشي أشد من بطش الله. انتهى منه.

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي في كتابه المسمى بالإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل ما نصه: اعلم حفظك الله أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه الأفلاك الوجودية من أولها إلى آخرها وهو واحد مذ كان الوجود إلى الأبدين ثم له تنوع آخر فاسمه الأصل محمد.

قلت: وذلك بمعنى أن القطب لا بد أن يتحقق بالحقائق المحمدية كلها، ويتخلق بالأخلاق التي لأجلها سمى الله تعالى محمدا محمدا، ثم قال: وكنيته أبو القاسم، وذلك بمعنى أن الله تعالى قسم المقسومات من كل المقدرات على يديه بأن جعله المتولي لقسمة ذلك على حسب الإرادة الأزلية ثم قال: ووصفه عبد الله أي بمعنى أنه المتحقق بحقائق العبودية المتأدب بآدابها وأن حظه من أسماء الله إذ هو الجامع لحقائق معاني الأسماء والصفات، ومظهر جميع التجليات، فما من اسم من أسمائه

تعالى إلا ومعناه في قولنا الله، وما من وصف إلا تحته كذلك، ومعنى كونه حظه هذا الاسم الشريف أنه لا يتقيد بتجل عن تجل، وا يحجبه نعت عن نعت، يشهد الجلال والجمال معا، لا يحجبه أحدهما عن الآخر، ولا يحجبه أولية عن الأخرية، ولا يستره الظهور عن البطون، ينكشف له الفضل والعدل معا، فيعطي كلا منهما حقه تجمعت له الأضداد في الأسماء والصفات، كما تجمعت معانيها في الاسم الشريف، وتجمع هو الأضداد بحسب قوته على التصرف الكوني وبحسب وصفه الطبيعي وكما أن الأسماء والصفات مجموعة تحت ذلك الاسم الشريف كذلك كل العوالم مجموعة تحت حيطه تصرف القطب، ثم قال: ولقبه شمس الدين وذلك بمعنى أنه الضياء الذي أدركت البصائر به الدين من إيمان وإسلام وإحسان، كما أن الشمس تدرك بها المحسوسات بواسطة الإبصار ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور، ثم قال: واعلم بأن الإنسان الكامل الذي هو القطب الوجدانية مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه، فيقابل الحقائق العلوية بلطائفه، ويقابل الحقائق السفلية بكثائفه، ويقابل العرش بقلبه، قال p: قلب المؤمن عرش الرحمن، وأطال الكلام في هذا حتى ما ترك جنسا من أجناس العالم علويا ولا سفليا إلا وقابله بحقيقة من حقائق القطب، ومعنى تلك المقابلة أنه ما في الكون ذرة علوية ولا سفلية إلا وتقابلها مادة تجري عليها كجارية الماء على الحوض لا تتقطع عنها تلك المادة إلا ويبست وهلكت، يشير إلى ذلك الخبر الوارد بأن جميع المخلوقات من نور محمد p، وهذا الإنسان أعني القطب هو محمد الكائنات في كل زمان فافهم.

ثم قال: واعلم أن لهذا الإنسان الكامل ثلاث برازخ وبعدها المقام المسمى بالختام: البرزخ الأول يسمى بالبداية وهو التحقيق بالأسماء والصفات.

البرزخ الثاني يسمى بالتوسط وهو فك الرقاب الإنسانية بالحقائق الرحمينية، فإذا استوى في هذا المشهد اطلع على سائر المكتنمات واطلع على ما شاء من المغيبات.

البرزخ الثالث هو معرفة التنوعات الحكيمة في اختراع الأمور القدرية لا يزال الحق يخرق له العادات بها في ملكوت القدرة حتى يصير له خرق العوائد عادة في ملك الحكمة فحينئذ يؤذن له بإبراز القدرة في ظاهر الأكوان، فإذا تمكن من هذا البرزخ

حل في المقام المسمى بالختم الوصوف بالجلال والإكرام، وليس ذلك هو إلا الكبرياء التام وهي النهاية التي لا تترك لها غاية.

قال شيخنا حفظه الله تعالى في تأليفه المسمى بدر التم فإذا ترقى إلى الرتبة السابعة التي هي عبارة عن ظهور العبد في تنوعات الأسماء والصفات، فيصير في جوار الله تعالى وقربه، بحيث لا يستقصى عليه شيء مما يطلبه فعلم ما تشوق لعلمه وفعل ما أراد حدوثه في العالم مثلا كإبراء العلل والأمراض ومشيه على الهواء وقدرته على التصور بكل صورة وهذه الرتبة تسمى بالوسيلة لأن الواصل إليها وسيلة القلوب إلى السلوك على التحقيق بالحقائق الإلهية ويسمى أول مقامها بالخلة لتخل آثار الحق وجود صاحبها والانتفاء أول مقامها ابتداء مقام الحب الذاتي الذي هو عبارة عن التعشق الاتحادي بحيث يصير كل من العاشق والمعشوق نيابة عن الآخر قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ﴿وَمَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ وقال ρ لأبي سعيد الخراز لما رآه في النوم فقال له: يا رسول الله اعذرني فإن محبة الله شغلتنني عن محبتك قال له: يا مبارك إن محبة الله هي عين محبتي وآخر مقام الحب الذاتي هو أو مقام الختم الذي هو اسم لنهاية هذه الرتبة التي نهايتها لا نهاية لها، لأن الله تعالى لا نهاية له، لكن اسم الختم منسحب من أول هذه الرتبة وإنما اختص صاحب آخر الحب لذهابه في الرتبة إلى حيث لا يتقدمه أحد فيها ومن ابتدائه في هذه الرتبة اختص باسم المقرب ويسمى بالعبد لاتصافه بالعبودية والعبودية رجوع العبد في الرتبة الإلهية بالله إلى الحضرة الخلقية يرجع إليها صاحب الخلة وصاحب الحب وصاحب الختم فتوبته إلى الله تعالى في هذه الرتبة من الدخول تحت حكم الحال فلا تملكه الأحوال بل يتمكن في كل تلوين وإنابته رجوعه عن الأسماء والصفات إلى الذات كما أن زهده في البقاء معها بل مستغرق في شهود الوجود المطلق لا يلتفت إلى اسم ولا صفة وتوكله عدم انبساطه بعد التمكين في البساط وتفويضه عدم جزمه مما اطلع عليه مما جرى به القلم في المخلوقات فلا يتصرف في الوجود بشيء بل مفوض إلى الحق تعالى يتصرف في ملكه كيف شاء ويعامل الخلق بما يعامل بعضهم بعضا، كائن معهم كأحدهم وبائن عنهم في حضرة القرب الإلهي، رضاه لا يكون إلا برضى القرآن يغضب بغضبه ويرضى برضاه لأنه

صار في الإرث المحمدي، قالت عائشة رضي الله عنها كان p خلقه القرآن يغضب بغضبه ويرضى برضاه وإخلاصه التبر من بقايا التكوين تحت ظهور آثار التمكين، قال اليدالي في الذهب الإبريز: قيل إن قطب الأولياء في كل زمن لا يكون إلا من آل بيت النبي p .

وقال الشعراني في كتاب اليواقيت والجواهر ما نصه: قال محيي الدين بن العربي لا يتمكن القطب أن يكون في القطبانية إلا بعد أن يحصل معاني الحروف في أوائل السور مثل الم المص ونحوها، فإذا أوقفه الله على حقائقها صحت له الخلافة.

ومن شأن القطب أنه لا تعتريه شبهة في دينه قط، ولا يخطر له خاطر ينقص مقامه، وأنه يعطي طبيعته ما يحتاج إليه لأنه مسؤول عنها وأنه يتصرف في ماله تصرف العبد في مال سيده ومرتبته الإلحاح والشفاعة في خلاص طبيعته بخلاف أصحاب الأحوال فإن الأشياء تكون عن همهم لأنه تعالى جعل ذلك نصيبا من أحوالهم في الجنة فهم ربانيون والقطب منزه عن الأحوال لا تطوى له الأرض ولا يمشي في ماء ولا في هواء ولا تخرق له العادة إلا نادرا يوفي الطبيعة حقها على الحد المشروع له، ويوفي الروحانية حقها على الحد الإلهي، كثير النكاح راغب فيه لمجرد الشهوة كنكاح أهل الجنة، مع مزية التنازل، مشتغل بالقطب الجسماني. اهـ.

قلت: والأصل في ذلك أنه استكمل الإرث النبوي فاستكمل طبائع الأنبياء، فقد قال عليه السلام: حبيب إلي من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة، وعن ابن عباس مرفوعا: خير هذه الأمة أكثرها نساء، وفي الخبر عن سليمان عليه السلام لآتين الليلة على مائة امرأة تلد كلهن فارسا يقاتل في سبيل الله، وفي الخبر عنه p أعطيت قوة أربعين رجلا على الجماع وفيه أيضا أتاني جبريل بقدر من الجنة فأكلت منه فأعطيت قوة أربعين رجلا على الجماع، وفي رواية: فلو شئت أن آتي على نساء الدنيا كلهن لأتيت عليهن، وفي نزهة المتأمل للسيوطي أن العارف كلما كان أكمل كان إلى النكاح أميل، وكان له من صفاء مرآته فيه ما لا يكاد يدخل تحت حصر، وأما اشتغاله بالطب فلكمال الإرث أيضا، روي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت أعلم الناس بالطب فقيل لها في ذلك فقالت: لكثرة أمراض رسول الله p فتعلمت الطب من ذلك، ويروى أنها رضي الله عنها كانت مريضة

فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك واستأذنته في طببية من اليهود فأذن لها فأرسلت لها فأتتها فداوتها وكان علي كرم الله وجهه يستعمل الأدوية ويلازمها وكان ابن عمر لا يفارق التداوي والتطبيب، وقال في شأنه شيخنا رضي الله عنه وأرضاه وأطال بقاء ذكره وحمد مسعاه في تأليفه المسمى بمطية المجد:

كاملة بالله قل فسيرها
ووحدة في كثرة كذلك
ينسب للروح كروح الجسد
وحالها فللبقاء ينتمي
صفاتهما كل الذي قدمت
به الذي أولى القهار يا قهار
باطنه قد كملت سلطنته
صاحب ذا المقام ليس يفتر
فمرة بقلبه أو باللسان
أو بالرجلين واستغفاره كثير
رضاه في توجه الخلق إلى
ومن رآه ذكر الله ولا
يرضى في عين غضب ويغضب
كراهة لمستحق مظهر
باطنه ليست كراهة ترى
وسم ذا المقام بالقطبانیه
من كل وصف في مقام قدما
والشمس لما أكملت ضوء النجوم
وذلك معنى أنها لو قسمت
كذلك لو قد قسموا أوصافه
وكثرة في وحدة عالمها
محلها الإخفا من المسالك
في حالة الخفي تمثله ورد
واردها ما للنفوس قدما
من حسن الوصف للنفس قلت
يقولها مكررا سرا جهار
سكن بالله كذا حركته
عن العبادة جميعا يكثر
أو بجميع بدن وباليدان
وبالتواضع مقيما وأسير
خالقهم غضبه العكس انجلى
مستغرب ذاك على من كملا
في حالة الرضى وذاك عجب
وعكسه له بحب يظهر
فيه لخلق الله حيثما جرى
فيه وأوصاف الاوليا منطويه
كذا له واردها قد علما
صارت لهم قطبا وخذ لذا علوم
أنوارها عليهم لعممت
لكان كل آخذ مقامه

وقولهم قطب لكل بلدة يعنوه به فائقهم في الطاعة ولو لم يرد من تعظيم قدر القطب إلا تسميته بالعبد واختصاصه بذلك الاسم لكان في ذلك الكفاية، فما ذكر الله تعالى نبيه عليه السلام ولا غيره من الأنبياء في محل تعظيم إلا باسم العبد، ألا ترى قوله جل ذكره: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ وقوله: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ وقوله: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ وقال في سليمان: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ فإذا اتضح عندك ما قلت علمت قطبانيتها وعجز عن إدراك قدره إلا بالعجز عنه، روي أن الله تعالى أوحى إلى داود: يا داود مجدي، فقال: سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فأوحى الله إليه يا داود بالغت في التمجيد، وفي الخبر عن علي: الرسول على قدر المرسل فافهم.

وأما نسبه شريف القدر فهو أنه الشيخ محمد فاضل بن الشيخ محمد الأمين بن الطالب اخيار بن الطالب محمد بن اجيه المختار بن الطالب الحبيب بن الطالب اعل بن سيد محمد بن سيدي يحيى بن سيد اعل بن شمس الدين بن يحيى الكبير القللمي بن سيد محمد بن سيد عثمان بن ملاي أبي بكر بن سيدي يحيى بن ملاي عبد الرحمن بن أوران بن ملاي اتلان بن اجملان بن إبراهيم بن ملاي مسعود بن ملاي عيسى بن ملاي عثمان بن ملاي اسماعيل بن ملاي عبد الوهاب بن ملاي يوسف بن ملاي عمر بن يحيى بن عبد الله بن ملاي أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن سبط رسول الله ﷺ بن علي كرم الله وجهه هكذا رأيت بخط شيخي الشيخ محمد الفاضل وقال إنه هكذا وجد بخط آبائه، فانظر رحمك الله شرف هذا النسب الذي ما على وجه الأرض أشرف منه ولا أكمل عزا.

روي أن يزيد بن معاوية في حياة أبي معاوية كان يوماً في المسجد فأتى سيدنا ومولانا الحسين بن علي بن أبي طالب فجلس في المسجد متهيئاً للصلاة، فلما جلس جعل يزيد يفتخر ويتكبر ويقول: لنا من الفخر كذا وكذا ولنا من العز كذا وكذا، والحسين رضي الله عنه ساكت فلم يزل يزيد هكذا حتى جاء المؤذن فصعد على

المنارة وشرع في الأذان ويزيد منهما كما فيما كان عليه فلما قال المؤذن: أشهد أن محمدا رسول الله التقت الحسين رضي الله عنه إلى يزيد وقال: يا يزيد: ألك جد مثل هذا؟ فخل يزيد ولم يجد جوابا، ولم يجد معجزة يقاوم بها تلك المعجزة.

وعن مالك وابن القاسم أن بني هاشم ما تتاسلوا إلى منتهى دنياهم آل النبي وأهل بيته، قاله في الروض الخصيب، ورد في فضلهم من الأحاديث الصحاح ما ينبو عنه الحصر ولا يحصيه إنسان بالذكر ولا يكتنفه لوح الفكر من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام أحبوا الله لما يغذيكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي أخرجه الترمذي، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ دعى رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا وقال: اللهم هؤلاء أهلي، أخرجه الترمذي.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: نزلت هذه الآية وأنا جالسة على باب بيت النبي ﷺ: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ وفي البيت رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين فجللهم بكساء وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فقلت: يا رسول الله: ألسنت من أهل بيتك فقال: إلى خير أنت، أنت من أزواج النبي ﷺ أخرجه الترمذي.

الرجس النجس وكل مستقذر وقيل الإثم، وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا يمر بباب فاطمة رضي الله عنها إذا خرج إلى الصلاة قريبا من ستة أشهر فيقول: الصلاة أهل البيت، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. أخرجه الترمذي.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ بمرط مرجل أسود فجاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. أخرجه مسلم.

المرط كساء من خز أو صوف يتغطي به والمرجل الموشى المنفوش الذي فيه صور الرجال وعن يزيد بن حبان عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

ألا وإني تارك ثقلين أحدهما كتاب الله تعالى هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على الضلالة، وعترتي أهل بيتي قلنا: من أهل بيته نساؤه قال: لا وإيم الله إن المرأة تكون مع الرجل من العصر فيطلقها فترجع إلى أبيها وقومها أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده، أخرجه مسلم، سمي النبي ﷺ القرآن العزيز وأهل بيته ثقلين لأن الأخذ بهما والعمل بما يجب لهما ثقل، وقيل إن العرب تقول لكل نفيس خطي ثقل فجعلهما ثقلين إعظاما لقدرهما وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن أبا بكر رضي الله عنه كان يقول: ارقبوا محمدا في أهل بيته أخرجه البخاري. اهـ.

وقال ابن العربي في كتاب الفتوحات ولما كان رسول الله ﷺ عبدا محضا قد طهره الله وأهل بيته تطهيرا وأذهب عنهم الرجس وهو كل ما يشينهم فإن الرجس هو القدر عند العرب، هكذا حكى الفراء، قال تعالى: ﴿إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ فلا يضاف إليهم إلا مطهر ولا بد فإن المضاف إليهم هو الذي يشبههم فلا يضيفون لأنفسهم إلا من له حكم الطهارة والتقدیس فهذه شهادة من النبي ﷺ لسلمان الفارسي بالطهارة والحفظ الإلهي والعصمة حيث قال رسول الله ﷺ سلمان منا أهل البيت، وشهد اللهم لهم بالتطهير وذهاب الرجس عنهم وإذا كان لا يضاف إليهم إلا مطهر مقدس وحصلت لهم العناية الربانية الإلهية لمجرد الإضافة فما ظنك بأهل البيت في نفوسهم فهم المطهرون بل هم عين الطهارة فهذه الآية تدل على أن الله تعالى قد شرك أهل البيت مع رسول الله ﷺ في قوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وأي وسخ وقدر أقدر من الذنوب وأوسخ فطهر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالمغفرة فما هو ذنب بالنسبة إلينا لو وقع منه ﷺ لكان ذنبا في الصورة لا في المعنى لأن الذم لا يلحق به على ذلك من الله ولا منا شرعا فلو كان حكمه حكم الذنب لصحبه ما يصحب الذنب من المذمة ولم يصدق قوله: ﴿ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ فدخل أولاد فاطمة كلهم رضي الله عنهم ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسي رضي الله عنه إلى يوم القيامة في حكم هذه الآية من الغفران فهم المطهرون اختصاصا من الله وعناية بهم لشرف محمد ﷺ وعناية الله به ولا يظهر حكم هذا الشرف ولأهل البيت إلا في دار الآخرة فإنهم

يحتشرون مغفورا لهم وأما في الدنيا فمن أتى منهم حدا أقيم عليه كالتائب إذا بلغ الحاكم أمره وقد زنى أو سرق أو شرب أقيم عليه الحد مع تحقق المغفرة كما عز وأمثاله، ولا يجوز ذمه وينبغي لكل مسلم يؤمن بالله وبما أنزله أن يصدق الله تعالى في قوله: ﴿ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ فيعتقد في جميع ما يصدر من أهل البيت أن الله قد عفا عنهم فيه فلا ينبغي لمسلم أن يلحق المذمة بهم ولا ما يشأن أعراض من شهد الله بتطهيره وذهاب الرجس عنه لا بعمل عملوه ولا بخير قدموه بل سابق عناية الله بهم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

قال:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العتقاء فهي حباله واقتد بها الجوزاء فهي عنان
إلى أن قال: وبعد أن تبين لك منزلة أهل البيت عند الله وأنه لا ينبغي لمسلم أن يذمهم بما يقع منهم أصلا لأن الله طهرهم فليعلم الزام لهم أن ذلك راجع إليه ولو ظلموه فذلك الظلم هو في زعمه ظلم لا في نفس الأمر يشبه جري المقادير علينا في مالنا وأنفسنا بغرق أو بحرق أو غير ذلك من الأمور المهلكة فيحترق أو يموت له أحد أحبابه أو يصاب في نفسه وهذا كله مما لا يوافق غرضه ولا يجوز له أن يذم قدر الله ولا قضاءه بل ينبغي أن يقابل ذلك كله بالتسليم والرضى وإن نزل عن هذه الرتبة فبالصبر وإن ارتفع عن تلك الرتبة فبالشكر فإن في طي ذلك نعماء من الله لهذا المصاب وليس وراء ما ذكرناه خير فإنه ما وراءه إلا الضجر والسخط وعدم الرضى وسوء الأدب مع الله فكذا ينبغي أن يقابل المسلم جميع ما يطرأ عليه من أهل البيت في ماله ونفسه وعرضه وأهله فيقابل ذلك كله بالرضى والتسليم والصبر ولا يلحق المذمة بهم أصلا وإن توجهت عليهم الأحكام المقدره شرعا، فذلك لا يقدر في هذا بل يجري مجرى المقادير وإنما معنى تعليق الذم بهم إذا ميزهم الله عنا بما ليس لنا وأما أداء الحقوق المشروعة فهذا رسول الله ρ كان يقترض من اليهود وإذا طلبوه بحقوقهم أداها على أحسن ما يمكن وإن تطاول اليهودي عليه بالقول، قال: دعوه فإن لصاحب الحق مقالا، وقال ρ في قصة لو أن فاطمة بنت محمد سرقت قطعت يدها، فوضع

الأحكام لله يضعها كيف يشاء فهذه حقوق الله تعالى ومع هذا لم يذمهم الله وإنما كلامنا في حقوقنا وما لنا أن نطالبهم به فنحن مخيرون إن شئنا أخذنا وإن شئنا تركنا والترك أفضل عموماً فكيف في أهل البيت فإن النبي ﷺ ما طلب منا عن أمر الله إلا المودة في القربى وفيه سر صلة الأرحام ومن لم يقبل سؤال نبيه فيما سأله فيه مما هو قادر عليه فأى وجه يلقاه به أو يرجو شفاعته وهو ما أسعف نبيه ﷺ فيما طلب منه من المودة في قرابته فكيف في أهل بيته فهم أخص القرابة ثم إنه جاء بلفظ المودة وهي الثبوت على المحبة فإنه من ثبت وده في أمر استصحبه في كل حال وإذا استصحب المودة في كل حال لم يؤخذ أهل البيت بما يطراً منهم في حقه مما له أن يطالبهم به فيتزكك ترك محبة وإيثارا لنفسه لا عليها قال المحب الصادق: وكل ما يفعل المحب محبوب وجاء باسم الحب فكيف حال المودة ومن البشري وود اسم الودود لله تعالى ولا معنى لثبوتها إلا حصول أثرها بالفعل، قال بعض المحبين في هذا المعنى:

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب
أحب لحبها الحبشان طرا وأعشق لاسمها البدر المنيرا
قلت: وقد ألف السيوطي تأليفا سماه "إحياء الميت في فضائل أهل البيت" وذكر من الأحاديث الصحاح ما لا يسوغ لمريد الاختصار استجلابه ولو لم يرد فيهم إلا قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ أو قوله عز ذكره: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ لكان في ذلك الكفاية، ورأيت في شرح ابن زكري على النصيحة الكافية تصحيح هذه الأبيات وهي قوله:

والسب لا يجوز في آل النبي ولو عصوا وبدلوا في المذهب
من سب في آل رسول الله فهو عدو كافر بالله
إن مات عند الناس لا يكفن وفي قبور المشركين يدفن
ولا يصلى خلفه فرض ولا يجوز في شهادة إن نزلا
يقتل شرعا باتفاق العلما إن لم يتب من قوله ويندما

فانظر رحمك الله شرف هذا النسب وما له من الفضل عند الله تعالى تعلم لا تعريف
لقدره أيضا إلا بالعجز عنه إذ هم خلاصة المصطفى ρ وما على وجه الأرض
أشرف منهم إذ ما في الوجود أشرف من جدهم كما يشهد لذلك حديث: أنا سيد ولد
آدم ولا فخر، وحديث أنا أكرم الخلق على الله تعالى فافهم واعتبر.
وقد نجزت المقدمة والآن أشرع في الباب الأول إن شاء الله فأقول وبالله التوفيق وهو
حسبي وعليه أعتد.

الباب الأول: في ذكر سيرته المحمدية وآدابه القرآنية

اعلم وفقنا الله وإياك للصواب وأزال عنا وعنك ظلمة الجهل ورين الحجاب أن هذا الشيخ خلقه القرآن يرضى برضاه ويغضب بغضبه، فمعنى قولي: خلقه القرآن أنه متأدب بآدابه ممتثل لأوامره يحب ما يحب ويكره ما يكره، ومعنى يرضى برضى القرآن أنه يسره ويرضيه أن يرى أوامر الله تعالى تقام فيرضى على مقيمها ويخصه بالزلفى والمكانة عنده الحظية، ومعنى يغضب بغضبه أنه يغضبه ويسخطه أن يرى حرمان الله تعالى تنتهك، فكثيرا ما أراه أعز الله جانبه الكريم وأخذ له في العالمين المجد والذكر القويم يغضب على الأقارب، ويقصي الأذاني في الله ويقرب الأجانب ويحوظهم ويودهم ويدانهم في الله، فكان يحب في الله ويغضب في الله ويعطي بالله ويمنع بالله.

روي أن عائشة رضي الله عنها قيل لها كيف كان خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن يغضب بغضبه ويرضى برضاه، وكان رضي الله عنه وأرضاه ومتعنا بذكره وعافاه حسن الخلق مع الأقارب والأجانب فكان لا يواجه إنسانا بما يكره، ومن أتاه من الناس خرج من عنده يزعم أنه لا يحب غيره، ففي الخبر عن عائشة رضي الله عنها كنت مع رسول الله ﷺ فإذا هو برجل آت فتكلم فيه رسول الله ﷺ بكلام وفي رواية قال: ليس أخو القوم هو، فلما جاء واستأذن على رسول الله ﷺ أذن له فلما جلس رحب به عليه السلام، وفي رواية أظهر له البشر، وفي رواية تزحزح له عليه السلام حتى سقط رداؤه عن منكبه فلما قام الرجل قلت له: يا رسول الله لما رأيت الرجل آتيا قلت ما قلت، فلما جاء فعلت معه ما نرى، فقال عليه السلام: أيا عائشة متى عهدتني فحاشا، إن أشر الناس من يتقه الناس مخافة شره، وفي الخبر أيضا ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة، وفيه أيضا: حسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات، وسوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وفيه أيضا: ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقا الموطؤون أكنافا الذين يؤلفون ويألفون، وفي الحكم حسن الملاقاة من شيم الأبرار وعلامات الأحرار، قال الشاعر:

الق بالبشر من لقيت من النا س جميعا ولاقهم بالطلاقه
تجن منهم جني ثمار إحاء طيب طعمه لذيق المذاقه
ودع التيه والعبوس على النا س فإن العبوس رأس الحماقه
كلما شئت أن تعادي عادي ست صديقا وقد تعز الصداقه

وكان الشيخ أعز الله جانبه ومتعنا بحياته وأفاض علينا من بركاته ملازما لأول الأوقات في الصلوات، أخذا بفضيلة أول الوقت الذي عليه أفاض الصحابة والعلماء والتابعين، أخذا منه بقوله تبارك وتعالى: ﴿سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض﴾ يرى في الآية مضافا محذوفا سارعوا إلى موجبات مغفرة، ويرى ذلك أيضا في قوله: سابعوا إلى مغفرة إلخ لأن المسارعة إنما هي لأسباب المغفرة، وأخذا منه أيضا بقوله عليه الصلاة والسلام إن المصلي ليصلي الصلاة وما فاته وقتها، ولما فاته من وقتها أعظم من أهله وماله، وقوله عليه السلام: أفضل الأعمال الصلاة في أول وقتها، وقوله أيضا: ما عبد الله تعالى بشيء أفضل من الصلاة في أول وقتها، وقوله: أول وقت الصلاة رضوان الله ووسطه رحمة الله وآخره عفو الله.

هذه الأحاديث في ابن الربيع جامع الصحاح روي أنه لما قال عليه السلام هذا الحديث قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه رضوان الله أحب إلينا، ومحتجا لتلك الأفضلية بمواظبة رسول الله ﷺ على ذلك وأبي بكر وعمر والصحابة رضوان الله عليهم في سائر الصلوات وسائر الفصول في حال الغدوذية والجماعات ودرج على ذلك أهل المذاهب جيلا بعد جيل ولا سيما أهل المذهب المالكي.

وفي الذهب الإبريز عند قوله تعالى: ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ في سورة المؤمنين ولا يحافظ على الصلاة من لم يستعد أهبة قبل الزمن فكان الشيخ أعز الله جنابه الكريم ومتعنا ببقائه في أكمل عافية وأتم نعيم يصلي الظهر عندما تزول الشمس عن كبد السماء أخذا منه أحبه الله وأرضاه ومتعنا بحياته وعافاه بقوله جل وعلا: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ أي من ابتداء وقت زوالها كما في ذي الجلالين وفي الذهب الإبريز اللام للتوقيت مثلها لثلاث خلون وأصل الدلوك الانتقال ومنه ذلك فإن ذلك لا تستقر يده وأخذا منه أيضا بحديث كان ﷺ يصلي الظهر إذا كان

الظل مثل الشراك في رواية ابن عباس وعن عائشة رضي الله عنها ما رأيت رجلا كان أشد تعجيلا للظهر من رسول الله ﷺ ولا من أبي بكر ولا من عمر وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الظهر لوقتها الأخير حتى قبضه الله تعالى وعن جابر رضي الله عنه شكونا إلى رسول الله ﷺ حر الرمضاء فلم يشكنا أي فلم يزل شكوانا بمعنى أنه ما ترك تعجيله إياها وكان الشيخ أبقى الله الذكر الحسن في الآخرين ومتع بحياته الأولاد والمريدين يصلي العصر عندما تكمل القامة بغير ظل الزوال أخذنا بما روي أن رسول الله ﷺ كان يواظب على صلاتها بأول وقتها فمن ذلك ما روي عن ابن المليح قال: كنا مع بريدة في غزاة في يوم ذي غيم فقال: بكروا بصلاة العصر فإن النبي ﷺ قال: من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله، أخرجه البخاري والنسائي ومعنى بكروا بادروا إليها في أول وقتها ومعنى حبط بطل.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي العصر والشمس مرتفعة حية أي حارة فيذهب الذهاب إلى العوالي والشمس مرتفعة وبعد العوالي من المدينة على أربعة أميال أخرجه الستة إلا الترمذي، وفي رواية إلى قباء، وفي أخرى قال سعد بن سهل ابن حنيف صلينا مع عمر بن عبد العزيز الظهر ثم خرجنا حتى دخلنا على أنس بن مالك فوجدناه يصلي العصر فقلت له: ما هذه الصلاة التي صليت؟ قال: العصر وهذه صلاة رسول الله ﷺ التي كنا نصلي معه وفي أخرى صلى بنا رسول الله ﷺ العصر فلما انصرف أتاه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله إنا نريد أن ننحر جزورا وإنا نحب أن نحضرها قال: نعم فانطلق فانطلقنا معه فوجدنا الجزير لم تنحر فحرت ثم قطعت ثم طبخ منها ثم أكلنا قبل أن تغيب الشمس وكان الشيخ رضي الله عنه وأعاد علينا من نفحات بركاته يصلي المغرب عند غيبوبة الشمس أعني عندما يغيب جرمها وقرصها المستدير لما روى الترمذي أن جبريل صلى بالنبي عليهما السلام المغرب لوقت واحد دون غيرها من الصلاة، ولحديث رافع بن خديج رضي الله عنه قال: كنا نصلي المغرب مع رسول الله ﷺ فينصرف أحدنا وإنه ليبصر مواقع نبهه، أخرجه الشيخان والنسائي وفي رواية عن رجل من أسلم من أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يصلون مع النبي ﷺ المغرب ثم يرجعون إلى أهلهم بأقصى المدينة يرمون ويبصرون مواقع سهامهم وكان الشيخ رحمه الله وحمد أمره ومسعاه يصلي

العشاء الأخيرة عندما يغيب الشفق وربما تأخر بعد غيبوبته بقليل وأعني بالعشاء الشفق الذي يصلي الشيخ عند غيبوبته الشفق الأوسط الذي بغيبوبته يظهر الظل في القمر وتشتبك أنوار الكواكب ليالي الظلمة ويتقدمه الشفق الأول الذي يعتمد المالكية غيبوبته في دخول الوقت لقول ابن أبي زيد: والشفق الحمرة الباقية في المغرب من بقايا شعاع الشمس قال الرباني على الرسالة: وهو ما يرى من ضوئها عند غروبها كالقضبان جمع قضيب وقوله: فإذا لم يبق في المغرب صفرة ولا حمرة فقد وجب الوقت أي وقت العشاء قلت: ويعني بالحمرة والصفرة الباقيتين من بقايا شعاع الشمس لأن المطلق يحمل على المقيد باتفاق العلماء كحمل الرقبة في الظهر على الرقبة في القتل فإن الرقبة في القتل قيدت بالإيمان ولم تقيد به في الظهر لكن جزم العلماء بأن لا يجزئ في الظهر إلا مؤمنة حملا للمطلق على المقيد، ولا تعتبر الحمرة الباقية بعد حمرة الشفق لأن أول ظهورها مقتل سيدنا ومولانا الحسين بن علي كرم الله وجهه، قال ابن حجر في أسنى المطالب: ولفظه أول ظهور الحمرة في السماء، ومثله في تاريخ الخلفاء وإلى ذلك يشير ابن أبي زيد حيث قال في تعيين الشفق الحمرة الباقية في المغرب لأن المغرب وزنه مفعول وإنما تختص تلك الزنة بالمحل أي محل الغروب فيكون معنى كلامه والشفق الحمرة الباقية في محل الغروب لا التي في ناحية المغرب لأنها حادثة وليس انتظارها من الدين في شيء إلا على وجه الإباحة، وأما على وجه الفريضة فلا لأن الله تعالى قد أكمل الدين في حجة الوداع بنزول قوله جل ذكره اليوم أكملت لكم دينكم وفي السنهوري عند قول المصنف يقدر بفعالها بعد شروطها وفي الموطأ أن النبي ρ قرأ في المغرب بالطور والمرسلات وهذا مما يقوي القول في امتداد مختارها إلى مغيب الشفق فإنه لا يجوز تطويل القراءة إلى ما بعد الشفق إجماعاً ويجوز ما دام الشفق، فلو لم يكن ذلك وقتاً لها في الاختيار لما جاز كما بعد الشفق ومقتضاه أنه لا يجوز التطويل في قراءة غيرها من الصلوات حتى يخرج وقتها المختار. انتهى منه هناك حرفاً بحرف.

وفيه أيضاً عند قوله: وللعشاء وسميت بذلك لوقوعها في وقت العشاء وهو بكسر العين ممدوداً أول الظلام من المغرب وسميت بذلك لاشتقاقها من العشاء وهو ضعف البصر لوجود ذلك حينئذ. اهـ منه أيضاً ببعض حذف ويتأخر عن هذين الشفقين

الشفق الأبيض الذي تخالطه الآن الحمرة الطارئة ولم يعتبره اليوم من أهل المذاهب بالحرم إلا الأحناف كما أخبرني بذلك الشيخ ماء العينين وقد ورد في تعجيل صلاة العشاء من الأحاديث قوله عليه السلام: الشفق الحمرة فإذا غاب وجبت الصلاة، رواه الدارقطني، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: لم يؤخر النبي ﷺ العشاء إلا تسع ليال ثم عجل به إلى أن قبض كما في كشف الغمة عن جميع الأمة وقوله عليه السلام لا تؤخر صلاة العشاء ولا غيرها، أخرجه أبو داود وكان الشيخ رضي الله عنه وأفاض علينا من بركاته الجزيلة الضافية يصلي الصبح في أكثر أحواله عند أول ما يبرق بارق الفجر أخذاً منه بعمل المصطفى ﷺ لما روى في كتاب كشف الغمة أن النبي ﷺ كان يصلي الصبح في أكثر أحواله وقائل يقول طلع الفجر وقائل يقول لم يطلع، وأخذ بهذا الحديث كافة العلماء أعني مالكا والشافعي وأحمد وسفيان وغيرهم واختار أبو حنيفة الإسفار بها مستندا لقوله عليه السلام: أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر، وتأول الأكثر هذا الحديث بأن الخطاب فيه للأئمة ومعنى الإسفار به عندهم التأخير قليلا حتى يتضح لبعض الجماعة مع الإمام، مستدلين على صحة تأويلهم بفعله عليه السلام فإنه كان أكثر صلاته له حيث يراه البعض وينكره البعض لا أنه يؤخره حتى يتضح للكل إذ لو كانت هنالك مزية لبادر إليها عليه السلام إذ هو أرغب الناس فيما يقرب إلى الله تعالى، ومحتجا أيضا بحديث عائشة: كن نساء المؤمنات يشهد مع رسول الله ﷺ الفجر متلفعات بمروطهن ثم ينقلبن إلى بيوتهن لا يعرفهن أحد من الغلس أخرجه الستة والتلفع الالتحاف والتغطي، والمروط الأكسية التي فيها الأعلام، والغلس ظلمة آخر الليل قبل طلوع الفجر، وأول طلوعه وفي رواية النسائي عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ حين صلى به جبريل عليه السلام ليعلمه مواقيت الصلاة صلى به الصبح في اليومين لوقتتهما الأول ولم يؤخرها، وكان الشيخ رضي الله عنه وأفاض علينا جزيل بركاته قراءته في صلاته فصل مرتلة يقف في الفاتحة سبع وقفات، الأولى عند قوله: رب العالمين، والثانية عند قوله الرحمن الرحيم، والثالثة عند قوله مالك يوم الدين، والرابعة عند قوله: وإياك نستعين، والخامسة عند قوله اهدنا الصراط المستقيم، والسادسة عند قوله أنعم عليهم، والسابعة عند قوله: ولا الضالين، وكان يقف عند منتهى كل آية في السورة وهذا منه حرصا على السنة

فقد قال الهيثمي: صح أنه p وقف على راس كل آية وإن كان متعلقا بما بعده فبان أن قول بعض القراء الوقف على ما ينفصل فيه الكلام أولى غفلة عن السنة وأن اتباعه p أولى. اهـ.

والأولى أن يقال: ما قاله القراء محمول على ما لم يعلم فيه وقف النبي p فهذا الوقف فيه أولى. اهـ وإنما استحب الوقف عند رؤوس الآي لأنهن مقاطع وأكثر ما يوجد التمام فيهن ولأنهن في القرآن كالفرق في النثر، والقوافي في الشعر، ولما روي أنه p كان يقف عند رؤوس الآي، ويقول أحب ذلك. اهـ من الذهب.

وقال ابن جزى رعي المعنى والإعراب في الوقف استقر عليه العمل وأخذ به الشيوخ المقرئون وكان الأوائل يراعون رؤوس الآي لأنها كالفرق والقوافي. اهـ.

وفي ابن جزى أيضا أنه p كان يقف عند رب العالمين، و عند قوله: الرحمن الرحيم، وعند قوله: ملك يوم الدين، كما هي عادة الشيخ رضي الله عنه.

وكان الشيخ رضي الله عنه إذا أحرم في الصلاة يسمع لصدده أزيز كأزيز المرجل من شدة الخشوع، فو الله لا يكاد يسمع قراءته بر ولا فاجر إلا خشع وارتعد قلبه، وإن قراءته مع ذلك لفي أبين البيان حتى لو شاء العاد لعد حروفها، فو الله لا يسمع أحد قراءته إلا تذكر ما روي أن رسول الله p كانت قراءته المد ليس فيها ترجيع أخرجه الخطيب عن أبي بكرة وكذلك ما روي أنه كان إذا أحرم في الصلاة يسمع لصدده أزيز كأزيز المرجل وكذلك أبو بكر وعمر وكان الشيخ رضي الله عنه أوجز الناس صلاة مع التمام في الأركان أخذا بالسنة لما روي أنه عليه السلام قال: من صلى بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم وذا الحاجة.

وفي الخبر أيضا كان عليه السلام أوجز الناس صلاة إذا صلى بالناس وأتمها إذا صلى لنفسه وكان الشيخ رضي الله عنه كثيرا ما يقرأ في صلاته سورة قريش وسورة الفلق، ويلازمها فيها وذلك لما روي من حديث عقبة بن عامر عن النبي p أنه قال: ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قل أعوذ برب الفلق قل أعوذ برب الناس رواه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود ولفظه: قال كنت أقود برسول الله p في السفر، فقال: يا عقبة: ألا أعلمك خير سورتين قراءة فعلمني قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، فذكر الحديث، وفي رواية لأبي داود قال: بينما أنا أسير مع رسول الله

ρ بين الجحفة والأبواء إذ غشيتنا ريح وظلمة شديدة فجعل رسول الله ρ يتعوذ بأعوذ برب الفلق وأعوذ برب الناس ويقول: يا عقبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما قال: وسمعتة يوما قرأ بها في الصلاة.

ورواه ابن حبان في صحيحه ولفظه قلت: يا رسول الله أقرئني آيا من سورة هود وآيا من سورة يوسف فقال النبي ρ يا عقبة بن عامر إنك لن تقرأ سورة أحب إلى الله ولا أبلغ عنده من أن تقرأ قل أعوذ برب الفلق فإن استطعت أن لا تفوتك في الصلاة فافعل رواه الحاكم أيضا بنحو هذه الرواية.

وأما سورة قريش فقد رأيت في بعض الروايات أنها لا يطالع الله على خاصيتها إلا خاصته من خلقه ولا يقدر على ملازمتها في كل الأمور إلا ولي مقرب، ورأيت في كتاب الجواهر والدرر أن بعض المريدين قال لشيخه: أرني القطب، فقال له شيخه إنك لا تقدر على رؤيته فلم يزل المريد بشيخه حتى أخذ ليلة وسار به إلى مكة المشرفة وجلس به قريبا من البيت حتى ورد الأولياء البيت والشيخ جالس ومريده إلى جنبه، فلما دنا منهم القطب انحنأت رقبة المريد حتى لم يستطع أن يرفع رأسه فأتاه القطب وجلس بإزاء الشيخ فلما جلس قرأ سورة قريش وتحدث مع الشيخ مليا ولما أراد القيام قرأها أيضا ثم قام، وقال للشيخ احتفظ بمريدك هذا سيد عثمان فسيكون له شأن، قال المريد: فقلت إن هذه السورة لها شأن عظيم اختص الله بها أقطاب أوليائه فما تركتها بعد ذلك اليوم في قيام ولا قعود. اهـ.

وفي شرح العياشي على الوظيفة الزروقية إن من أراد دخول بلدة وقرأ لإيلاف قريش ثلاثا لم يزل طاعما آمنا ثم قال: ولعل أسلافنا من هذا ومن الأثر أخذوا قراءة هذه السورة وتكريرها عند ابتداء قراءة الحزب يواظبون على ذلك.

ورأيت أيضا في بعض شروح ابن عاشر أنه ما داوم أحد على قراءة قل أعوذ برب الفلق في الصلاة وزنى قط ولا داوم على قراءة سورة قريش فيها إلا ودام آمنا معافى كثيرا خير بيته. اهـ

وأما ملازمة سورة واحدة أو سورتين في الصلاة ففي السنة ما يدل على عدم كراهتها وإن كرهها أحد فيمن غير دليل شرعي بل استنباط بمجرد عقله ومجازفة على الشارع، ففي الخبر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في

مسجد قباء فكان كلما افتتح بسورة يقرأ لهم بها في الصلاة افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم يقرأ سورة أخرى معها فكان يصنع ذلك في كل ركعة فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تستفتح بهذه السورة ثم ترى أنها لا تجزئك حتى تقرأ بأخرى فإما أن تقرأ بها وحدها وإما أن تدعها فقال: ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أوكمم بذلك فعلت وإن كرهتم تركتكم وكانوا يرونه من أفضلهم فكرهوا أن يؤمهم غيره فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر فقال: يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ويحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة، فقال إني أحبها فقال: حبك إياها أدخلك الجنة. أخرجه مسلم والبخاري بهذا اللفظ.

فإذا تأملت ألفاظ الحديث علمت أن أهل قباء إنما يكرهون من صاحبهم قراءة سورة معها بدليل قولهم إنك تستفتح بهذه السورة ثم ترى أنها لا تجزئك حتى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها وحدها وإما أن تدعها، وعلمت أيضا أن رسول الله ﷺ لم ينكر على أهل قباء ولا على إمامهم فعلم بذلك جواز ملازمة سورة واحدة في الصلاة منفردة أو معها غيرها.

وفي الخبر عن بعض التابعين ممن صاهر عثمان قال: ما حفظت سورة يوسف إلا من كثرة قراءة عثمان لها في صلاة الصبح كما في الحميدي جامع الصحيحين، وعنه ﷺ أنه كانت تعجبه القراءة بسبح اسم ربك الأعلى.

وكان الشيخ رضي الله عنه وأفاض علينا جزيل بركاته يركع بعد طلوع الشمس بيسير وكان لا ينهى من ركع عندما تكمل الشمس في السماء لحديث: من صلى الصبح في جماعة ثم جلس يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامتين تامتين كررها ثلاثا، وفي الخبر: من صلى الصبح في جماعة وجلس في مصلاه يذكر الله حتى تطلع الشمس وصلى ركعتين كان له ثواب حجة وعمرة تامتين تامتين تامتين، أخرجه اليونسي وروى الترمذي أنه ﷺ قال: من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامتين تامتين تامتين ، إلى غير ذلك من الأحاديث، فإذا تأملت هذا علمت من مجموع هذه الأحاديث توقيته ﷺ الركوع على طلوع الشمس لا غير وأما حديث التأخير حتى ترتفع قيد رمح فهو مقيد بما إذا كان في البلد من يعبد

الأصنام كالمنافقين بدليل قوله عليه السلام فإنها تطلع على قرن الشيطان قال الفقهاء: لئلا يكون ساجدا له أو لها. اهـ.

وكان الشيخ رضي الله عنه أشبه الناس صلاة برسول الله ﷺ فإذا ركع فرج أصابعه وسوى ظهره حتى لو صب عليه ماء لاستقر وكان إذا سجد فرج يديه عن جنبه حتى لو شاء الناظر لرأى بياض إبطيه، قلت: وهذا كله مروى في كيفية صلاة رسول الله ﷺ وكان إذا سلم مسح جبينه بيمينه كما في الجامع الصغير اتباعا للسنة ففي الخبر عنه عليه السلام كان إذا سلم مسح التراب بيمينه وفيه أيضا: يميني لوجهي ويساري لما تحت إزاري، وكان رضي الله عنه يحافظ على شرائطها أتم المحافظة ويلاحظ فيها السنة أكمل الملاحظة فكان رضي الله عنه يسرع في الطهارة ويوعبها حرصا منه على السنة، ففي الخبر أن رسول الله ﷺ أتى المسجد فأقيمت الصلاة وأخذت الرجال أماكنها فتذكر أنه جنب فقال: أماكنكم فدخل بيته واغتسل ثم أتاهم ورأسه يقطر ولم يعد الإقامة لسرعة غسله وكان وضوؤه أسرع وكان الشيخ رضي الله عنه يثلث الغرفات في الوضوء للأعضاء المفترضة أخذاً منه بالأكمل ويتضمن ثلاثا ويستنشق ثلاثا ففي الخبر توضع رسول الله ﷺ بغرفة غرفة فلما فرغ قال: هذا وضوء لا تجزئ الصلاة بدونه ثم توضع بغرفتين غرفتين فلما فرغ قال هذا نور على نور، ثم توضع بثلاث ثلاث فلا فرغ قال: هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي، وفي الخبر عن عثمان رضي الله عنه أنه دعا بإناء فأفرغ على يديه فغسلهما ثلاثا ثم أدخل يمينه في الإناء فتمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثا وغسل يديه ثلاثا إلى المرفقين ثم مسح رأسه ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين ثم قال: قال رسول الله ﷺ: من توضع نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. أخرجه البخاري.

وكان رضي الله عنه وأرضاه إذا صلى الصبح جلس في المسجد متوجه القبلة عاكفا على الأذكار لا يكلم أحدا ولا يكلمه أحد حتى تطلع الشمس ويتنفل فحينئذ يسوغ تكليمه لأهل الحاجة، وكان إذا صلى العصر جلس في بيت خلوته فلم يأتته أحد ويبقى هناك فارغا لأوراده حتى تغرب الشمس وذلك منه رضي الله عنه أخذاً بقوله تعالى: ﴿وانكسر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾ قيل: أول وقت البكرة طلوع الفجر ثم يمتد

وقتها إلى طلوع الشمس، وقيل إلى نصف النهار وقيل: إلى القيلولة وأول وقت الأصيل أول وقت العصر ويمتد وقته إلى الغروب وقيل إلى أن تتم صلاة المغرب وقيل ثلث الليل الأول وقيل إلى طلوع الفجر وأخذاً منه أيضاً بقوله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ إلى قوله: ﴿بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ وبقوله ρ فيما يرويه عن ربه احفظني يا عبدي في ساعتين أكفيك فيما بينهما وفي رواية أحفظك فيما بينهما من صلاة العصر إلى صلاة المغرب ومن صلاة الصبح إلى طلوع الشمس، وفيه: من صلى الصبح في جماعة وجلس يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس بنى الله له سبعين قصراً في الفردوس وفي رواية كان له مثل أجر حجتين تامتين تامتين تامتين، وقيل المراد بأطراف النهار في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَفِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ ما بين صلاة الصبح إلى طلوع الشمس وما بين صلاة العصر إلى صلاة المغرب، وكان يمكث فيما بين المغرب والعشاء يصلي النافلة ولا يكلم أحداً لما روي أنها صلاة الأوابين وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَابِينَ غُفُورًا﴾ فالأواب قيل الرجوع إلى طاعة الله وقيل التواب أي الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب، وقيل كثير التسبيح وقيل الذي يصلي صلاة الضحى وقيل: المصلي فيما بين المغرب والعشاء، وعليه الأكثر، وكان رضي الله عنه وأرضاه يلازم قيام الليل ولا يفارقه في كل أحواله من سفر وحضر فكان يقوم بالقرآن أكثر الليل أو كله في غالب الأحوال وما أجها من مزية ففي الخبر عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين من قبلك وقربة إلى ربكم ومنهارة عن الإثم ومطرده للداء عن الجسد، وفي الخبر أيضاً ما معناه: من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار، وورد في قراءة القرآن والقيام به من الأحاديث ما لا يدخل تحت حصر، فمن ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ρ أنه قال: ما تقرب المتقربون إلى الله تعالى بأحب من كلامه، لأنه حبله المتين ونوره المستبين وسبيله المستقيم والذكر الحكيم، من طلب الهدى من غيره ضل ومن طلب التقرب إلى الله بسواه زل، ومن طلب التعزز من غير ما جاء به ذل، فهو الذي لم تنته الجن حتى سمعته فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنوا به. أخرجه الترمذي والبيهقي والنسائي بأسانيد كلها صحاح، وكان الشيخ رضي الله عنه وأخذ

في العالمين ذكره ربما جهر بقراءته من الليل أخذاً منه بقوله عليه السلام: وإذا قام أحدكم من الليل فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته، وقال أيضاً: ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن أن يجهر به، أخرجه البخاري ومسلم وقال أيضاً: ليس منا من لم يتغن بالقرآن يريد الترجم وترديد الألحان وهذا التأويل أقرب عند أهل اللغة من تأويله بالاستغناء وعن محمد بن كعب رضي الله عنه قال: من قام بالقرآن فكأنما كلمه الله عز وجل، قال الله تعالى: وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ، وإذا كان ذلك كذلك فلا ينبغي للمؤمن أن يتخذ دراسته عملاً بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه ولذلك قال بعض المحققين، هذا القرآن رسائل أنتنا من قبل ربنا سبحانه بعهوده نتدبرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات وننفذها في الطاعات بالسنة المتبعات ومهما تمت معرفة العبد كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، ومن كتاب الصفوة للجزولي قال: كانت قراءة الفضيل حزينة شجية مرسلة كأنه يخاطب إنساناً، وإذا مر بآية فيها ذكر الجنة يرددها ويسأل، وفي كتاب البيان في علم تأويل القرآن لأبي عمرو بن عبد الله عن إبراهيم التيمي قال: قال عبد الله: من قرأ القرآن كان له بكل حرف زوجة من الحور العين، وسئل أبو هريرة رضي الله عنه أي الناس أرفع درجة في الجنة قال: حملة القرآن يجاء بحامله فيقال له اقرأ وارق فإن لك بكل آية درجة في الجنة فتنتهي الآيات عند أعلى الدرجات من درجات الجنة أخرجه البيهقي وابن ماجه بإسناد مرفوعاً وعن حبيب بن زيد بن رافع أن رسول الله ﷺ قال: من قرأ مائتي آية في ليلة فقد أدى حق القرآن، ومن قرأ ثلاثمائة آية فكأنما أنفق قنطاراً في سبيل الله، ومن قرأ ألف آية في ليلة ضحك الله له ومن ختم القرآن صلى عليه سبعون ألف ملك وأصاب كل قريب منه خيراً كثيراً أخرجه إبراهيم بن إسحاق في كتاب النصائح، وإن للبيت الذي يقرأ فيه القرآن نورا يترأه أهل السماوات ويعرفونه فإذا مات فقدوا ذلك النور فيسألون عنه فإذا قيل لهم مات ترحموا عليه ودعوا له بخير فتغشيه الملائكة من سماء إلى سماء حتى تصلي على روحه في الأرواح، ثم تستقبل الملائكة الحافظين الذين كانوا معه فيعزونهم ثم تستغفر له الملائكة إلى يوم القيامة أخرجه ابن ماجه والترمذي ولو لم يرد في قيام الليل إلا

قوله تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾
لكان في ذلك الكفاية.

وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه يلزم الطهارة لكل حدث فلا ينتظر بطهر وقت وجوبه بل كلما انتقض طهر تطهر ففي الخبر عنه ρ قال: الطهور شرط الإيمان كما في الجامع الصغير، وفي كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي عن عمر رضي الله عنه قال: الوضوء الصالح يطرد الشيطان، وفي قوت القلوب قيل إن المؤمن إذا توجأ للصلاة تباعدت منه الشياطين فرقا لأنه يتأهب للدخول على الملك، وفي النصيحة الكافية لزروق رحمه الله وإدمان الوضوء موجب لسعة الخلق قال ابن زكريا في شرح النصيحة: ووجه والله أعلم أن الوضوء يطفئ الغضب ومن عدم التمالك عند الغضب ينشأ سوء الخلق، ففي الإحياء وكتاب الأربعين للغزالي أن النبي ρ قال: إن الشيطان خلق من نار وإنما يطفئ النار الماء فإذا غضب أحدكم فليغتسل. أخرجه ابن عساكر عن معاوية، قال المناوي وكذا أبو نعيم عن أبي مسلم الخولاني وفي كتاب النصيحة أيضا أن إيمانه موجب لسعة الرزق ذكر في تحفة المرید قال ابن زكريا، وسره والله أعلم أن المداومة عليه تستدعي المواظبة على الصلاة والمحافظة عليها والإكثار من نوافلها لأن الصلاة كما في الإحياء هي السبب المقتضي للوضوء فلها فعل ومن أجلها كان جالبا للرزق قال تعالى: ﴿وامرأهك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ قال الشاذلي: معناه قم لخدمتنا ونحن نقوم لك بقسمتنا وكان عليه الصلاة والسلام إذا أصاب أهل خصاصة قال: قوموا إلى الصلاة، ويقول: بهذا أمرني ربي عز وجل، والقيام بعبادة الله تعالى يسهل أمر الرزق وما أحسن قول إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ظامئ أنا عار
هي ستة أنا ضامن لنصيغه فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضته فأجبر عبيدك من دخول النار

وقال صاحب النصيحة أيضا: وإدمانه موجب لمحبة الحفظة ودوام الحفظ من المعاصي والمهلكات، فقد جاء: الوضوء سلاح المؤمن وهو مجرب قال ابن زكري: هذا بين فإن الملائكة يحبون الطهارة، ووجه الحفظ من المعاصي بسببه أن إدمانه يوجب تنوير القلب، وإذا استتار خرج منه جزء الشيطان فإن التطارد بين الملائكة والشياطين في معرك القلب دائم كما في الإحياء إلى أن ينفتح القلب لأحدهما، فإن انفتح للشيطان أظلم وإذا انفتح للملك استتار فاستتارته لا تجماع سكنى الشيطان فيه، وهي أثر من آثار الطهارة، وإذا خرج الشيطان خرج جنده من باب أولى أعني الهوى وغلبة النفس وحب الدنيا، ويفقد هذه الأمور التي هي من دواعي المعاصي يحصل الحفظ منها ووجه كونه سبب الحفظ من المهلكات هو والله أعلم أن الوقوع في المهلكات ناشئ عن الغضب فإنه يتول عنه الشتم والضرب والقتل والهجر والطلاق والحقد والحسد والحلف الموجب للحنث والذم بل والكفر كما كفر جبلة حين غضب من لكمة أخذت منه قصاصا وقد أخرج الإمام أحمد عن حميد بن عبد الرحمن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله أوصني، قال: لا تغضب، قال: ففكر حين قال رسول الله ﷺ ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله، قال المنذري: ورواته محتج بهم في الصحيح وقد سبق أن الوضوء يطفى الغضب، فإدمانه يحفظ بذلك من الوقوع في المهلكات، وأيضا فإن الغضب من الشيطان وإدمان الوضوء يخرج من القلب كما سبق وليس المراد بالمهلكات المصائب الجارية على العباد بقدر الله تعالى فقد قال تعالى: ﴿تبتلون في أموالكم وأنفسكم﴾ وقال عليه السلام: أكثر الناس بلاء الأنبياء فالأمثل فالأمثلة، وفي رواية: الأنبياء فالشهداء وفي رواية: الأنبياء فالأولياء فالأمثل فالأمثل، إلا أن يراد بالحفظ منها الحفظ من التسخط والاضطراب عندها فتحصل بذلك راحة القلب والرضى بما اختاره الرب وبذلك تصير النقم نعما والبلايا عطايا فصاحب هذه الحالة يصدق عليه أنه محفوظ من البلايا وذكر السهروردي والحكيم الترمذي أن حكمة وجوب الوضوء أن الشيطان قد وجب سببا على جواب ابن آدم كما أشار إليه خبر إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في الجسد فمجمع الطعام والشراب معدنه وموضع الروث مجلسه. اهـ وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه يبادر بالغسل إذا لزمه الطهر كما كان عليه السلام

يفعل في أكثر أوقاته، قال في النصيحة: تأخير غسل الجنابة يورث الوسواس، سره والله أعلم أن الجنب تفارقه الملائكة وقد سبق التطارد بين الملائكة والشياطين في معرك القلب دائم وإذا خرج أحد الجندين تغلب الآخر وإذا تغلب الشيطان وسوس أخرج أبو داود عن عمار بن ياسر أن النبي ﷺ قال: ثلاثة لا تقربهم الملائكة جيفة الكافر والمتمضمخ بالخلوق والجنب إلى أن يتوضأ ذكره في الجامع قال المناوي: قال الكلاباذي يجوز كونه فيمن أجنب من حرام أما من حلال فلا يتجنبه الملك ولا البيت الذي هو فيه فقد كان النبي ﷺ يصبح جنباً بغير حلم وكان يطوف على نسائه بغسل واحد ويجوز كونه فيمن أجنب باحتلام وآخر الغسل مع إمكانه مع أن اللحم من الشيطان فمن تلاعب به في يقظة أو نوم تجنبه الملك الذي هو عدو الشيطان. اهـ. من ابن زكري على النصيحة وقال القاضي عياض الكلام في جنب تهاون بالغسل وأخر حتى خرج عليه وقت الصلاة وجعل ذلك دأباً وعادة فإنه مستخف بالشرع متساهل بالدين غير مستعد لاتصالهم ولاختلاطهم لا أي جنب كان لما ثبت أنه ﷺ كان يطوف على نسائه بغسل واحد. اهـ وعلى هذا اقتصر الأبى وهو ظاهر وبه يعلم أن وضوء الجنب غير واجب ولحديث الترمذي كان ينام ولا يمس ماء، وعن عائشة كان يتوضأ ولا يأمرها وكما في الموطأ أن ابن عمر كان يترك غسل رجليه فيه وعن القاضي عياض: الملائكة التي لا تقرب الجنب ملائكة الرحمة والبركة لا الحفظة وبعدهم عن الجنب تنزيها لهم عن الحدث كما نزهت تلاوة القرآن ودخول البيت ومس المصحف.

وفي نصيحة زروق أيضاً: إن تأخير غسل الجنابة يمكن الخوف من النفس ويقلل البركة من الحركات قال ابن زكري: بيانه والله تعالى أعلم أنه لما صار صاحب وسوسة لزمه الخوف لأن صاحبها لا يكون إلا مغموماً كثيراً عليه الأوهام والتخمين وتشتد في قلبه الوحشة والقبض وتضعف قوته ويخف عقله فينقاد للخيلات الوهميات ويغلب عليه الخوف ووجه تقليبه البركة من الحركات لأن صاحبه إذا توالى عليه همومه وعظمت غمومه وضعفت قوته قلت منفعته والحاصل أنه لما اشتغل قلبه وغرق في بحار الأفكار الفاسدة صار مباشراً من غير أن يلقي لها بالاً ومن لازم ذلك التساهل فيها والتكاسل عنها ومن لازم ذلك استهان بها أو عن

تكميلها، وفي العهود المحمدية: وقع لي أني نمت مرة على جنابة فسمعت قائلاً يقول: من نام على جنابة تعسرت عليه أسباب رزقه فلا يحصل له رغيف حتى تكاد روحه تزهق، فمن ذلك اليوم أنا خائف من النوم على جنابة. اهـ.

ويقال إن الأكل على الجنابة يورث الفقر كما في نصيحة زروق قال ابن زكري ويقيد ذلك بما إذا كان لم يتوضأ واتخذ ذلك عادة ويوجه ذلك بما مر في النص قبله وفي الحديث ثلاثة لا تقربهم الملائكة بخير جيفة الكافر والمتضخم بالخلق والجنب إلا أن يبدو له أن يأكل فيتوضأ وضوءه للصلاة، قاله في الجامع، أخرجه الطبراني عن عمار بن ياسر قال المناوي ومثل الأكل الشرب والنوم والجامع الصغير كان ρ إذا أراد أن يأكل وهو جنب تيمم اهـ. وكان الشيخ رضي الله عنه وأفاض علينا جزيل بركاته ملازماً للسواك لما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلازمه ويحض عليه وفي الخبر إن الله تعالى يحبه وتحبه الملائكة وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ρ : لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء وفي رواية عند كل صلاة كما يتوضؤون، وفي رواية: لولا أن أشق على أمتي لفرضت عليهم السواك والطيب عند كل صلاة كما فرضت عليهم الوضوء، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: ما زال النبي ρ يذكر السواك حتى خشيت أن ينزل الله فيه قرآناً، وكانت الصحابة رضي الله عنهم يربطون مساويكهم بذوائب سيوفهم في شدة القتال فإذا حضرت الصلاة استاكوا بها وكان ρ يقول: ما زال جبريل يوصني بالسواك حتى خفت على أضراسي يعني السقوط، وكان ρ يقول: لأن أصلي ركعتين بالسواك أحب إلي من أن أصلي سبعين ركعة بغير سواك وكان ρ يقول: إذا صليت الوتر فاستاكوا قبل النوم وكان ρ يستاك في الليل مرارا فكان يصلي ركعتين ثم يستاك ثم ركعتين ثم يستاك وهكذا وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه يضع السواك من إذنه موضع القلم من إذن الكاتب خلف أذنه اليسرى فكان كلما قام إلى الصلاة استاك به ورده إلى موضعه وروي أن الناس لما أمروا بالوضوء لكل صلاة شق ذلك عليهم فخفف ذلك عنهم بالسواك عند كل صلاة وكان ρ إذا قام من النوم ليلاً أو نهاراً يشوص فاه بالسواك وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: كنا نضع لرسول الله ρ وضوءه وسواكه فإذا قام من الليل يتهدج يستاك ثم يتوضأ وكان ρ إذا دخل بيته بدأ بالسواك ثم يقول

إنه مطهرة للغم مرضاة للرب مجلاة للبصر وكان يقول طهروا أفواهكم للقرآن فإن الملك يضع فاه على فم أحدكم فلا يخرج من في أحدكم شيء من القرآن إلا صار في جوف الملك كل هذه الأحاديث أخذتها من كتاب كشف الغمة والشيخ رحمه الله أشد محافظة عليه ومواظبة مما تحيطه الأفكار وتدركه الأبصار وفي الخبر أنه عليه السلام كان يستاك طولاً في اللسان وعرضاً في الأسنان وكان الشيخ رضي الله عنه هكذا يفعل حرصاً على السنة وفي الخبر أنه p كان يقول أفضل ما تستاكون به الأراك ثم البشام ثم الأركض الأراك بالفتح شجر معروف له ثمر يقال له الكبات ويقال للأراك بلغتنا والبشام شجر يقال له بلغتنا آدرس وأما الأركض فعشبة يقال لها بلغتنا تباط وقيل هو السرح الذي يقال له آتيل وفي الخبر أنه عليه السلام كان يجعل ثلاثة أصابع وهي السبابة والوسطى والبنصر على السواك ويجعل الإبهام والخنصر تحته وفي الخبر عنه عليه الصلاة والسلام ثلاث من سنة الأنبياء محة النساء ومحبة الطيب والسواك وفي رواية بدل الطيب التخم بالفضة وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا جزيل بركاته كثير الصيام بحرص فيه على موافقة السنة فقد كان يعجل الفطر عندما تغيب الشمس ويؤخر السحور أخذاً منه بالسنة فقد قال عليه السلام لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور وفي الخبر عنه عليه السلام أنه قال ومن كلام النبوة الأول إذا لم تستح افعل ما شئت ووضع اليدين إحداها على الأخرى في الصلاة وتعجيل الفطر وتأخير السحور كما في التقييد على الرسالة عند قوله ومن السنن تعجيل الفطر وتأخير السحور وقال في النصيحة عاطفاً على آفات الصيام وعدم تعجيل الإفطار طلباً للتمكين قال ابن زكري فإنه على هذا الوجه يستلزم اعتقاده فضيلة وذلك بدعة مكروهة قال في النوادر قال أشهب وواسع تعجيل الفطر وتأخيره للحاجة ويكره أن يؤخره تنطعا لأنه يقتضي أن لا يجزئه وإنما يكره تأخير الفطر استئنا وتدينا وقال في النصيحة وتأخير السحور قال ابن زكري عطف على التعجيل أي ومن آفاته عدم التأخير للسحور وقال في المجموعة: يستحب تأخير السحور ما لم يدخل الشك في الفجر، وقال في النصيحة عملاً على الوسوسة: أي إنما يكره عدم التأخير إذا كان عملاً على مجرد الوسوسة احترازاً مما إذا كان التأخير يؤديه إلى الشك قلت: والمروي عنه عليه الصلاة والسلام

تعجيل الفطر وتأخير السحور ففي الخبر أن النبي ﷺ كان يوماً راكباً في أمر ومعه بعض أصحابه فلما غابت قال عليه السلام: انزل يا بلال فاجدح لنا فقال بعض الصحابة يا رسول الله عليك نهار فقال: انزل يا بلال فاجدح لنا فنزل بلال فسقاهم ومعنى اجدح لنا اخلط لنا بمعنى أنه يخلط لهم الدقيق بالماء ليشربوا منه كما في الحميدي جامع الصحيحين، وفي الخبر عنه ﷺ الفرق بين صيامنا وصيام اليهود والنصارى أكلة السحر وفيه أيضاً قيل لحذيفة رضي الله عنه كيف كان تسحر رسول الله ﷺ قال: هو النهار إلا أن الشمس لم تطلع كما في ابن الربيع جامع الصحاح وقد قيل هو الربيع نفسه لا ابنه وفيه أيضاً أنه سئل زيد بن ثابت كم كان بين تسحر رسول الله ﷺ وصلاة الصبح؟ فقال: قدر ما يقرأ القارئ خمسين آية أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ومن حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: وقت السحور يا أنس إنني أريد الصيام فأطعمني شيئاً فأتيته بتمر وإناء فيه ماء وذلك بعدما أذن بلال، قال: يا أنس: انظر لي رجلاً يأكل معي، فدعوت زيد بن ثابت فجاء، فقال: إنني أريد شربة سويق وأنا أريد الصيام فقال رسول الله ﷺ: وأنا أريد الصيام فتسحر معه ثم قام فصلى ركعتين ثم خرج إلى الصلاة، رواه النسائي وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يتسحر فقال: إنها بركة أعطاكم الله إياها فلا تدعوها رواه النسائي.

وعن العرياض بن سارية قال: دعانا رسول الله ﷺ إلى السحور في رمضان قال: هلم إلى الغداء المبارك، رواه أبو داود والنسائي وأما المسافة التي كان الشيخ رضي الله عنه يفطر من صيامه ويقصر صلاته عند قطعها فهي أربعون ميلاً أخذاً منه بالأحوط وإلا فلا خلاف وإن لفظ الآية عام أعني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَابِ الصَّوْمِ: وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، وَقَدْ اختلف العلماء في قدر المسافة مع جزمهم واتفقهم أنها لم يرد بها نص قطعي من الله ولا من رسوله بل ولا من إجماع علماء الأمة ومشهور المذاهب أن المسافة أربعون ميلاً وقيل نصف ذلك وقيل أقل، ففي الخبر عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه أراد السفر من مدينة دمشق إلى قرية قريبة منها على مسافة ثلاثة أميال فلما رحل رواحله شرب ودعا

أصحابه إلى الشراب فأبى بعضهم فبكى أنس وقال: اللهم اقبضني إليك فإني رأيت الناس يرغبون عن هدي رسول الله ﷺ كما في تيسير الأصول وفيه أيضا أن دحية صاحب رسول الله ﷺ أراد السفر إلى بلد نحو ثلاثة أميال فأفطر وأمر أصحابه بالفطر فقالوا: سنة قال: نعم وهو أيضا في تيسير الأصول، وقال الناظم:

وابن شهاب مالك عنه روى مسافة القصر في يوم تحوى
وبعضهم قصر في أميال ثلاثة عد بلا إشكال

وقال آخر:

وجامع الست الصحاح فاعلمن هو ابن الربيع الذ ذكر أن
قصر بعض الصحب في أميال ثلاثة وليس من أميال
واختلفوا أيضا في حد الإقامة التي تقطع نيتها حكم السفر فذهب مالك إلى أنها أربعة
أيام صحاح وذهب غيره إلى أنها ثمانية عشر واستدل لها بما روي عن ابن عباس
رضي الله عنهما أقام النبي ﷺ تسعة عشر يوما يقصر الصلاة فنحن إذا أقمنا تسعة
عشر قصرنا وإن زدنا أتمنا رواه البخاري، وفي رواية أبي داود أنه ﷺ أقام سبعة
عشر بمكة يقصر الصلاة، قال ابن عباس: فلو أقام أكثر أتم فالرواية الأولى بتقديم
التاء على السين والثانية بتقديم السين على الباء الموحدة وكان الشيخ رضي الله عنه
وأرضاه لا يخرج على مسلم فيما يجد له فيه سعة إلا أن تكون التوسعة تؤدي إلى
انتهاك حرمة الله فيسد ذريعتها حسما لمادة الفساد فالحاصل أنه كان أشد الناس
احتياطا لنفسه مع اتباع السنة في ذلك الاحتياط وأكملهم رفقا بعباد الله تعالى فلا
يحجر عليهم ما وسعه الله تعالى عليهم، ففي الخبر كان رسول الله ﷺ يحث على
الاقتصاد في الأمور كلها ويقول: يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا، وكان ﷺ يقول:
سددوا وقاربوا وبشروا فإن أحدكم لن ينجيه عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا
أنا إلا أن يتغمديني الله برحمته، وكان ﷺ يقول: الدين يسر ولن يشاد هذا الدين أحد
إلا غلبه، وعن عائشة رضي الله عنها صنع رسول الله ﷺ شيئا فرخص فيه فتنزه
عنه قوم فبلغه ذلك فصعد المنبر فخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما بال قوم
يتنزهون عن الشيء صنعته، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية وكان ﷺ يقول

لمن يراه يشدد على نفسه: إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، وفي رواية كما يكره أن تترك فرائضه، وكان ρ يقول: إني إن أخرج عليكم أحرقتكم، وإن عزائم الأنبياء لا تطيقها الجبال، وكان ρ يقول: لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم وإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم، وكان ρ يقول: إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سئل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرمه عليهم من أجل مسألتهم وكان ρ يقول: السنة سنتان سنة في فريضة وسنة في غير فريضة، فالسنة التي في الفريضة أصلها في كتاب الله أخذها هدى وتركها ضلالة، والسنة التي ليس أصلها في كتاب الله الأخذ بها هدى وتركها ليس بخطيئة، وكان ρ يقول: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكان ρ يقول: هل يسع رجل يبلغه الحديث عني فلا يعمل به، وكان ρ يقول: ما أحل الله تعالى في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئا، وكان ρ يقول: من اتبع كتاب الله هداه من الضلالة ووقاه سوء الحساب يوم القيامة، وذلك أن الله تعالى يقول: فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، وكان ρ يقول: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد وكان ρ يقول: أصحاب البدع كلاب النار، وكان ρ يقول: تعمل هذه الأمة برهة بكتاب الله ثم تعمل برهة بسنة رسول الله ρ ثم تعمل برهة بالرأي فإذا عملوا بالرأي ضلوا وأضلوا، وكان ابن مسعود يقول: يأتي على الناس زمان تصير فيه البدعة سنة فإذا تركت يقال: تركت السنة فقالوا: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثرت جهالكم وقلت علماءكم وكثرت خطباؤكم وقلت أمناؤكم وتفقه الناس في غير دين الله والعمل والتمست الدنيا بعمل الآخرة كل هذه الأحاديث في كشف الغمة عن جميع الأمة وفي الخبر أيضا: اختلاف العلماء رحمة للأمة، كما في كتاب رحمة الأمة على اختلاف الأئمة، لكن العلماء حجروا تلك الرحمة على العامة بإلزامهم إياها مذهب شخص معين لم يعينه الله ولا رسوله ومنعوا أن يطلب الإنسان رخصة في نازلته في مذهب عالم آخر اقتضاها اجتهاده وشددوا في ذلك وقالوا: هذا يفضي إلى التلاعب بالدين

وتخيلوا أن ذلك دين ولو تركوا الأحكام على ما ورد في الشرع من كتاب أو سنة وجعلوا ما سكت الله تعالى عنه عفوا كما قال عليه السلام: لكانت الشريعة أوسع وأقل ضيقا، وقد قال النبي ﷺ إن الله تصدق عليكم فاقبلوا صدقته، فالرخص مما تصدق الله به على عباده.

وقال الشيخ محيي الدين بن العربي: وقد أجمعنا على تقرير حكم المجتهد وجواز تقليد العامي له في ذلك الحكم لأنه عنده عن دليل شرعي سواء كان صاحب قياس أو غير قائل به فتلك الرخصة التي رآها الشافعي في مذهبه على ما اقتضاه دليله قد قررنا فيمنع المفتي من المالكية المستفتي المالكي المذهب أن يأخذ برخصة الشافعي التي يقيد الشرع بها، وإنما أضفناها إلى الشرع لأنه قررنا بمنعه مما يقتضيه الدليل الذي لا أصل له وهو ربط الرجل نفسه بمذهب خاص لا يعدل عنه إلى غيره ويحجر عليه ما لم يحجر الشرع عليه وهي من أعظم العظام وأشق الكلف على عباد الله والذي وسع الشرع بتقدير حكم المجتهد من هذه الأمة ضيقه عوام الفقهاء وأما الأئمة مثل أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل والشافعي فحاشاهم من هذا ما فعله واحد منهم قط ولا نقل عنهم أنهم قالوا لأحد اقتصر علينا ولا قلدني فيما أفتيك به بل المنقول عنهم خلاف ذلك ورضي الله عنهم اهـ.

كلام ابن العربي وقال القرافي في التنقيح قال الرياشي يجوز تقليد المذاهب في النوازل والانتقال من مذهب إلى مذهب بثلاثة شروط أن لا يجمع بينها على وجه يخالف الإجماع كمن تزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود فإن هذه الصورة لم يقل بها أحد وأن يعتقد فيمن يقلده الفضل بوصول أخباره إليه وأن لا يقلده رميا في عماية وأن لا يتبع رخص المذاهب كلها وقال المذاهب كلها مسالك إلى الجنة وطرق إلى السعادة فمن سلك طريقا وصل.

تنبيه: قال غيره: يجوز تقليد المذاهب والانتقال إليها في كل ما لا ينقض فيه حكم الحاكم وهي أربعة: ما خالف الإجماع والقواعد والنص أو القياس الجلي فإن أراد بالرخص هذه الأربعة فهو حسن فإن ما لا نعتد به مع تأكيده بحكم الحاكم فأولى أن لا نعتد به قبل ذلك وإن أراد بالرخصة ما فيه سهولة على المكلف، كيف كان يلزمه

أن يقول من قلد مكلفا في المياه والأرواث وترك الألفاظ في العقود مخالفا لتقوى الله وليس كذلك.

ثم قال: قاعدة: انعقد الإجماع على أن من أسلم له أن يقلد من شاء من العلماء بغير حجر، وأجمع الصحابة رضي الله عنهم أن من استفتى أبا بكر وعمر وقلدهما فله أن يستفتي أبا هريرة ومعاذ بن جبل ويعمل بقولهما من غير نكير، فمن ادعى رفع هذين الإجماعين فعليه الدليل.

الثالث إذا فعل المكلف فعلا مختلفا في تحريمه غير مقلد لأحد هل نؤثمه بناء على القول بالتحريم أو لا نؤثمه بناء على القول بالتحليل مع أنه ليس إضاافته إلى أحد المذهبين أولى من الآخر ولم يسألنا عن مذهبنا فنجيبه ولم أر لأصحابنا فيه نصا. اهـ من التنقيح حرفا بحرف.

قلت: قوله غير مقلد لأحد مفهومه أنه إذا فعله مقلدا فيه فلا خلاف في عدم الإثم كما صرح به أولا، وفي كشف الغمة عن جميع الأمة لعبد الوهاب الشعراني أنه سأله سائل فقال له: ما معنى قوله تعالى: ﴿إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ فقال الشعراني: الله تعالى أعلم، فقال له السائل: معناه يتبرأ الرسول يوم القيامة ممن يضيق على أممهم ويتبرأ أصحاب المذاهب ممن يولد برأيه ثم يضيفه إلى مذاهبهم. اهـ.

فكل من ولد بعقله حكما يود يوم القيامة أن لم يكن ولده حياء من رسول الله ﷺ ثم قال: يقال لمن زاد على أحكام صريح الشريعة من طريق الاستنباط شيئا يشق على الناس ماذا أردت فلا يسعه إلا أن يقول القربة إلى الله عز وجل، فيقال له القربة خاصة بقوم الاتباع لا الابتداع على أنه لا يعان عبد على العمل بما زاد على صريح السنة لأن الله تعالى لم يتكلف بالمعونة إلا لمن هو تحت أمره الذي شرعه صريحا على لسان رسوله ﷺ فتأمل يا أخي ما ذكرته لك واعتقد أن الإنسان لو ترك العمل بكل ما لم تصرح به الشريعة المطهرة فلا حرج عليه ولا لوم في الدنيا والآخرة، إلى أن قال: ولتعلم يا أخي أن الشريعة المطهرة جاءت عامة وليس مذهب أولى بها من مذهب فمن ادعى تخصيصا بما ذهب إليه إمامه من المقلدين فقد أتى بابا من الكبائر وخطأ الأئمة أو ضعف أدلتهم بالرد تارة وبالقول بالنسخ تارة وتجريح الرواة لها تارة نسأل الله العافية ولا تخرج أخي من هذه الورطة إلا أن تقول بصحة كل حديث

أو أثر استدل به إمام من الأئمة لمذهبه كائنا ذلك الإمام ما كان فإنه لو لم يصح عنده ما استدل به، وكفانا صحة لذلك الحديث استدلال مجتهد به ولا يقدح فيه تجريح غيره من المحدثين والمجتهدين من طريق روايتهم. اهـ كلام الشعراني حرفا بحرف.

وقال المواق في سنن المهتدين قال عياض في أول الإكمال: لا ينبغي للأمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يحمل الناس على اجتهاده ومذهبه إنما يغير منه ما اجتمع على إحداثه وإنكاره ورجح هذا محيي الدين النووي قائلًا: أما المختلف فيه فلا إنكار فيه وليس للمفتي ولا القاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نص القرآن أو السنة أو الإجماع، وقال الشاطبي الأولى عندي في كل نازلة فيها قولان فيعمل الناس فيها على موافقة أحدهما وإن كان مرجوحا في النظر أن لا يتعرض لهم لأنهم إن حملوا على غير ذلك كان في ذلك تشويش على العامة وفتح لأبواب الخصام إلى أن قال: قال تقي الدين ابن الصلاح: إذا كان للمفتي مختار يأخذ به في خاصته بينه للمستفتي يقول: مذهبكم كذا وأنا يظهر لي كذا قال الإمام الماوردي: المفتي إذا نابذ في فتياه شيئا معيناً صار خصيماً معانا ترد فتياه كما ترد شهادته وليكتب فتيا نفسه من غير أن يتعرض لغيره بتخطئة أو اعتراض. اهـ — منه حرفا بحرف.

وفي نشر البنود عند قوله:

وابن دقيق العقيد ذي الفتاوي

وكان تقي الدين بن دقيق العيد يفتي بمذهب مالك والشافعي. اهـ منه أيضا.

وكان اللخمي يفتي في المذاهب كلها، وإلى ذلك يشير ابن غازي بقوله:

لقد مزقت قلبي سهام جفونها كما مزق اللخمي مذهب مالك

وفي سنن المهتدين أيضا لا ينبغي لأحد أن يسد على مسلم بابا إلا بدليل لا معارض له. اهـ وقال رؤيم من حكمة العالم أن يضيق على نفسه في الأحكام ويوسع على أصحابه فإن الورع فضل وليس بفرض قيل معناه إن الورع فضل فيختاره لنفسه وليس بفرض فيلزمه الناس.

فصل أذكر فيه بعض توسيعات الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا وعلى الإخوان جزيل بركاته فمن ذلك أنه رضي الله عنه وأرضاه أنه كان ينهى أصحابه

عن الوسوسة في كل شيء ويقول: من توضأ في ظلمة كفاه غلبة ظنه معناه إذا وجدت لمعة بعد ذلك فلا عليك إعادة ما صليت أخذاً لهم بشرط القاعدة من أن الاسم هل يؤخذ بأوله أو آخره فإن الغسل أعني غسل العضو لما أوجبه الله تعالى لم ينص فيه على تعميم ولا غيره واختلف الفقهاء هل يكتفي بمجرد الغسل كائناً ما كان أو لا بد من التعميم وإلى هذا الأصل وترجيح أول الاسم يشير صاحب المراقي حيث يقول: والأخذ بالأول لا بالآخر مرجح في مقتضى الأوامر وهي قاعدة من قواعد المالكية وكان رضي الله عنه ينهاهم عن تكرير المسح في التيمم، ويقول المروي في الآية: ﴿فامسحوا بوجوهكم﴾ والمسح مبني على التخفيف وأخاف يخرج التكرير عن حد المسح ولو لم يعم لكان فيه ما ذكر قيل من فروع القاعدة المتقدمة ولم يرو فيه عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة أنهم كرروا المسح، ولا أنهم قالوا بوجوب التعميم وكان رضي الله عنه يرضى لمن برجليه شقوق أو مرض أن يمسح عليهما أخذاً بقوله تعالى: ﴿وأرجلكم﴾ بالخفض عطفاً على رؤوسكم في قراءة غير نافع وابن عامر والكسائي وخفض، وفي كتاب كشف الغمة كان أوس بن أبي أوس رضي الله عنه يقول: رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح بالماء على قدميه وليس فيهما خفان ومثله عن ابن عمر وكذلك أيضاً كان لا يضيق على من أخر إحدى مشتركتي الوقت للأخرى ولا من قدم الأخرى منهما للأولى عن ضرورة أخذاً منه رضي الله عنه بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية عطاء بن رباح أن النبي ﷺ صلى بالمدينة سبعا وثمانيا الظهر والعصر والمغرب والعشاء. اهـ وفي حديث سفيان بن عيينة عنه صليت مع النبي ﷺ ثمانيا جميعا وسبعا جميعا قال عمرو: قلت: يا أبا الشعثاء أظنه أخر الظهر وعجل العصر وأخر المغرب وعجل العشاء وأنا أظن ذلك، ومن حديث أبي الزبير محمد بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر جميعا والمغرب والعشاء جميعا من غير خوف ولا سفر زاد في رواية زهير بالمدينة قال: وقال أبو الزبير: فسألت سعيد الم فعل ذلك فقال: سألت ابن عباس عما سألتني عنه فقال أراد أن لا يجرح أمته وفي حديث قره عن ابن الزبير أن رسول الله ﷺ جمع بين الصلاة في سفرة سافرهما في غزوة تبوك فجمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء

وأخرج البخاري من حديث يحيى بن أبي كثير الطائي عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يجمع بين صلاة الظهر والعصر إذا كان على ظهر سير ويجمع بين المغرب والعشاء وروى مسلم أيضا من حديث حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن أنس نحو حديث زهير عن ابن الزبير وقال في غير خوف ولا مطر وفي حديث وكيع قال كي لا يجرح أمته وفي حديث أبي معاوية بمعناه وأخرج مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي قال: خطبنا ابن عباس يوما بعد العصر حتى غربت الشمس وبدأت النجوم وجعل الناس يقولون الصلاة قال: فجاء رجل من بني تميم لا يفتر ولا يئنثي الصلاة الصلاة فقال ابن عباس: أتعلمني بالسنة لا أبا لك ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء قال عبد الله بن شقيق فحاك في صدري من ذلك شيء فأتيت أبا هريرة فسألته فصدق مقالته وفي حديث عمر بن حدير عن عبد الله بن شقيق قال: قال رجل لابن عباس الصلاة فسكت ثم قال: الصلاة فسكت ثم قال الصلاة فسكت ثم قال لا أم لك تعلمنا بالصلاة كنا نجمع بين الصلاتين على عهد رسول الله ﷺ اهـ. قلت ولعل ما روي في هذا الحديث أصل القاعدة المالكية التي بنى عليها الفقهاء اختلافهم في اختصاص إحدى المشتركين عن الأخرى وإليها يشير ميارة في التكميل بقوله:

وإن صلاتان بوقت تشركي ففي اختصاص الكل خلف قد حكي
 قيل للأولى قدرها من أول كذاك للأخرى من آخر يلي
 وقيل بل جميعه مشترك بينهما والاختصاص يدرك

قال في شرحه: يريد أن الصلاتين المشتركتي الوقت وهما الظهر والعصر والمغرب والعشاء اختلف فيهما هل تختص الأولى منهما بقدرها من أول الوقت وتختص الثانية بقدرها من آخره أيضا وما بين ذلك هو المشترك بينهما فتختص الظهر بقدر أربع ركعات للحاضر وقدر ركعتين للمسافر من أول الوقت أي إثر الزوال ويختص العصر بمقدارها أيضا حضرية أو سفرية من آخر الوقت أي قبل الغروب يليه وما بين ذلك هو المشترك بينهما وتختص المغرب بثلاث ركعات إثر الغروب وتختص العشاء بقدر أربع ركعات أو اثنتين للمسافر قبل الفجر وما بين ذلك هو لمشارك بينهما وإلى هذا القول أشار بقوله: وإن صلاتان البيتين.

القول الثاني: للاختصاص للواحدة منهما بشيء من الوقت بل الوقت من أوله إلى آخره مشترك بينهما. اهـ منه وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه، وأفاض علينا جزيل بركاته لا يضيق على من لم يدرك الركوع الأول مع الإمام وتبعه حتى لحقه ولا يفوته ببطلان صلاته بل ربما يفوته بصحتها إذا كان أهلاً للتوسعة وربما أحاله إلى غيره بأن يقول له سل فلانا أو فلانا فيفتوه بإعادته وذلك لما في كتاب كشف الغمة من أن الصحابة رضوان الله عليهم كان أحدهم إذا فاته بعض الصلاة وأدرك بعضها يدخل الصلاة ويخفف ما فاته حتى يلحق بالإمام فيتابعه فيما بقي منها ف جاء ابن مسعود يوماً فوجد الصلاة قد فاتته منها شيء فلما أحرم صلى مع رسول الله ﷺ ما أدرك فلما سلم رسول الله ﷺ قام ابن مسعود لقضاء ما فاتته فقال عليه السلام قد سن لكم ابن مسعود وكما في كتب الفقهاء من الخلاف في ذلك فإنهم اختلفوا هل ينسحب حكم الإمام على المأموم بمجرد إحرامه معه ودخوله معه الصلاة أو لا ينسحب عليه حتى يعقد معه ركوعاً فمن قال بالأول قال يتبعه في الركوع إذا فاتته به ومن قال بالثاني قال: لا، والله تعالى أعلم وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه لا يضيق على أرباب الأموال في زكاتهم فيما يرى له وجهها في السنة فقد كان يأخذ منهم جميع ما دفعوا له عن زكاتهم من عرض وغيره لما في الخبر من أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان يقول لأهل اليمن ايتوني بخميص وليس هو أيسر عليكم وأنفع لأصحاب رسول الله ﷺ يعني في زكاة أموالهم فانظره في السوداني عند قول خليل لا كسر مسكوك إلا لسبك وكان أيضاً رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا جزيل بركاته لا يضيق على أحد في الزكاة ما وجد له سبيلاً ولا في النكاح ولا في الطلاق ويقول: دين الله يسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه فكان لا يمنع الناس من المجاعة من أكل أكيلة إذا أدركوا نكاتها ولو نفذت مقاتلها أخذاً منه من أن الاستثناء في الآية متصل أعني قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على نصب﴾ فالميتة في الآية التي ماتت حتف أنفها والدم يعني المسفوح لقوله عز وجل في سورة الأنعام أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير يعني وجميع أجزائه وما أهل لغير الله به يعني ما ذبح على اسم غير الله، والمنخنقة أي المخنوقة بجبل أو غيره والموقوذة أي

المضروبة بعصى ونحوها والمتردية أي الساقطة من شاهق ونحوه أي من علو لسفل والنطيحة أي التي نطحتها أخرى وما أكل السبع أي التي أكل السبع منها شيئاً فهذه كانت العرب في الجاهلية تأكلها ولو لم تدرك الروح فيها ويقولون: ما وقع فيها هو ذكاتها ثم اختلف الأئمة في حكمها فجزم أبو حنيفة بطرحها مطلقاً وقال الاستثناء منقطع أي إلا ما ذكيتم من غير هؤلاء فكلوه وإلا عنده بمعنى لكن فهي حرف استدراك وجزم الشافعي بأكلها إن أدركت ذكاتها أنفذت مقاتلتها أو لم تنفذ وجعل الاستثناء متصلاً أي حرمت عليكم الميتة وجميع ما ذكر إلا ما ذكيتم منها وقال مالك رحمه الله تعالى الاستثناء متصل لكن في الآية تخصيص محذوف أي إلا ما ذكيتم من هذه المذكورات قبل أن تنفذ مقاتلتها فهو حلال.

وكان الشيخ رضي الله عنه وأفاض علينا جزيل بركاته يرخص فيها زمن المجاعة للناس ويرخص للفقراء فيها زمن البسط وكذلك أيضاً كان يفعل في ذكاة الغاصب والسارق وكذلك أيضاً كان يفعل في المغلصمة وكان يرخص للمسافر في شهر رمضان إذا كانت في الصوم مشقة ولو سافر أقل من أربعة برد ويحكي حديث أنس المتقدم من كونه أظفر في مسافة ثلاثة أميال فلما أبى بعض أصحابه أن يشرب بكى وقال: اللهم اقبضني إليك فإني رأيت الناس يرغبون عن هدي رسول الله ﷺ وكان لا يضيق على من غلبته عيناه عن سحوره ولم يستيقظ له إلا بعد الصلاة فلما تسحر أخبر أن قد صلى الناس إذا كان غير مجانف لإثم ولا متساهل بحدود الله ويقول: الورع أن يعطي كل ذي حق حقه فلحق التقي والمضطر التوسعة وغيرهما التضييق ويقول: إن الله لا يتصدق برخصه على أعدائه، ويأخذ لذلك المتسحر التقي بظاهر حديث حذيفة المتقدم حين سئل عن وقت تسحر رسول الله ﷺ فقال: هو النهار إلا أن الشمس لم تطلع، وبما في السنهوري عند باب الوقت في أول مسودة منه هناك أو الثانية أو الثالثة من أن الأعمش كان متمذهباً بأن الصائم يباح له الأكل وغيره فيما قبل طلوع الشمس أخذاً بظاهر ذلك الحديث وبقوله تبارك وتعالى: ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ قال: لأن الله تعالى لما قال: ثم أتموا الصيام إلى الليل علم أن الصيام إنما هو في النهار خاصة وجعل آية النهار الشمس فلا صيام قبلها وأخذاً منه أيضاً بحديث صلاة النهار عجماء أي لا جهر فيها والصبح جهرية فكان وقتها بمعزل عن

النهار وتؤول قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ لَكَ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾
بأن الخيط الأبيض هو ما يبدو من شعاع الشمس عند طلوعها وبأن الخيط الأسود
هو ما يرى من السواد بالمغرب وقت طلوعها وأن ذلك السواد كائن من آخر ظلمة
الليل وقت طلوع الفجر فانظره في محله تجده.

وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه محفوظ الحريم أكمل الناس احتياطا لنفسه فكان

يقول مسألتان لا ينبغي للمؤمن أن يتطرق إليهما بما فيه شبهة بطنه وصلاته، فإن

الصلاة عمود الدين من أقامها فقد أقام الدين كله ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

ولما روي أن عمر أرسل إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة من أقامها فقد أقام

الدين كله ومن ضيعها فقد ضيع الدين كله وفي الخبر آخر ما أوصى به رسول الله

ﷺ الصلاة وفيه أنه عليه السلام توفي وهو يكرر الصلاة وما ملكت أيمانكم وأما

البطن فإن الواصل إليها هو الذي ينبت منه اللحم وتحصل به القوى وقد قيل كل لحم

نبت من حرام فالنار أولى به ويروى من أكل الحلال أطاع الله أحب أم كره ومن أكل

الحرام عصى الله أحب أم كره، ومن أكل الشبهة اشتبه أمره وعن النبي ﷺ الحلال بين

والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد

استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول

الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى وحى الله محارمه، ألا وإن في

الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي

القلب وفيه أنه عليه الصلاة والسلام يجد التمرة على فراشه أو في الطريق فلا يمنعه

أن يأكلها إلا مخافة أن تكون من تمر الصدقة فانظر رحمك الله إلى هذا الورع

والاحتياط ما أحسنه.

وفي الخبر أيضا أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان له غلام يخدم وكان أبو

بكر لا يأكل إلا من عمل الغلام فأتاه يوما بطعام فلما أكل منه أبو بكر قال له الغلام

يا سيدي: أتدري من أين لي هذا الطعام فقال لا، فقال: كنت في الجاهلية تكهنت

لرجل وكنت لا أحسن الكهانة فلقيته الآن فأعطاني هذا الطعام فأدخل أبو بكر رضي

الله عنه إصبعه في حلقه وتقياً ذلك الطعام.

وعن عمر رضي الله عنه أن بعض الناس أتاه بلبن فسقاه منه فلما شرب عمر منه قال له: من أين لك هذا اللبن فقال: أتيت البئر الفلانية في حاجة لي كنت راكبا فيها فوجدت نعم الصدقة عندها ليشرب منها فحلبوا لي منه هذا اللبن فأتيته به لأسقيك منه فأدخل عمر رضي الله عنه إصبعه في فيه حتى تقياً ذلك اللبن احتياطا منه ومن أبي بكر رضي الله عنهما في قوتيهما قلت: وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأعاد علينا جزيل بركاته أشد الناس احتياطا، فلقد أتيتهم يوما ونحن في سفر بطعام ولا عهد له بمأكل ولا مشرب والطعام كثير والناس تأتينا به وقلت له: هذا الطعام أتى به فلان وقال إنه حلال وإنه يريد أن تطعموا منه، فقال: غنبت بنى المؤمن لا يؤكل إلا عن ضرر يبيح الميتة متى وجب علي أن أطمع خبرتك، وكان شيخنا رضي الله عنه وأرضاه وحمد في كل الأمور مسعاه يلزم المساجد ويحبها ويحث الناس على الصلاة فيها، ويقول: إنها البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وكثيرا ما أسمعهم يقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيتم الرجل يتخلف إلى المساجد فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله تعالى يقول: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين.

ويذكر الأحاديث الواردة في فضل المساجد ولا يمنع منه إلا الحمى ولا يقبل اللغو فيه بحضرته بل يستعمله لطاعة الله فقط، وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه كثيرا ما يفتي المضطرين إلى رفع الحدث بالتيمم بصحة القول به محتجا له بقوله عليه السلام: وجعلت لي الأرض مسجدا وترابها طهورا، وإلى صحة ذلك القول يشير ميارة في تكميله حيث يقول:

والخلف في تيمم هل يرفع	حدثا او لا وعليه فرعوا
وجوب الاستعمال بالماء متى	زال الذي منع منه يا فتى
ووطء حائض به تطهرت	ولبس خفين إمامة تلت
لمتوضئ فلا كره كذا	تيمم من قبل وقت فخذنا
وطلب الماء لكل فرعوا	جمع اثنتين بتيمم فعوا

فكان الشيخ رضي الله عنه لا يضيق على المسلم التقي في بعض هذه الفروع ولا يوسع على غير التقي يحيله على من يفتيه فيما أن يوسع عليه أو لا وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه لا يضيق على المسلم التقي إذا طلق زوجته ثلاثاً عن خلع كلهن أو بعضهن بأن يأمره بردها نظراً إلى القول بأن الخلع فسخ بغير طلاق وهي مسألة خلافية تكلم عليها الحفيد في بداية المجتهد ونص كلامه: الفصل الثالث: وأما نوع الخلع فجمهور العلماء على أنه طلاق وبه قال مالك وأبو حنيفة سوى بين الطلاق والفسخ وقال الشافعي: هو فسخ وبه قال أحمد وداود من الصحابة ابن عباس وقد روي عن الشافعي أنه كناية فإن أراد به الطلاق كان طلاقاً وإلا كان فسخاً وقد قيل عنه في قوله الجديد إنه طلاق وفائدة الفرق هل يعتد به في التطبيقات أم لا، وجمهور من رأى أنه طلاق يجعله بائناً لأنه لو كان الزوج في العدة منه الرجعة عليها لم يكن لافتدائها معنى وقال أبو ثور: إن لم يكن بلفظ الطلاق لم يكن له عليها رجعة وإن كان بلفظ الطلاق كان له عليها الرجعة، واحتج من جعله طلاقاً بأن الفسوخ إنما هي التي تقتضي الفرقة الغالبة للزوج في الفراق مما ليس يرجع إلى اختياره وهذا راجع إلى الاختيار فليس يفسخ واحتج من لم يره طلاقاً بأن الله تبارك وتعالى ذكر في كتابه الطلاق فقال الطلاق مرتان، فإمساك بمعروف، أي فما بعد المرتين أما إمساك بمعروف وأما تسريح بإحسان ثم ذكر بعد ذلك الابتداء ثم قال: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ فلو كان الابتداء طلاقاً لكان الطلاق الذي لا تحل له فيه إلا بعد زوج هو الطلاق الرابع وعند هؤلاء إن بعض الفسوخ يقع بالتراضي قياساً على فسوخ البيع أعني الإقالة وعند المخالف أن الآية إنما تضمنت حكم الابتداء على أنه شيء يلحق جميع أنواع الطلاق لا على أنه شيء غير الطلاق فسبب الخلاف هل اقتترن العوض بهذه الفرقة يخرجها من نوع فرقة الطلاق إلى نوع فرقة الفسخ أم ليس يخرجها منه وكذلك لا يخرج إذا كانت الثلاث في كلمة واحدة لما روي من حديث ابن عباس وأنس كان طلاق الثلاث طلقة واحدة في حياة رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدر من خلافة عمر كما في التيسير وغيره، وكان يرى بطلاق الغضب توسعة دون توسعة هذين الطلاقين فلا يوسع فيه إلا على تقي مضطر بعد أن تثبت عنده شدة غضبه بأن تنتفخ أوداجه وتحمر عيناه ووجنتاه

وتظهر فيه مخائل زوال العقل لما روي أنه عليه السلام قال: لا طلاق في إغلاق قال مالك أي إكراه وقال الشافعي أي غضب كما في بداية المجتهد في باب النذر أو اليمين والله تعالى أعلم وأما ثلاث مرتبات فلا خلع وغضب فلا أراه يوسع فيها أبدا وكان رضي الله عنه ربما عاقب غلمانه إذا انتهكوا حرمان الله في جواريه بالإخصاء قلت: والأصل في ذلك ما في كتاب تيسير الأصول من أن الرسول p أعطى عليا السيف ليأتيه برأس رجل كان يتهم بمارية جاريته عليه السلام أم ابنه إبراهيم، فلما أتاه علي وجده في قعب الماء فأخذ بيده فأقامه ليقطع رأسه فلما قام إذا هو محبوب فتركه علي فلما أخبر النبي p بذلك قال له عليه السلام أحسنت يرى الحاضر ما لا يرى الغائب قلت: فليس قتل هذا الرجل أعني أمره عليه السلام عليا بقتله من خصائص النبي عليه السلام بدليل أن الأقدمين لم يعدوها من خصائصه عليه السلام بل جعلوها أصلا للتعزير وأنه يختلف باختلاف حال الفاعل والمفعول به. اهـ خليل وعزر الإمام لمعصية أو لحق آدمي حبسا ولو ما وبالإقامة ونزع العمامة وضرب بالسوط أو غيره وإن زاد على الحد أو أتى على النفس قال الخطاب في حاشيته هنا قال ابن ناجي في شرح المدونة في كتاب القذف الأدب يتغلظ بعظم الزمان والمكان ونحوهما فإن من عصى الله في الكعبة ليس كمن عصاه في الحرم ومن عصاه في الحرم ليس كمن عصاه بمكة ومن عصاه بمكة ليس كمن عصاه خارجها. اهـ — منه وبعضه بالمعنى.

ثم قال في آخر المسودة بعد أن ذكر جواز التشفع في التعزير والعفو وأما المصرون على فسادهم المشهورون في باطلهم فلا تجوز الشفاعة لأمثالهم ولا ترك عقوبتهم ليزدجروا عن ذلك وليرتدع غيرهم لماي فعل بهم. اهـ. منه أيضا باللفظ.

قيل: الأصل في التنكيل لسد الذريعة قوله تعالى: ﴿فإما تتقنهم في الحرب فشردهم بهم من خلفهم لعلمهم يذكرهم﴾ قال الجلال السيوطي تتقنهم تجدنهم وتشرد فرق بهم من خلفهم من المحاربين بالتنكيل بهم والعقوبة لهم لعلمهم أي الذين خلفهم يتذكرون يتعظون بهم، وقال القرافي في التنقيح التأديب والزجر إما مقدر كالحودود أو غير مقدر كالتعزير. اهـ.

فإذا كان التعزير غير مقيد بحد ويعظم بعض المفعول به وحفاوة الفاعل فلا مانع من أن تكون العقوبة من جنس الذنب وأن يفعل فيها ما يزيد على الحد المشروع للعقاب لقول خليل: ولو زاد أي التعزير على الحد المقدر شرعا أو أتى على النفس، قلت: ومن تدبر حديث الذين أتوا النبي ρ ثم اجتووا المدينة أي استوخموها فأمر لهم عليه السلام بلباق وأمرهم أن يخرجوا إلى البادية ليشربوا من ألبانها وأبوالها فغدروا عليها بعد أن قتلوا الراعي فنهض عليه السلام في آثارهم فلما لحق بهم سمل أعينهم وقطع أيديهم وأرجلهم وتركهم حتى ماتوا على تلك الهيئة علم أنه عليه السلام أنه إنما فعل بهم ذلك زجرا لأمثالهم أو تعظيما لعقوبتهم لعظم جرمهم والله تعالى أعلم.

وفي الشبرخيتي عند قول المصنف: أو أتى على النفس ففي العتبية عن مالك أنه أمر صاحب الشرطة بضرب شخص وجد معه صبي فوق ظهر المسجد وقد جرده وضمه إلى صدره أن يضربه ضربا مبرحا ويسجنه طويلا فضربه أربعمئة سوط فانتفخ ومات ولم يتعظم ما قال مالك وما أنكره في النوادر عن الواضحة قال مطرف: أتى إلى قاضي المدينة وهو هشام بن عبد العزيز المخزومي وكان صالحا برجل خبيث يعرف باتباع الصبيان قد لصق بسلام في زحام حتى أمني فبعث به هشام إلى مالك وقال: أتري أن أقتله؟ قال: لا ولكن أوجعه عقوبة فأمر بجلده أربعمئة وسجن فما لبث أن مات وما أنكره مالك، وفيه أيضا عند قوله: ولو زاد على الحد أي وإن كان الإمام يرى أنه يزيد على الحد أي وإن أداه اجتهاده إلى أنه يزيد على الحد.

وأما ما ثبت في صحيح مسلم عنه ρ قال: لا يجلد أحد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله تعالى، فقال المازري: تأول أصحابنا الحديث على قصر ذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يكفي ذلك القدر، وإلا فقد ضرب عمر رضي الله عنه من نقش على خاتمه وهو معن بن زائدة الذي نقش على خاتمه وأخذ شيئا من بيت المال وضرب صيفيا أكثر من الحد ونفاه إلى البصرة والكوفة وأمر بهجره فكان لا يكلمه أحد، فإذا تأمل هذا منصف علم أن التعزيرات موكولة إلى الاجتهاد وأن الأحسن فيها أن تكون من جنس المعصية والله تعالى أعلم.

فصل كان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا جزيل بركاته أسخى الناس وأجودهم بالمعروف يسدي معروفه على القريب والبعيد والبر والفاجر وذلك أن الله

تبارك وتعالى وجبله على الأخلاق المرضية عنده ففي الخبر عنه عليه السلام ما جبل ولي الله إلا على خصلتين السخاء وحسن الخلق، وفيه أيضا: السخاء خلق يحبه الله وعن النبي p: صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وكل معروف صدقة، ولا يحقر قليله ولا يستكثر كثيره من حديث أبي أن النبي p قال: يجمع الله يوم القيامة أهل المعروف بين يديه فيقول لهم وهو أعلم: من أنتم فيقولون: أنت أعلم سبحانه، إلا أن الناس كانوا يدعوننا في الدنيا بأهل المعروف فيقول الله تعالى صدقوا وصدقتم أنتم أهل المعروف وأهل الرحمة وأنا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، ولأرينكم اليوم من واسع من رحمتي وكرمي ما لم يكن لكم بحساب فتمنوا علي فلكم عندي ما تمنيتم بالغا ما بلغ، فيقولون: أي ربنا أول ما نتمنى عليك أنه كانت لنا عشائر وقرابات وإخوان كنا نصنع المعروف إليهم في دار الدنيا ابتغاء مرضاتك وإنه كانت لهم أعمال دون أعمالنا فنريد أن تشفعنا فيهم ولو على أن تهب لهم جميع ما أعددت لنا من خير فيدخلون به الجنة، فيقول تعالى لهم: أتروني اليوم كرمكم ومعروفكم وأنا أكرم الأكرمين قد وفرت عليكم ما أعددت لكم من خير وضاعفته لكم أضعافا كثيرة وأعطيت لكل واحد منهم مثل ما أعطيتكم فيخرون لله سجدا على ما أعطاهم من جزيل فضله فيقول لهم: ارفعوا رؤوسكم عبادي وأهل ودادي فليس المحل بمحل تكليف وإنما هو إكرام وتشريف فيذهبون إليهم فيأتون بهم حتى إذا قاموا بين يدي الله تعالى فيقول لهم: اذهبوا مع إخوانكم من أهل المعروف إلى جنتي فقد أبحتكموها تتبوؤون منها حيث شئتم فلو حاسبتكم لهلكتم ولرجحت سيئاتكم على حسناتكم ولكنني أجل أرباب المعروف عن أن أحاسب قوما قد شفعتهم فيهم ثم يأمر خزنة الجنة فتشيعهم إلى منازلهم في الجنة فهم أهدى إليها منهم إلى منازلهم في الدنيا وذلك قوله عليه الصلاة والسلام: أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة.

ومن حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله p: لا تحقرن من المعروف شيئا وإن صغر فإنكم إذا رأيتم مكانه سرركم، قال القاضي أبو محمد من أمثالهم في هذا المعنى قولهم: من حقر حرم يقول: من حقر ما يعطي حرم من سأل، وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا من جزيل بركاته لا يرى عندما يعطي أنه أعطى فأحرى أن يمن به أو يستكثر وليس ذلك إلا من سابق عناية الله

تعالى به، وذلك أن الله تعالى جبله على أخلاق الأنبياء واختار له المكارم تكريماً وجنبه المذام إعظماً له وتفخيماً.

وفي الحكم: من امتن بمعروفه واستطال فقد هدمه، وأنشدوا في المعنى:

أفسدت بالمن ما أسديت من حسن ليس الكريم إذا أسدى بمنان
وكان يقال: أحي معروفك بإماتته وعظمه بتصغيره وكثره باستقلاله، قيل لأعرابي إن
فلانا يزعم أنه كساك قال: المعروف إذا من به تكدر وإذا ستر كثر ومن ضاق قلبه
اتسع لسانه، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن
والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان
عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي
القوم الكافرين﴾ وفي الخبر عنه عليه السلام: ثم لا تجدوني بخيلاً ولا مناناً، وكان
الشيخ رضي الله عنه وأرضاه يعطي السائل الجزيل اليوم ويعطيه غداً، وكلما كان
أكثر عليه أحب إليه وجزيله ما يسديه لديه فكثيراً ما كنت أسمع الشيخ المصطفى بن
أحمد بن عبد الدائم رحمة الله علينا وعليه يقول: لقد جربت في ابن عمي هذا أنه لا
يحب منا إلا أكثرنا له مضرة وأكملنا عليه ثقلاً، ولو أحب منا غير مضر له لكان
المضر أحب إليه وأكثر المضرين لماله مضرة أكثر من غيره عنده محبة.

ولقد رأيتَه يزداد بشراً للطامعين ما لا يزداد لغيرهم ولعمري لهو أحق بأبيات النابغة
الذبياني من النعمان بن المنذر حيث يقول فيه:

فما الفرات إذا هب الرياح له ترمي غواربه العبرين بالزبد
يمده كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد
يظل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد
يوماً بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد
ولهو والله أحق ببيت القائل:

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ويروى أن عائشة رضي الله عنها كانت يوما جالسة بإزاء رسول الله ρ وهو يخصف نعلا فالتفتت إليه وقالت له: والله يا رسول الله لأنت أحق ببيت أبي كبير الهذلي من ابنه تأبط شرا حيث يقول فيه:

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل
فتبسم وقال يا عائشة: ما يسرني بهذا حمر النعم، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.
وكان يسدي على الأضياف ما لا تحصيه الألسنة بتعداد الأوصاف فكان يلقاهم بالطلاقة والبسطة ويحسن عليهم بما يشتهون من الفراش والبناء واللباس زمن البرد ويعاملهم بملذونات المطعومات كما ينبغي.

وكان إذا اشتد الزمان وضافت الأزمة أجود بمعروفه من الريح المرسلة فلا يأتيه ركب ولا وفد ويحب الرجوع من عنده لحسن ما يلقون عنده من كرائم المعاملات فلقد رأيتهم في زمن الغلاء وضيق المعاش كثيرا ما يمكث عنده الركبان العظام من أبناء الأشراف عربانا وزوايا وشرفاء وليس لهم هنالك غرض إنما يتجدد لهم كل يوم من إحسانه وطلاقة وجهه ما ينسيهم ما كانوا بصدده من أغراضهم، ولا يعتبرون ما يفوتهم من توفير أغراضهم فلعمري لهو أحق بأبيات الشاعر حيث يقول:

إذا الماعون أصبح حيث أمسى وأمسيت حيث أصبحت الوطاب
يود الركب أن لدنا أقاموا ثبيرا لا إياب ولا ذهاب
نفاوضهم لذائذ ما استلذوا ونطعمهم أطاعم ما استطابوا

الوطاب سقاء اللبن والماعون آلة الطعام من قدر ومرجل ومهماس وطاحن ويعني بالإياب الرجوع إلى الأهل وبالذهاب الذهاب في الحوائج، وثبيرا اسم جبل ويعني هنا مدة إقامته وهذا منه حفظه الله ورعاه حرصا على ما يحب الله من الأخلاق الرضية ففي الخبر عنه ρ : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته، قالوا: وما جائزته يا رسول الله، قال: يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة، ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه، قالوا: يا رسول الله وكيف يؤثمه؟ قال: يقيم عنده ولا شيء له يقريه به، وفي رواية: إن نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا منهم فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم.

هذه الأحاديث متظاهرة على الأمر بالضيافة والاهتمام بها وعظيم موقعها. وقد أجمع المسلمون على أن الضيافة من متأكدات الإسلام، ثم قال: قال الشافعي ومالك وأبو حنيفة والجمهور: سنة ليست بواجبة، وقال الليث وأحمد: هي واجبة يوما وليلة.

قال أحمد: هي واجبة يوما وليلة على أهل البادية وأهل القرى دون المدن، وقوله ρ فليكرم ضيفه جائزته، والضيافة ثلاثة أيام، قال العلماء: معناه الاهتمام به في اليوم والليلة وإتحافه بما يمكن من بر وألطف، وأما في اليوم الثاني والثالث فيطعمه بما تيسر.

وأما ما كان بعد الثلاث فهو صدقة أو معروف وإن شاء فعل وإن شاء ترك. وأما قوله ρ: إن نزلتم إلخ، فقد حملة الليث وأحمد على ظاهره وتأوله الجمهور على أوجه أحدها أنه محمول على المضطرين فإن ضيافتهم واجبة فإذا لم يضيفوهم فلهم أن يأخذوا ضيافتهم من مال الممتنعين.

والثاني أن المراد لكم أن تأخذوا من أعراضهم بألسنتكم وتذكروا للناس لؤمهم والعيب عليهم وبخلهم وذمهم، والثالث والرابع لم نذكرهما لضعفهما. اهـ من خط بعض العلماء يزعم أنه نقله من حاشية النووي على مسلم، قلت: كان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا جزيل بركاته لا يخصص جوائزهم باليوم والليلة بل يجعل الجائزة مستمرة عليهم دائمة الوصول منه إليهم ما أقاموا، فوالله لقد رأيتهم يتحفهم عندما ينزلون به بالتحف الجزائل فيشدد لهم الخيام العظام وتجعل فيها الكلل والطنافس والزرابي والنمارق ثم يأتيهم من كل أنواع الطعام تمرا وعسلا ولبنا وسكرا ودهنا ولحما وأرزا وخبزا وغير ذلك مما لا تحويه العبارة ولا تكتنفه الإشارة في أحسن الأواني وفي جفان كالجوابي وتأتيهم قرب الماء ليتكلموا مما يشتهون حتى لا يخطر ببال أحد منهم شيء من أنواع الكرامة إلا وهو تحت يده إذ ذاك ويواصلهم بهذا ما أقاموا أسبوعا أو أسبوعين أو شهرا أو شهرين أو أقل أو أكثر، وكلما طالت إقامتهم ازداد فرحه لهم وسروره بهم، وكلما نفذ شيء مما كان معدا لهم استجد لهم ما ينسيهم فيه من أنواع الكرامة وكان لا يتخذ الملوذات إلا للضياف فلقد كان يأتيه التمر الكثير أو العسل بالتضاعف وينفذ هذا ولم يطعمه إلا ضيف أو مريض من مرضى

المسلمين، أو صبي من أولاد المؤمنين والأضياف وهم المقصودون به رأسا ولكثيرا ما أراه ينحر الناقة الكوماء أو يذبح البقرات النواعم أو ينفي العدد الكثير من الأغنام ولم يطعم غير الأضياف شيئا من هذا كله، ولقد رأيت يأتية الحصير الأحمر الذي لا يرى أحسن منه ولا مثله إلا نادرا ثم يتقطع سيرا سيرا ويتكسر جريدا جريدا وما تفرشه إلا ضيف.

وكان لا يعد النفائس ولا يتخذها إلا للأضياف جبلة جبلة الله تعالى على كرائم الأخلاق ونفائس المعاملات قلت: وذلك لأن الضيافة والإحسان هما من أحسن ما تستعمله الكرام ولا يواظب عليها إلا الفتى الكمي الهمام، إذ أول من سنها إبراهيم عليه السلام، وحث عليها نبينا μ بأبلغ جوامع الكلام فقال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه.

ويروى أنه قيل لإبراهيم عليه السلام: بما اتخذك الله خليلا؟ قال: بثلاث: ما خيرت بين أمرين إلا اخترت الذي لله على غيره، ولا اهتممت بما تكفل لي به ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف، وقال المداني: أول من سن القرى إبراهيم عليه السلام، وأول من هشم الثريد لقومه بمكة هاشم بن عبد مناف، قيل: وبذلك سمي هاشم وكان اسمه زيد، وأول من أفطر جيرانه على طعامه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهو أول من وضع موائده على الطريق، وكان لا يرجع إلى بيوته مما يتركون شيء مع كثرة ما يفضل عنهم ونفاسته، وكنت أرى ذلك لأنه إنما أخرجه من بيوته لله فلا يقبل أن يعود إليه منه شيء وذلك لما جبل عليه من مكارم الأخلاق.

يروى أن عليا زين العابدين بن الحسين بن علي كرم الله وجهه لما مدحه الفرزدق أعطاه ما تحت يده من الدراهم فأباه الفرزدق وقال: يا سيدي إنما مدحتك لله تعالى، فقال له: هيهات يا مبارك خذه ولك ما رجوت من الله تعالى فإننا أهل بيت لا ترجع إلينا هدايانا.

وكان عبد الله بن عباس أول من وضع موائده على قارعة الطريق، فكان إذا خرج من بيته طعام لا يعاد إليه منه شيء، فإن يجد من يأكله وضع على الطريق.

وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى موجبات الرحمة إطعام الأخ المسلم الجائع.

وقال الشيخ الجيلاني رحمه الله:

فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام ولو كانت الدنيا بيدي
لما اخترت عن إطعام الجائع شيئاً.

قاله ابن حجر في ترجمته، وقال الأصمعي: سألت عيينة بن وهب عن مكارم
الأخلاق فقال: أوما سمعت قول عاصم بن وائل حيث يقول:

وإننا لنلقى الضيف قبل نزوله ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك
وقيل تمام الضيافة طلاقة الوجه عند أول وهلة، وإطالة الحديث في المؤاكلة والبشاشة
في الوجه خير من القرى، قال شمس الدين البدوي:

إذا المرء وافى منزلاً منك قاصداً قراك وأمته إليك المسالك
فكن باسمها في وجهه متهللاً وقل مرحباً سهلاً ويوم مبارك
وقدم له ما تستطيع من القرى عجولاً ولا تبخل بما هو هالك
فقد قيل بيت سالف متقدم تداوله زيد وعمرو ومالك
بشاشة وجه المرء خير من القرى فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك
وأما معاملة الشيخ رضي الله عنه وأرضاه مع أقاربه، فلقد كان لهم فيما يأملون
ويسعفهم بجميع ما يريدون يمتثل فيهم ما قال تعالى: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ وقوله:
﴿وما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين﴾ وقوله عليه السلام: «خيركم خيركم لأهله
وأنا خيركم لأهلي» أخرجه السيوطي في الجامع مرفوعاً فهو لهم كالأب الحفي والزوج
الكريم الرضي فكثيراً ما أسمع يقول لإخوانه وأبنائهم ما دام الله يمنحني لكم فلا
تتبعوا في شيء بل كلوا من رزق ربكم واشكروا له.

وكان إذا أتاه رسول أحدهم في حاجة يسارع إلى قضائها مسارعة الأم الشفيقة إلى
أخذ ولدها من النار مع السكون والاطمئنان وكان يتفقد أحوالهم ولا ينساهاهم، ورأيت
من إحسانه مع أبنائه إخوانه ما لا أقدر على التعبير عنه فلقد كنت أراه يأتيه أحدهم
في الليل أكثر من عشر مرات يتتوع في تقنات الصغر بأن يقول له: اطلب التمر
فإذا أعطي له قال اطلب العسل فإذا أعطي له قال اطلب الدهن إلى أن تمام الناس
كلاً ولا يتذكر قلبه شيئاً إلا سأله بلسانه ومع ذلك لا يزيد شيخنا عندما يناديه على
أن يقول له: ماذا تريد يا نعمة قلبي ولا يقبل أن ينتهره أحد.

وأما صنيعة مع الأخوات الكريمات فهو والله أحسن وأجمل وكذلك بنات الإخوان، فلقد كان لهن الأب البر الحفي البذول النصوح وإحسانه مع جميع الأقارب وجوده عليهم لا يقدر قدره إلا العلي الأعلى، فكان لا يسأله أحد منهم شيئاً فيقول: لا، ويلين لهم جانبه أتم اللين ويكلمهم بما تطيب نفوسهم به مع ذلك فلا يخرج في كل ذلك عن الحد الذي حده الله تعالى لنبيه عليه السلام بمعنى أنه إنما يسعفهم ويسعف غيرهم إذا كان العطاء سائغاً ممكناً وفيما ينبغي وإلا فهو أبعد الناس من البذل حينئذ، وهو كموروثه ρ في الرتبة الوسطى التي لا يتطرق إليها الشح ولم يفض إلى حد التبذير، فهو المتأدب بالآداب القرآنية وقد قال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾. وقال: ﴿ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً﴾.

وقد أرشد تعالى إلى الحالة التي تنبغي بقوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

وأرشد أيضاً إلى عدم إضاعة المال وعدم التسبب في إضاعته بقوله: ﴿ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيماً﴾ وفي الخبر عنه ρ أنه كان إذا سئل فأراد أن يفعل قال: نعم، وإذا أراد أن لا يفعل سكت، وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه لا يعطي إلا بالله ولا يمنع إلا بالله ولا يتصرف في أمر ما إلا به مع ما جبله الله عليه من الأخلاق المرضية والطبائع المحمدية، فكثير ما أسمعته عندما تريد الناس منه ما لم يؤذن فيه يقول: القلوص مأمورة بمعنى أنه لا يتعجل في أمر قبل الإذن الإلهي.

وأما سيرته مع نسائه الكريمات المطهرات الطيبات فقد كان يحسن إليهن أتم الإحسان، ويعاملهن به في كل أوان، فكان يعطيهن من الأموال أنفسها لا تأتيه هدية فيها حلي أو حلل نفيسة إلا بذل لهن من ذلك ما يشتهين ولا يقول لهن إلا ما يرضيهن، ويتعاهد أهليهن بالعطاء ويخدمهن الخدم ويأمرهن بمطاوعتهن وليس يكلفهن إلا بما كلفهن الله تعالى من صلاة وصيام ونحو ذلك، وذلك منه أخذاً بقوله

p من رواية أبي هريرة: قال p: المحسن إلى نسائه وعياله وأولاده يعطى درجة المجاهدين في سبيل الله أخرجه الترمذي.

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله p: أفضل الصدقات بعد الزكاة درهم تنفقه على نفسك تصونها عن مسألة الخلق ودرهم تنفقه على زوجتك ودرهم تنفقه على ولدك، وما ملكت يمينك تصونهم عن الحاجة إلى الناس فيكتب الله سبحانه لك أجره سبعين ضعفا، أخرجه النسائي وغيره من حديث معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله p: ابدأ بنفسك ثم بمن تعول. رواه الشيخان، وقال تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ أي ما فضل عن الحاجة، وقال p: من أمسى تعبانا ليصون أهله عن مسألة الناس أمسى مغفورا له، وكتب الله سبحانه وتعالى أجره مضاعفا سبعين ضعفا. أخرجه البيهقي من طريق أبي أمامة مرفوعا.

ومن حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله p: من كان تحت يده شيء فليحسن إليه فقال رجل يا رسول الله ليست لي زوجة ولا ولد ولا عقيلة وما أصبح في ملكي إلا دجاجة فقال له رسول الله p: لو قصرت في علفها يوما لم يكتبك الله من المحسنين. أخرجه النسائي وغيره.

ومن حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله p: عليكم باللطف والرفق بنسائكم لا تظلموهن ولا تضيقوا عليهن فإن الله سبحانه وتعالى يغضب للمرأة إذا ظلمت كما يغضب لليتيم. أخرجه الترمذي.

وقال p: خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي، ما أكرم النساء إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم، أخرجه السيوطي في الجامع مرفوعا.

ومن حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله p: أول ما يحاسب الرجل يوم القيامة على صلواته ثم على نسائه وما ملكت يمينه، إن أحسن عشرتهن أحسن الله تبارك وتعالى إليه، وأول ما تحاسب المرأة على صلواته ثم على حق زوجها، قالوا: يا رسول الله إن فلانة صوامة قوامة إلا أنها تؤذي زوجها وجيرانها بلسانها، قال: هي في النار، وقال p: إن المرأة إذا آذت زوجها بلسانها لا يقبل الله صلواتها ولا حسنة من حسناتها حتى ترضيه أخرجه البيهقي.

ويروى أن إبراهيم عليه السلام شكى إلى الله خلق سارة فأوحى الله إليه إنني خلقتها من ضلع أعوج وكل النساء كذلك وإنك إن اردت أن تقيم الضلع كسرتة فاصبر عليها والبسها على ما فيها إلا أن ترى نقصا في دينها، وبالجملة فأخلاقه الكريمة المرضية معهن لا تحصى ولا تعد.

وأما سيرته مع الخدم فهي السيرة المحمدية المرضية عند الله تعالى كأن يحسن إليهن أكمل الإحسان، ويترفق بهن في كل الأحيان، فكان لا يغلظ عليهم في القول، ولا يؤذيهن بالفعل إلا إذا انتهكت حرمت الله تعالى فيغضب الله تعالى، وكان ينهى أبناءه الكرام عن ضرب العبيد ويوصيهم بالرفق واللين معهم ويقول لهم: إن النبي ρ كان يقول: حسن المملكة نماء وسوء المملكة شؤم، وكان يقول: ما جعل الرفق في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه، وكان يقول: إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف. أخرجه الشيخان.

وفي الخبر عنه ρ أنه توفي وهو يكرر الصلاة وما ملكت أيماكم، وعنه ρ أنه كان يوصي على العبيد ويقول: إخوانكم خولكم أطعموهم مما تطعمون واكسوهم مما تكسون ولا تكفوهم من العمل ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم.

وفي الخبر إن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم.

وفي الخبر عنه ρ : اتقوا الله في الضعيفين: المرأة وال خادم وهذا كله ما لم يعصوا الله في ساداتهم فمن كان منهم كذلك فربما أمر بتأديبه.

ويحكي ما روي في الصحاح أن النبي ρ في حجة الوداع كان هو وأبو بكر تحتها راحلتان فنزلا للمقيل وسار غلام لأبي بكر في الراحلتين يرعاهما فلما أرادوا المسير دعوا الغلام فأتى براحة رسول الله ρ وأضل راحلة أبي بكر، فجعل أبو بكر τ يضرب الغلام ويقول له: هما راحلتان وتضل إحداهما، والنبي ρ يضحك من ضرب أبي بكر للغلام ويقول: انظروا ما يصنع هذا المحرم، ولم ينهه عن ذلك.

وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه يعامل الجيران بما يمكن أن يقع من الإحسان فكان يتفقد أحوالهم غدوهم وأصالحهم فلا يبيتون في ضيق وعياله في سعة معاذ الله أن يكون ذلك أبدا، وكان صبيانهم أهم عنده من صبيانها، ونسأؤهم عنده كنسأؤها، وكان يكسو عياله قبل عياله، ويحمل أثقالهم قبل أثقاله، ويرأف بهم في كل حالة من

أحواله، وذلك منه حفظه الله تعالى رعيًا لما يرضي الله جل وعز، ففي الخبر عن النبي ﷺ: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه وليس بمؤمن من لا يأمن جاره بوائقه، أخرجه مسلم وغيره.

قال ﷺ: إذا تواصلت الجيران كثر خير بيوتهم ونزلت عليهم الرحمة، أخرجه الطبراني في الكبير.

قال ﷺ: الجيران أربعة جار له ثلاثة حقوق وهو الجار المسلم ذو القربى، ثم الجار المسلم الجنب القريب الدار ثم الجار المسلم البعيد الدار ثم الجار الذمي القريب الدار، ثم الجار الذمي البعيد الدار.

أما الجار المسلم ذو القربى فله ثلاثة حقوق حق الجار وحق الإسلام وحق القرابة، وللجار المسلم الجنب حق الجار وحق الإسلام، وحق قرب الدار، وللجار الذمي القريب الدار حقان حق الجار وحق قرب الدار، وللجار الذمي البعيد الدار واحد وهو حق الجار، وإن استووا فالأقرب بابا وأربعون دارا جار أو من يبلغه النداء.

ومن وصايا النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما وجهه إلى اليمن قال: يا معاذ لا تشبع وجارك جائع أخرجه الترمذي وقال ﷺ: إذا طبخ أحدكم اللحم فليكثر ماءه ليتفضل على جيرانه بفضل مرقه، ولا يؤذيهم بقتار قدره، فإن فعل فيجعل لهم نصيبا منه. أخرجه البيهقي.

وفي رواية: إذا أعطيت بنيك من ما ليس عند جيرانك فلا تتركهم يخرجون إلى بنيتهم ليلا يرون ذلك فيغيظهم وإلا فناولهم منها على قدر طاقتك.

وقيل لرسول الله ﷺ: من المحسن؟ فقال: من أتى عليه جيرانه بالإحسان فهو المحسن ومن ذكروه بالإساءة فهو المسيء أخرجه الطبراني في الأوسط.

وكان رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا جزيل بركاته أكمل الناس إحسانا على الرفيق في السفر ويقول: هو الجار الجنب الذي أوصى الله به فلقد كنت معه في سفر وكان معنا ركب من قبيلة إدو الحاج ليرد لهم شيخنا أموالهم من عند لادم، فكان لا يأتي طعام جيد إلا أرسله إليهم واختصهم به دون غيرهم وكان إذا أراد تحليف أحد من لادم عن أموال دولحاج لا يحلفه إلا في مصاحف إدولحاج وكان يتألفهم بكل ما يراه أليق بخواطرهم وما أتاه أحد بمائدة موجبة إلا أرسلها إليهم، وكان أشد طالبا

لأموالهم منهم وكان فيهم رجل ضعيف أعمش العينين صغير القدر نحيف الجسد ملازما لتلاوة القرآن العظيم وهو من بيوتات العز فيهم، فكان شيخنا رضي الله عنه يتعهده بالكرامة ويتهم له ما لا يتهم لغيره وكان يحوطهم ويحوط أموالهم ما لا يحوطون أنفسهم ويعينهم فيما يحتاجون إليه، وتلك عادته مع سائر الرفقاء في كل سفر وكان يباسطهم بما يقوي رجاءهم ويزيل غمهم ويريمهم البشر في وجهه ويغضي عن عيوبهم وعثراتهم كسائر المؤمنين، وكان أستر على سائر المسلمين من أنفسهم فكثيرا ما كنت أسمع الرجل من المؤمنين يحكي عن نفسه أو بعض أقاربه أو عشيرته الأمر يعده مفخرة أو لا يرى به بأسا وهو لا ينبغي لمثله وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا جزيل بركاته يمر عليه بعض النصحاء المأمونين فيخبره عما فيه مما لا ينبغي ويستتره عليه ولا يواجهه بذلك مخافة الخجل عليه وذلك منه رضي الله عنه تخلقا بالأخلاق المحمدية فقد قال تعالى في نعت نبيه صلى الله عليه وسلم عزيز عليه ما عنتم أي شديد عليه عنتم أي لقاءكم العنت المشقة أو المكروه حريص عليكم أي شديد الطلب لهدايتكم على ما فيه صلاح معاشكم ومعادكم بالمؤمنين رؤوف أي شديد الرحمة رحيم أي يريد لهم الخير وقال: وكان بالمؤمنين رحيمًا، وفي الخبر عنه عليه السلام: إنما يرحم الله من عباده الرحماء، وفيه أيضا: الراحمون يرحمهم الله وفيه أيضا إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء.

وعنه عليه الصلاة والسلام: من ستر عورة مسلم ستر الله له سبعين عورة، ثلاثين منها في الدنيا وأربعين في الآخرة، وعنه ρ من تتبع عورات المسلمين تتب الله عوراته، ومن تتب الله عوراته فضحه وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وصولا للرحم وذلك لما جبله الله تعالى عليه من محامد الأخلاق، فقد قال تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ أي واتقوا الأرحام، وقال أيضا في مدح بعض عباده: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ قال في الذهب الإبريز: قال البغوي: والأكثر على أنه أراد صلة الأرحام، وفي الحديث الرباني: أنا الله الرحمن وهي الرحم شققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته وفيه خلق الله الخلق فلما فرغ منه فأخذت بحق الرحمن فقال مه، فقالت: هذا مقام العائذ بك من

القطيعة، فقال: نعم ألا ترضين أن اصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذلك لك.

وفيه من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه، ما من ذنب أحرى بأن تعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم، وفيه: لا يدخل الجنة قاطع رحم، وفيه: ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها. اهـ من الذهب الإبريز.

وفي الخبر أيضا: إن صدقة اسر تطفئ غضب الرب وإن صلة الرحم تزيد في العمر وإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه كثير التواضع تحت جلال الله تعالى شديد الحياء منه قلت وذلك لعظيم ما أشهده الله تعالى من جلاله وكماله، قال: من شهد جلال الله تواضع تحته لا محالة، واستحيا منه أيضا، فلقد كنت أصحبه في الأسفار فلكثيرا ما كنت آتية بالوسادة فلا يلتفت عليها ولكثيرا يضطجع بلا وساد ولا يأنف عن حصير كائنا ما كان إن وجدناه جيدا اضطجع عليه وإن وجدنا غير ذلك لم يأباه ولم يأنف عنه، ولربما نقيل في الصحراء فلكثيرا ما يقيل في الصحراء ولا يفترش إلا سجادته، وإذا بسط له أهدنا ثوبا أباه، ولكثيرا ما كان يمنعنا أن نقف لنمنعه وهج الشمس إذا كان اليوم حارا وربما قبل وأراه إنما يقبل لما روي أن النبي ﷺ كان أصحابه يمسكون الظل على رأسه وقوفا، وفي الخبر أنه عليه السلام لما أتى هو وأبو بكر الأنصار ونزلوا بدار أبي أيوب الأنصاري واجتمع الناس إليهم وكان الأنصار لا يعرفون رسول الله ﷺ فلما جلسوا أسند رسول الله ﷺ ظهره على الحائط وجلس أبو بكر للناس يحدثهم الخبر فظنوا أنه رسول الله ﷺ فلما ولى الظل ولحقت الشمس رسول الله ﷺ قام أبو بكر وأخذ رداءه ووقف به على رأس رسول الله ﷺ يظله فعرف الأنصار رسول الله ﷺ. ومن تواضعه رضي الله عنه أنه كان يسلم على كل مسلم يلقاه صيبا أو كبيرا حرا أو عبدا عزيزا أو ذليلا وربما قبل رأس المسكين عندما يجيء يزوره وربما قبل رأس العبد أيضا ويمر يده الشريفة على رؤوس الصبيان وغيرهم ويصغي لمن يحدثه ويجعل سمعه إليه ويميل وجهه نحوه كالمتوجه بنيته لما لديه إلا إذا كان في وقت اشتغاله في ورده أو صلاته فيكون كالغريب لا يعرفهم ولا يعرفونه، وكان يباسط المرید

والخادم والعبد ويمازحهم بغير دعابة مفرطة، ولا يقول لهم في ذلك إلا ما يليق بخواطرهم وكان يمازح الصبي ويباسطه تواضعا منه رضي الله عنه وأرضاه وعافانا وعافاه وحمد في كل الأمور مسعاه.

ومن تواضعه أيضا أنه كان لا يعيب على أحد شيئا ولا يذم شيئا وكلما استحسنه الناس يستحسنه أدبا منه وتواضعا ما لم يكن في ذلك إثم فيستقبحه بل ولا يحضره أهل الإثم من الظلمة والسفهاء إلا متواضعين خاضعين يسألون منه الدعاء ويرتجون منه البركة فكان لا يقنطهم من رحمة الله ولا يواجههم بما يكرهون بل يلقاهم بلين القول وحسن الكلام تأليفا لهم وكان يجلس القادم إليه على سجاده الشريفة المطهرة تواضعا منه إلا أن لا يقبل القادمون عليه، وهذا كله لما في التواضع وحسن العشرة من جزيل الخير في الدنيا والآخرة.

ففي الخبر عنه p: من تواضع دون قدره رفعه الله.

وفي الخبر عنه p أنه كان أكثر الناس تواضعا، وفي كتاب نزهة الراوي وبغية الحاوي: أما تواضعه p فقد اشتهر به في الكتب السالفة، فمنهم مؤاكلته الضعفاء والمساكين والموالي مثل بلال وصهيب وابن أم مكتوم ومجالسته إياهم وإكرامه لهم وتقديمه إياهم على الأشراف من قومه، حتى بلغ من ذلك أن زوج مولاه زيدا ابنة عمته زينب بنت جحش ومن تواضعه p: إن هذه الدنيا شاع سببها في العالمين، وقال p: «تسبوا النيا ثم مدحها» فقال: نعمت المطية للمؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر وقال: لا تسبوا الدهر رواه البخاري من حديث أبي هريرة تلفظ ولا تقولوا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر وفي لفظ له لا يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار.

فمعنى قوله: فإن الله هو الدهر أي المدبر للأمر أو على حذف مضاف معناه أنا مالك الدهر وأنا مقلب الدهر ولذلك عقب بقوله في رواية البخاري: بيدي الليل والنهار.

ومن تواضعه p أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه قلت: وكذلك والله كان حال الشيخ رضي الله عنه وأرضاه ولا زال عزه يسمو إلى يوم الدين، ثم قال: ومن تواضعه p أنه يمزح فلا يقول إلا حقا

رواه أبو هريرة وقال له رجلا كان في إبله يا رسول الله احملني فباسطه عليه الصلاة والسلام فقال أحملك على ابن الناقة وكانت العرب تقول ابن الناقة للذي لم يعظم من أولاد الإبل فسبق ذلك إلى خاطر الرجل فقال: ما عسى يغني عني ابن الناقة فقال p: وهل يلد الجمل إلا الناقة، أخرجه أبو داود والترمذي.

وباسط عمته صفية وهي عجوز فقال لها: إن الجنة لا تدخلها عجوز، فلما جزعت فقال لها: إنك ستعودين إلى صورة الشباب في الجنة.

وفي رواية الترمذي عن الحسن أنه أتته عجوز فقالت: يا رسول الله ادع الله لي أن يدخلني الجنة، فقال: يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز، قال: فقلت وهي تبكي، فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز فإن الله تعالى يقول: ﴿إنا أنشأناهم إنشاء فجعلناهم أبقارا عربا أتربا﴾ وكان p يمازح أصحابه ويخالطهم ويحدثهم ويؤانسهم ويأخذ معهم في تدبير أمورهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره.

قلت: وهكذا كان شيخنا رضي الله عنه يفعل، ثم قال: والدعابة بضم الدال وتخفيف العين المهملة هي الملاطفة في القول بالمزاح وغيره.

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله: إنك تداعبنا قال: إني لا أقول إلا حقا أخرجه الترمذي وحسنه.

وما ورد عنه في النهي عن المداعبة على الإفراط لما فيه من الشغل عن ذكر الله والتفكر وغير ذلك والذي يسلم من ذلك هو المباح، فإن صادف مصلحة مثل تطيب نفس المخاطب فهو المطلوب الموافق لما كان عليه p بل ربما كان مستحبا، فقد قال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله p أحسن الناس خلقا كان لي أخ يقال له أبو عمر وكان له نغر يلعب به فمات نغره فدخل على النبي p ذات يوم فرآه محزونا فقال: ما شأنه قلنا: مات نغره، فقال: يا أبا عمير ما فعل النغير، رواه البخاري ومسلم.

قال الجوهري: النغير تصغير نغر وهو طير صغير كالعصفور وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا جزيل بركاته متأدبا بالآداب المحمدية فكان إذا أتى بطعام لا يعيبه وذلك لما روي أنه p كان لا يعيب طعاما قط إن اشتهاه أكله وإلا تركه قيل: ومن آداب الطعام المتأكدة أن لا يعاب، ثم قال: وذهب قوم إلى أن العيب

إن كان من جهة صنعة الله تعالى أعني الخلقة الأصلية كره كأن يقال: ما أقبح ملوحة هذا المعدن، أو ما أقبح حموضة هذا الرمان ونحو ذلك وأما ما كان من جهة صنعة الأدمي فلا يكره ومن تواضعه رضي الله عنه أنه كان يحب الفقراء والمساكين ويجلسهم على سجادته وكان لا يتميز بفرش في بيته بل ولا إناء للشراب وكان يعود المريض ويشيع الجنازة ويصلي عليها ويهتم بجنازة الغريب والمساكين أكثر من تهممه بغيرهما، وكانت المساكين منه على بال في كل شيء وقع ما خصه الله به من المعالي لا يرى لأحد فضلا على أحد إلا بمقتضى الشرع، فكان تواضعه وبذله وحيائه وغير ذلك عدلا لا يخرج بشيء من ذلك عن السنة فلا يسرف في ذلك كله ولا يعمل إلا بالله لله عملا خالصا لا يرى فيه نفسه ولا غيرها من المخلوقات بل يعمل بالله لله سبحانه وتعالى. اهـ.

وكان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه أكمل الناس حياء فكان لا يتكلم بما لا ينبغي الكلام فيه شرعا أو طبعا أو عادة، وكان لا يرفع صوته إلا باسم الله تعالى أو قراءة القرآن العظيم، وكان لا يحسر عن رأسه ولا يلتفت إلا جميعا حياء من الله تعالى، وكان لا يحد النظر في وجه إنسان ولا يمد رجليه ليضيق بهما المجلس على أحد. قلت: والحياء من أحسن أوصاف أهل الإيمان، وحقيقته كما في كتاب المنة على اعتقاد أهل السنة تنزه النفوس الشريفة عما لا يحل ذكره شرعا وعادة، ولذلك قال النبي ﷺ: الحياء شعبة من الإيمان.

وفي حديث آخر عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: أفضل شعب الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان وفي حديث آخر عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ الحياء والعيا شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق والمراد بالعيا في هذا الحديث الصمت والمراد بالبيان ما كان بمعنى التشدد، وفي الحديث: أبغضكم على الله الثرثارون والمتفيهقون والمتشدقون وقوله عليه السلام شعبة أي طائفة منه يقال في يد فلان شعبة من هذا أي طائفة وقال ابن خلد حدثني الشيخ ابن حاتم العلي قال حدثني عبد الجبار بن عبد الله قال: خطب المأمون فذكر الحياء في خطبته فقال حدثنا هشيم عن منصور

عن الحسن عن أبي بكرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة والبذاء من النفاق والنفاق في النار.

وقال: حدثني أبو إسحاق المنصور قال: حدثني الحسن بن أحمد الخثعمي حدثنا أبو يعلى الأموي قال: حدثنا يحيى بن أكثم قال: حدثنا عبد الله بن هارون بسنده عن أبي بكرة عن النبي ﷺ أنه قال: الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة، وقال عبد الله بن هارون: حدثني المأمون فذكر هذا الخلق الذي اختص الله به الإنسان دون جميع الحيوانات يريد الحياء فانظر يرحمك الله إلى الحياء ما أكبر قدره وأعظم غناه، فلولا الحياء لم يقر ضيف ولم يوف بوعده ولم تقض الحوائج ولم يتحر الجميل أو يتكبر القبيح في شيء من الأشياء.

وقال بعض أهل العلم إنما جعل الحياء من الإيمان وهو غريزة والإيمان اكتساب لأن المستحي ينقطع بالحياء عن المعاصي ولو لم يكن تقيا فصار كالإيمان الذي يقطع عنها وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلا الحياء
وقال غيره:

إذا رزق الفتى وجها وقوحا تقلب في الأمور كما يشاء
وقال حاتم الطائي في جاهليته:

رب بيضاء كالمهى تتهادى قد دعنتني لنفسها فأبيت
لم يكن شيمتي العفاف ولكن كنت ندمان زوجها فاستحيت

ومن قول الحكماء: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر والشكر دليل الزيادة والزيادة دليل بقاء النعمة والحياء دليل على الخير كله.

وقال علي كرم الله وجهه: الحياء سبب لكل جميل ومن حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: الحياء لا يأتي إلا بخير.

وقال عليه السلام: لكل شيء خلق وخلق الإيمان الحياء.

وقال ابن عمر: الحياء والإيمان قرنا جميعا فإذا رفع أحدهما رفع الآخر.

ومن حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ الحياء خير كله.

قال بعض العلماء إنما عني رسول الله ﷺ الحياء الرادع عن ارتكاب المحارم والتلطيخ بالمدانس لا الحياء الداعي إلى العي والفهاهة القاعد بالمرء عن بلوغ الحاجة في الخطاب وشأو الحجة وقال ابن خلاد: حدثنا الحسن بن علي السراج قاضي الأهواز قال: حدثنا عثمان بن عمر قال: حدثنا حفص بن مسلم عن عبد العزيز بن حصين قال: قال لي عبد الكريم أبو أمية: يا عبد العزيز إن الحياء حياءان، حياء إيمان وحياء حمق فانظر أن لا يكون حياؤك حياء حمق.

ومن حديث ابن مسعود عن رسول الله ﷺ عليه وسلم أنه قال: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت، قال: ومعناه الحث على الأعمال التي لا يستحيا منها وأنشدوا في المعنى: إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشاء وقال آخر:

إذا لم تخف ربا وتخش عواقبا ولم تتقه عارا فما شئت فاصنع
وكان الشيخ رضي الله عن وأرضاه أكمل الناس مروءة، فكان أحسهم خلقا وأفضلهم
عشرة وأعفهم نفسا وأسأخاهم كفا وألينهم جانبا وأشجعهم قلبا وأصدقهم لهجة وأبرهم قولا
وأوفاهم عهدا وأشكرهم لنعم الله تعالى وأحسنهم جوارا لها فمن كمال مروءته أنه كان
لا يقبل أن يرى ضيم على من ينتسب إليه أي انتساب كان فكان يرعى الجار ويحمي
بنفسه الشريفة ماله وولده ويحمي الذمار ويكرم الصغار ويجل الكبار ويحب الأبرار
ويعين أهل المروءة على نوائب الأدهار ويسعف الأصبهار ويقيل العثار ويقبل
الاعتذار، ولا يحوم حول حمأة العار ولا الشنار ويسرمد هذا كله بمتابعة الأخلاق
النبوية والخلائق المحمدية من غير أن يتخلف عما هو أكمل عند الله تعالى فكان
يجمع الأيتام والأرامل ويكرمهم ويحسن إليهم أتم الإحسان حتى يكبر اليتيم ويصير
أخا القوم ويتزوج المتأيمة من تلك الأرامل أو يأتيها الموت ولقد رأيت الصبيان الأيتام
تحت يده وكأنهم أبناء الملوك يشربون قبل بنيه ويأكلون من طعام ضيفه ويتسلطون
على جميع عياله ليست بهم ضغة يتم ولا رقة فقد أب ولا وحشة قرابة لا يخافون لومة
لائم على ما يفعلون يبعث منهم إلى المكاتب من فيه قابلية التعليم ويقوم بوظائف

معلمه حرصا على أن يعلمه ويجعل الآخرين فيما هو أليق بطبائعهم ثم يعامل كلام بمراده ولقد رأيت من حسن صنيعه مع تلك الأرامل ما لا يمكن الأب الحفي البر أن يعامل به بناته ولا يمكن الزوج الرضى ذي المروءة أن يعامل به نساء بيوتاته يتحكم فينفذ حكماتهن ويتمنين فيعطين أمنيتهن فلقد كنت كثيرا ما أجد بيوت الأرامل الضعيفات التي لم تكن من زوجاته ولم يكن يجمعه بهن رحم ولا قرابة فيهن الطنافس والنمارق والزرابي وتخدمهن الخدم كما ينبغي وذلك من كمال مروءته لما تعلقن به فكان أكمل الناس اعتناء بالمروءة وأكثرهم حثا عليها وكان أهلها عنده بمنزلة لا تساويها منزلة يعينهم في النوائب ويأمر بإعانتهم والإغضاء عن عثراتهم وكانت أحب الشيم إليه وأكمل الطبائع لديه فلقد رأيت إنسانين كانا مقيمين ببلده الشريف ثم ذهبا إلى أرض بعيدة وانتسبا إلى أنهما من تلاميذه فأظهر الله عليهما فضله جدا فلما أخبر بذلك قال: ما غفلت عنهما ولا خرجا من همتي منذ انتسبا إلى تلاميذ فانظر رحمك الله بخ بخ قلت: وحقيقة المروءة هي اجتناب ما لا يحل شرعا وعادة مع التطبع بمحاسن الأخلاق ومكارم الشيم مع نزاهة النفس وعلو الهمة والتزام الأنف والتكرم كما في كتاب المنة في اعتقاد أهل السنة وفيه أن معاوية رضي الله عنه سأل رجلا من رجلا من ثقيف ما المروءة فقال: تقوى الله تعالى وإصلاح العيشة وسأل رجلا من قريش ما المروءة فقال: إطعام الطعام وضرب الهام يعني الشجاعة فسأل عمر بن العاص عن قولهما فقال لهم عمرو لقد أجاد الثقيفي وأما القرشي فبين الفتوى ولكن المروءة أن تعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقيل للعائبي ما المروءة فقال إخفاء ما يستحيى من إظهاره ومواطأة القلب اللسان يعني الصدق وعدم الدخيلاء بكسر الدال المهملة والخاء المعجمة مشددتين وبعد الخاء ياء مدة لها وبعد اللام الممدودة همزة يعني بها ضغينة القلب والله تعالى أعلم وأتى رجل محمد بن حزن الهلالي فقال قد أكثر الناس في المروءة فأوجز فقال: جماع المروءة في قول الله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾ اه يروى أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو طالب لقريش يا معشر قريش اتبعوا دين ابن أخي فإنه لا يأمر إلا بمكارم الأخلاق، وسئل سوار بن عبد الله القاضي عن المروءة فقال المروءة الإنصاف والتفضيل فإذا تأملت تعريفات الأقدمين لها عرفت

علمت أنها أكرم الأخلاق وأحسن الشيخ والشيخ أعز الله جانبه الكريم ورضي الله عنه أخذ منها الحظ الأوف والنصيب الأغزر بحيث لا يتقدمه فيها سابق ولا يدرك شأوه فيها لاحق فلقد كان من حسن خلقه ما لا تحويه العبارة ولا تحيط بأدنى ذرة منه الإشارة فلقد كان لا يعيب على أحد فعلا ما لم يخالف فيه الشريعة أو ينتهك فيه الحرمة لا عبدا ولا أمة ولا غيرهما تخلقا منه بأخلاق النبي ﷺ ففي الخبر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ عشرة أعوام وأنا صبي صغير فما قال لي في شيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم أفعله لم لا تفعله، قال المفسرون: الحديث هذا من أحسن أخلاق رسول الله ﷺ ومن لبابة أنس رضي الله عنه وكان حفظه الله ورعاه لا يحد النظر في وجه أحد حياء منه وأدبا، ولا يمد رجليه في مجلس الجماعة ليلا يضيق بهما على أحد، وذلك أيضا من أخلاق النبي ﷺ كما في الشمائل فالحاصل أن أخلاق الشيخ جبله الله تعالى فيها على ما أمر به في محكم القرآن وجعله سيرة سيد الأكوان.

وأما عشرته وجوده ولين جانبه فلقد قدمت منها ما يمكن التعبير عنه وأفهمت غيره متمثلا بقول الشاعر:

معاجزه ما استطعت ذكر جميعها فأبهمت منها ما استطعت تعظما
كواجد ماء قاصر عن وضوئه تجنب طهرا ناقصا فتيما
إلى أن قال:

ولكنني في نفي حصر حصرته فلم يبق للنقاد إلا التسلما
وأما عفافه حفظ الله ساحته ورضي عنه وأفاض علينا جزيل بركاته فلقد كان منه في الرتبة العظمى والمنزلة القصوى وله فيه اليد الطولى والسابقة الأولى، رأيته رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا جزيل بركاته يهدي له بعض الناس بالهدية فيتعفف ويقول له لا حاجة بي إليها ولأنت أقرب من أوده بها فرأيته يوما عليه ثوب حسن يقال له بلغتنا دراعة الروم فأتى بعض التلاميذ وأظنه سيد محمد بن محمد المختار بن الطالب الوافي وعليه دراعة روم أيضا جديدة وسأل من شيخنا أن يبدله بها التي على شيخنا فأبى شيخنا وقال: لو لم تكن دراعته أجد وأحسن لفعلت، ولكن لا أنزع ثوبه

منه فقال هو لما سمع ذلك: والله إن التي على شيخنا لأحب إلي من جميع مالي رجاء بركتها، فقال له شيخنا: لك من البركة ما تريد ولا أنزع ثوبك من فوقك.

ورأيت أحمد بن الأمين المختار أتاه ببغلة نفيسه ليبدله بها بغلته فأبى وقال: إن أحمد رجل كبير وأنا لا أرزیه في بغلته، ولقد رأيتك كثيرا ما يأتيه الرجل بالثوب الجديد النفيس فيأباه ويقول: إن مساكين الزوايا يعسر عليهم أخذ هذه الثياب فلا يجدونها إلا بعسر ولا أرضى أن أرزى أحدهم فيها وكان يتعفف أن يسأل من جاره القرض إذا كان يعلم أن الجار يحمه الحياء على الإعطاء فلكثيرا ما كنت آتية وأخبره بمن عنده الزرع وأستاذنه في طلب التسليف منه فيقول لي: لا إن فلانا إذا علم أن لنا به غرضا تجرد منه وأرسل به إلينا ولا يقبل أن أردّه له فأقول له إذا جاءت رفقتنا أعطينا قدر زرعه فيقول لي بل نعطوه نحن إن شاء الله ونتعفف عن زرعه وكان لا يسأل من أحد شيئا ولا يطالب أحدا بشيء بل يعول على الله في كل شيء، سمعته يوما رضي الله عنه يقول: ما أخرت اليوم الظهر إلا في طلب ماء للوضوء فقال بعض أهل المسجد: لقد أتى ورد الفلانيين اليوم أول النهار فقال: الحمد لله الذي لم يعلمني به إذ ذاك ليلا يحب على طلب سلفه.

وأما شجاعته رضي الله عنه وأرضاه مع كمال النعيم فكان لا تنزله الأهوال ولا تملأ عينه الأبطال، فلقد أخبرتني الإخوة الرضية الكرام الحضرام بن الشين وسيد محمد بن عمر بن محمد بن أمير والشيخ المصطفى بن أحمد بن عبد الدائم أنه حفظه الله ورعاه أخبرهم عندما أتاه أقارب عبد بن الوناس يطلبون رقيته من الجان كان يوما جالسا بعد العصر في مكان بعيد من الناس معتكفا على أوراده فلم يرعه إلا صوت جن عظيم القدر فظيع الخلقة أكبر قدرا من جبل الراجاط بكثير وصورته صورة السلحفات المعبر عنه بلغتنا بالفكرون وله أصوات كالرعود والصواعق العظام قد سد الأفق فوقه كأنه يريد السقوط عليه فلما رآه الشيخ حفظه الله ورعاه كذلك قال له: أي بني لو كنت أخاف غير الله تعالى لخفت ذنوبي فإنها أكبر منك وأفظع وأحق أن أخاف منها، وسكن هناك مشتغلا في ورده كما كان فما برح الجن أن توقدت فيه النار حتى مات بين يديه وسمعته رضي الله عنه يحكي أنه لما أتاه سيد عثمان بن أمر بابنه ليرقي له ولده من الجان أيضا كان يوما خارجا ضحوة مشتغلا في ورده

فلما أتى البيت وأراد الدخول إذا بعفريت عظيم بيده مدفع عظيم يقال له باللغة الحسانية النفظ لكنه أكبر ما يكون فمكته منه وأشعل ناره فقال هو عند ذلك: بسم الله الرحمن الرحيم، فأرسل الله عز وجل من جنود نصره إذ ذاك طائفة أخذت جميع رصاص النفظ من فيه قبل وصوله عليه وأخذوا العفريت فقتلوه هناك وبرئ الرجل من ساعته تلك فانظر رحمك الله هل تجد من يقدر على تسكين قلبه وإمساك لبه عندما يعاين هذا إلا هو وموروثه عليه الصلاة والسلام، قلت: ولقد رأيتته عندما يرد وأرد الجزع من الأمور المهولة العظيمة يكون أشجع الناس قلبا وأثبتهم لبا وأثلجهم صدرا وأسكنهم جأشا فلا تزلزه الزلازل ولا تهوله الأهوال ولا تستخفه الأسلحة ولا الرجال ولا يرهب إلا من ربه الكريم ذي الجلال والعظمة والكمال، ولقد رأيتته في زمن طغيان الأغلال أتى منهم كثير مفسدون في الأرض وقالوا فيما بينهم اقتلوا هذا الرجل وخذوا من الأموال ما تريدون واذهبوا به إلى أهليكم فسمعهم ماريهم يقولون هذا وأتى بعض منهم إلى قريب من بيوته الكرام يسألون عن محل مبيته الليلة، فلما بلغه الخبر قال: أخبروهم أنني أبيت الليلة ههنا إن شاء الله، وتكلم له أحد من الناس في التغليس إلى المسجد وحده لذلك فقال: دعوني من هذا ما لي ولهذا إني لا أخاف غير الله ولا أرتجي سواه ولا أرى النفع ولا الدفع إلا منه وبه، ولقد أخبرني الثقة الصدوق أنه رآه بعد ضرب تلاميذه للمفسدين من أهل فوثة وبعد أن فعلوا بهم ما فعلوا ورحل الناس من تلك الدار إلى دار يريدون النزول بها فسبق الناس للمنزل وليس معه إلا أخوه العباس واثنان أو ثلاثة فلما نزلوا قبل قدوم الناس إليهم إذا برجال من قبيلة إيغروكن أتوهم وقالوا له يا شيخنا إن المفسدين من أهل فوثة كانوا معنا الآن وهم أشد حنقا عليكم وغيظا وعداوة من إبليس، ويحلفون بالله جهد أيمانهم لا يأخذون منكم نفسا منفوسة إلا قتلوها، ويمرون بهذا المكان الآن ذاهبين إلى قرية النعم، فلو تخلفت عنهم حتى جاوزوا محلك هذا فقال: ما أنا بفاعل فتوجه بعضهم بذلك عليه وذهب بعضهم فأتاه بخيله وقالوا له كلا يا شيخنا هذا أشد مما تظن فلا بد أن تتركب عنهم حتى يفوتوك وتوجه عليه أخوه العباس بذلك فأبى وامتنع فلما علموا أنه ليس بفاعل أخذتهم الرعدة والرجفة وجعلوا يبكون ويقولون له يا ولينا ما هذا بأمر معين ولم يزلوا معه هكذا حتى مر بهم المفسدون من أهل فوثة أقرب قريب وضرب الله بينه وبينهم سور

حفظه فلم يروه ولا خيله فجعل الرجال الذين كانوا يطلبونه بالتخلف يتعجبون من شجاعته وستر ربه عليه وحضرته يوما وقد سقطت بئر عين الفتح على تلاميذ فيها يقطعون حجارتها وكانت مبنية بالحجارة وما لم يسقط من الحجارة شارف على السقوط وبادر الناس الحجارة يزيلونها ليدركوا التلاميذ فما لحق أحد مكانه ولم يقدر أحد أن يمسكه عن ذلك المحل الذي ما لحقه غيره حتى أتت أمنا فيطوم رحمة الله علينا وعليها وأمسكته وهي جارية له أم أولاده فقال لها: أطلقيني عنك فقالت: لا والله لا أطلقك عني ولا تصل بعد ذلك المكان فطمها بيده وقال: رحمك الله أمك دعيني عنك فقالت: والله لو قطعتي عظاما عظاما ما تركتك تصل إلى ذلك المكان فلما أمسكته ما قدر الرجال أن يبلغوا ذلك المكان حتى جعلوا الأحبال والرشى في صدورهم وأمسكهم رجال آخرون، فلما مات التلاميذ رحمة الله علينا وعليهم وأردنا قلعهم وإقامة البير غضب أقارب أحدهم وكانوا من حسان وقالوا: لا نقبل أن يقلع ابننا عظاما عظاما لحمة لحمة ولكن تترك البير له قبرا وإلا كان منا ما لا ترضون إذ نفوسنا لا تطيب بذلك فلم يترك قلعهم ولم يترك إقامة البير فتوجه إليه بعض الناس في ذلك فقال: أتخوفونني غير الله وتمثل بهذه الأبيات من قصيدة ابن دريد:

لست إذا ما بهضتني غمرة ممن يقول بلغ السيل الزبى
ولا أقول إن عرتني نكبة قول القنوط انقد في البطن السلا
وإن ثوت بين ضلوعي زفرة تملأ ما بين الرحا إلى الرجا
نهنتها مكظومة حتى يرى مخضوضعا منها الذي كان طغى

وبالجملة فشجاعته بالغة مبلغا لا تتناوله العبارة ولا تحيط به الإشارة وذلك لأن الله تعالى جبله على الأخلاق المرضية عند الله تعالى ففي الخبر عنه ρ أنه قال: إن الله تعالى يحب الشجاعة ولو على قتل حية ويبغض الجبن ولو من أسد حرد وفي حديث مروى عن أبي طلحة كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ρ أي جعلناه قدامنا واستقبلنا العدو به ومن ذلك ما روي أن أهل المدينة فزعوا ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ρ راجعا وقد سبقهم إلى الصوت وأسبر الخبر على فرس لأبي طلحة عربا والسييف في عنقه وهو يقول لن تراعوا، وفي رواية كان

فزع بالمدينة فاستعار النبي p فرسا من أبي طلحة يقال لها المندوب فلما رجع قال: ما رأينا من شيء، وإنه لبحر، قال: وكان فرسا بطيئا، أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي، وللبخاري إن أهل المدينة فزعوا مرة فركب النبي p فرسا لأبي طلحة يقال إنه كان يقطف أو فيه قطاف فلما رجع قال: وجدنا فرسكم هذا بحرا وكان بعد لا يجارى وفي ذلك بيان شجاعته p لسرعته في الخروج إلى العدو وحده بحيث كشف الحال ورجع قبل خروج الناس وبيان معجزاته في انقلاب الفرس سريعا وقد كان بطيئا، واستتبط العلماء من هذه المسألة مسائل فقهية منها جواز ركوب فرس الغير عند فجأة العدو لتخليصها أو لتخليص نفسه أو لتخليص العامة ومنها أنه لا ضمان عليه إن عطب تحته بسبب ذلك، ومنها جواز المبالغة والركوب على الفرس عريا والنفو عن زغب الدابة ووبرها إذا تعلق بثياب الراكب وجلده، ومنها جواز تقدم الرئيس إلى نحور العدو.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: ما رأيت أشجع ولا أنجع ولا أنجز من رسول الله p . وسمعتة حفظ الله ساحته وأطال الفسحة في حياته وأفاض علينا جزيل بركاته يحدث أنه زمن شبابه أعطاه الله تعالى من القوة ما لا يكاد أحد من الناس يناله، وذلك أيضا من أكمل الكمال، فلقد اختار الله له الكمال في الأشياء كلها قلت: وبهذا الوصف مع ما أمره الله به من نصره وعزه كان يغير المنكر دائما فلا يتعرض له بسوء لعدم قدرتهم عليه، ولأن القوة من الأوصاف التي اختص الله تعالى بها نبيه عليه الصلاة والسلام وآثره بكمالها فنال بذلك الكمال في نفوس الناس.

وفي كتاب ابن إسحاق أنه كان بمكة رجل شديد القوة يحسن الصراع وكان الناس يأتونه من أطراف البلاد للمصارعة فيصرعهم فبينما هو ذات يوم في شعب من شعاب مكة إذ لقيه p فقال: يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه، فقال: هل من شاهد على صدقك، قال: رأيت إن صرعتك أتؤمن بالله قال: نعم، قال: فتهيا للمصارعة فتهيات فدنا مني رسول الله p فصرع ركانة فتعجب من صرعه إياه وسأله العود ففعل به ثانيا وثالثا، فوقف ركانة متعجبا وقال: إن شأنك لعجيب أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي جعفر محمد بن ركانة المصارع كما أخرجه أبو داود والترمذي

والبيهقي من رواية سعيد بن جبير . وهو ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي أسلم يوم الفتح، ولا نعلم له رواية غيرها .
وفي هذه القضية قال الشاعر :

سائل ركانة إذ لاقى النبي على وحديهما أين منه ظن أركانه
وقد صارع عليه السلام أبا الأسود الجمحي وكان شديد القوة بلغ من شأنه أنه كان
يقف على جلد البقرة ويحاذي أطرافه عشرة رجال لينزع من تحت قدميه فيغترف الجلد
ولم يتزحزح فدعا رسول الله ﷺ للمصارعة وقال إن صرعتني آمنت بك فصرعه رسول
الله ﷺ ولم يؤمن والعياذ بالله وأما صدق لهجته وبره في قوله ووفاءه بعهده فليس مما
تتناوله العبارة ولا تحيط بأدنى ذرة منه الإشارة فكان رضي الله عنه وأرضاه وأفاض
علينا جزيل بركاته لا يحدث إلا بما وقع ومضى وإن حدث عن مغيب فلنراه كما نرى
الشمس على نحو ما حدث بلا زيادة ولا نقصان وما وعد بشيء إلا وأتمه كما وعد
ولا قال في شيء نعم إلا وأوفاه على أكمل ما ينبغي وهذا منه حفظه الله ورعاه
ورضي الله تعالى عنه تحفظا على ما يحب الله تعالى ويرضى وتحريا لأحسن
الأوصاف وأبلغها .

قال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادقا الوعد﴾ وقال: يا أيها الذين
آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴿ وقال تعالى يمدح نفسه: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم
وإننا لصادقون﴾ وكفى الصدق مدحا أن الله تعالى سمى نفسه الصادق كما في رواية
ابن ماجه، وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أصدقكم لهجة أبو ذر، قال بعضهم: كفى
بهذا مدحا لأبي ذر، فما مدح أحد كما مدحه .

وأما شكره لنعم الله وإحسانه جوارها فأمر خارق للعادة ليس من سبيل المعتاد في
شيء، فلقد كان شكورا للنعم كثير الحض على شكرها دائم الحمد متواصل الأحزان
في غير عبوسة يجل نعم الله ويعظمها ويستعملها فيما أمر الله أن تجعل فيه أمين
في ذلك لا يضع شيئا منه إلا حيث وضعه الله تعالى، وذلك منه أعز الله جانبه
الكريم وجعله في أكمل عافية وأتم نعيم جبلة جبلة الله تعالى عليها بسابق عنايته،
فلقد قال تعالى: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ وقال: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ وقال:

﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ وقال: ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له﴾ وقال في مدح نوع عليه السلام: إنه كان عبدا شكورا.

وفي الخبر عنه ρ أنه لما قام حتى تورمت قدماه قيل له لم هذه المشقة وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبدا شكورا. وفي الخبر عنه ρ أنه قال: أحسنوا جوار نعم اله لا تنفروها.

وفي كتاب محمد بن أبي القاسم بن خلاد ما نصه: وحدثنا موسى بن زكرياء قال: حدثنا معاذ بن شعبة قال: حدثنا عثمان بن مطر عن ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ρ أحسنوا جوار نعم الله لا تنفروها فقلما زالت عن قومي فعادت إليهم قلت وحسن جوارها بدوام شكرها وتعظيمها وجعلها حيث أمر الله أن تجعل والخوف من سلبها فقلما أمن أحد مكر الله في نعمة إلا وسلبها عنه.

والشيخ رضي الله عنه وأرضاه بالمكانة العظمى والمنزلة القصوى من هذه الأخلاق كلها فلقد رأيتته يكثر من قول الحمد لله رب العالمين بإثر ذكر النعم ويقول: ما قالها أحد بإثر نعمة وزالت عنه ومن قول الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده وكثيرا ما يقول بإثر نكرها أيضا: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ويقول: إنما أوتي الناس من قلة شكرهم أي إنما أزيلت نعمهم من قلة شكرهم إياها وإنما فاتهم منها مما لم يجدوا لقلة شكرهم ما وجدوا.

وسمعتة رضي الله عنه وأرضاه يقول في قول العامة: دابة المسكين ترعى الطرف وهو صحيح وإنما كانت كذلك لعدم شكر المسكين عليها لأنه يتتقصها وتتوق نفسه إلى أكثر منها فيستحقرها لذلك فلا يشكر عليها ولا يراها نعمة لرفعة بصره إلى ما هو فوقها فتلازم هي بذلك الطرف فيسبق إليها السارق والأسد والغاصب وغير ذلك من الآفات، يشير إلى ذلك الخبر الوارد عنه عليه السلام: «انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فذلك أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

وسمعتة يوما حدثه أحد أنه يعلم الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود له خيل كثيرة تقاد في الرحيل وأبناؤه يمشون على أرجلهم لا يقبل ركوبهم عليها، ويقول: لا يركبون حتى ينقرسوا في المسير على أرجلهم، مخافة أن يخونهم الدهر يوما، فقال شيخنا: الأحسن عندي أن يحملهم على الخيل ويشكر الله لهم على تلك النعمة فلا تزول عنهم أبدا

ويزدادون فيها كما ينبغي بخ بخ بخ انظر يرحمك الله إلى هذا اليقين بما وعد الله تعالى وكمال الإيمان والتصديق بما قاله والتذرع به عما تأتي بها الحوادث ففي الخبر: النعمة وحشية قيدها عليكم بالشكر وفي الخبر أن يحيى بن زكرياء عليه السلام قال: يا رب لم سلبت بلعام بن باعوراء ما أعطيته وقد كان من أعبد بني إسرائيل، فقال: لأنه لم يشكر نعمتي ولم يضرع تحت جلالي، فلو أنه قال يوما اللهم لك الحمد على ما أوليتني مما لا أستحقه لذاتي ولا لواجب صفاتي ما سلبته ما أعطيته.

وأما تعظيمه إياها أدام الله عزه وأطال حياته فإنه كان أكمل الناس تعظيما لنعم الله تعالى فلقد رأيت كثيرا ما يكون سائرا في الطريق إلى المسجد فيرى الحبة أو الحبتين من النبق ملقاة في الأرض فيقف ويأمر من يأخذ بها ثم يقول: كان النبي ﷺ يأمر برفع الملقى في الأرض من الطعام ويقول: إن الله أنزل إليكم هذا الطعام من السماء بركة فعظموه.

وفي الخبر أنه عليه السلام رأى كسرة ملقاة بالأرض في بيت عائشة رفعها وأزال ما تعلق بها من الأرض وقال: يا عائشة: أحسني جوار نعمة الله فقلما نفرت عن قوم ثم عادت إليهم، وإذا رأى أحدا كب اللبن أراه التغير في وجهه، وكثيرا ما أسمع يقرأ هذه الآية في نحو هذا المحل أعني: ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾.

وأما وضعه النعم في موضعها فوالله لقد كان أوصل الناس لرحمه وأجودهم بخيره وأبذلهم لمعروفه وأسأخهم بماله فكان يبذل نفسه في تخلص أموالهم وتعليم جهالهم وهداية ضالاهم وهو جدير بأن يبقياها الله لديه لما حسن من جوارها فقد روي من حديث عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ إن الله عند أقوام نعماء يقرأها عندهم ما كانوا في حوائج الناس فإذا ملوها نقلها من عندهم إلى غيرهم، ومن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: إذا عظمت النعمة على العبد اشتدت مؤنة الناس عليه فإن تحملها ورضي بها أعانه الله عليها وتواصل عليه امتدادها ومن لم يحملها وتبرم منها فقد عرض النعمة للزوال.

ومن حديث عبد الله بن عمر بن كعب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تبارك وتعالى جعل للمعروف وجوهاً من خلقه وحبب إليهم فعاله وسهل لطالب المعروف طلبه إليهم ويسر عليهم إعطائه كالغيث يرسله الله إلى الأرض الجدبة ليحييها ويحيي به أهلها، ومن حديث يحيى بن جابر الطائي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن امرأة من بني إسرائيل مسحت نجاسة صبي لها بكسرة من خبز ثم جعلتها في حجر فسلط الله سبحانه على أهل تلك القرية الجوع حتى ألجأ الله تلك المرأة إلى أكل تلك الكسرة من شدة الجوع فأكلتها من غير أن تميظ عنها الأذى.

فانظر رحمك الله ما ابتليت به هذه المرأة لما أساءت جوار نعمة الله نسأل الله العافية ونعوذ به من البلاد.

فإذا تأملت ما أوردته لك من صفاته علمت أنه أكمل الناس مروءة وأفضلهم أخلاقاً فلقد جمع بين الكرم والمروءة والنجدة وبين السخاء والجود وبين العفة والنزاهة إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق ومحامد الشيم والطبائع، والفرق بين النجدة والكرم والمروءة هو ما قاله سيدنا ومولانا الحسين بن علي لما سأله معاوية رضي الله عنه فقال رضي الله عنه: الكرم التبرع بالمعروف والعطاء قبل السؤال وإطعام الطعام في المحل، والنجدة الذب عن الجار والصبر في موطن الشدة والإقدام عند الكريهة، والمروءة حفظ الرجل دينه وإحرازه نفسه من الدنس وقيامه لضيافته وأداء الحقوق وإفشاء السلام.

وقيل للأحنف بن قيس: ما المروءة؟ فقال: أن لا تعمل في السر شيئاً تستحي منه في العلانية، والفرق بين الجود والكرم والسخاء هو أن السخاء صفة غريزية وفي مقابلتها الشح وهو أيضاً صفة غريزية في النفس، ولذلك أضافه الله تعالى إليها بقوله: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وحقيقته الحرص على المال وقيل هوى النفس، والجود هو أن تجود بمالك أو بنفسك من غير جيلة طبعك، بل تريد بذلك وجه الله أو المدح أو المكافأة وفي مقابل الجود البخل وهو أيضاً المنع للشيء من غير أن يكون ذلك المنع من الشح أي الحرص الغريزي والدليل على أن السخاء غريزة قوله عليه السلام: ما جبل ولي الله إلا على السخاء أي ما من خصلة مغروزة

فيه لا يمكن انفكاكه عنها إلا السخاء، وأما الكرم فهو أكرم الأخلاق، أي حسن الطبيعة أو هو ما حده به الحسن بن علي رضي الله عنهما. اهـ.

وكان علي كرم الله وجهه يحب المروءة ويحب أهلها، ولما رأى ما فشى في الناس زمن الفتن من التفسخ تحت أعباء المروءة بعد موت أعلام الصحابة قال:

مررت على المروءة وهي تبكي فقلت لها وما يبكي الفتات
فقلت كيف لا أبكي وأهلي جميعا دون خلق الله ماتوا
وفي الخبر عن علي رضي الله عنه: لا دين لمن لا مروءة له، وقيل إنه مرفوع إلى النبي ﷺ، وفي ذلك المعنى يقول الشاعر:

إن المروءة أخت الدين إن فقدت لا يوجد الدين لكن يفقدان معا
وكان الشيخ رضي الله تعالى عنه وأفاض علينا جزيل بركاته أكمل الناس أمانة فله منها الحظ الأوفر، والنصيب الأغزر فلقد رأيت حفظه الله ورعاه يطلب من ماء اللوضوء وبين يديه سطلان أحدهما لمحمد الحسن والثاني لمحمد تقي الله وفيهما الماء فلما قيل له: لم لا تتوضأ منهما قال: أخاف أن يكون أهلها إنما تركاهما عند البيت الذي أنا فيه على وجه الأمانة وأما أنا فأعلم طيب أنفسهما لي بكل شيء.

وسمعت رضي الله عنه يقول إنه لا ينظر إلى ما تحت يد الغير من ماله فكثيرا ما يغض بصره الشريف إذا خرجت إحدى أمهاتنا الطاهرات لحاجة الإنسان عما تحت يدها من متاعه هو مخافة أن تكون تركته على حالة لا تحب أن يراه عليها، أو أن يكون لها هنالك متاع ولكنه عنده على جهة الأمانة، وذلك منه حفظه الله ورعاه حرصا على ما أوجب الله سبحانه من حفظها والحض عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال صاحب الذهب الإبريز نزلت لما أخذ علي مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي الجمحي قهرا لما قدم رسول الله ﷺ مكة عام الفتح ومنعه وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه وفتح علي الباب ودخل رسول الله ﷺ البيت وصلى فيه ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح وأن يجمع له بين السقاية والسدانة فنزلت الآية، فأمر رسول الله ﷺ برده وقال: هاك خالدة تالدة، واعتذر له علي بأمر

رسول الله ﷺ فقال له عثمان: أكرهت ثم جئت برفق فقال علي: لقد أنزل في شأنك قرآن فأسلم عثمان.

وفي الحديث: أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك، وفي الحديث لا أمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، وقال عز وجل: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان﴾ فالأمانة هنا اسم عام لجميع ما ائتمن الله عليه عباده من أعمال البدن وحقوق العالمين من أمانة وعارية وغيرهما.

وبالجملة فالشيخ رضي الله عنه أحرص الناس على حفظ الأمانة بجميع معانيها كائنة ما كانت وقد جبله الله تعالى على أخلاق الأنبياء فلقد سمعته يحدث المصطفى بن الطالب محمد بن بي فقال له: يا مصطفى كنت في ابتداء أمري أحب من هذه الدنيا ثلاثا النساء والبنين والخيل، وأما اليوم فلا أحب من الجميع شيئا بل لا يساوي الجميع عندي هذا المسواك الذي في يدك، وذلك زهدا منه رضي الله عنه فيما سوى الله تعالى، وإلا فلا خلاف أن محبة الثلاث المتقدمة من أخلاق النبيين، فقد قال ﷺ حبب إلي من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة، وعنه ﷺ ثلاثة من أخلاق الأنبياء: محبة النساء والطيب والسواك، وعن ابن عباس مرفوعا: خير هذه الأمة أكثرها نساء.

وعن عائشة رضي الله عنها: ليس شيء أحب إلي النبي ﷺ بعد النساء من الخيل، وفي الخبر عن سليمان عليه السلام لآتين الليلة على مائة امرأة تلد كلهن فارسا يقاتل في سبيل الله، وعنه ﷺ أعطيت قوة أربعين رجلا على الجماع، وفي رواية: فلو شئت أن آتي على نساء الدنيا كلهن لأتيت عليهن، وفي كتاب الحميدي جامع الصحيحين في المتفق عليه بينهما من رواية أنس بن مالك أن النبي عليه لاسلام كان يطوف على نسائه في ساعة واحدة من الليل أو النهار، ولفظه عن هشام الدستوائي عن قتادة عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل أو النهار وهن إحدى عشرة، قلت لأنس: وكان يطيقه، قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين، وأخرجه من حديث سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك حدثهم أن النبي ﷺ كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وله يومئذ تسع نسوة وأخرج مسلم

طرفا من هذا من حديث هشام بن زيد بن أنس أن النبي ρ كان يطوف على نسائه بغسل واحد. اه منه.

وفي رواية كان يطوف على نسائه بعد صلاة العصر وكان يغتسل عند كل واحدة منهن ويقول هو أنشط للأعضاء وأقوى للنفس وفي رواية كان يطوف عليهن بعد صلاة العصر بغسل واحد أخرجه في الجامع وفي التنزيل أنه كانت لداود عليه السلام تسع وتسعون نعجة أي امرأة جميلة واهتم بالمكاملة للمائة ثم تزوجها وفيه أيضا من شأن يوسف وزليخا ﴿ولقد همت به﴾ قال الجلال: همت به أي قصدت منه الجماع، وهم بها أي قصده منها لولا أن رأى برهان ربه، قال ابن عباس: مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوتها من أنامله وقيل: هم بها أي اهتم بأن يزوجه الله إياها ويزرقها له حلالا وقال جل وعلا في تعداد نعمه على زكرياء: وأصلحنا له زوجه، فلم يكن محبا لها لما كان صلاحها منة تعد عليه.

ورأيت في بعض كتب الصحاح أن عمر بن الخطاب كان يوما صائما تطوعا فوقع على جارية له ثم استفتى الصحابة بالمسجد فأخبرهم أن نفسه غلبته حتى وقع على الجارية فقالوا له: أما اليوم فتطوع، وقد قال عليه السلام: الصائم المتطوع بالخيار إن شاء صام وإن شاء أفطر، وأما الجارية فهي ملكك فلا عليك في ذلك شيء يا أمير المؤمنين.

وفي الخبر أيضا أن ابن عباس أتى المسجد يريد صلاة العشاء الأخيرة فلما تهيؤوا للصلاة قال: انتظروني فذهب إلى بيته وأتاهم ورأسه يقطر ماء فسألوه عن تأخيره فقال: ما خرجت من عندكم إلا أنني عرضت لي شهوة وأحببت أن لا أدخل الصلاة إلا فارغ القلب، وقد غشيت بعدكم جاريتين.

وفي نزهة المتأمل في آداب المتأهل للإمام السيوطي أن العارف يميل إلى النساء ما لا يميل إليهن غيره، قال: وذلك أن العارف كلما توقدت أنوار المعرفة الإلهية في قلبه انتشرت تلك الأنوار في بدنه، ومازجت لحمه ودمه فأكسلته وأضعفته عن الأفعال ونال قلبه من ذلك سام فإذا واقع خرج متلبسا بالنطفة ما كان متفرقا في الجسد من تلك الأنوار وسري عن القلب فنشطت الأعضاء للطاعة وصفت مرآة القلب لتلقي

الأسرار والواردات الإلهية فيقوى على مشاهدة الله تعالى، وتحمل أعباء تجلياته جل وعز بخ بخ.

وأما محبة الخيل فهي أيضا من سنن الأنبياء وقد أمر الله تعالى بإعدادهن قال تعالى حكاية عن سليمان على نبينا وعليه السلام ﴿إني أحببت حب الخير﴾ أي الخيل، والعرب تعاقب بين اللام والراء كالخيل والخير وختلت الرجل وخترت أي خدعته، وسميت الخيل خيرا لأن الخير أي الأجر والغنم معقود بناصيتها وقال المهروي: أي أثرت حب الخيل. اه من الذهب الإبريز.

وقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ قيل: عدو الله الكفار وعدوكم الجن والشياطين، وقيل: عدو الله وعدوكم كفار قريش بمكة، وفي الذهب الإبريز رباط الخيل سمي به يقال: ربط الخيل ربطا ورباطا أو فعال بمعنى مفعولا، أو جمع ربيط كفصيل وفصال قاله البيضاوي، وفي الحديث يمن الخيل في سفرها قاله p لما بعث سرية فأطلع فارس على فرس أشقر مبشرا للمسلمين بفتح عظيم.

وفي الحديث أيضا خضرها صلبها وكميتها ديباجها وشقرها جياها، كذا في شرح الموطأ وفي كتاب الإصابة أن أبا وهب الجشمي حديثه المروي عنه اربطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفالتها وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار وعليكم بكل كميت أغر محجل أو أشقر أو أدهم غير محجل ورباط الخيل حبسها في سبيل الله واقتناؤها.

وقيل لابن سيرين إن فلانا أوصى بثلاث ماله للحصون فقال: تشتري به الخيل ويربطها في سبيل الله أو الخيل هنا للإناث لأن العرب تربط إناث الخيل بالدفتية للنسل وكان خالد بن الوليد لا يركب في القتال إلا الإناث لقله صهيلها وكانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناثها عند الغارات وقيل الفحول لأنها أقوى على الكر والفر وأنشد أبو عمر بن عبد البر في التمهيد لابن عباس رضي الله عنهما:

أحبوا الخيل واصطبروا عليها فإن العز فيها والجمالا
إذا ما الخيل ضيعها أناس ربطناها فشاركنا العيالا
نقاسمها المعيشة كل يوم ونكسوها البراقع والجلالا

وفي الحديث: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة، وفيه من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة، يعني حسناته وفيه الخيل ثلاثة هي لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر، فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله، وفي رواية لأهل الإسلام فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها في ذلك المرج والروضة كانت ل حسنات، ولو أنها قطعت حبلها فاستنتت شرفا أو شرفين كانت له آثارها وأرواثها حسنات ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن تسقي به كان له ذلك حسنات فهي لذلك الرجل أجر.

ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله في رقابها ولا في ظهورها فهي لذلك الرجل ستر ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الإسلام فهي على ذلك الرجل وزر. والطيل كعنب الحبل الذي يشد به الفرس وقت الرعي والاستتاتان الجري والشرف الشوط الذي يجري فيه الفرس أو نحو ميل قاله في القاموس، وتغنيا أي استغناء يقال: غني الرجل غنى وتغنى تغنيا واستغنى غناء وتغانى تغانيا قال الأعشى:

"عفيف المناخ طويل التغني"

وقال آخر:

"ونحن إذا متنا أشد تغانيا"

والتعفف الاستغناء بها عما في أيدي الناس، وحق ظهورها أن يحمل عليها منقطع إلى أهله أو تركب لبهيمة شاردة وحق رقابها الإحسان إليها أو الحمل عليها غير مشفوق أو معناه لم ينس إطراق فحلها، أو لم ينس زكاتها على المذهب الحنفي الذي يرى الزكاة فيا فعبر عن الذات بالرقبة ونواء أي معادة يقال: نوايت الرجل مناواة إذا عاديته. اهـ من الذهب الإبريز.

وأما محبة الأنبياء الأولاد وجبلتهم عليها فأخرتها لأختم بها الباب وأصلها بسيرته الشريفة مع أبناء الكرام رجاء أن يسعفني الله تعالى بكل مرام، وأن يرزقني الحسنى والزيادة في هذه الدار ودار المقام.

فأقول وبالله التوفيق: يكفي في ذلك قوله تعالى في حكاية حال يعقوب: ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ وقوله عز وجل

حكاية عن خليله إبراهيم: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ وقوله حكاية عنه أيضا لما قال له: إني جاعلك للناس إماما قال: ومن ذريتي، وقوله حكاية عنه وعن إسماعيل: ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك. وقوله عز وجل حكاية عن نوح: ﴿رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾ وفي الخبر عنه ρ: فاطمة بضعة مني يربيني ما يربها ويرضيني ما يرضيها، يسرني ما يسرها، وفيه أنه قال لها: يا فلذة كبدي، وفي كتاب الحمدي جامع الصحيحين عن قريش بن حبان عن ثابت عن أنس قال: دخلنا مع رسول الله ρ على أبي يوسف القين وكان ظنرا لإبراهيم، فأخذ رسول الله ρ إبراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ρ تذران فقال عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله، فقال: يا ابن عوف إنها رحمة وأتبعها بأخرى فقال: إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. هذا لفظ حديث البخاري، وليس لقريش في الصحيح عن ثابت عن أنس غير هذا، قال البخاري في عقب هذا الخبر: رواه موسى عن سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ρ: ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم، ثم دفعته إلى أم سيف امرأة قين يقال له أبو سيف فانطلق إليه فاتبعته فانتهينا إلى أبي سيف وهو ينفخ بكيره وقد امتلأ البيت دخانا فأسرعت المشي بين يدي رسول الله ρ فقلت: يا أبا سيف أمسك فقد جاء رسول الله ρ فأمسك فدعى النبي ρ بالصبي فضمه إليه وقال: ما شاء الله أن يقول، فقال أنس: لقد رأيته وهو يجود بنفسه بين يدي رسول الله ρ وقال: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون، فإذا تأملت هذا وفهمته علمت أن محبة الأولاد من طبائع الأنبياء، بل من أشرف الطبائع لقوله عليه السلام: إنما هي رحمة يجعلها الله في قلوب عباده الرحماء.

وأما معاملة الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا جزيل بركاته فإنه كان أحسن الناس لبنية تربية وأكملهم للحقوق توفية، فلقد كان إذا ولد الغلام أمر ذا دين ومروءة أن يؤذن في أذنه اليمنى ويقوم في اليسرى ثم يأمر أن يتأخر التحنيك عنه رجاء أن

يكون له صبر وقوة على الصوم كما يروى في بعض الكتب أن ذلك من المندوب إليه المأمور به، ثم يأمر أن يحنك بالتمر أو غيره من الحلاوة والتمر أولاً عنده، وأن يمضغ التمر له تقي ذو مروءة أيضاً كما روي في الصحيحين من رواية هشام بن زيد قال: سمعت أنس بن مالك يحدث أن أمه حين ولدت انطلقوا بالصبي إلى رسول الله ﷺ يحنكه.

وعن أنس بن سيرين عن أنس بن مالك أنها لما ولدت أمه غلاماً قال لي أبو طلحة: أحمله إلى النبي ﷺ وبعثه معه بتمرات فقال: أمعه شيء؟ قال أنس: نعم معه تمرات، فأخذها النبي ﷺ فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها في فم الصبي ثم حنكه وسماه عبد الله.

وأخرجه محمد بن سيرين عن أنس في المولود قال: لما ولدت أم سليم قالت: يا أنس انظر لي هذا الصبي فلا يصيب شيئاً حتى تغدو به إلى النبي ﷺ يحنكه فغدوت فإذا هو في الحائط وعليه خميلة وفي رواية فقالت لي أمي: يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدو به إلى رسول الله ﷺ فلما أصبح حملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ قال: فصادفته ومعه ميسم فلما رأيته قال: لعل أم سليم ولدت قلت: نعم قال: فوضع الميسم قال: وجئت به فوضعت في حجره ودعا رسول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة فلاكها في فيه حتى ذابت ثم قذفها في فم الصبي فجعل الصبي يتلمظها قال: فقال رسول الله ﷺ انظروا إلى حب الأنصار التمر قال: فمسح وجهه وسماه عبد الله. اهـ.

فإذا كان يوم سابع المولود أتى به شيخنا رضي الله عنه وأرضاه فجعله في حجره ودعا له بالبركة وسماه باسم حسن لا يخلو ذلك الاسم غالباً من اسم من أسماء النبي ﷺ إما محمد أو أحمد أو اسم السيادة أو فيه العبودية أو اسم ولي من أولياء الله تعالى مشهور الولاية جميل الاسم وذلك رضي الله عنه رعاية للأكمل وتحفظاً على ما ندب الشرع إليه فقد استقر في الشرع ما يل على الأمر بتحسين الأسماء ففي الخبر عن سعيد بن المسيب أنه قال: لما أسلم جدي حزن سأله النبي ﷺ عن اسمه فقال: اسمي حزن فقال النبي ﷺ بل اسمك سهل، فقال: لا أرغب عن اسم سماني به أبي، فترك رسول الله ﷺ اسمه حزناً كما كان قال سعيد: فما زالت فينا حزونة أي قسوة وصلابة وفي الخبر عنه ﷺ أنه قال: من يحلب لقحة فقال رجل: أنا يا رسول الله، وقام فقال

عليه السلام: ما اسمك، قال: اسمي مرة، فقال: اجلس ثم قال: من يحلب لقحة فقام رجل وقال: أنا يا رسول الله فقال: ما اسمك، فقال: اسمي شهاب، فقال اجلس، ثم قال: من يحلب لقحة، فقام رجل وقال: أنا يا رسول الله فقال: ما اسمك فقال اسمي يعيش، فقال احلب.

وعنه ρ أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأبغض الأسماء إلى الله رجل تسمى ملك الأملاك وفي رواية وأخنع بدل وأبغض أي أذل وأحقر ويروى أن أحب الأسماء إلى الله ما فيه العبودية والحمدلة كمحمد وأحمد وحامد ومحمود ونحو ذلك وقد رأيت في بعض شروح النصيحة لزروق أن حديث أحب الإسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن مخصص بتسمية الله تعالى رسوله محمدا وأحمد لأن الله تعالى اختار له أحب الأشياء إليه من كل شيء، فيكون معنى الحديث: أحب الأسماء إلى الله غير محم وأحمد عبد الله وعبد الرحمن.

وكان يكرم مرضعاتهم ويحسن إليهن أتم الإحسان تخلقا منه رضي الله عنه بأخلاق النبي ρ ففي الخبر عنه ρ أنه أتته امرأة من هوازن يوم حنين فأنشدته شعرا تقول له في أيام رضاعه فيهم، فرد عليهم سببهم وأعطاهم عطاء كثيرا قوم بخسمائة ألف ألف، قاله ابن دحية كما في كتاب ابن فارس، وفي نظم درة الغواص أن المرأة أخته عليه السلام من الرضاع وأنها أنشدته قولها:

هذا أخ لي لم تلده أمي وليس من نسل أبي وعمي
فديته بمخول معم فأنمه اللهم فيما تنمي...

وأخرج أبو داود من حديث عمر بن السائب أنه بلغه أن رسول الله ρ كان جالسا يوما فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام فأجلسه بين يديه قلت: فلقد كنت والله أرى في شيخنا من الإحسان مع مرضعي بنيه الكرام ما لا يكاد يدخل تحت حصر، فإذا فطم أحدهم كانت معاملته له أحسن ما يكون فإذا أدرك أحدهم وكل به من يعلمه القرآن والأدب ويعامل معلمهم بما يشتهون ولا يحب المعلم الضروب، فلربما رأيت رضي الله عنه وأفاض علينا جزيل بركاته يزيل عنهم الأشقاء من المعلمين، ويقول: إن رسول الله ρ يقول: إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطي

على الرفق ما لا يعطي على العنف، وإذا كبروا حتى أدرك أحدهم يروضهم أيضا على ملازمة ذكر الله تعالى فكثيرا ما أراه حفظه الله ورعاه حين يأتون للعشاء يقول لهم: لا تتعشون حتى تذكروا الله تعالى، فيشتغلون بالذكر ساعة أو ساعتين من الليل ثم يتعشون ويدفع لهم حفظه الله على هذا فيكون الذكر فيهم غريزة مغروزة، فلا يكاد أحدهم يغفل عنه في غالب أحواله، وذلك منه رضي الله عنه حرصا على قلوبهم أن يسبق إليها غير تجليات الله تعالى.

ففي الخبر عنه ρ : ما من مولود إلا وقد ولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، قيل معنى ما من ولد إلا يولد على الفطرة الإسلامية والتوحيد الإلهي لأن الله تعالى قد لقنه النفوس حين أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم فقال لهم: ألسنت بربكم فقالوا بلى، قال تعالى: ﴿يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ وقال: ﴿وان من شيء إلا يسبح بحمده﴾ وقيل: المراد الفطرة الخلقية النشئية أي يولد على أصل النشأة لا إيمان له ولا كفر ولا فسق ولا طبيعة ولا تطبع، قال تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، ومعنى قوله: فأبواه يهودانه أو ينصرانه إلخ، أي أنه يولد على ما شاء الله من الفطرتين وهو في كلتا الحالتين فاقد التمييز والعلم والعقل والفهم كالظرف الخالي المثقوب الذي ليس فيه شيء فإذا وصل إلى أول أطوار الإدراك وهو طور التمييز صار كالظرف الخالي الذي لا ثقب به ولا عيب فهو قائل لكل شيء غير مختص بشيء عن شيء، فأبواه يلقيان إليه ما هما بصدده من شأن دينهم فينطبق القلب عليه انطباق حولة الطائر على ما يوصله إليها فإن دام عليهم ذلك ولازمهم حتى أدركوا طور العقل أعني بلوغ أمد التكليف فإنه لا يمكن بعد ذلك انفكاكهم عنه أبدا إلا بعسر قال الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا
وانظر إلى قول الإمام ابن أبي زيد: وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه، قال الرباني: لأنه إذا لم يسبق قبل ما يرد عليه من الخير أحسن قبول وإذا سبق إليه اعتقاد الشر عظمت الحيلة في إزالته كالإناء الجديد يجعل فيه القطران فلا تزول منه رائحته إلا بعد مشقة وتعب. اهـ فإذا بلغ أحدهم طور الحفظ بأن صار يحفظ ما تعلم

جعل يتخولهم بكلام الحكمة والموعظة الحسنة، ويحثهم على مكارم الأخلاق ويعلمهم المرورة وينعش همهم إلى الله تعالى، حتى ما رأيت أحدا منهم بلغ الحلم إلا ومشربه صاف بمعنى أنه مشاهد جمال الله تعالى وجلاله منجمع الهمة إليه مع ما يزيدون به على ذلك من العلم الإلهي على حسب القسمة وسابق العناية الإلهية: قد علم كل أناس مشربهم. فإذا بلغ أحدهم واشتغل بالعلم حثه على علم العربية من إعراب وتصريف ولغة وبيان وأصول إلى غير ذلك من سائر علوم الأدب ويقول لأن هذا العلم هو الوسيلة إلى فهم كلام الله تعالى وكلام رسوله اللذين هما أصل الشريعة التي تعبدنا الله تعالى بها، وفي الخبر: تعلموا العربية وعلموها أبناءكم فإن فيها مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ولخبر أحبوا العربية لثلاث لأنني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة في الجنة عربي، رواهما في شرح التيسير.

وفي الخبر أيضا أعربوا الكلام كي تعربوا القرآن وفي كتاب منافع القرآن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يقول: لأن أعرب آية من كتاب الله أحب إلي من أن أحفظها.

وعن علي رضي الله عنه أنه لما أسلم الأعجم واشتبكت العرب بالعجم فكثرت اللحن واختلف نظام العربية أصابه غم شديد فكلمه بعض أصحابه في ذلك فقال: لقد رأيت نظام العربية اختل وسارع الناس إلى الدنيا والدرهم ومتى عدم اللسان العربي ذهب الكتاب والسنة فضلت الأمة واختلفت في دينها بمقتضى الأهواء كما اختلفت اليهود والنصارى في كتبهم ثم يعطي مريد الإقراء منهم من الكتب ما يعينه على تعليمه.

وكان رضي الله عنه وأرضاه إذا أراد أحدهم التأهل أمره ببنات الصالحين ورغبه فيهن ودله عليهن ثم يزوجه منهن ما اشتهى ويقول: ورد في الحديث: المرأة تلد أباهما وأخاها غالبا، ويقول: عليكم بذوات الأصل والدين فاطلبوهن حيث كن وإلا تربت يداكم.

وفي الخبر: تتكح المرأة لمالها وجمالها ودينها وحسبها فاظفر بذات الأصل والدين وإلا تربت يداك.

وفيه أيضا: ما عمل آدمي بعد الإيمان عملا أفضل له من التماس منكح صالح.

ويروى أن عمر رضي الله عنه استشار يهوديا من أهل الذمة في امرأة يتزوجها، فقال اليهودي: ومثلك يا أمير المؤمنين يشاور يهوديا من أهل ذمته في أهم أعموره إليه أعني حرث ولده وصديق نفسه ولب بيته فقال عمر: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحكمة ضالة المؤمن فيأخذها حيث وجدها فقال اليهودي: يا أمير المؤمنين، كان اليهود لا ينتظرون إلا كثرة المال وكان فارس ينتظرون كثرة الرجال وكان الروم ينتظرون الجمال، وكان قريش ينتظرون الحسب وعز بيوتات الآباء فلما جاء نبيكم هذا كان منظره الدين فاختر لنفسك يا أمير المؤمنين، فقال عمر: لقد أفقت وبينت العلم الصحيح يا يهودي، وسار عمر من حينه إلى علي بن أبي طالب فزوجته بنته أم كلثوم.

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه أنه قال: والله ما تزوجت أسماء بنت أبي بكر لمالها ولا لجمالها ولكن لتلد لي رجلا كأبي بكر فحق الله تعالى رجاءه فولدت له عبد الله فكان الزبير بعد ذلك يتعجب منه ويقول: انظروا إلى هذا الغليم فوالله إن عليه خلعة من أبي بكر، وكان أفقه الناس في عصره وأكملهم خشوعا، روي أنه لشدة خشوعه ظن به الرياء فتركوه حتى ركع في الصلاة وصبوا على ظهره رصاصا مذابا فلم يشعر به ولم يؤثر الرصاص فيه لاصطلام جسده بالأنوار الإلهية، ويروى أن أخاه عروة كانت برجله قرحة، فجزم الأطباء بأنه لا براء له ولا نجاة لنفسه إلا بقطع رجله فكان كلما حاولوا قطعها منعهم لشدة وجعها له فقالت لهم ابنته: إن أردتم قطعها فدعوه حتى يحرم في الصلاة فتركوه فلما أحرم في الصلاة أتوه ففقدوا الرجل وزفتوها وهو لا يشعر لشدة خشوعه.

فانظر يرحمك الله كيف حقق رجاء الزبير رضي الله عنه في ابنة أبي بكر رضي الله عنه وعنهما.

وكان الشيخ حفظ الله ساحته وأطال مدة حياته وأفاض علينا جزيل بركاته يبني لهم البيوت ويعطيهم الأموال والخدم والخيل والكتب وغير ذلك ويحسن عليهم أكمل الإحسان ويتعاهدهم بما فيه صلاح معاشهم ومعادهم، وذلك منه حفظه الله ورعاه امتثالا لأمر الله تعالى حيث يقول جل من قائل: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ إلى أن قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وقال جل ذكره وعزت كلمته:

﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين﴾ وقال: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى﴾ والأولاد هم أقرب الأقارب، ومن حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس كما في الحميدي جامع الصحيحين، وفي الخبر عنه ﷺ: لا يقبل الله صدقة وذو رحم محتاج، وعنه ﷺ رحم الله والدا أعان ولده على بره، وعنه ﷺ خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ المحسن إلى نسائه وعياله وأولاده يعطى درجة المجاهد في سبيل الله، أخرجه الترمذي.

ومن حديث ابن عبا رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: أفضل الصدقات بعد الزكاة درهم تنفقه على نفسك، تصونها عن مسألة الخلق، ودرهم تنفقه على زوجتك، ودرهم تنفقه على ولدك وما ملكت يمينك تصونهم عن الحاجة إلى الناس فيكتب الله سبحانه لك أجره سبعين ضعفاً، أخرجه النسائي وغيره.

ومن حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ابدأ بنفسك ثم بمن تعول، رواه الشيخان وقال تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ أي الفضل وقال ﷺ من أمسى تعباً ليصون أهله عن مسألة الناس أمسى مغفوراً له، وكتب الله سبحانه أجره مضاعفاً سبعين ضعفاً، أخرجه البيهقي من طريق أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً، ومن جملة إحسانه عليهم حفظه الله ورعاه تجاوزه عن عثراتهم وإغضاؤه عن عوراتهم وذلك دأبه مع جميع الكائنات ما لم تنتهك حرمت الله وذلك منه حفظه الله ورعاه وأطال فسحة حياته وعافاه وكفاه شر العالمين ووقاه امتثالاً للأمر الإلهي وأخذاً بالأثر المحمدي، فقد قال تعالى: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ وقد أمر تبارك وتعالى بالعفو في كتابه العزيز نحو من عشرين آية وفي الأثر عنه ﷺ لما شجّه قريش يوم أحد وكسروا رباعيته اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، وفي حديث فتح مكة أمعن النظر هنا أنه عليه السلام لما غدا الناس على مكة نهى عن قلة آله وعن من كان يحسن إليه كأبي البختري بن هشام وفي ذلك يقول البدوي في نظم الغزوات:

عن قتل آله نهى إذ خرجوا وفي خروجهم عليهم حرج

وعن أبي البختري إذ لم يؤذِه و ص ك ن ب ذ ه م س ع ي ف ي ن ب ذ ه
فانظر يرحمك الله إلى هذا التجاوز عن عثرات الأقارب والإحسان عليهم فقد تجاوز
عن ضرب قریش له بالحجارة والسيوف ثم سأل الله لهم المغفرة، ثم أضافهم لنفسه
إظهاراً لشفقته عليهم وشفاعته لهم عند الله بأنهم قومه ثم اعتذر لربه جل وعز عنهم
بقوله: فإنهم لا يعلمون، ثم تجاوز عن عثرات بني هاشم كبيعهم لدوره بعد هجرته،
ودور من هاجر معه من قرابته، وخروجهم في جيوش عدوه وجموع حربه، ثم أحسن
إليهم بأن نهى صحبه عن قتلهم مخافة عليهم من الموت على غير الإسلام وحقنا
لدمائهم، فكان أشفق عليهم وأرأف بهم وأبر لجانبهم من أنفسهم وذلك من كرم الخلق
وفي ذلك يقول الشاعر:

وأسعد ذوي القربى فيقبح أن يرى على من إلى الحر اللبيب انضوى ضوى
الانضواء في البيت معناه الانتساب والضوى الضيم وقد تم الباب الأول بحمد الله
وحسن عونه، وأتبعه الآن إن شاء الله بالباب الثاني قائلاً: إياك نعبد وإياك نستعين،
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الباب الثاني في ذكر طريقة الشيخ حفظه الله ورعاه وسرد أصولها وفروعها وذكر بعض من أخذ عنه

اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه وسلك بنا وبك طريق تقواه أن طريقة هذا الشيخ هي طريقة رسول الله ﷺ التي ورد بها كتاب الله العزيز، وتعبد الله تعالى عباده وأمرهم بها في قوله جل وعز: وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة، فالعبادة هي التوحيد وإنما تصدق على أعمال البر مجازاً بدليل عطفه تعالى الصلاة والزكاة عليها ولا يقال ذلك من عطف الخاص على العام لأن الخاص إنما يعطف على العام لفضل الخاص على العام، ومن المعلوم عند كل أحد أن الصلاة والزكاة ليس فيهما أفضل من التوحيد بدليل أنهما لا تقبلان إلا من موحد، وقال الأكثرون: يقبل الإيمان بدونهما ويكون قتل تاركهما حداً له وتطهيراً.

وأخرج مسلم والبخاري من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: كنت ردف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرجل قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل: قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم قال: هل تدري ما حق الله على العباد، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم. وقد أخرجاه من حديث عمر بن ميمون عن معاذ قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير فقال يا معاذ: هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال: لا تبشرهم فينكفون.

ومن حديث الأسود بن هلال عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: أتدري ما حق الله على العباد، نحو حديث أنس عن معاذ.

وفي حديث هشام الدستوائي عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ ومعاذ بن جبل رديفه على الرحل قال: يا معاذ، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا ثم قال: ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار، قال: أفلا أخبر الناس فيستبشروا؟ قال: إذا يتكلوا فأخبر بها معاذ عند موته تأثما.

فإذا تأملت هذا وفهمته علمت أن لفظ العبادة في الآية المراد به التوحيد لا غير، وللتوحيد ثلاث مراتب أما الرتبة الأولى فهي رتبة الإسلام التي هي عمل الجوارح أعني التلفظ بالشهادتين وإيتاء ما افترض الله على الجوارح من الأعمال والتوحيد في هذه الرتبة علم نظري مستفاد بدلائل المشهود طار عقله إليه بأجحة تلك الدلائل والدلائل لا توجد إلا في الأشياء الظاهرة الآثار، وأما الأشياء الباطنة فلا يوجد لها نظر البتة، يشير إلى ذلك قوله عليه السلام: أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص، بمعنى أن الناس وجدوا الأدلة على ما أتيتهم به فانقادوا، وعمرو بن العاص رسخ في نفسه رسوخا لا يحتاج فيه إلى دليل.

أما الرتبة الثانية: فهي رتبة الإيمان أي التصديق اليقيني الذي لا يتوقف على استدلال بدليل حسي طائرا قلب صاحبه إليه بأجحة شهود القدرة حتى يرى ببصيرته حقائق ما أخبر به من الغيب كرؤيته لمشاهده ببصره من الوجود الحسي، وإنما سمي هذا مؤمنا والأول مسلما لأن الأول إنما انقاد لما انقاد له مستدلا عليه لما شهد ببصره فكأنه إنما انقاد لما شهد ببصره، وهذا وإن كان إيمانا من حيث الظاهر فإنهم لم يطلقوا عليه اسم الإيمان لاختصاص الإيمان بالتصديق الذي لا يحتاج إلى دليل حسي، وذلك لأن المحسوسات تتعاقب عليها الأعراض فتغيرها غالبا والمستند إلى متغير متغير وفي المثل استناد الضعيف إلى ضعيف يؤدي إلى سقوط الجميع، يروى أن الوليد بن المغيرة سمع القرآن فأعجبه وقال: سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وكاد يسلم.

ودخل إلى أبي بكر الصديق فقالت قريش: صباً والله الوليد، والله لتصبون قريش كلهم، فقال أبو جهل أنا أكفيكموه فقعد إلى جنب الوليد حزينا فقال الوليد: ما لي أراك حزينا، فقال: وما يمنعني أن أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتتال من فضل طعامهم فغضب الوليد فقال: ألم تعلم قريش أنني من أكثرهم مالا وولداً، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام فيكون لهم فضل ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قريش فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يتحقق قط، قالوا اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط، قالوا اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب، قالوا: اللهم لا، وكان ρ يسمى الأمين قبل النبوة من صدقه، فقالت قريش للوليد فما هو فتفكر في نفسه ثم نظر ثم عبس فقال: ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه وما يقوله سحر. اهـ من الذهب الإبريز عند قوله: ﴿إنه فكر وقدر﴾ فانظر يرحمك الله كيف استدل أولاً بصنيع البلاغة وسلاسة الألفاظ على قوله الأول أعني قوله في القرآن: ما هو من كلام الإنس ولا الجن، ثم استدل لقوله الآخر أعني قوله: ساحر، وما يقوله سحر بما شاهده من تفرقة ρ بين الرجل وأهله ومواليه تعلم أنما استدل عليه بدلائل الحسية إنما يسمى إسلاماً أي انقياداً المقتضي ذلك الدليل فإذا تغير الدليل أو طرأ عليه دليل أقوى عنده منه انفسخ من ربة ذلك الانقياد وانقاد للآخر وإنما سمي الإيمان اليقيني الذي لا يحتاج إلى دليل حسي إيماناً لكون التصديق فيه بحيث لا تغيره الطواري عليه ولم يتقيد بما تغيره الطواري أيضاً، ولذلك قال عليه السلام: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله، بمعنى أن نظيره غير مقيد بدليل حسي بل بشهود قدرة الله تعالى ونور توفيقه وقال طائفة الإيمان والإسلام شيء واحد واحتجوا على ذلك بقوله جل وعلا: ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ قلت: وفي ذي الجلالين والذهب الإبريز ما يدل على أن الآية ليس فيها دليل على اتحاد الإيمان والإسلام، إذ قد قال صاحب الذهب: وصفهم بالمؤمنين وبالمسلمين لأنهم جمعوا الوصفين، وفي ذي الجلالين وصفوا بالإيمان والإسلام لأنهم مصدقون بقلوبهم عاملون بجوارحهم الطاعات.

وأما الرتبة الثالثة فهي الإحسان وقد عرفه عليه السلام بقوله لما سأله عنه جبريل: الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهو طرف من حديث طويل رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد: أخبرني عن الإسلام، فقال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. اهـ المراد منه.

وهذا الحديث أخرجه الخمسة إلا البخاري وكل واحدة من الرتب بعد واحدة داخله فيها، فإن الإيمان داخل في الإسلام فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا وكل محسن مؤمن وليس كل مؤمن محسنا.

وأما قوله تعالى: ﴿مخلصين له الدين﴾ أي ما أمروا إلا ليعبدوا الله حال كونهم مخلصين له في عبادتهم أي خالصين في عبادتهم لا يريدون بها غير امتثال أمره، أي لا يريدون بذلك حراسة أموال ولا تقية نفوس ولا حضا من مغنم ولا غير ذلك، وقوله: ويقوموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، أي يأتون بالصلاة والزكاة أي وغيرهما من الأمور على نحو ما أمرهم الله به من إقامة ركوع وسجود وخشوع واعتدال وطمأنينة وغير ذلك، وبعبارة الإخلاص في العبودية هو العمل لله لا لطلب جنة ولا لخوف نار، ولا غير ذلك بل عملا خالصا من علل النفوس لا لتوقع وجود ثواب ولا لدفع عقاب، بل ما أراد الله بأمره إياك أردته بامتثال ذلك وبعبارة الإخلاص هو أن تشهد نعمته عليك بالعمل إذا وفقك وتتخلص من دعوى المنة لك عليه بالعمل التي من أجلها طلبت ثوابا أو دفع عقاب، وبعبارة الإخلاص هو أن تعمل بالله لله خاليا من شهود نفسك فيه بل تراه المحرك والمسكن متخلقا سرك بشهود الله خالق كل

شيء، وبعبارة الإخلاص هو الفناء في العمل بأن لا ترى العمل من نفسك بل ولا مخلوقا فيك بل ترى الله يعمل من غير نسبة بينك وبين العمل ملتحقا باطنك بشهود وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، وكل تلك التفسيرات المعبر بها عنه يصدق عليها معنى الإخلاص في اللغة العربية، إذ كلها إخلاص في العبودية.

وقد ورد في الآية بصيغة العموم إذ الفعل من صيغ العموم واسم الفاعل كذلك وقد قال تعالى: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ وقال هنا: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ بصيغة التذكير وتعلق كل طائفة من هذه الأمة بما وصلها إليه علمها وما وجدته في حالها قد علم كل أناس مشربهم، وقد أتى النبي ﷺ بهذه الطريقة أعني عبادة الله تعالى على الوجه الأكمل وإتيان ما أمر به على الوجه الأكمل أيضا، وأخذ الصحابة رضوان الله عليهم ذلك منه ﷺ بواسطة الصحبة والمبايعة على السمع والطاعة، وأخذه أيضا التابعون عن الصحابة وهذه الرتب الثلاث هي الدين لقوله عليه السلام في آخر الحديث المتقدم: هذا جبريل أتاكم ليعلمكم أمر دينكم فأخذ العوام من هذه الرتب أدناها وهي رتبة الإسلام التي ما تحتها إلا عدم التوحيد وهو الكفر نعوذ بالله منه وأخذ خواص العوام الرتبة الثانية التي هي رتبة الإيمان وأخذ خاصة أهل الإيمان الرتبة الثالثة التي هي رتبة الإحسان، أعني عبادة الله تعالى المراقبة أعني الشهود اليقيني المشبه بالشهود العيني، ولهذه الرتبة رتب متداخلة أيضا، تسمى الأولى منها بالشهادة وهي عبارة عن انعقاد المحبة لله تعالى في قلب العبد من غير علة فتكون محبته لله لصفاته وكونه أهلا لأن يحب ويترقى حتى يشهد الحق تعالى بعين اليقين في سائر مخلوقاته، فإذا مثلا شيئا فإنه يشهد الحق تعالى في ذلك الشيء من غير حلول ولا اتصال ولا انفصال، بل على ما أخبر به سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وذلك عبارة عن دوام مراقبته من غير فترة.

وفي كتاب الشيخ خان الحلبي أن أبا بكر قال: ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله، وتسمى الثانية منها بالصدقية وهي عبارة عن شهود العبد فناءه تحت سلطان أنوار جمال الله تعالى ويظهر له البقاء الإلهي وهذا هو المعبر عنه بقولهم: من عرف نفسه فقد عرف ربه، وذلك ينحصر في علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، فأما علمه فهو عبارة عن تجلي الأسماء للعبد في هذا البقاء اسما فاسما فإذا تجلت عليه

الصفات بعد تجلي الأسماء فذلك عين اليقين وإذا تجلت عليه الذات بعد تجلي الصفات فذلك حق اليقين، أما الأول الذي هو تجلي الأسماء فهو إحاطة كلية بالقلب بشهود كونه تعالى قادرا ومريدا وعالما وحيا إلى غير ذلك من الأسماء مع قطع النظر عن كون غيره موصوفا بذلك وأما الثاني الذي هو تجلي الصفات فهو إحاطة كلية القلب بشهود قدرته وإرادته وعلمه إلى غير ذلك من الصفات مع قطع النظر عن كون غيره موصوفا بذلك، فصاحب تجلي الأسماء حاضر مع الذات بتجلي الاسم مع غيبته عن الصفة، وصاحب تجلي الصفات حاضر مع الذات بتجلي الصفة مع غيبته عن الاسم وصاحب تجلي الذات حاضر مع الذات بشهود وجود الذات دون غيرها بحيث لا يكون معها غير يسميها ويصفها بل غاب في ذلك عن وجوده ووجود غيره فعرف الذات بالذات ثم يترقى إلى ما لا يعبر عنه له السائل لعدم إدراكه له وتسمى الثالثة منها بالوسيلة لأن الواصل إليها وسيلة القلوب إلى السلوك على التحقيق بالحقائق الإلهية وهي عبارة عن ظهور العبد في تنوعات الأسماء والصفات فيصبر في جوار الله تعالى وقربه بحيث لا يستعصي عليه شيء مما يطلبه فعلم مما تشوف لعلمه وفعل ما أراد حدوثه في العالم مثلا كإبراء العلل له والأمراض ومشيه على الهوى وقدرته على التصور بكل صورة وهذه الرتبة هي آخر رتب الإحسان ولها هي رتب لا تنتهى وإنما كانت آخر الرتب لأن ما بعدها أول مقامها داخل فيه كدخول حقيقتها هي واللتين قبلها في حقيقة الإحسان وأعني باللتين قبلها الشهادة والصدقية إذ حقيقة الإحسان كما في الحديث أن تعبد الله كأنك تراه إله، وذلك عبارة عن كمال القرب وتحقيق معية الله العبد المشار إليها بقوله وهو معكم أينما كنتم وهذه الرتب إنما هي داخلية في ذلك وكل واحدة منهن أكمل فيه من التي قبلها كما أن رتب الدين من الإسلام والإيمان والإحسان، كل واحدة منهن أكمل من التي قبلها فالشهادة عبادة عن انعقاد المحبة لله تعالى في القلب من غير علة بل لصفاته ولكونه أهلا لأن يحب وذلك إنما يكون من دوام مشاهدة الصفات وحضورها في القلب وإلا فلا تؤثر انعقاد المحبة في القلب إذ ما من مؤمن إلا وهو عالم بصفات الله تعالى لكن لم يؤثر ذلك العلم فيه محبة، فإن من ليس بهذه المثابة إنما يحب الله لإحسانه عليه أو ليزده مما أسداه إليه بخلاف صاحب هذه الرتبة فإنه لما دام شهوده

بجمال الله تعالى وجلاله وكماله تعلقت روحه بذلك تعلق تعشق بحيث استغنت في حبها بالنظر في تلك الصفات المقدسة على أن تحبه لغرض من أغراضها، ويترقى حتى يشهد الحق تعالى بعين اليقين في سائر مخلوقاته وهذا داخل في الإحسان وأما الصديقية، فهي عبارة أيضا عن حقيقة مقام فمن عرف ربه وذلك منحصر في علم اليقين وهو شهودك فناءك تحت سلطان أنوار جمال الله أي مع قوة ظهور جمال الله لقلبك وظهور البقاء الإلهي وتتجلى عليه اسما فاسما فإذا تجلت عليه الصفات بعد تجلي الأسماء فذلك عين اليقين وإذا تجلت له الذات بعد تجلي الصفات فذلك حق اليقين وهذه أيضا داخلة في معنى الإحسان الذي عرفه به صلى الله عليه وسلم، وأما رتبة الوسيلة وتسمى العبودية والقرب فهي أيضا عبارة عن ظهور العبد في تنوعات الأسماء والصفات فيصير في جوار الله وقربه إلخ فهي أيضا داخلة في معنى الإحسان أكمل دخول ويسمى أول مقامها بالخلة لتخلل آثار الحق وجود صاحبها وانتهاء أول مقامها ابتداء مقام الحب الذي أتى الذي هو عبارة عن التعسف الاتحادي بحيث يصير كل من العاشق والمعشوق نيابة عن الآخر قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ﴿وَمَنْ يَبْعِطِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ وقال p لأبي سعيد الخزاز لما رآه في المنام: فقال له يا رسول الله اعذري فإن محبة الله شغلتي عن محبتك، قال له: يا مبارك إن محبة الله هي عين محبتي وآخر مقام الحب الذاتي هو أول مقام الختام الذي هو اسم لنهاية هذه الرتبة التي نهايتها لا نهاية لها لأن الله تعالى لا نهاية له لكن اسم الختام منسحب من أول هذه الرتبة وإنما اختص به صاحب آخر الحب لذهابه في الرتبة إلى حي لا يتقدمه أحد فيها ومن ابتدائه في هذه الرتبة اختص باسم المقرب ويسمى بالعبد أيضا لاتصافه بالعبودية والعبودية رجوع العبد في الرتبة الإلهية بالله إلى حضرة الخليفة يرجع إليها صاحب الخلة وصاحب الحب وصاحب الختام. اهـ

فإذا تأملت هذا وفهمته علمت أن هذه الطريقة من أول مقام الإسلام إلى انتهائها الذي يعبر عنه بالختام إنما هي طريقة الله ورسوله بمعنى أنها مؤسسة على الكتاب والسنة ولهذه الملة سبع مقامات عددها القوم ليس منها واحد إلا ذكره الله في كتابه العزيز، أولها مقام الإسلام، والثاني مقام الإيمان، والثالث مقام الصلاح، والرابع مقام

الإحسان، والخامس مقام الشهادة، والسادس مقام الصديقية، والسابع مقام العبودية، وقد قدمت حدودها إلا مقام الصلاح فإني لم أذكره ابتداء شغلا بالتالي عدها عليه السلام لما سأله جبريل وهو أي الصلاح عبارة عن دوام العبادة التي هي أعمال البر طلبا لثواب الله وخشية من عقابه وذلك هو المعبر عنه بالرجاء والخوف فهو يعمل الأشياء لله ولكنه يطلب بها منه الزيادة في دنياه وأخراه فهو عابد لله خوفا من ناره وطمعا في جنته، فهو أي الصلاح داخل في الإيمان والإسلام، فكل صالح مؤمن ولا عكس، وكل محسن صالح ولا عكس أيضا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وقال: ﴿مَنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمَنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ وقال: ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وقال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ وأما العبودية فأكثر ما يذكر الله تعالى بها نبيه عليه السلام أو كثيرا من الأنبياء في محل التعظيم، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وقال في نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار﴾ وقال في غيرهم من المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ﴿يَا عِبَادِي لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فبان من هذا أن جميع ما يذكره القوم من مقامات الطريق إنما هو وارد في كتاب الله تعالى، وهذه الطريقة القرآنية هي طريقة هذا الشيخ حفظه الله ورعاه وأطال حياته في كل ما يحبه ويرجوه من موله جامعا بين طرفيها أعني العمل بجميع المأمورات على أكمل الحالات، والوقوف في المشهد اليقيني على أكمل الرتب المشهودات فهو واقف في أعلى ذراها يدعو الخلق بدعوة الحق سبحانه وتعالى على سبيل النيابة عن الرسول عليه السلام: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وبهذا بان تعريف الطريقة والأصل فيها.

فصل: أذكر فيه من الداعي إلى الله تعالى ومن المدعو إليه، وما الدعوة، ولماذا يدعو الداعي إليه فأقول وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق الداعي إلى الله تعالى هو النبي ﷺ بشهادة قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ

الحسنة ﴿ وبشهادة قوله: ﴿يا أيها المدثر قم فأذر﴾ ثم لما مات عليه السلام لم تنقطع دعوته إلى الله تعالى ولم تنفصم ملته بموته بل تتوب عنه أتباعه الوارثون له بشهادة قوله تعالى: ﴿أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ واحتاج المتأمل في هذا أن يعرف من أتباعه الذين يدعون إلى الله تعالى بحكم النيابة عنه فأقول وبالله التوفيق النائب عنه الوارث له علما وحالا وأعني بالعلم اللدني الذي يهبه الله تعالى لأوليائه بحكم الوراثة النبوية، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾ ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ وهذا العلم عبارة عن علم يلقيه الله في قلوب عباده المقربين من التحقيق بحقائق الأشياء مما هو بواسطة صفاء مرآة الذهن حتى يرى بها جميع مقابلها في لوح الفكر وإليه الإشارة بقوله ρ إن من الناس أناسا يعرفون الناس بالتوسم وفي الخبر عن أبي بكر الصديق: ما ليك بليل سارق وأبيك قبل سببه أن رجلا أخفى حليا له ثم ادعى أنه سرقه شخص وتعلق به وجعل يطلب منه أن يخرج له حليه فقال أبو بكر لصاحب الحلي: ما ليك بليل سارق، بمعنى ما ليك بليل من بيته سارق وقيل إنه يعني المدعى عليه بمعنى ما ليك بليل من بات يسرق ثم وجد الحلي عند صاحبه فانظر في ابن زكري على نصيحة زروق وفي ضياء النهار لابن حجر أن النبي ρ قال: إن أبا بكر لم يفضلكم بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا كلام ولكنه شيء وقر في قلبه من المعرفة وعلم الباطن، وفيه أيضا أن رجلا أتى النبي ρ فقال: يا رسول الله علمني من كل علم تعلم وما رأس العلم؟ فقال: المعرفة بالله وفيه أيضا عن ابن مسعود أنه قال: لما مات عمر مات سبعة أعشار من العلم فقيل له: أتقول هذا وفينا جلة الصحابة رضي الله عنهم فقال: لست أعني علم الفتاوي والأحكام وإنما أريد العلم بالله تعالى.

وفي الخبر عن عثمان أنه قال لرجل يأتي أحدكم وفي عينيه أثر الزنى، فقال له الرجل: أوحى بعد النبي ρ فقال: لا ولكن فراسة وتوسم، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله.

وفي كتاب كشف الغمة أنه لما مات عليه السلام وأصحابه مجتمعين عليه في الدار جاءهم شيخ أشهب اللحية والرأس فتخطاهم رقابهم حتى وصل النبي ρ فقبله ثم عزاهم تعزية بليغة ونصها بعد الحمدلة والصلاة على النبي ρ أما بعد فإن في الله

خلفا من كل تالف، وعزاء من كل مصيبة، ودركا من كل فائت، وإن المصاب من حرم الثواب، فبالله فتقوا وإياه فارجوا فلما خرج قالوا: من هذا فقال أبو بكر وعلي بن أبي طالب عرفناه هذا أخو رسول الله ﷺ الخضر فما عرفه أبو بكر وعلي إلا بالتوسم والكشف، ويدل له أيضا ما في كتاب الله العزيز من قصة موسى والخضر عليهما السلام من كونهما في مكان واحد راكبين في سفينة فعلم الخضر من علمها ما لم يعلمه موسى عليه السلام أعني كونها لمساكين يعملون في البحر وكونهم وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة لا خلل فيها غصبا، فخرقها لذلك ثم لقيها غلاما فعلم الخضر من علمه ما لم يعلمه موسى عليه السلام يعني كون أبويه مؤمنين وأنه إذا كبر أرهقهما طغيانا وكفرا فقتله لأجل ذلك، ثم وجدا جدارا يريد أن ينقض فعلم الخضر من علمه ما لم يعلمه موسى عليه السلام أعني كونه لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأقامه لأجل ذلك، وهذا العلم هو أنفس العلوم لكونه من الله تعالى بلا واسطة بشهادة قوله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾ وقوله جل وعز حكاية عن الخضر: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ وكفاه نفاسة ورفعة أن هاجر كلهم الله موسى في طلبه بعد أن كتب الله له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء.

وفي كتاب الجامع الكبير أن سبب مسير موسى في طلب الخضر أنه لما كتب الله له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء قام يوما في بني إسرائيل خطيبا فسأله بعضهم من أعلم الناس فقال: أنا، فعتب الله عليه ذلك وأخبره أن له عبدا آتاه رحمة من عنه وعلمه من لدنه علما، أي علما عظيما، أو بواسطة الإلهام الإلهي أو خاطر الملكي وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ وقوله حكاية عن الملائكة: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ قال في الذهب الإبريز قال الفخر: ومعنى كونهم أولياؤهم إشارة إلى أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية بالإلهامات والمكاشفات والمشاهدات إلى أن قال: وذلك أن جوهر النفس من جنس الملائكة وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس والفطرة بالنسبة إلى البحر وإنما التعلقات الجسمانية والتدبيرات البدنية هي الحائلة بينها وبين الملائكة فإذا زالت تلك

العلائق فقد زال الغطاء واتصل الأثر بالمؤثر والفطرة بالبحر والشعلة بالشمس.
انتهى.

وفي الخبر عن علي كرم الله وجهه ما كنا أصحاب محمد نشك في أن السكينة تتكلم على لسان عمر وفي الخبر عن أبي هريرة رضي الله عنه يقولون: أكثر أبو هريرة فوالله أخذت من رسول الله ρ وعاء علم وفي رواية جرابي علم، فأما أحدهما فبثنته، وأما الآخر فلو قلت منه كلمة واحدة لقطعتم هذا البلعون قبل أن أتمها قال ابن العربية قال البخاري البلعوم مجرى الطعام والشراب، وعن ابن عباس لو تكلمت في تفسير قوله تعالى: ﴿الذين خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينتزل الأمر بينهن﴾ لرجتموني أو لقلتم إني كافر، وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما:

وقد تقدم في هذا أبو حسن أوصى حسينا وأوصى قبله الحسنات
إني لأكتم من علمي جواهره كي لا يراه أخو جهل فيفتتنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به ل قيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولا استحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وأما علم الرسوم والروايات فأهله لا تستقيم لهم الدعوة العامة، وإنما دعوتهم مقصورة على مقام الإسلام، إذ هو منتهى ما لديهم، ومن المحال العقلي والعادي أن تستفيد من شخص ما ليس عنده، فافهم ولا بد أيضا في الدعوة إلى الله تعالى منه إذ به تحقيق مقام الإسلام الذي تتفرع عنه كل المقامات الإسلامية ولا ينبت الفرع إلا على أصل أعني لا بد من القدر المحتاج إليه منه في تحقيق مقام الإسلام.

وأما ما كان من الدين متعلقا بالقلوب فلا حظ لهم فيه ولا دعوة لهم إليه إذ لا يكون الدليل إلا خريتا وأما المتحير فمن استدل به حار كمثلته يروى أن بعض ملوك العباسيين أتاه بعض علماء اليهود فقال له أليس من المحقق عندكم أن نبيكم قال: علماء أمتي كأنبيا بني إسرائيل؟ قال: نعم وكان الملك ذا علم بالرواية فقال: أليس من المحقق عندكم أن أنبياء بني إسرائيل كانوا يحييون الموتى بإذن الله قال: نعم، فقال: اختبروا ما أنتم عليه فإن وجدتم من علمائكم من يحيي الموتى اتبعناكم وكنا على ملتكم وإن لم تجدوه علمنا أنكم على باطل فجمع الأمير العلماء وسألهم عن

الحديث فأقروا بصحته، فعمد على طائفة ممن استوجب القتل فقتلهم وقال للعلماء والله لتحيين هؤلاء أو لأقتلنكم عن آخركم ولأتهودن ولأحملن الناس على اليهودية وقد أجلتكم ثلاثة أيام فاجتمع العلماء محزونين متحيرين في أمرهم فقال لهم بعضهم: يا علماء الملة إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون وما ذلك إلا لنصر هذه الملة أو انقراضها من هذه البلاد ولن ينجينكم مما حل بكم إلا الصدق ولن تجدوه إلا عند ولي صوفي لأنهم خلفاء الأنبياء وأبدال الرسل، فقام إليهم فقير صوفي وقال: يا معشر علماء الملة إن زهاب ما تخافون ووجود ما ترجون لا يكون إلا على يد سيد محمد بن إكرام، فقالوا له ذلك بعيد أيضا ألن أرضه الحيز وهو عشرة أيام للمجد والأمير أجل ثلاثة أيام، فقال: أنا آتيكم به في يوم وليلة فطيبوا نفسا وقرؤا عين فتوجه إليه من ساعته ودخل عليه في تلك الساعة وقال له أدرك الأمة فقد فتننت عن دينها بسبب يهودي وأخبره الخبر فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون كيف يجتمع من الأمة أكثر من سبعمائة وتكون الغلبة لليهود، والله لقد بدلوا وغيروا وما استقاموا، فلما كان عند انتهاء ما أجل الأمير أتاهم به فوجدوا العلماء مجتمعين عند الأمير والقلى قد تغيرت أبدانهم وأنتنت روائحهم فقام بينهم وقال: أيها الأجساد البالية أدعوا إليكم أرواحكم بإذن من تقوم السماء والأرض بإذنه فقاموا ينفضون التراب من رؤوسهم وكأنهم لم تصبهم سنة نوم ولا علة مرض ثم تزوجوا وولد لهم وعاشوا إلى منتهى آجالهم. انتهى من كتاب كشف اللبس.

قلت وبهذه الحكاية وأمثالها يتبين أن قوله عليه السلام: العلماء ورثة الأنبياء، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ وقوله عليه السلام: «إن الله تعالى يحيي القلوب الميتة بنور العلم كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر» المراد به العلم بذات الله تعالى وصفاته وأسمائه على التحقيق بالحقائق الإلهية، ألا ترى الأولياء يحيي الله لهم الموتى ويسخر لهم البحر ويطيرون في الهواء وما ذلك إلا أنهم شربوا من مشرب التحقيق بما وصف الله تعالى به نفسه حتى انخرق عنهم حجاب الطبع فصار أحدهم لا يستعظم ولا يستبعد أن يسأل إحياء الموتى ولا غيره مما لم تجر العادة به كما لا يستعظم أحد العامة أن يسأل ما جرت العادة بوقوعه، ولا حظ لأهل الرسوم في شيء من هذا وأما الحال فأعني به الحال

المؤثرة الجاذبة الدافعة فالحال في اللغة عبارة عما يتصف الشيء به مما لم يكن من أصل خلقته ولا ملازم له غالبا قال ابن مالك:

وكونه منتقلا مشتقا يغلب لكن ليس مستحقا
وقال الشاعر:

ولو لم تحل ما سميت حالا

والمراد به عند أهل الله تعالى ما يرد على قلوب أهل الحضرة الإلهية من شهود الحقائق الإلهية أو الخلائق الإيمانية فالحقائق الإلهية أعني بها ذاته ج وعلا وصفاته وأسماءه وأعني بالخلائق الإيمانية كل خلق يهدي إليه الإيمان كالتوبة والإنابة والزهد والتوكل والرضى والتفويض والإخلاص، فمن لم يكن عامر القلب بشيء من هذا كيف يصح أن يكون داعيا إلى الله تعالى أو مرشدا إليه أخرج مسلم والبخاري من حديث أنس بن مالك أنه قال: لما دفنا رسول الله ﷺ وسوينا التراب عليه فنفضنا أيدينا وجدنا أثر ذلك في قلوبنا وفي رواية أنكروا حالنا بمعنى أنهم كانوا مستضيئة قلوبهم بما تراه بصائرهم من نور مصباح زجاجة مشكاة قلب النبي ﷺ مع ما هم عامرون به من الحقائق الإلهية، فلما فقدوا ذلك وبقوا على ما هم عامرون به وجدوا أثر ذلك وبوجود ذلك الأثر أنكروا من حالهم وفي الخبر أن عمر بن الخطاب دخل على رسول الله ﷺ فوجده مضطجعا على حصير من جريد قد أثر في جنبه فلما رآه عمر بكى وقال: بأبي وأمي أنت يا رسول الله إن ملوك فارس والروم يستعملون الأسرة الفائقة التي من صفتها كذا وكذا يعني كثرة ما أوتوا من نعمة الدنيا ورفاهيتها ونزاهتها وأنت لو شئت سألت ربك فيعطيك أكثر مما أعطاهم فقال عليه السلام: يا عمر ما مثلي ومثل الدنيا إلا كمثل راكب أضره الحر إلى ظل شجرة فقال تتها فلما كان وقت العشي ركب عنها وسار أو كما قال عليه السلام فكان عمر بعد ذلك أزهد الناس في الدنيا وأكثر تواضعا فانظر كيف استفاد عمر من حال النبي عليه السلام ما استفاد ولم يكن قبل ذلك بتلك المثابة بل قد بكى من قتلها تحت يد النبي ﷺ وذكر له ما بأيدي الملوك وعرض عليه أن يسأل ربه أكثر مما أعطاهم فلما أراه رسول الله ﷺ أن هذه ليست فاقة بل زهد وتواضع وأنفة عن العرض الفاني استأنس قلبه إلى ذلك

وتخلق به فكان أكثر الناس فيه فافهم ولذلك قال ابن عطاء الله: لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله، وقال شيخنا في مطية المجد:

أما الدليل فذ رشد عارف شر الطريق خيرها قد يعرف
سلكها حتى امتطى الأحوال وشاهد الجمال والجلالا
وقال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي
وأیضا إنما يحصل هذا العلم وهذا الحال بعد سلوك طريقة القوم غالبا، قال الشاعر:
إذا المرء ربي نفسه بمراده فقد شاد بنيانا على غير أسه
ومن لم تربه الرجال وتسقاه لبانا لهم قد در من ثر قدسه
فذاك لقيط ما له نسبه العلى ولما يفق طورا لأبناء جنسه
وأما المدعو إلى الله تعالى فهو ما عدا الولي الواصل ولا يخلو أن يكون كافرا أو جاهلا مقلدا في التوحيد وأحكام الإسلام، وهذا إن تمكن الدعوى لهما ممن قام بهما من أهل الإسلام من إمام وغيره وينتفعون من كل مسلم ألقوا إليه الرسن كائنا من كان أو مسلما أو مؤمنا أو صالحا وهؤلاء الأصناف الثلاثة يمكن انتفاعهم من كل واصل مقرب قد فني في شهود ربه عن شهود نفسه وغيرها وفني أيضا في القيام بحقوق ربه عن القيام بحظوظ نفسه، وأما غيره فلا سبيل إلى دعوته لهم ولا إلى انتفاعهم بها لو فرضناها إذ هو لا يدرك أعلى مما هم فيه فيدعوهم ولو فرضنا أنه أدركه بطريق السمع الواصل إليه بطريق الرؤية فإن دعوته لا تؤثر في المدعو أو لا تمكنه هو الإقامة عليها إذ حظه منها لسانه ولا يصل إلى قلب المدعو إلا ما خرج من قلب الداعي لقولهم: ما خرج من القلب وصل إلى القلب، وقالوا: كل كلام عليه حلة من قلب صاحبه وقالوا: ما فيك ظهر على فيك، وقالوا: تكلم تعرف، قيل معناهما أنك إذا تكلمت ترجم لسانك عما يخفيه إنسانك، وقيل معناهما أنك إن تكلمت اكتسبنا من كلامك حلة باطنك فافهم وأنشدوا في المعنى:

فإنك إذ ما تات ما أنت أمر به تلف من إياه تأمر آتيا
وأنشدوا فيه أيضا:

ابداً بنفسك فانها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويرتضى منك المقال وينفع التعليم
وقولي أولاً إن هؤلاء الأصناف إنما ينتفعون من الولي الواصل لا غير أعني به
الانتفاع في الدين الذي هو الاعتقاد التوحيدي وأما علم الرسوم والآداب وغير ذلك
فكل أحد ينتفع به من غيره ألا ترى عمر بن الخطاب يشاور اليهود ويستعين برأيهم
ويقول: الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها. اهـ.

وأما صاحب مقام الإحسان فهو أيضاً محتاج إلى الدعوة إلى الله لما هو أعلى من
مقامه إذ الإحسان فرق لان مضمونه أن تعبد الله كأنك تراه إن لم تكن تراه فإنه يراك،
وهذا مؤذن ببقائك في شهود وجودك فأنت محتاج إلى من يخرجك إلى مقام لا ترى
فيه نفسك بأن تغنى في الله عنك وعن غيرك حتى لا ترى الوجود إلا له خاصة رؤية
وحدانية لا يمكن الانفكاك عنها غالباً وذلك هو لمعبر عنه عند القوم بالجمع قال
شيخنا في منظومة الأحوال:

الفرق ما نسبه إليك كذلك الجمع سلبك عنكا
فالفرق لائق بحال بشر والجمع لائق بحال مستمر
وأما صاحب الشهادة والصدقية والوسيلة فهم الدعاة إلى الله تعالى بحكم الخلافة
النبوية والوراثة المحمدية، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.
وأما الدعوة إلى الله تعالى فهي الدعوة إلى الإسلام، فأصلها في كتاب الله قوله تعالى:
﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ أي حتى يقرؤا بتوحيد الله تعالى
بالربوبية، لخبر: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا
مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله، والقائم بها بعد النبي ﷺ الأمير
الذي يحمل الناس على الدخول في الإسلام كرها وفائدتها السلامة من الخلود في
النار إذ لا يخلد فيها موحد بإجماع الأئمة قالوا: لأن الله تعالى يقول: فمن يعمل
مثقال ذرة خيراً يره، ولا خير خيراً من الإيمان، وأما الدعوة إلى ترك الكبائر وبعبارة
هي الدعوة إلى تكملة الإسلام وأصلها في كتاب الله آيات الحدود كقوله تعالى:
﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما﴾ ونحو

هذه الآيات، والقائم بها بعده عليه السلام ولي الحسبة أعني من أقامه الإمام في تغيير المنكر وجعل أمر الحدود إليه وفائدتها السلامة من دخول النار، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَدْخَلَكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ وأما الدعوة إلى الصلاح أعني السلامة من كبائر القلب بالحسد والكبر والعجب والرياء والسمعة والبغضاء ورؤية الفضل على الغير وحب الجاه والشرف وحب الدنيا فأصلها في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْكُمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ فقد نهى عليه السلام عن كل هذه الكبائر كقوله: الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أخرجه أبو داود، وفي الخبر: أخوف ما أخوفني عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله، قال: الرياء، وفي التنزيل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾ وقوله تعالى فيما يرويه عنه رسول: «العظمة ردائي والكبرياء إزارى من نازعني فيهما أقصمته» وفي رواية: قصمت ظهره، وأمثال هذه الأحاديث على تحريم هذه الشنائع كثيرة وفائدة هذه الدعوة نيل الدرجات العاليات في الجنة قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِمْ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ وبيان ذلك أن الأعمال الصالحات تفسدها تلك الكبائر القلبية وإذا فسدت فلا أثر لها في الجزاء ويقوم بهذه الدعوة المرشد أي الذي يعرف أمراض القلوب وعللها وأدويتها وإنما يقوم هذا المرشد بأعباء هذه الدعوة بشرط السمع له والطاعة وإلا فلا أثر له غالبا يروى أن أبا يزيد البسطامي كان يوما يحدث أصحابه ويذكر شيئا من أحوال قلوب العارفين فالتفت إليه رجل جالسا في الحلقة فقال له: يا سيدي إني منذ عشرين سنة أجاورك وأنا أصوم النهار وأقوم الليل ولم أجد في قلبي شيئا مما تقول فقال أبو يزيد لو مكثت في ذلك ستين سنة لم تنتفع مني ولا من صيامك ولا من قيامك ولم تجد أثرا لذلك في قلبك قال: ولم قال: لأنك لست من أهله إذ لم تجعل في عنقك بيعة مسدد فيداويك فقال الرجل صف لي فافعله لنفسي فقال أبو يزيد لا تقدر عليه فقال الرجل: بل أقدر عليه فصفه لي فقال أبو يزيد نعم أصف لك دواء إن فعلته وصدقت لك آخر فإن فعلته انتفعت فقال الرجل: صف وأنا أفعل، فقال أبو يزيد: اذهب إلى بيتك واخلع ثيابك وخذ فضل كساء بال واستر به ما بين سرتك وركبتك، ثم اجعل مخلاة في عنقك واجعل في المخلاة رمانا وادع

الصبيان وقل لهم: كل من صفعني صفة أعطيته رمانة واذهب أنت والصبيان إلى أهل سوقك الذين يعرفونك حتى يصفعك الصبين وينفذ ما في المخلاة من الرمان فائتني أصف لك دواء فقال: سبحان الله، فقال له أبو يزيد: قولك هذا سبحان الله كفر، فقال الرجل: ولم، قال: لأنك عظمت فيه نفسك، فقال الرجل: هذا الدواء لا أقدر عليه، فقال أبو يزيد ولو مكثت طول عمرك ما انتفع قلبك بشيء مما أقوله، فإذا كان هذا في مثل أبي يزيد فكيف بمن دون ذلك من المرشدين، وأما الدعوة إلى الوصلة إلى الله تعالى فأصلها في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ والقائم بها الولي الكامل المحقق القائم في مشهد ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير، وفائدتها الفناء عن الأكوان والبقاء مع المكون ومعنى الفناء عن الأكوان استغراق أوقات القلب في شهود الله تعالى عن شهود وجود غيره من خلقه، فيبقى أولاً في شهود الأفعال بأن لا يرى الفعل صادراً إلا من الله تعالى فيوحده بالفعل أي يشاهد كونه متحداً بالاختراع والتخليق فيرى الأفعال مخلوقة لله تعالى شارباً من تحقيق حقيقة والله خلقكم وما تعملون، فينتج له هذا الشهود عدم التسخط على الأقدار كائنة ما كانت وعدم الخوف والطمع من غير الله تعالى الذين هم أصل كل مفسدة دينية أو دنيوية وينتج له التوكل على الله تعالى والتسليم له فيما يريد منك والرضى بالقضاء إن نزل والإخلاص في أعمال البر لله تعالى لأنه لا يرى النفع ولا الدفع إلا منه إلى غير ذلك من الأوصاف المحمودة شرعاً وطبعاً لا المذموم عكسها كذلك ثم ينفي في شهود صفات الحق سبحانه وتعالى فلا يرى في الوجود قدرة ولا علماً ولا حياة ولا غير ذلك من الصفات إلا لله تعالى فيوحده بصفات الكمال لأنه المتحلي بها حقيقة وحكما فينتج له هذا الشهود استحكام الله تعالى في قلبه، فتوهب له العلوم ويتحقق بحقائق كل علم ويفتح له في أثر الصفات أعني الآثار الكونية ثم ينفي في شهود وجود ذات الله تعالى فلا يشهد وجود غيره فيوحده بالوجود إذ الوجود صفة ذاته تعالى، ومن المستحيل أن يتصف بصفات الله تعالى غير ذاته، إذ ما من ولا غيره إلا ويعلم أن الله تعالى واحد في ذاته وصفاته وفي أفعاله، لكن جميع ما عبرت من الشهود لخلقة الجبلية التي لا يمكن صاحبها الانفكاك عنها ولا الدليل عليها لأن الشيء إذا كان طبيعة في الإنسان كان أقرب من

الاستدلال بل ولا يمكن الاستدلال في ما هو موهبة إلهية ولا بد في كل من تلك الرتب الإلهية من فناء صاحبها عنها عند تحقق مقامها فإذا كان في آخر فناء فإن فني عن فنائه في الذات فذلك هو الفناء وفي ذلك يقول شيخنا حفظه الله تعالى في منظومة الأحوال:

فذلك البقاء حقا حقا فإن فني عن الفناء حقا
وقال غيره:

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى فكان فناؤه عين البقاء
وبهذا عرفت لم يدعو الداعي إلى الله وأما الدعوة نفسها فهي بالقول أو بالفعل أو بالحال أما الدعوة بالقول ففي الخبر عنه عليه السلام أنه كان يعرض نفسه على الناس وينذرهم ويقول: أيها الناس إنني رسول الله إليكم يدعوهم بها إلى الإسلام وفي الخبر عنه أيضا أنه كان يقول لمن يلقي من أصحابه في الطرقات هات أبايعك يا فلان وفي حديث الحديبية عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: الناس يبايعون رسول الله ﷺ تحت الشجرة فبايعت معهم فلما خف الناس التفت إلى رسول الله ﷺ وقال: يا سلمة ألا تبايعني فقلت له: قد بايعتك يا رسول الله قال: بايعني أيضا قال: فبايعته الثانية فهذه الدعوة وأمثالها إنما هي لمقام أعلى من مقام الإسلام ومقام تكلمته إذ الإسلام بكماله لكل الصحابة بدليل أكثر الأمة على تعديله بل إنما المراد بها ليرتقى أحدهم في اعتقاده أو ليجدد عهده مع الله وإيمانه به ففي الخبر عنه عليه السلام وجددوا إيمانكم فإن الإيمان يخلق في قلب الرجل كما يخلق الثوب، قالوا: بم نجدده يا رسول الله قال: بالإكثار من قول لا إله إلا الله، وفي رواية بتجديد بيعتكم وذكر ربكم وأما الدعوة بالفعل ففي الخبر عنه عليه السلام أنه كانت تشتري له الحلة عند قدوم الوفود بالعدد الكثير من الإبل قيل إنه يوم قدوم وفد نجران اشترت له حلة بثلاثين بدنة وقيل بعشرين وقيل: بأربعين وذلك منه عليه الصلاة والسلام دعوة إلى الله تعالى فإن زينة الظاهر تجلب أهل الظاهر يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أتى الشام فوجد معاوية متخذًا ملابس ما كان يعهد بها من ملابس الصحابة وكانت تفرض له كل يوم شاة واتخذ في المنبر ثلاثة درج ويجلس على أعلاهن فقال له عمر في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين نحن في بلدة لا بد لنا من هذا فقال له

عمر أنت وذلك والله لا أمرك ولا أنهاك ومن هذا المعنى حكموا بأنه يجب على المشائخ استعمال زي المشيخة كالملابس الفاخرة والمراكب العلية والأبنية الرفيعة ولي العمائم ونحو ذلك مما يرغب الناس فيهم ويحث العامة على اتباعهم فإن زينة الظاهر تجلب أهل الظاهر يروى أن سليمان عليه السلام زوجه الله تعالى عشر نسوة كلهن ابنة ملكين فسخر الله له بذلك عشرين إقليما أعني أقاليم أولئك الملوك بلا إراقة دم وهذا كله من الدعوة إلى الله تعالى ولما تزوج عليه السلام بلقيس سخر الله له أهل سبا قيل كان سبب إسلامها إنما لما قدمت عليه أسر إليها إن أسلمت تزوجها فكان ذلك دعوة إلى الله تعالى بالفعل ويروى أن أبا النجيب السهروردي رضي الله عنه حج من عراق العجم في محمل ومحملة تحمله الرجال على أعناقها وما ذلك منه إلا دعوة إلى الله تعالى لأنه أعظم له موقعا في نفوس الناس وفي الذهب الإبريز.

فوائد الأولى لما كان الرياء هو العمل لقصد الناس كان التجميل في اللباس غير رياء بل يستحب التجميل به لطلب العلم وللقدم على الغير ولقبول قوله عند الناس ولإظهار نعمة الله تعالى كما حكى عن عز الدين بن عبد السلام أنه أنكر على قوم منكرا فلم يقبلوا فرجع ولبس ثياب الفقهاء وأنكر عليهم فقبلوا فلبسها لمثل هذا أجر لأنه سبب لامتنال أمر الله تعالى وللانتهاء عما نهى عنه.

وقال الجزائري ينبغي لمن وسع الله عليه في دنياه أن يظهر أثر نعمته عليه باستعمالها على وجه يباح لا يخل بحق ولا حقيقة فيلبس أحسن لبس جنسه أو وسطه وقال العلقمي ويستحب ثياب تليق بحال الغنى ليعرفه الفقير وذو الحاجة ونيته في ذلك إظهار نعمة الله تعالى عليه ليعرفه المحتاج ومن هنا كان للعلماء أن يلبسوا من الثياب ما يليق بهم من غير إسراف ليعرفهم المستفتي وطالب العلم ومن ملك نفسه لم يضره شيء فإن الله تعالى جميل يحب الجمال، اهـ ولقد أحسن القائل:

اجز الثياب إذا اكتسيت فإنها	زين الرجال بها تهاب وتكرم
ودع التواضع في اللباس تحرجا	فالله يعلم ما تجن وتكتم
فبذاذ ثوبك لا يزيدك زلة	عند الإله وأنت عبد مجرم
وبهاء ثوبك لا يضرك بعد أن	تخشى الإله وتتقي ما يحرم

وكان الإمام مالك رضي الله عنه يلبس الثياب المدنية الجياد والخراسانية والمصرية والمترفعة البيض والقمصان الرفيعة وكان يحب أن يتطيب بطيب جيد ويقول: ما أحب لأحد أنعم الله عليه أن لا يرى أثر نعمته عليه، وكان له طيلسان.

ومن الدعوة إلى الله تعالى بالحال ما روي أن النبي ﷺ كان له أسارى فأرسل إليهم علي بن أبي طالب ليقبل بعضهم ويفك أسر بعضهم وكان علي معتما بعمامته التي ألبسه رسول الله ﷺ فلما دخل سقطت العمامة عن جبينه فلما شاهده أسلموا كله وتشهدوا من حينهم.

وبالجملة فالدعوة إلى الله تعالى تختلف باختلاف أحوال الأزمنة وأهلها كما في الخبر عن عمر ومعاوية رضي الله عنهما ولذلك كان بعض الصالحين يقف على قارعة الطريق على زي الصالحين ليمر به من يلتمس منه بركة ويروى أن بعض الصالحين بشر بأنه لا يقبل يده أحد إلا غفرت ذنوبه فجعل يطوف في الأرض ويدع الناس إلى تقبيل يده ويرى أنه إن ترك ذلك كان مقصرا في الدعوة إلى الله تعالى. اهـ. والله تعالى أعلم.

فصل قد دعا النبي ﷺ إلى الله تعالى بكل هذه الدعوات داعيا إلى كل هذه المقامات وأخذت عنه كلا فعنه أخذ المسلمون الإسلام وأخذ أهل الإيمان والصلاح خلائف مقاماتهم وأخذ عنه الأولياء معرفتهم.

وأخبر ﷺ أن مدة الخلافة بعده ثلاثين سنة وأمر باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، فلما توفي خلفه بعده الصديق الأكبر أبو بكر فكانت دعوته إلى الله تعالى على أبلغ حالة كما كان رسول الله ﷺ يجمعه بين كل المقامات في نفسه فكانت تحت يده الرجال والخيل والسلاح ما كان تحت يد النبي ﷺ وكان في قلبه من معرفته ما لم يكن في قلب أحد من قومه، فدعا إلى الله تعالى أبلغ دعوة وأقام الدين كله كما أمر الله تعالى فلما توفي عمر فكان كما كان صحبه قبله ثم عثمان كذلك ثم علي كذلك فلما مات علي كرم الله وجهه تمت مدة الخلافة التي أخبر بها عليه السلام، فتقسمت الخلافة فورث الأمراء الإمارة والأولياء الولاية، قد علم كل أناس مشربهم.

وإنما كانت مدة الخلافة ثلاثين لأن تلك الثلاثين رجال الخلافة فيها كمل إذ قد كمل الله لهم خلافة النبي ﷺ علما وحالا مع ما أمدهم به من النصر الإلهي والجنود

الظاهرة والباطنة وإنما كان ما بعد الخلافة ملكا عضوا أي يعرض الناس بأنبياءه ويجرحهم بأظفاره، لأن رجال ما بعد المدة لم تكن لهم حال ولا علم يدعون بها على الله تعالى، ولا تنزعهم عن انتهاك الحرمات واتباع الشهوات فتسلط الأمراء على الناس وتسلط بعض الناس على بعض، إذ الرعية على قلب أميرها.

وبالجملة فما انقطعت الولاية ولا الإمارة لكن تفرقت رجالهما وقام بكلهما أهله يشير إلى ذلك قوله عليه السلام: والجهاد ماض منذ بعثني الله تعالى إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال، وقوله: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله يعني بالحق دين الله أعني الإيمان والإسلام والإحسان.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: لكل قرن من أمتي سابقون.

وعن أيضا عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن الله في الخلق ثلاثمائة قلبهم على قلب آدم عليه السلام، والله في الخلق أربعون قلبهم على قلب موسى عليه السلام، والله في الخلق سبعة قلبهم على قلب إبراهيم عليه السلام والله في الخلق خمسة قلبهم على قلب جبريل عليه السلام، والله في الخلق ثلاثة قلبهم على قلب ميكائيل عليه السلام، والله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلياء.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر، قال أبو الزناد: لما ذهب النبوة وكان الأنبياء أوتاد الأرض خلق الله مكانهم أربعين رجلا من أمة محمد ﷺ يقال لهم الأبدال لا يموت الرجل منهم حتى ينشئ الله منهم مكانه آخر يخلفه، وهم أوتاد الأرض فإذا تأملت هذا وفهمته علمت أن ملة رسول الله ﷺ حقيقة واحدة تسمى الدين وتسمى الشريعة، لكن لها رتب متفاوتة تسمى كل منها باسم ويصدق على الجميع اسم واحد وهو لفظ الشريعة لأن الشريعة في اللغة الطريق الواضح وهي طريق واحدة لكن لها رتب كرتب الطريقة الأرضية فأدنى رتبة منها مبدؤها عند أصل الجبل مثلا، وتمشي فيها صاعدة حتى تصل إلى أعلاه ولها في ذلك رتب وكذلك هذه الملة الإسلامية

طريق واحدة وتسمى أعلى رتبها أعني الثلاثة الأعلالي من الرتب اللاتي هي الشهادة والصدقية والعبودية التي يعطين الفناء بأي أقسامه بالحقيقة ومعنى تسميهن حقيقة أن الحقيقة هي ضد الكذب وأعني بالكذب هنا نسبة أفعال الله تعالى إلى الخلق فإنه جل ذكره نسب الأفعال إليه دون غيره فقال: والله خلقكم وما تعملون، وقال: الله خالق كل شيء، فنسبة هذه الأفعال التي نسبها تعالى لنفسه لغيره كذب محض ومنذ وصل العبد إلى الفناء تخلص من هذا الكذب فصدق عليه محقق وهكذا في ترقيه لما هو أعلى من الفناء كفنائته عن صفات غير الله تعالى ونسبة الصفات إليه سبحانه بحيث لا يرى لغيره تعالى قدرة ولا إرادة ولا علما ولا غير ذلك من قيامه وقعوده وأخذه وإعطائه وخاطره وحاله مخلوقة فيه ليس بينه وبينها ميعاد، كيف تنسب إليه قدرة على شيء أو إرادة لشيء أو علم بشيء، يشير على ذلك قوله تعالى حكاية عن رسله عليهم الصلاة والسلام حين يسألهم جل وعلا فيقول لهم: ماذا أجبتم أي بما أجاكم من أرسلتم إليه حين بلغتموه الرسالة، قالوا: أي الرسل لا علم لنا أي ليس علم على الحقيقة ينسب إلينا إنك أنت علام الغيوب، لم يقولوا أنت أعلم به منا ولا أنت أعلم به الآن ولا غير ذلك مما يستدعي لهم نسبة علم بل نفوا عن أنفسهم العلم من أصله رجوعا إلى الحقيقة وتادبا مع الله تعالى لأن من أشهده الله الحقيقة ينبغي أن يتأدب بها مع الله تعالى وبهذا التحقيق يخرج العبد من كذب نسبة الصفات إلى المخلوقين نحو فلان يقدر على كذا ويعلم كذا ويبصر كذا أو يسمع كذا ويقوم بأمر كذا فلا ينسب صاحب هذا المشهد شيئا إلى غير الله تعالى إلا رعا للشريعة وحرصا على الأدب مع الله تعالى إذ قد أمر تعالى من شهد الحقيقة بصونها إذ هي سر الله تعالى في عباده، قال:

من سارروه فأبدى السر منكشفاً لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلن يحظى بقربهم وأبدلوه مكان الأنس إباحاشا
غيره:

ومن شهد الحقيقة فليصنحها وإلا سوف يضرب بالحسام
كحلاج المحبة إذ تفاشا ولم يقدر على وهج الضرام

وكذلك أيضا من فني في شهود ذاته تعالى عن وجود غيره بأن لم ير موجودا سوى الله تعالى فإنه يتخلص من كذب شهود وجود من لا حقيقة لوجوده من نفسه بأن لم يكن له حول ولا قوة ولا فعل ولا وصف ولا عرض ولا اتصال ولا انفصال ولا حركة ولا سكون ولا غير ذلك إلا بالله وهذا الفناء تقصر العبارة عن تحقيق حقيقته بل موهبة إلهية لا وصول إليها بالدليل ولا بالتأويل بل بمحض المنة الإلهية قال الشاعر:

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالك دون الله إن حققته عدم على التفصيل والإجمال
من لاوجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال
واعلم بأنك والخلائق كلها لولاه في محو وفي اضمحلال

وسمي ما فوق الفناء من الرتب شريعة، وإن كان الفناء شريعة أيضا لأنه لم يصل إلى حد التحقيق فيسمى به فبقي على الاسم الأصلي وهو الشريعة وإنما اختصت الرتب الأخيرة باسم غير الاسم الأصلي الذي هو الشريعة إشارة إلى تلك المزية الموجودة في تلك الرتب والحاصل أن الحقيقة جزء من الشريعة فاسم الشريعة منسحب على هذه الملة من ابتداء مقام الإسلام إلى مقام الختام، ومقام الإسلام هو الإقرار بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، ليس أولى باسم الشريعة من غيره من تلك المقامات كائنا ذلك الغير ما كان لكنه كالأصل لتلك المقامات فلا يتحقق منها واحد غلا بعد الإتيان بما بني عليه الإسلام والفرع لا يقوم بدون أصله، وبالجملة فالحقيقة ثمرة والشريعة شجرتها النابتة عليها تلك الثمرة، فلا وجود لثمرة بدون شجرتها ولا كمال لفائدة شجرة لا ثمر لها، وأما ثمرة لا شجرة لها بأن لم تثبت على أصل فهي من المعدوم، وإن وجدت صورة تحقيق بلا أصل تشريع تثبت عليه فلا بقاء لها ولا أثر بعد زوالها وإلى ذلك يشير شيخنا غفر الله لنا وله بقوله في منظومة الأحوال:

حقيقة ليست لها شريعة باطلة قد أفلت سريعه
فإن خلا التشريع عن تحقيق صاحبه زاغ عن التصديق

فالحاصل أن الشريعة المطهرة أعني الملة المحمدية مثالها كمثال نخلة عظيمة لها ظل ظليل وثمره جليل وهي تحت يد ملك مالك لها فأتاه الناس يريدون ظلها وثمرها فقال لهم: من وصل منكم إلى شيء أبحثه له أما الظل فقد وصلتكم إليه جميعا وأما الثمر فلا أبيع إلا لمن وصل إليه ومن وصل إلى أدناه فلا أبيع له شيئا مما لم يصل إليه من أعلاه، فمنهم من اعترف ابتداء بالعجز عن صعودها ومنهم من نظر ليرى ثمرها فأخفاه الله عليه لعدم رزقه منه فجعل ينكر ويقول: ما هناك من ثمر ولو كان هناك لرأيت، ومنهم من ربه ثم أنكر وجوده لما علم عجزه عن الصعود إليه، ومنهم من أراد الصعود واشتغل به فلم يقدر على وصول الثمر ومنهم من سقط قبل أن يصل إليه، ومنهم من وصل إلى أدناه فأكل منه ومنهم، ومنهم من وصل إلى أعلاه وأكل منه ما يشتهي فسموا الآكلين ثمرين وسموا غيرهم نخيليين لجلوسهم في ظل النخلة ولو سمو الجميع نخيليين لأمكنهم لأن الآكلين أتوا النخلة وجلسوا في ظلها وأكلوا من ثمارها. اهـ وبهذا تعلم أن الشريعة هي الأصل العام على الطريقة كلا والحقيقة اسم لأعلى رتب تلك الطريقة.

فصل

اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه وألزمي وإياك طريقة مرضاته وعلم تقواه أن طلاب هذه الحقيقة اشتهرت عند الناس تسميتهم بالطائفة الصوفية والواحد منهم صوفي، وذلك الاسم قيل مشتق من الصفو أي الخلاص والتصفية من الأكدار أي الأدناس، وهذا المعنى أنسب لحالهم لأنهم إنما يسعون على خلاص أنفسهم وتصفيتها من صفاتها الذميمة الحاجية لها عن شهود الله تعالى وهذا الاشتقاق يقال له عند أهل العربية الاشتقاق الكبير وهو أن يتحد المشتق والمشتق منه في الحروف الأصلية لكن مع عدم ترتيب الحروف فيقدم في أحد الموضعين حرفا يؤخره في الآخر نحو: الجذب والجذب وقيل مشتق من لباس الصوف لأن أهل هذه الطريقة كانوا كثيرا ما يلبسون الصوف لزهدهم في الدنيا وقلة اعتنائهم بالملابس الفاخرة وقيل: لفقهم وقلة المال بأيديهم، وقيل: كان الرجل إذا وصل إلى منازل أهل الله ألبسه أستاذه خرقة صوف، تبييننا له وإشارة إلى أنه صار من أهل هذه العلامة الخاصة.

يروى أن بعض المريدين ألبسه شيخه جبة صوف إشارة إلى أنه صار من أهل ذلك المنزل وكانت لذلك الشيخ موارد كذلك وكان ذلك المرید صاحب وجد وصعق فأتى يوماً فوجد شيخه مع المريدين في زاويتهم فألقى إليهم جبته وقال لهم: خذوا جبتيكم فإني لست اليوم من أهلها، فإني والله منذاً كذا وكذا أياماً لا أشكر ولا أصعق إلا من حب امرأة وقع عليها بصري بالمكان الفلاني فأخذت بمجامع قلبي ومنعني الله من المعصية بها ولأنا مفتون بها الآن فقلبي من حبها عامر ومن غيرها خال وذهب عنهم فتعجبوا من أمره فقال شيخه: ضعوا له جبته حتى يستحقها فيأتيها فلا أرى من هكذا نصحه تزل قدمه فمكثت الجبة هناك ما شاء الله في جانب الزاوية حتى أتاهم يوماً وقال: أين جبتي ادفعوها إلي فلقد تاب الله علي ولأنا اليوم من أهلها والحمد لله رب العالمين.

وقيل سمو صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه، وقيل من الصفة إذ حاصله اتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة قاله ابن عبد الصادق، وقيل مشتق من الصفة وذلك أن بعضاً من الصحابة اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وحبسوا أنفسهم على ما يرضي الله تعالى ليست لهم بالمدينة أموال ولا عاشر ولا منازل وكانوا يأوون إلى صفة المسجد وهي سقيفة اتخذوها في مسجد المدينة، وفي القاموس: الصفة موضع مظلل من المسجد وأصل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا على تجارة ولا زرع ولا ضرع ويصلون صلاة وينتظرون أخرى يتعلمون القرآن بالليل ويرضخون النوى بالنهار فحضر الله على مواساتهم قال الناظم:

فقيادة الصوفي أهل الصفة من الصحابة في تلك الملة وهذا الاشتقاق بزيادة الواو في المشتق وليس مشهور الاستعمال وهذه الطائفة هم أولياء الله وأهل وداده وخاصة من خلقه لأنهم إما التلاميذ المجتمعون عند الشيخ على رسم المبايعة للشيخ على السمع والطاعة وحسن الأخوة مع الإخوان فهؤلاء أولياء الله لما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا: يا رسول الله: أتخبرنا من هم قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال

يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ هذه الآية: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أخرجه أبو داود من رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخرج الترمذي عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغطهم النبيئون والشهداء ولقولهم المتشبهت بالواصل واصل.

وإما مشائخ كمل وهم حقيقة الأولياء أيضا لما روى البغوي أن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى إن أولياء من عبادي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم وتلك صفة المشائخ وإذا كان كذلك فأهل هذه الطريقة يجب التسليم لهم فيما يدعون مما لم تدركه عقول أهل زمانهم والتصديق لهم فيما تدركه ولا يعترض عليهم في شيء، فتسلم لهم مقالاتهم، فلا يظن بما يوهم المحذور منها سوء بل توكل إلى العلم الإلهي أو يلتمس لها أحسن المخرج، والأصل في ذلك أن الكلام المقدس الذي يخرج من محل التقديس أي التطهير بحيث لا سبيل للشيطان على صاحبه يجب أن لا يظن إلا الخير فنسلمه لصاحبه قياسا على متشابه السنة والكتاب أو يحمل المحامل اللائقة بقدرهم الشريف ومنصبهم الرفيع المنيف وذلك كقول أبي يزيد البسطامي: بطشي أشد من بطش الله، حكاة العربي في الفتوحات، وكقول الشيخ عبد القادر الجيلاني: ملكي أعظم من ملك الله رواه عنه غير واحد، فأدنى ما يظن بهم أنهم مغلوبون بشدة الحال، وفي ذلك يقول قائلهم حيث قال:

ما كل قولي مشروح لكم فخذوا ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
حتى يصير على القوم الذين غدوا بما غذيت به والدين مجتمع
يروى أن بعض الفقهاء أرسل إلى بعض مشائخ التصوف يسأله عن مسائل فقهية
وسأل في آخر مسأله عن معنى أبيات لبعض العارفين ونصها وهي:

ما وحد الإله من واجد إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينعته عا رية أبطها الواحد
توحيده توحيده ذاته ونعت من ينعته لاحد

فأجابه الصوفي عن كل مسأله وقال له في الأبيات: وأما كلام فلان نفعنا الله به فاسهر كسهره وجع كجوعه تفهم معناها، وقال المقرئ في الإضاءة:

وموهم المحذور من كلام قوم من الصوفية الأعلام
جريا على عرفهم المخصوص يرجع بالتأويل للنصوص
فهو إلى التأويل ذو انتحال أو أنهم قد غلبوا في الحال
وما يفوهون به في الشطح فليل غير مقتض للقدح
وقيل بل يناط حكم الظاهر بهم صيانة لشرع ظاهر

ويجب التسليم لهم أيضا في مقالاتهم فلا يتعرض لأشعارهم بالنحو ولا بالعروض ولا لمنثوراتهم بالنحو ففي ذلك هلك من هلك من أهل العلم، واتفقوا أن الاعتراض عليهم سبب سوء الخاتمة والسلب نعوذ بالله من سخطه ومكره وفي ذلك يقول بعضهم:

ومن تعرض لشعر الأوليا بالنحو والعروض قطعاً بلبيا
من فوق طور العقل يأتيهم إذا نالوا من الفيض الجليل مأخذا
فالاعتقاد فيهم ولايه والانتقاد منهم جنايه
وكم من هالك من اجل نقده في شعره وسلبه وبعده

يروى أن الشيخ محمد الهواري من الصوفية ألف تأليفا في السهو وفي إعرابه ووزنه خلل فقام المغلاشي من الفقهاء وكان صديقا للهواري فأخذ التأليف وخلا به وأصلح ما فيه وزنا وإعرابا، ثم أتى الهواري وقال له: يا سيدي أصلحت سهوك وأراه ما أصله به، فقال الهواري: وهذا السهو يقال له سهو المغلاشي، وأين لمحمد الهواري بالنحو والعروض وأما سهوي فسهو الفقراء يترك على ما هو عليه.

ويروى أيضا أن بعض العارفين ألف تأليفا وفيه الخلل أيضا من حيث النحو والعروض فأتاه بعض نصحاء من العلماء وخلا به وقال له كتابك هذا فيه كذا وكذا من حيث كذا وكذا فإن شئت أصلحتك فقام العارف متغير الخاطر فلما وصل العالم إلى بيته إذا هو لا يدري من علمه أقل قليل فعلم أن ذلك من تغيير خاطر ذلك الولي فأتاه واعتذر إليه وقال له إني على السمع والطاعة فيما تأمرني به وأقل عثرتي فقال له الولي: نعم سر معي على السمع والطاعة، فقال العالم نعم، فسار الولي

والعالم يتبعه حتى إذا خرجوا من القرية وكانوا بعيدا منها إذا بحجار كبار في وجوههم فخرجت من تلك الحجارة وزغة عظيمة على مقدار ذيب كبير فلما دنيا منها جعلت تتقيأ فقاءت بهيما أسود فقال الشيخ للعالم اشرب هذا فانحط إليه العالم ونفسه تبغضه فلما ذاقه إذا هو أحلى من العسل فجعل يشرب والوزغ يتقيأ وكلما تقيأ الوزغ صغر جسمه فلما تقيأ جميع ما في بطنه صار كأصغر وزغ وصار العالم يلحق ما على الصخرة والشيخ يأمره بذلك فلما تم لعقه للصخرة رجع إليه جميع علمه فلما رجعا قال الشيخ لما تغير عليك خاطري دعوت هذا الوزغ فاستودعته علمك وأمرته بحفظه لعلك ترجع فأرده إليك وإلا تركته عنده عارية. اهـ.

وكذلك أيضا يجب التسليم لهم فيما يدعونه من المشاهدة الإلهية والمرائي الغيبية والأحوال السنوية ففي إنكار هذا هلك كثير من العلماء الزاعمين أنهم أحاطوا بعلم المعقول والمنقول فمن ذلك ما روي أن الشيخ سيد عبد الله الزراري رضي الله عنه كان في خلوة فلم يرع أهل زرارة إلا أن خرج إليهم وهو يرقص ويطير وينزل كالمجنون ويقول: لقد رأيت الله لقد رأيت الله، فقال له بعض علماء زرارة وكيف رأيتك فقال: هو كيف مستحيل والأين مستحيل ولا أدري إلا أنه انعكس ظاهر في باطني وبصر في بصيرتي وعلانيتي في سريرتي واستهلكت صفاتي في صفاته وانعدمت ذاتي في ذاته فرأيتك حقا حقا فقال بعض العلماء أما أنا فقد أيقنت بما قلت وأسأل الله ببركتك أن يتفضل علي بنو ما أعطاك في دنياي وأخراي، وقال بعض أما أنا فحظي من هذا الجهل فلا أتعرض لك بتصديق ولا تكذيب، وقال قاضي زرارة: هذا منكر وكذب وزور فالتقت إليهم الولي سيد عبد الله وقال للأول أما أنت فقد أجابك الله فيما سألت منه، وقال للثاني أما أنت فلا لك ولا عليك في شأني وأنت للخير أقرب وقال للقاضي أما أنت فلا تموت إلا على سوء الخاتمة، فكان الأول بعد ذلك من أكابر أولياء الله، ولما حضرت الموت القاضي دعا بمصحف فأتي به فنظر إليه وقرأ آيات ثم قال ما هذا إلا العبث ووالله ما فيه من فائدة وأشهد على نفسه بالكفر به وبما أتى به وبالذي جاء به وبمن جاء من عنده، وكان معه إذ ذاك من الناس أبنائه وهم ثلاثة فلما انقطعت روحه قال لهم كبيرهم اكنموا أمر والدكم فهذه فضيحة لكم وله فالتقت إليه أوسطهم وكان اسمه إبراهيم فقال له بئس ما قلت: والله لنفضحن هذا الكافر ولننصرن

بفضيحتة ولي الله سيد عبد الله ولا نأكل تركته وهي ليس لنا فيها حظ فلما أتوا المسجد بعدما واروه قال لهم سيد عبد الله ما فعل الله في أمر القاضي فتكلم إبراهيم فقال: يا ولي الله قد أنجز لك ربك ما وعدك والله لقد مات كافرا ولقد رأيت ربك ولقد صدقت في كلها قلت: فقال له سيد عبد الله أما أنت يا إبراهيم فلا يخرج قضاء زرارة عن ذريتك أبدا ولا يموت منهم ميت إلا على الإيمان والله لو كتمتموه لمتم كلكم على سوء الخاتمة والعياذ بالله.

وهذه قاعدة معروفة وأنه أنه لا ينكر على الأولياء إلا من حظه سوء الخاتمة والعياذ بالله، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ والمراد بمعية الله نصره وصونه وعونه وإحاطته ومن كان الله ناصره انتصر له ممن آذاه بأبلغ ما يتخوفه المؤذي، ألا ترى قوله تعالى فيما يرويه عنه رسوله: «من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب»، ولا إذاية أشد عند الإنسان من رد مقالاته واتخاذها هزوا ولعبا فقد قال تعالى لنبيه ﷺ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا، فإذا كان التكذيب ورد المقالات يحزن النبي ﷺ والأنبياء قبله فكذلك الأولياء لأنهم ورثتهم وأتباعهم ليس فيهم من طبع إلا وهم وارثون له عنهم وفي رواية: من عادى لي وليا من أولياء فقد بارزني بالمحاربة، وفي رواية: من أهان لي وليا بدل من آذى، وفي رواية: وإني لأغضب لأولياء كما يغضب الأسد الحرد، وقال في النزهة: وأما أولياء الله تعالى فيجب تصديقهم في كلما أخبروا به مما تحتمله العقول والتسليم لهم فيما لا تحتمله من غير طعن ولا تكذيب وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: الولي في قومه كالنبي في أمته، قيل إن أوجه التشبيه بين الولي والنبي أن الله تعالى أوجب تعظيم كل منها على قومه بما لا يخل بحق ولا حقيقة قال تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه﴾ فالتعزير هو النصر والتوقير التعظيم والضمير فيهما قيل راجع لله وقيل للرسول وإذا كان للرسول فيجب تعظيم الولي بحكم الوراثة النبوية لقوله عليه السلام: الولي في قومه كالنبي في أمته، وقال جل وعلا: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا﴾ فالإذاية في الآية عامة إذ الفعل من صيغ العموم فيكون المعنى إن الذين

يفعلون فعلا تحصل منه إذاية للرسول عليه السلام كائنة تلك الإذاية ما كانت فلهم ذلك الوعيد المذكور في الآية، وإنما نسبة الإذاية إلا الله وهو لا تمكن إذايته لأنها ليست من مقدور البشر ولا غيرهم، وهو أعظم من أن يؤذى إذ الإذاية حقيقتها التأذي بالشيء أي التضرر به تضررا ظاهرا أو باطنا والله تعالى منزه عن ذلك فالمراد منها إذاية النبي ﷺ أو من له حرمة عند الله تعالى والمعنى أن إذايته كالإذاية له تعالى فيغضب لهم كغضب من أؤذي لنفسه بدليل قوله في الحديث المتقدم الذي رواه الرسول عليه السلام عن ربه وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الأسد الحرد، وهذا الوعيد في إذاية النبي ﷺ حاصل في إذاية الأولياء بحكم الخلافة النبوية والوراثة المحمدية ألا ترى قوله في الحديث: «من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب» وإذا كان هذا هكذا فليجتنب الموقف التعرض لهم في أشعارهم وغيرها ففي الذهب الإبريز عند قوله تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ فائدة: يؤخذ من هذه الآية أنه لا يجوز لك الإنكار على الأولياء بما جاوز حد قصورك ولم يصل إليه فهمك ولم يبلغه دنيلك قال الثعالبي: ففي ذلك هلك المتشددون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلم المعقول والمنقول والجهل خير من علم يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور نعوذ بالله. اهـ وفي كتاب الجواهر للشعراني قال شيخ الإسلام المخزومي: لا يجوز لعالم أن ينكر على صوفي إلا إن سلك طريقهم ورءاهم خالفوا السنة ولا يسوغ له الإنكار عليهم حتى يعرف سبعين أمرا منها معرفة اصطلاحهم في التجلي الذاتي والصورى وما هو الذات وذات الذات ومعرفة حضرات الأسماء والصفات والفرق بين الحضرات والفرق بين الأحدية والواحدية ومعرفة سر الظهور والبطون والأزل والأبد وعالم الغيب والكون والشهادة والشوق وعلم الماهية والهوية والسكر والمحبة ومن هو الصادق في السكر حتى يسامح والكاذب حتى يؤاخذ وغير ذلك، قيل: لم يحارب الله عاصيا إلا المنكر على الأولياء، ويخشى على من حاربه الله سوء الخاتمة، إذ لا يحارب إلا كافرا أو آكل الربا لقوله تعالى: ﴿وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ وأما الآخر فلحديث: من آذى لي وليا فقد آذنته بالمحاربة، وزيد في رواية وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الأسد الحرد وقال زروق اعلم أن الاعتقاد أصل كل خير والانتقاد أصل كل شر، وقال المقرئ الاعتقاد ولاية والانتقاد

جناية، فإن عرفت فاتبع وإن جهلت فسلم وفي كتاب المنة على اعتقاد أهل السنة ما نصه قال الجنيد رحمه الله تعالى: ما رأينا من ينكر على الأولياء إلا حكمنا بكفره لأنه إما كافر الآن أو يؤول أمره على الكفر لأن المنكر عليهم لا يخلو من سوء الخاتمة، ولا يسلم منه أبدا والعياذ بالله من ذل وفي ذلك يقول شيخنا حفظه الله ورعاه ورضي الله تعالى عنه في كشف الحجاب:

وإن رأيتَه على خلاف علمك فالزم نفسك التلافي
بالاستغفار والتعوذ وقل لعلمي لحد هذا لم أصل
وقال الشاعر:

إن السلامة من سعدى وجارتها أن لا تمر بواد حول واديها

فصل

ولهذه الطائفة طرق مختلفة كلها موصلة إلى الله تعالى وإنما الاتحاد بينهم في المقصد والمبدأ والمنتهى، فالمقصد الوصلة إلى الله تعالى لا غير، والمبدأ التوجه إليهم بالعزم التام والهمة النافذة والصدق في الطلب بأن يكون مقصده أعز عليه من الدنيا والآخرة وأهليهما يببىد في جنب مقصده نفسه وماله وأهله قائلًا بلسان حاله:

على مثل ليلي يقتل المرء نفسه ويحلو له مر المنايا ويعذب
وأما المنتهى فهو الفناء في شهود ذات الله تعالى عن شهود غيرها، وبعبارة هو الاطمئنان المعبر عنه بترك النفس لطبعها الشهواني ونسيانها لحكم أصلها مع عمارة الباطن بالشهود الإلهي، قال شيخنا في مطية المجد:

ومطمئنة ترى بالرابع وهو مقام لكمال الخاشع
اه.

فصل

في بيان مأخذ الشيخ حفظه الله ورعاه وأطال مدة حياته فيما يرجوه من مولاه من طريقه القرآنية، فقد كان يربي مرديه بمقتضى الكتاب العزيز والسنة المحمدية وكان يأمرهم بذكر الله تعالى ويحضهم عليه وذلك منه رضي الله عنه أخذًا بمقتضى قوله تعالى: ﴿فانكروني أنكركم﴾ وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾

وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ﴾ إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من الآيات الدالة على فضل الذكر، وورد في فضله من الأحاديث الربانية والآثار النبوية ما لا يكاد يدخل تحت حصر، فمن ذلك قوله تعالى فيما يرويه عنه رسوله p: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني في نفسه ذكركه في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكركه في ملأ خير من ملأ من الملائكة الذين هم خير من ملئه أخرجه الشيخان والترمذي.

قال صاحب الذهب الإبريز: وبهذا الحديث استدلت المعتزلة على تفضيل الملائكة على الأنبياء، ولا حجة لهم، لأن الذاكِر قد يذكر الله في الملأ ليس فيه نبي وفي الحديث عنه جل وعلا: يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني. وروى السهروردي أن النبي p قال حاكيا عن ربه: إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال في جعلت همته ولذته في ذكري فعشقتني وعشقتة، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه لا يسهو إذا سها الناس أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال الأبدال حقا، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة وبلاء ذكرتهم وصرفتهم بهم عنهم.

وفي كشف الغمة ان النبي p قال حاكيا عن ربه أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركتشفاته وفي الخبر عن رسول الله p من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله p فقال: يا رسول الله إن شعائر الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بأي شيء أثبت به قال: لا يزال لسانك رطبا بذكر الله، وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول: كان آخر كلام فارقت عليه رسول الله p إن قلت أي الأعمال أحب إلى الله

تعالى قال: أن تموت ولسانك رطب بذكر الله تعالى، وكان p يقول: إن لكل شيء صقالة وإن صقالة القلب ذكر الله وما من شيء أنجى من عذاب القبر من ذكر الله، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله قال: ولا الجهاد إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع وفي رواية لو ضرب بسيفه حتى ينقطع وفي رواية كالا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق في سبيل الله وخير لكم من أن تلقوا عدوا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى يا رسول الله قال: ذكر الله أخرجهما صاحب كشف الغمة عن جميع الأمة وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله p: إن لله ملائكة يطوفون في الأرض يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تعالى تنادوا هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ما يقولون عبادي فيقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا، فيقول: كيف لو رأوني فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تحميذا وأكثر لك تسبيحا، قال: فيقول: فما يسألون، فيقولون: يسألونك الجنة فيقول: هل رأوها فيقولون: لا يا رب فيقول: كيف لو رأوها فيقولون: لو رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة، قال: فبم يتعبدون؟ فيقولون: يتعبدون من النار فيقول: هل رأوها فيقولون: لا يا رب فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة قال: فيقول: أشهدكم أني غفرت لهم فيقول ملك منهم فيهم فلان عبد خطاء ليس منهم إنما لحاجة فجلس فيقول: وله قد غفرت هم القوم لا يشقى جليسهم، أخرجهم الشيخان والترمذي.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله p: من قعد مقعدا لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ومن اضطجع مضجعا لا يذكر الله فيه كانت عليه ترة وما مشى أحد مشى لا يذكر الله فيه إلا كانت عليه من الله ترة، أخرج أبو داود والترمذي واللفظ لأبي داود والترة هنا التعبه وعن أبي مسلم الأغر قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله p أنه قال: لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده. أخرجهم

مسلم والترمذي وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: مثل البيت الذي يذكر الله فيه ومثل البيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت، أخرجه الشيخان. وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من أوى إلى فراشه طاهرا يذكر الله حتى يدركه النعاس لم يتقلب ساعة من الليل يسأل الله تعالى من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه، أخرجه الترمذي.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: ما عمل العبد عملا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله تعالى أخرجه مالك وكان ﷺ يقول: من عجز منكم عن الليل أن يكابده وبخل بالمال أن ينفعه وجبن عن العدو أن يجاهده فليكثر ذكر الله فإن العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله وكان ﷺ يقول: ثلاث لا يرد الله دعاءهم الذائر لله كثيرا والمظلوم والإمام العادل وكان ﷺ يقول: أربع من أعظمين فقد أعطى خير الدنيا والآخرة قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وبدنا صابرا وزوجة لا تبغيه حبة في نفسها ومالها وكان ﷺ يقول مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت وكان ﷺ يقول: أكثروا واذكر الله حتى يقولوا مجنون وكان ﷺ يقول انذكروا الله حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ بأصحابه في الذكر فإذا ملوا أخذ بهم في غيره وكان عثمان رضي الله عنه يقول: لو أن قلوبنا طهرت لن نمل من ذكر الله عز وجل وكان ﷺ يقول: سبق المفردون فقال رجل وما المفردون يا رسول الله قال: الذاكرون الله كثيرا وفي رواية فقال المفردون هم المستهزئون هم المولعون بذكر الله تعالى المداومون لا يبالوا ما قيل فيهم ولا ما فعل بهم وفي رواية فقالوا: يا رسول الله ما المفردون قال: الذين يهتزون في ذكر الله يضع الذكر عنهم أوزارهم وخطاياهم فيأتون يوم القيامة خفافا.

وكان ﷺ يقول: إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسي التقم قلبه والخطم الفم وكان ﷺ يقول: علامة حب الله حب ذكر الله وعلامة بغض الله بغض ذكر الله، وكان ﷺ يقول: ما من يوم وليلة إلا والله عز وجل فيه صدقة يمن بها على من يشاء من عباده وما من الله على عبده بأفضل من أن يلهمه ذكره وكان ﷺ يقول: أعظم المجاهدين أجرا أكثرهم لله تعالى ذكرا، وكذلك كان ﷺ يقول إذا سئل عن الصلاة والزكاة والحج والصدقة فقال أبو بكر لعمر يوما يا أبا حفص

ذهب الذاكرون بخير الدنيا والآخرة، وفي رواية: بكل خير فقال p: أجل يا أبا بكر وكان p يقول: حضر ملك الموت رجلا فشق أعضائه فلم يجده عملا خيرا قط ثم قلبه فلم يجد فيه خيرا قط، ففك لحبيبه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول: لا إله إلا الله فغفر له وكان p لو أن رجلا في حجره دراهم يقسمها وآخر يذكر الله لكان الذاكر لله أفضل منه، وكانت أم سليم رضي الله عنها تقول: قال لي رسول الله p من لم يذكر الله فقد برئ من الإيمان وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: ذكر الله بالعادة والعشي أعظم من خطمهم السيوف في سبيل الله وكان عبد الله بن مسعود يقول: أكثروا من ذكر الله ولا تصحبوا إلا من بعينكم على ذكر الله وكان p يقول: ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها بخير ألا تخسر عليها يوم القيامة والله تعالى أعلم. اهـ من كتاب كشف الغمة وفي الجامع الصغير أنه كان p يذكر الله تعالى في كل أحيانه قلت: ولو لم يرد في الذكر إلا قوله تعالى: ﴿فأذكروني أذكركم﴾ لكان في ذلك الكفاية.

فصل

في رفع الصوت بالذكر في المساجد وغيرها كان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا جزيل بركاته يأمر تلاميذه برفع الأصوات بذكر الله تعالى في المساجد وغيرها مستندا في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾ فإن سبب نزولها كما في غير واحد من كتب التفسير إن أهل الجاهلية كانوا إذا أتموا مناسكهم حجهم اجتمعوا في مسجد مكة أو مسجد منى فتفاخروا بمآثر آباءهم فأمر سبحانه وتعالى بجعل ذكره بدلا من تلك المفاخرة وشبه الذكر الذي أمرهم به بذكرهم آباءهم وفي ذلك دليل على الرفع أي رفع الصوت لأن المفاخر لا يمكن منه السر بلفظه الذي يفتخر به وقوله: أو أشد ذكرا معناه أو اذكروا الله ذكرا أشد من ذكركم آباءكم أي اعتنائكم به أكمل من اعتنائكم بذكر الآباء وأرفع أصواتكم به من أصواتكم بذكر الآباء. اهـ.

ويدل لرفع الصوت بالذكر قوله تعالى فيما يرويه عنه رسوله عليه السلام في حديث الصحيحين: إن من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملا ذكرته في

ملا خير من ملئه لأن الذكر في الملا لما كان مقابلا للذكر في نفس الذاكر علم كونه جهرا وفي كتاب كشف الغمة عن جابر رضي الله عنه قال: رفع رجل صوته بالذكر فقال رجل آخر لو أن هذا خفض من صوته، فقال ρ دعوه فإنه أواه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما كان الناس على عهد عمر رضي الله عنه يرفعون أصواتهم بالذكر عند غروب الشمس وربما ذكروا سرا فيرسل إليهم عمر ارفعوا أصواتكم فإن الشمس دنت للغروب.

وفي الجامع الصغير كان ρ يرفع صوته بالذكر وفي كتاب كشف الغمة كان ρ يقول: أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون وكان ρ يقول: اذكروا الله ذكرا حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون، قلت: يفهم من هذا الحديث الدوام على الذكر مع الجهرية وأنه لا يعيب على الذاكرين ويشنع عليهم إلا المنافقون وفي كتاب تحقيق المباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني كان ρ إذا سلم من صلاته قال بصوته الأعلى: لا إله إلا الله وقال: أخرجه مسلم، فانظره عند قول المصنف ويختم المائة بلا إله إلا الله، إلا أنه زاد بقوله: استحب جماعة رفع الصوت بالذكر، وفي التلخيص على الرسالة عند قوله: وترك كل ما أحدثه المحدثون أنه ثبت عنه ρ أنه كان يجتمع مع أصحابه رضي الله تعالى عنهم أدبار الصلوات الخمس للذكر ويرفعون أصواتهم بذلك فهو صريح في أنه ليس من المحدثات بل سنة محكمة دائمة الفعل. اهـ.

وفي شرح السنهوري على مختصر الشيخ خليل قوله: إلا الصبح فبسدس الليل قال ابن عرفة: ورفع الصوت بالدعاء والذكر في المسجد آخر الليل مع حسن النية قربة، وفي كتاب ضياء النهار لابن حجر إن الحبشة كانوا يرقصون في مسجد النبي ρ وهو ينظر إليهم ويقول: دونكم يا بني أرفدة حتى يعلم اليهود أن في ديننا فسحة قال: ومعنى قوله: دونكم أي جدوا في الرقص والشطح ولباس المرقعات والصفق ونحوه جميع ذلك أصل يبنى عليه في الشرع. اهـ كلامه.

فإذا كان رفع الصوت بالرقص والصفق في المسجد سنة لتقريره عليه السلام إياه في مسجده فكيف برفعه بالذكر فيه وفي غيره من المساجد.

وفي ضياء النهار أيضا أن الصحابة كانوا يرتجزون في مسجده عليه السلام فيقولون وهو معهم: اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة، اهـ ما في ضياء النهار من ذلك وفي كتاب كشف الغمة عن جميع الأمة.

فرع وكان ρ يرخص في إنشاد الشعر الذي فيه رد على الكفار أو حكمة أو حث على مكارم الأخلاق في المسجد وينهى عما فيه ضد ذلك.

وكان ρ يضع لحسان بن ثابت رضي الله عنه منبرا في المسجد ينافح عن رسول الله ρ كفار قريش.

ودخل عمر رضي الله عنه مرة في المسجد فوجد حسان ينشد فيه فلحظه عمر رضي الله عنه مرة في المسجد فوجد حسان ينشد فيه فلحظه عمر رضي الله عنه فقال حسان: ما لك لقد أنشدت فيه بين يدي من هو خير منك رسول الله ρ فتركه عمر رضي الله عنه.

وقال النابغة الجعدي: أنشدت رسول الله ρ وأنا عن يمينه:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادٍ تحمي صفوه أن يكذرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلِيم إذا ما أورد الأمر أصدرا
فقال لي رسول الله ρ : أجدت لا يفضن الله فوك أبدا، قال يعلى ابن الأشرف: فلقد رأيته بعد مائة وعشرين سنة وأسنانه كالبرد. اهـ. من كتاب كشف الغمة.

قلت: فإذا باح رفع الصوت في المسجد بجميع ما ذكر فرفعه بذكر الله أحرى بل لا يبعد أن يكون اقرب للوجوب، وقد قال في شأن المساجد: «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه» وقال عليه السلام: «إنما بنيت هذه المساجد لذكر الله وتلاوة القرآن». اهـ. وفي كتاب كشف الغمة أيضا أن النبي ρ كان إذا أتاه وفد من المشركين أنزلهم المسجد لأن ذلك أرق لقلوبهم. اهـ قيل: وما ذلك إلا لكثرة ذكر الله وتلاوة القرآن في المسجد وكان لعقيل بن أبي طالب رضي الله عنه طنفسة توضع له في المسجد فيجلس عليها بحضرة النبي ρ يحدث الناس بأيام العرب في الجاهلية وأحسابهم وأنسابهم وفي ذلك يقول المجلسي في نظمه:

ولعقيل توضع الطنافس في مسجد النبي وهو جالس

يحدث الناس بأيام العرب وما لها من حسب ومن نسب وبالجملة فالجهر بالذكر في المساجد وغيرها أفضل للمريد عند الكافة، مستدلين له بجميع تلك الأدلة المتقدمة وبما روي عن ابن عباس: كنا نعرف إذا خرجوا من الصلاة بكثرة رفعهم أصواتهم بذكر الله تعالى، أورده ابن حجر في ضياء النهار، ومحتجين أيضا بقوله عليه السلام: «من قال لا إله إلا الله ومد بها صوته هدمت أربعة آلاف ذنب من الكبائر، قيل: يا رسول الله فإن لم تكن له قال: غفر لأبويه وجيرانه وهذه رواية أنس بن مالك عنه ρ ، وفي رواية عبد الله بن عمر: من قال لا إله إلا الله ومدها بالتعظيم هدمت أربعة آلاف ذنب من الكبائر، قيل: يا رسول الله: فإن لم تكن له، قال: غفر لوالديه، قيل: فإن لم تكن لأبويه؟ قال: غفر لجيرانه وأجابوا عن حديث خير الذكر الخفي وحديث: يفضل الذكر الخفي على الذي تسمعه الحفظة بسبعين ضعفا فإن معنى الخفاء في هذا الحديث انغماس أثر الذكر في الذاكر بحيث يصل إلى تجايف قلبه وروحه وسره، بحيل لا يبقى للخواطر زوزنة تسلك معها إلى القلب، قالوا: فهذا الذكر الذي بهذه المثابة هو المراد بالذكر الخفي جهرا كان أو سرا، وقالوا في سماع الحفظة إن الذكر إذا كان هكذا وصل للقلب منه ما ليس للحفظة قوة على سماعه إذ قد صار نورا في القلب لا يطلع عليه غير الله تعالى أو من كوشف به من الله قالوا: ولو لم يكن المعنى هكذا ما واطب عليه السلام والصحابة على رفع الصوت بالذكر عقب الصلوات حتى كانت الناس تعرف خروجهم من الصلاة به. اهـ قلت: ولأجل هذا الترجيح وتأويل أحاديث السر الأكثرون على الجهر به وجعلوا فضيلته على السر بحيث لا تدرك غايتها ولا يمكن بلوغ مداها فمن نصوصهم على الحث بالجهر قول صاحب شهية السماع ومنه أي من الأدب الفرار من الإسرار في الذكر قال شارحها إذ ذكر السر لا يؤثر في قلب السالك ولا يرقيه كترقية ذكر الجهر لصاحبه ومن كلامهم إذا ذكر المرید ربه بشدة وعزم مع الجهر طويت له مقامات الطريق بسرعة من غير بطء فربما قطع في ساعة ما لا يقطع صاحب السر في شهر أو أكثر وفي وصية سيدي علي الخواص ينبغي للمريد أن يذكر بقوة تامة مع الجهر فإنه أشد تأثيرا في دفع الخواطر الردية وجهرا مع الجماعة فإن ذكر الجماعة أكثر تأثيرا في رفع حجب النفس من ذكر الإنسان وحده، وذكر الجماعة أكثر تأثيرا

في رفع حجب النفس كون الحق شبه القلوب بالحجارة والحجر الصلد لا ينكسر إلا بالجماعة كذلك القلوب لا تنكسر إلا بقوة جماعة مجتمعين على قلب واحد إذ قوة الجماعة أشد من قوة شخص واحد، وأما من حيث الثواب فلكل واحد ثواب نفسه وثواب سماع رفقته وقال النووي إلا خفاء أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى به مصلون أو نيام والجهر أفضل في غير ذلك لأن العمل فيه أكثر ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ولأن يوقظ قلب الذاكر والقارئ ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط وقال الحكيم الترمذي إن كان خائفا على نفسه من الرياء، فالأولى في حقه الإسرار وإخفاء العبادات وإلا كان الأولى في حقه الإظهار والإجهار لتحصيل فائدة الاقتداء وذهب بعضهم إلى أن الجهر أفضل مطلقا لأخذ كل من الحواس قسطه من الذكر وليقتدي به الغير فيعمل عمله فيكون له أجره وتثبت له فضيلة الدعوة قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة وقالوا: وأما كونه يخاف الرياء أو لا يخافه فلا يلتفت عليه بل عليه أن ينوي العمل لوجه الله تعالى ولا يضره ما خطر بباله بعد ذلك مع أن الجهر أقطع لمادة الخواطر وترك العمل لخوف الرياء رياء والعمل لأجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منها وقد أورد الحافظ السيوطي في فتاويه أحاديث تدل على فضيلة الجهر وقال: إذا تأملت ما أوردناه من الأحاديث عرفت أنه لا كراهة البتة في الجهر بل فيها ما يدل على استحبابه إما صريحا أو التزاما وأما معارضته بحديث خير الذكر الخفي فهو نظير معارضة أحاديث الجهر بالقرآن بحديث المسر بالقرآن كالمسر بالصدقة، واعلم أن من فضل السر لخوف الرياء فله أصل يستدل به أيضا وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فجعل الناس يجهرون بالتكبير للعبيد فقال: أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا بصيرا، هو معكم أقرب لأحدكم من عنق راحلته، أو يستدل أيضا بقوله تعالى: ﴿وانذر ربك في نفسك تضرعا وخيفة﴾ وقال من قال بتفضيل الجهر مطلقا إن الحديث والآية أصلان في استحباب الجهر لأن اربعوا بمعنى ارفقوا، ويمكن أن يكون بالجهر دون انتهاء الصوت، وفي الآية أيضا توجيه يدل على الجهر وهو أن يكون قوله في نفسك معناه ذكرا راسخا في نفسك حاضرا له قلبك لا أنه اللسان خاصة تضرعا أي تذلا وخيفة

أي خوفا منه ودون الجهر معناه دون الجهر وفوق السر ومعنى التضرع والخيفة مقتض للجهر لأن من تذلل لأحد وخافه جهر بما أي أنه يحبه بدليل قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ أي أعلن به جهرا والذكر من جملة المأمور به وقال ذو الجلالين في نفسك أي سرا وتضرعا أي تذلا وخيفة أي خوفا ودون الجهر قال: وفوق السر. اهـ.

فتكون الآية مبنية لطلب ماهية الذكر بأي وجه شاء الذاكر. اهـ.

وقال بعضهم يستحب الجهر ببعض الذكر والقراءة ويسر ببعضها لأن المسر قد يمل فيستأنس بالجهر والجاهر قد يكل فيستريح بالإسرار وذكر الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار أن أباه كان يأمره بالجهر به ونص كلامه كان الشيخ رضوان الله عليه يقول لي: إذا طاب وقتك واستولت لذة الذكر على باطنك وغبت في الأذكار عن الشعور بالأغيار فلا عليك أن تجهر حد الإجهار، وكذلك في حالة تراكم الخواطر والهواجس على النفس فلا عليك أن تجهر أيضا لكنس القلب من آثار تلك الهواجس وشغل الحواس بالذكر التي هن طرق الوسواس ومثله ما لو فتر النشاط وغلبة السنة وكان الجهر بالذكر منشطا للحواس منبها لها من السنة فلتجهر بالذكر حرصا على عمارة الوقت والإتيان بالوظيفة في آنها. اهـ كلامه برمته حرفا بحرف.

فصل

في الاجتماع للذكر، كان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه وأفاض علينا جزيل بركاته يعجبه اجتماع مرديه لذكر الله وهذا الفصل برمته عقده صاحب كشف الغمة فقال: فصل في حضور مجالس الذكر والاجتماع لذكر الله تعالى، كان رسول الله ﷺ يقول: ألا أخبركم بمن يدخل الجنة وهو يضحك؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: الذين لا يزالون ألسنتهم رطبة من ذكر الله.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يقول إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم ويقول الحق تبارك وتعالى أشهدكم أنني غفرت لهم فيقول ملك من

الملائكة: يا رب فيهم فلان الخطاء وإنما مر فجلس معهم قال: فيقول الله تعالى: هم القوم لا يشقى جليسهم.

وعن معاوية رضي الله عنه خرج رسول الله ﷺ على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن علينا به قال: آله ما أجلسكم إلا ذاك قالوا: آله ما أجلسنا إلا ذاك قال: أما إنني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة.

وكان ﷺ يقول: يقول الله عز وجل يوم القيامة: سيعلم أهل الجمع من أهل الكرم فقيل: ومن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال: أهل مجالس الذكر، وكان ﷺ يقول: ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا نادهم مناد من السماء قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات وكان ﷺ يقول: إن لله تبارك وتعالى سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر فإذا أتوا عليهم حفوا بهم وكان ﷺ يقول: غنيمة مجالس الذكر الجنة وكان ﷺ يقول: إن لله أسرابا تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض وكان ﷺ يقول: عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء يعشي نور وجوههم نظر الناظرين يغبطهم النبيئون والشهداء بمقعدهم وقربهم من ربهم عز وجل قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: هم جماع من نوازع القبائل يجتمعون على ذكر الله تعالى فينتقون أطائب الكلام كما ينتقي أكل التمر أطائبه ومعنى جماع أخلاط من مواضع شتى والنوازع الغرباء يعني أنهم يجتمعون لا لقرابة بينهم ولا نسب ولا معرفة وإنما اجتمعوا لذكر الله لا غيره، وكان ﷺ يقول: رياض الجنة حلق الذكر فإذا مررتم بها فارتعوا يعني اجلسوا معهم فيها وكان ﷺ يقول: ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان عليهم حسرة يوم القيامة. اهـ منه والحمد لله.

فصل

كان الشيخ رضي الله عنه وأرضاه يأمر تلاميذه بقول لا إله إلا الله وهذا فصل فضائلها والإكثار منها، قال صاحب كشف الغمة فصل في فضل لا إله إلا الله.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه ونفسه.

وكان ﷺ يقول: أفضل الحسنات لا إله إلا الله.

وكان ﷺ يقول: من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار، فقال: أفلا أخبر بها الناس يا رسول الله فيستبشروا، قال: إذا يتكلوا، وكان ﷺ يقول: ما قال عبد قط لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه إلا فتحته لها أبواب السماء حتى تقضي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر، وفي رواية: قيل: يا رسول الله ما إخلاصها؟ قال: أن تحجزه عما حرم الله عليه، وكان ﷺ يقول: من قال لا غله إلا الله وحده هدمت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر.

وكان ﷺ يقول قال موسى يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به، قال: قل لا إله إلا الله، قال: يا ربك كل عبادك يقول لا إله إلا الله، قال: قل لا إله إلا الله قال: يا رب إنما أريد شيئاً تخصني به، قال: يا موسى لو أن السماوات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله.

وكان ﷺ يقول: أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله، وكان عبادة بن الصامت رضي الله عنه يقول: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: هل فيكم غريب يعني أهل الكتاب، فقلنا: لا يا رسول الله فأمر الله بخلق الباب وقال: ارفعوا أيديكم وقولوا: لا إله إلا الله فرفعنا أيدينا ساعة فقال: الحمد لله، اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة ووعدتني عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد، فقال: أبا أبشروا فإن الله غفر لكم وكان ﷺ يقول: جددوا غيماكم فقال له رجل: كيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله، وكان ﷺ يقول: أكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها.

وكان ﷺ يقول: ما من عبد قال لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما في الصحيفة من السيئات، وكان ﷺ يقول: ألا أخبركم بوصية نوح قالوا: بلى يا رسول الله قال: أوصى ابنه باثنتين فقال لابنه يا بني أوصيك بقول لا إله إلا الله فإن السماوات والأرض وما فيهما لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة أخرى كانت أرجح منها، ولو أن السماوات والأرض كانت حلقة ووضعت لا إله إلا الله عليها لفضتها، وأوصيك بسبحان الله وبحمده، فإنه صلاة كل شيء وبها يرزق

كل شيء، وكان ρ يقول: ثمن الجنة لا إله إلا الله، وكان ρ يقول: التسبيح نصف الميزان والحمد لله تملؤه ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه. وكان ρ يقول: الله تعالى رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر حتى إذا ظن أنه هلك حضرت له بطاقة فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله ρ فتوضع في كفة الحسنات فتطيش السجلات وتثقل البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء.

وكان كعب الأحبار رضي الله عنه يقول: إذا كان الذي يكفر بالله طول عمره قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله آخر عمره تكفر عنه جميع سيئاته فكيف بالعبد المسلم الذي يقولها طول عمره والله أعلم. اهـ. من كتاب كشف الغمة حرفا بحرف.

وفي الصحاح: أفضل ما قلت أنا والنبِيُّون من قبلي لا إله إلا الله وفيها أيضا: لا إله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي، وفي رواية: فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي. اهـ تخلص لم يفرض الله تعالى على الذاكر أن يقرن محمد رسول الله بلفظ لا إله إلا الله إلا مرة واحدة ليدخل بذلك في الإسلام، وما عدا ذلك من المواطن فالذاكر مخير إن شاء قال في ذكره لا إله إلا الله محمد رسول الله ρ وإن شاء قال لا إله إلا الله وإن شاء كرر لا إله إلا الله مرارا ثم أتبعها بمحمد رسول الله مرة، والدليل على عدم وجوب الاقتران بينهما في غير محل دخول الإسلام قوله تعالى: ﴿فأذكروني أذكركم﴾ إذ لم يرتب ذكره إيانا إلا على ذكرنا له جل وعز لا على ذكر النبي ρ معه، وقوله: ﴿فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم﴾ ولم يقل فاذكروا الله ونبيه عليه السلام إلى غير ذلك من الآيات التي لم يأمر فيها الله تعالى إلا بذكره.

وفي الأحاديث تخصيص لا غله إلا الله بثمراتها دون ذكر النبي عليه السلام فمن ذلك قوله عليه السلام: ثمن الجنة لا إله إلا الله وقوله: من قال لا إله إلا الله ومد بها صوته هدمت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر، وقوله عليه السلام: أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا.

وقوله: فيما يرويه عن ربه: لا إله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي، وورد في الأحاديث من الإنكار ليس فيها ذكر النبي عليه السلام، ما لا يكاد يدخل

تحت حصر، كسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ونحو سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، استغفوا الله، ونحو: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه فإنه ورد في الخبر عنه عليه السلام الترغيب فيها وأن من قالها غفر له وإن كان فر من الزحف، وكسبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضى نفسه وزنة عرشه فإن هذه كلها أذكار ولم يرد عن الله تعالى ولا عن رسوله ﷺ ولا عن أحد من الصحابة ولا التابعين بل ولا عن أحد من علماء هذه الملة وجوب اقتران ذكر النبي ﷺ ببعض هذه الأذكار ولا وجوب اقتران بعضها ببعض وأما قوله تعالى: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من الإيمان من الرحم وغير ذلك، وكذلك قال صاحب الذهب الإبريز وساق هناك أحاديث في فضل صلة الرحم، وقال الجلال السيوطي أيضا عند قوله: ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل بالكفر والمعاصي. اهـ.

فصل

كان الشيخ حفظه الله ورعاه رضي الله عنه وأرضاه كثيرا ما يذكر تلاميذه بلفظة الله الله وربما سمعته هو بنفسه الشريفة يذكر به مفردا تمسكا بقوله: ﴿قل الله ثم زهم في خوضهم يلعبون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا﴾ وفي الخبر عنه عليه السلام أنه قال: إذا قال العبد الله قال الله لبيك عبي فما حاجتك أنا الله لا يعلم كنهه عظمة الله إلا الله هو رب الكل وهو بكل شيء عليم، كما في الروض الخصيب.

وفي الخبر عنه ﷺ: إذا قال العبد الله سعد من فيه عمود من نور فينتشر في الأفق ثم ينتشر إلى عنان العرش فيملأ الكون طرا فيقول له الجليل جل جلاله: كن فيقول: وعزتك وجلالك لا أكف حتى تغفر لمن ذكر هذا الاسم فيقول فوعزتي وجلالي لقد آليت على نفسي قبل أن أخلق الدنيا لا أجره على لسان عبد من عبادي إلا وقد غفرت له.

وفي كتاب الجامع الصغير أن النبي ﷺ كان إذا أهماه أمر قال: الله الله ربي لا أشرك به شيئا، وقال بعضهم: كل آية ورد فيها اذكر اسم ربك أو نحوه فإن المراد بها ذكر

الله تعالى بالاسم مفردا، انظر اللباب في علم الكتاب عند قوله: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا﴾ تجد ما يدل على هذا إما صريحا أو التزاما وأما فهي المقصودة في نحو وقولوا حطة، وألزمهم كلمة التقوى، واعتصموا بحبل الله جميعا، وذهب طائفة من أئمة الدين المقتدى بهم في علم الشريعة والحقيقة إلى أن الذكر بالاسم مفردا هو أفضل أنواع الذكر.

ففي تفسير ابن جزى عند قوله تعالى: ﴿فانكروني أذكركم﴾ واعلم أن الذكر أنواع ولكل نوع خاصة وثمره، أما التهليل فثمرته التوحيد الخاص وأما التوحيد العام فهو حاصل لكل مؤمن وأما التكبير فثمرته التعظيم وأما الحمد والأسماء التي معناها الرحمة والإحسان كالرحمن والرحيم والكريم والغفار فثمرتها الشكر وقوة الرجاء والمحبة، فإن المحسن محبوب لا محالة، وأما الحوقلة والحسبلة فثمرتها التوكل على الله تعالى والتفويض إليه والثقة به، وأما الصلاة على النبي ﷺ فثمرتها شدة المحبة فيه واتباع سنته وأما الاستغفار فثمرته الاستقامة على التقوى والمحافظة على شروط التوبة، وهذا كله مجموع في الذكر الفرد وبعبارة ثم إن ثمرات الذكر بجميع الأسماء والصفات مجموعة في الذكر الفرد وهو قولنا: الله الله بذلك الغاية وإليه المنتهى.

وأخرج ابن عطاء الله في تنويره أن النبي ﷺ قال: إذا قال العبد الله خلق الله من قوله ملكا مقربا لا يزال يصعد حتى يغيب في علم الله وهو يقول الله الله ويترك على موضع صعوده عمودا من نور قد ملاً الأفق يغلب نوره على نور الشمس، ثم لا يزال ذلك العمود يتسع حتى يملأ الكون طولا وعرضا، فلا يمر بشيطان إلا خسفه وأذله وإلا حرقه وهو يقول: الله فيقول الله تعالى: يا ملائكتي هذا عبد من عبادي أجرى على لسانه اسمي فوعزتي وجلالي لأفضين عليه نوالي وأنا الله الجواد الكريم وإني لا أختص لاسمي إلا من أرضيته وأوليته على دائرة حضرتي فهو ولي ما دام ذاكرا لي. اهـ

وقال ابن العربي في كتاب الفتوحات بعد أن قال في معنى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي أفضل من غيره من العبادات، ثم توجه فيه قصدا آخر من أجل الاسم إليه فيقول: ولذكر الله بهذا الاسم الذي ينعت به ويتضمن جميع الأسماء الحسنى ولا يتضمنه شيء في حكم الدلالة أكبر من كل اسم تذكره به سبحانه من رحيم وغفور ورب

وشكور وغير ذلك فإنه لا يعطي في الدلالة ما يعطي الاسم الله لوجود الاشتراك في جميع الأسماء كلها.

هذا إذا أخذنا أكبر بطريق أفعل من كذا وإن لم نأخذها عن أفعل من كذا فيكون غخبارا عن كبر الذكر من غير مفاضلة بأي شيء نكر وفي موضع آخر كان شيخنا يقول: الله الله فقلت له: لم لا تقول: لا إله إلا الله، فقال: أخاف أن أموت في وحشة النفي، إذا كان كل حرف نفس، فهذا مثل الإسراع في بطن محسر ليلا يدركه الموت في مكان غير طاهر ولأولياء الله في هذا الكشف التام نظر دقيق جعلنا الله من أهله. اهـ.

وفي موضع آخر: فإن قلت: قد رجح أهل الله ذكر لفظة الله الله وذكر لفظة هو هو على الأذكار التي تعطي النعت ووجدوا لها فوائد قلت صدقوا وبه أقول ولكن ما صدقوا بذكرهم الله الله نفس دلالتها على العين وإنما قصدوا هذا الاسم أو الهوى من حيث علموا أن المسمى بهذا الاسم أو هذا الضمير هو من لا يقيد الأكوان ومن له الوجود التام، وإحضار هذا في نفس الذكر عند ذكر الاسم بذلك وقعت الفائدة فإنه نكر غير مقيد فإن قيده بلا إله إلا الله لم يفتح له إلا ما تعطيه هذه الدلالة، وإذا قيده بسبحان الله لم يتمكن له أن يحضر إلا مع حقيقة ما يعطيه الشيخ، وكذلك الله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكل ذكر مقيد لا ينتهج إلا ما قيد به ولا يمكن أن يجتني ثمرة عامة، فإن حالة الذكر تقيد وقد عرفنا الله أنه ما يعطيه غلا بحسب حاله في قوله: إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي الحديث، فهذا رجحت الطائفة لفظة الله وحدها أو ضميرها من غير تقييد ثم إن الله ما وصف بالكثرة شيئا إلا الذكر وما أمر بالكثرة من شيء إلا من الذكر، قال تعالى: ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات﴾ وقال: ﴿انكروا الله ذكرا كثيرا﴾ وما أتى الذكر قط إلا باسم الله فإنه معرى عن التقييد، فقال: اذكروا الله، وما قال بكذا وقال: ولذكر الله أكبر، ولم يقل بكذا، وقال: ﴿وانكروا الله في أيام معدودات﴾ ولم يقل بكذا، وقال: ﴿وانكروا اسم الله عليها﴾ ولم يقل بكذا وقال: ﴿كلوا مما نكر اسم الله عليه﴾ ولم يقل بكذا، وقال: لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقول الله الله، فما قيده بأمر زائد على هذا اللفظ لأنه ذكر الخاصة من عباده الذين يحفظ بهم عالم الدنيا وكل دار يكونون فيها فإذا لم يبق في

الدنيا منهم أحد لم يبق للدنيا سبب حافظ يحفظها الله من أجله فتزول وتخرّب وقال أيضا ما معناه إن لفظة الله الله أو هو هو من إشارات أهل الله وإن الجماعة تعتقد في صاحبه أنه ذو حال إلهي مع كونه ذا وجد صحيح وحالة صحيحة. اهـ وقد قال الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار في جنة المرید: والتحقيق أن ذلك أمر راجع إلى الذاكر فإن وجد التأثير في قلبه بمجموع الكلمة لهج بها، وإن وجده بلفظة الله الله ألزمها. اهـ.

وقال شيخنا في تأليفه بدر التّم: والإفراد الذي هو ذكر الاسم الأعظم مفردا أنسب لفناء النفس عن تلمح شيء من عالم الجنس ولخروج الباطن عن الأكوّان تعويلا على المكون ورجوعا إلى الأنس به، قال تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ ثم قال: واعلم أن استعمال الأذكار بحسب الأحوال من الحكمة التي من نالها فقد نال الخير الكثير، وليس من الحكمة وضع الأشياء في غير موضعها.

وثبت من السنة ما يدل على استعمالها بحسب الأحوال من ذلك قوله ρ لا إله إلا الله ويل للعرب من شرّ قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وعقد بيده عقده الستين فبدأ بالتهليل ليرد وارد الجزع عن النفس بتوقع خروج يأجوج ومأجوج، وفي اختصاصه للتهليل بهذه الحالة دون غيره من الأذكار إشعار بكونه أنسب لها ولما يضاهاها ومن ذلك قوله ρ الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين فبدأ بالتكبير تصغيرا لأمر خيبر ليذهب عن النفس عارض استكثار العدو وليتلاشى ما سوى الله في جنب كبريائه وعظمته وفي ذلك إشعار بأن التكبير أنسب لهذه الحالة وما يضاهاها لأنه ρ الإمام الأكبر والطبيب الأمهر. اهـ فإذا تأملت هذا وفهمته علمت أن المناسب لحال مرید الوصلة لله تعالى والفناء في شهود وجوده على شهود وجود غيره ولطالب الذات الساذج إنما هو الذكر بالاسم مفردا من غير تقييد بقيد من معاني الأسماء والصفات ولا جملة من جمل الذكر المركبة التهليل والتسبيح والتحميد والتكبير والحسبلة والحوقة إذ لكل من هذه الأذكار معنى خاص به هو موضوعه اللفظي وليس لاسمه الله معنى غير أنه علم على الذات العلية وأسمائها وصفاتها، فقد تجمع معانيها وثمراتها وخصائصها

تجمع الذات العلية التي هو علم عليها لتلك الحقائق قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ فافهم.

فصل

كان الشيخ حفظ الله ساحته وأطال الفسحة في حياته، أفاض علينا جزيل بركاته كثيرا ما يذكر مريدوه بحضرته بهو هو وكثيرا ما أسمعهم أعز الله جانبه الكريم وأدام له العافية في أكمل عز وأتم نعيم يذكر بنفسه الشريفة ويقول: هو هو وذلك أن لفظة هو موضوعة لغائب حسا حاضر ذهنا لتقدم ذكره لفظا أو حضوره هو ذهنا، فكان القوم يستعملون من أذكراهم لما يكاشفون به من معنى الأمرين في جانب الحق سبحانه، فإن الذاكر بهذه اللفظة إنما يذكر بها عند شهود الحق سبحانه شهودا يعطي التنزيه عن الحضور الحسي والإدراك العقلي أو البصري مؤذن بالحضور القلبي، قال القشيري في شرحه للأسماء: اعلم أن هذا الاسم موضوع للإشارة وهو عند الطائفة إخبار عن نهاية التحقيق وهو يحتاج عند أهل الظاهر إلى جملة تعقبه ليكون الكلام مفيدا لأنك إذا قلت هو ثم سكت فلا يكون الكلام مفيدا حتى تقول هو قائم أو قاعد أو حي أو ما جرى مجراه، فأما عند هؤلاء القوم فإذا قلت هو لم يسبق إلى قلوبهم غير ذكر الحق فيكتفون على كل بيان يتلوه لاستهلاكهم في حقائق القرب باستيلاء ذكر الحق على أسرارهم وامتدحاتهم عن شهودهم فضلا عن إحساسهم بما سواه وكان الإمام أبو بكر بن فورك رضي الله عنه يقول: هو حرفان هاء والواو فالهاء تخرج من أقصى الحلق والواو تخرج من الشفة وهو أول المخارج فكان يشير إلى أن كل ابتداء حادث منه وانتهاء كل حادث إليه وليس له ابتداء ولا انتهاء وهو معنى قوله سبحانه وتعالى هو الأول والآخر، فقوله: هو الأول: إخبار عن قدمه وقوله: والآخر إخبار عن استحالة عدمه وهو الأول بإحسانه إليك أبديا والآخر بإباحته لك وإدامته عليه لطفًا سرمديا فكل خير عليك نظامه وعليه تمامه، قال الله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ وحكي عن بعضهم أنه قال: رأيت بعض الوالهيين فقلت له: ما اسمك، فقال: هو، فقلت: من أنت، فقال: هو، فقلت له: من أين تجيء فقال: هو، فقلت: من تعني بقولك: هو؟ فقال: هو، فما سألته عن شيء إلا قال هو، فقلت لعلك تريد الله قال

صاح صيحة وخرجت روحه وقال أهل الإشارة إن الله تعالى كاشف الأسرار بقوله هو وكاشف القلوب بما عداه من الأسماء وقال بعضهم: كاشف المتهمين بقوله: هو وكاشف الوالهيين بقوله الله، وكاشف العلماء بقوله أحد، وكاشف العقلاء بقوله: الصمد، وقيل كاشف المحبين بقوله هو، وكاشف النبيئين بقوله الله، وكاشف العلماء بقوله أحد، وكاشف العوام بقوله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، وقابل الخواص بالإلهية، وكاشف خاصة الخاصة بهويته، وكاشف العوام بأفعاله الحاصلة بقدرته.

وقال الإمام الرازي في التفسير: الكلام في هو: اعلم أن في هو أسراراً عجيبة وأحوالاً عالية وله في القلب تأثير عجيب لا يقف إنسان عليه ولا ينتهي الشرح إليه فمن فوائده وأسراره دلالاته على إقرار العبد على نفسه بالدناءة والعدم فكأنه يقول: أي مناسبة بين المتولد عن النطفة والدم وبين الموصوف بالأزلية والقدم وما للتراب ورب الأرباب، ومن أنا حتى أعرفك ومن أنا حتى أخطبك فمن أجل ذا ناداه بضمير الغائب فقال: يا هو، ومنها دلالاته على إقرار العبد بأن ما سوى الله محض العدم، لأن قائل يا هو لو كان في الوجود شيئاً لكان قوله: يا هو صالح لهما فلم يتعين واحد منهما بسبب قوله: فلما قال: يا هو فقد حكم على كل ما سوى الله بأنه عدم محض ونفي صرف كما قال: كل شيء هالك إلا وجهه، ومنها دلالاته على استغراق القلوب في معرفة الله والشغل بذكره عن سواه، لأن الأسماء تدل على متعلقاتها فلا قلب نظر إليها ووقوف لديها إلا هذا الاسم يا هو فألا يدل على غيره البتة فبذكره يتم النور ويعظم السرور وإذا تجلى للعبد ذرة من جلال تلك الهوية جهل في عظمتها وحرار لكمال مهابتها فغاب عن رؤية غيرها وذهل عن الالتفات إلى سواها، ويعلم أنه لا هو إلا هو فصار يقول بقلبه ولسانه هو، وهذا يدل على أن الأذكار هو وبهذا كان الغزالي يقول: لا إله إلا الله توحيد العوام، ولا إله إلا هو توحيد الخواص.

ومنها دلالاته على استحضار القصور في الثناء على الله بجميع الصفات الثبوتية والسلبية كما أشار إليه قوله ρ في دعائه: لا أحصي ثناء عليك، لكنه ρ بلغ رتبة الحضور فقال: أنت فكان العبد يقول أنا أجل حضرتك أن أمدحك أو أثني عليك لأن كمالك أعلى وأجل من مدحة كل مادح، لكني أمدحك وأثني عليك بهويته من حيث

هي ولا أخاطبك بلفظ أنت لأنني لم أبلغ رتبة الحضور ولأن حضرتك أعلى وأجل من أن يناسبها حضور مثلي فأنا لا أزيد على قول يا هو.

ومنها أن المواظبة عليه تفيد الشوق إلى الله تعالى وهو أعظم المقامات وأكثرها بهجة وسعادة، وذلك أن كلمة هو ضمير الغائب فإذا ذكرها العاقل استحضر غيبته عن الله، ثم يعلم أن هذه الغيبة إنما هي بسبب ما أحاط به من دائرة الحدوث والإمكان وما ضرب عليه من سور المكان والزمان، ويعلم أن كل المحدثات بهذه المنزلة من الحاجة والنقصان، ويعتقد تقديس جناب الحق في موصوفيته بأنواع الكمالات عن مشابهة كمالات المخلوقات وتلك الكمالات الحقيقة المتعالية مشعور بها من وجه دون وجه، وذلك يشوق إلى الشعور بدرجاتها ومراتبها ولا نهاية لتلك الدرجات والمراتب، فلا نهاية لمراتب هذا الشوق فنبت أن لفظ هو يثير الشوق إلى الله. اهـ.

وبالجملة فالذكر بلفظة هو ذكر حالي ليس من الاختيار في شيء غلا من أطلعه الله على حقيقة ما تشير إليه تلك اللفظة الكريمة واستعمالها مستحضرا فيها هوية الذات العلية فإنه يتجلى له الحق سبحانه تجلي تنزيهه في حضرة شهود، وإلى ذلك يشير شيخنا رضي الله عنه حيث يقول في الأنية والهوية:

وأرى الأنية قدس حق تشاب مع الهوية بلا شهود
وقال في الهوية:

توقد مصباح ظهور الهويه معارف قدسية زمانيه

فصل

كان الشيخ حفظه الله ورعاه كثيرا ما يذكر مريدوه بأننت أنت وربما سمعته أعزه الله وعمره في العافية يقول: أنت أنت وهذه الحضرة أعني حضرة الذكر، فأنت هي حضرة الأنبياء وخاصة خاصة الأولياء، قال تعالى حكاية عن نبيه يونس عليه السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وعن موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ وعن عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فهذه الحضرة التي تعطي مشهد الخطاب لرب الأرباب ليس في

الوجود أعلى منها ولا أكمل إذ لفظة أنت تشير عند أهل اللغة إلى مخاطب معين قريب منك بحيث يسمع خطابك وتنتظر جوابه ويستعملها المحققون في الذكر عند انحياش الباطن لشهودانيتها تعالى منزلها في ذلك الشهود عن أن يكون في الوجود مشهود سواه ممتلاً قلبه من لذة خطابه وشهود حضوره، فلا يمكنه يرى غيره ولا يمكنه السكوت عن مناجاته وانتهى شأوه عندما يقول أنت، فلا تمكنه الزيادة عليها بكلمة أخرى، وأن إلى ربك المنتهى، فافهم واعلم أن مشاهد أهل الله تعالى وإشاراتهم إلى الله سبحانه بحسب أحوالهم يعسر على غيرهم تحقيق فهمها وإدراك بعض علمها قال تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ وقال: ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ فلقد كان بعض العارفين يذكر الله تعالى مشيراً إليه بالضمائر كلها خطابية كانت أو غيبية أو تكلمية متصلة أو منفصلة يرى أن الله تعالى لما أوقعها على نفسه في قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾ ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ ﴿إنه هو البر الرحيم﴾ ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾ ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾ ﴿أنعمت عليهم﴾ إلى غير ذلك مما هو هكذا، كانت واقعة عليه دون غيره لاستحالة شركة غيره معه فيما له ون كانت بحسب الوضع اللغوي صالحة لكل من توجهت إليه بحسب مقتضى المقام المبسوط في علم المعاني وذلك لأن قلوبهم عامرة به خالية من غيره ووجوده سبحانه قد أوقع هذه الضمائر عليه فكان ذكروهم إياه بها للوضع الإلهي مع غلبة الحال المزعجة إلى هذا الذكر من فناء أو شوق، وأكثر من يذكر بهذه الضمائر المحبوب لعجزهم عن التصريح بالأسماء غالباً ومن تحقق بالسحق والمحق في الفناء حتى كان لا يرى للوضع اللغوي أثراً لانطماسه عن تلمح عالم الحسن فكان لا يرى إلا ذاته تعالى ولا يسمع إلا كلامه ولا يتخيل إلا نعوته فكان يشير إليه بكل ما أدرك كان ما كان. اهـ.

فصل

كان الشيخ حفظه الله ورعاه وأطال حياته في عافية من مولاه كثير التأوه، بمعنى أنه كان كثيراً ما يقول: أه أه وهذا اللفظ إما اعتبار أو ذكر وقد قال تعالى في خليله إبراهيم على نبينا وعليه السلام: ﴿إن إبراهيم لأواه حلیم﴾ قيل: الأواه كثير التفكير

وقيل: كثير التتهت بالتفكر، وقيل: الرجاء إلى الله تعالى في المور، وفي شرح حماد على منظومة البدوي في شرح قوله:

عياض تاسع بني الأواه

يعني بالأواه عمر بن الخطاب، والأواه كثير التأوه أي التوجع القائل: أوه، أي من خشية الله. اهـ وهذه اللفظة إنما ينطق بها المعبر عندما يخشاه من شدة عظم ما شاهده من عجائب قدرة الله تعالى، وأما الذكر بها أي استعمالها ذكرا لله تعالى فليس لغير الكمل المحققين أهل الأخذ عن الله تعالى فيه شيء من ذلك وذلك لأن الألف يشير بمعناه الوضعي إلى ائتلاف الأكوان وقيامها بقيومية الحق تعالى إياها وتلك حضرة تجمع فيها معاني أسماء الحق سبحانه وصفاته، والهاء تشير بوضعها إلى الهوية المقدسة عن الصفات الكونية فكأن الذاكر بها قائلاً: ما في الدارين تصريف ذات الله تعالى، وإن رعى في الائتلاف معنى اللطف المتكون به كون ثم معنى القيومية القائم بها إلى غير ذلك من الصفات صار قائلاً بتلك اللفظة الأحد الله القيوم الله اللطيف الله الواسع الله البصير الله القوي الله المحصي الله إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات المقدسة العظمى، فكأن الذاكر بها على هذا المشهد إنما يذكر الله تعالى مستحضراً جميع الصفات العلية المقدسة الأزلية، ويشير الألف أيضاً بشكله الجثماني أعني بسلطته وقيامه إلى معنى الأحدية والواحدية وتشير الهاء بشكلها الجثماني أعني تدويرها وانطباق دائرتها وبقاء طرفيها زائداً على محل التدوير إلى إحاطته تعالى بكل الملك والملكوت والجبروت وما نعلم وما لا نعلم واختصاصه بما هو أهله من كمال وجمال وجلال فكأن الذاكر بهذه اللفظة في هذا المشهد يقول: الله الواحد الأحد أحاط بكل مخلوق تعلمونه أو لا تعلمونه وكماله أعلى وأعظم من كل ذلك. اهـ وتشير الألف أيضاً من مخرجها أعني أنها لا مخرج لها في الفم وليست تخرج إلا منه إلى أن الله تعالى لا محل له في الكون ولا يخلو منه مكان وتشير الهاء أيضاً بمخرجها أعني أنها تخرج من أقصى الحقل إلى أن هويته تعالى باطنة عن خلقه ظاهرة لهم في غيرها إذ الهاء مخرجها أعسر مخرج وصوتها أظهر صوت، فكأن الذاكر بهذه اللفظة في هذا المشهد يقول: الله ظاهر لكل شيء الباطن عن كل شيء، ولهذين الحرفين دلائل أخر لو تتبعها الواقف عليها ما انتهت مدى الدنيا لكن

لا تدل الحروف على المعاني إلا بواسطة الفتح الإلهي في المناسبات ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾ فمن فاتحة الحق سبحانه بعلم هذه الإشارات المأخوذة بطريق الكشف في ميدان المناسبة صح له أن يذكر الله تعالى بأي كلمة شاء وأي حرف شاء، إذ ما من كلمة إلا وهي مركبة من الحروف، وما من حرف إلا وله على الله كذا وكذا دلالة، وقد أظهر الله تعالى هذه الدلالة الالتزامية المأخوذة من هذه الطرق الحرفية بطريق المناسبة لمن فاتحه بها حتى كانت عندهم كدلالة المطابقة فلذلك استعملها المحققون واستخرجوا بها من مظنونات العلوم ما لا تحوم حوله الفهوم، ولا تحيط به الرسوم، ولذلك قال الشعراني في كتاب لوامح الأنوار: وقد رأيت رسالة أرسلها الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه إلى الشيخ فخر الدين الرازي صاحب التفسير يبين له فيها درجته في العلم هذا والشيخ فخر الدين مذكور في العلماء الذين انتهت إليهم الرياسة في الاطلاع على العلوم من جملتها اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك أن الرجل لا يكمل في مقام العلم حتى يكون علمه عن الله عز وجل بلا واسطة من نقل أو شيخ، فما أخذ عن المحدثات معلول عند أهل الله عز وجل، ومن قطع عمره في علم المحدثات وتفاصيله كان حظه من ربه عز وجل لأن العلوم المتعلقة بالمحدثات يفني الرجل عمره فيها ولا يبلغ حقيقتها ولو أنك يا أخي سلكت على يد شيخ من أهل الله عز وجل لوصلك إلى حضرة شهود الحق تعالى فتأخذ منه العلم بالأمور من طريق الإلهام الصحيح من غير تعب ولا نصب ولا سهر، كما أخذه الخضر عليه السلام فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود لا عن نظر وفكر وظن وتخمين، وكان الشيخ الكامل أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، وكان الشيخ محيي الدين رضي الله عنه يقول: ومن أين لعامة الناس أن يعلموا أسرار الحق في خواص عبادته م نالأولياء والعلماء وشروق نوره في قلوبهم، ولذلك لم يجعلهم إلا مستورين عن غالب خلقه لجلالتهم عنه ولو كانوا ظاهرين فيما بينهم ولو آذاهم إنسان لكان قد بارز الله بالمحاربة فأهلكه الله تعالى فكان سترهم عن الخلق رحمة بالخلق ومن ظهر من الأولياء للخلق إنما يظهر

لهم من حيث ظاهر علمه ووجود دلالاته وأما من حيث سر ولايته فهو باطن لم يزل وبالجملة فإن الذكر بلفظة اه سر مكنون وغيبه مصون وعلمه محزون، فلها عند أهل المكاشفات من الدلالة على الذات والصفات ما لا يعلمه إلا مكون الكائنات فتشير بابتدائها بالفتح إلى انفتاح كل الطرق إلى الله تعالى من حيث أنه فتح ظلمة العدم عن نور الوجود وهو الفاتح لكل مرتق حالا وعلمًا وعملا وبانتهاؤها بالسكون إلى انتهاء كل شيء عند الله تعالى، وأن إلى ربك المنتهى.

فالحاصل أن أسرار الله تعالى في خاصته من خلقه وطرق فتحه عليهم أمر خارق للعادة عجز عنه غيرهم من كل من لم يكن منهم يشير إلى ذلك قوله عليه السلام: «ما اتخذ الله وليا جاهلا ولكن إذا اتخذه علمه من لدنه علما يربو على علم العالمين» اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ قال ابن عباس في معنى هذه الآية: من كان الله معلمه كلت الأقلام والدفاتر وعجزت عن حقيقة ما علمه وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ التي يليها على أنبيائه وأصفيائه. اه.

فصل

اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه وسلك بي وبك طريق وده ومصطفاه أن تلاميذ الشيخ حفظه الله ورعاه كثيرا ما يأخذهم الجذب والشطح والرقص والشكر والوجه وكنت أسمع أنه حفظه الله تعالى ورعاه في ابتداء أمره كان كثير الوجه وما ذاك إلا لأن طريقتهم الذكر ومن لوازم الذكر الوجه والاهتزاز والتحرق للحديث النبوي الذي أخرجه ابن حجر في ضياء النهار حيث قال عليه السلام: سبق المفردون، قيل: وما المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيرا، وفي رواية: المستهزئون بالذكر، وأخرجه صاحب كشف الغمة بلفظ: هم المستهزئون المولعون بذكر الله تعالى المداومون عليه لا يبالون ما قيل فيهم ولا ما فعل بهم وفي رواية لهما: فقالوا: يا رسول الله ما المفردون؟ قال: الذين يهتزون في ذكر الله يضع الذكر عنهم أوزارهم وخطاياهم فيأتون يوم القيامة خفافا.

وأخرج السهروردي بسنده عن النبي ρ أنه قال حاكيا عن ربه: إذا كان الغالب على عبي الاشتغال بي جعلت همته ولدته في ذكري فعشقني وعشقته ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه لا يسهو إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبدال الأبطال، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة وبلاء ذكرتهم فرفعتهم بهم عنهم، فإذا كان الذكر مستلزما لرفع فرفع الحجاب مستلزما للضعف ونحوه، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وخر موسى صعقا﴾ فالتجلي مسبب عن رفع الحجاب ورفع الحجاب سبب التجلي، ألا ترى أن من كان بينك وبينه حجاب لا يراك وتتجلي له عندما يزول الحجاب بينكما والتجلي الإلهي سبب للانديكاك والصعوق والتصدع أي التكسر بدليل قوله جل وعلا: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾ فإذا كان إنزال القرآن يوجب للجبال التي شبه الله تعالى القلوب بها الخشوع أي الخضوع والصغار والتصدع أي التكسر فإن تجلي الله تعالى الذي استلزمه رفع الحجاب الملزوم للذكر يقع لها بسببه ما وقع لجبل الطور من الانديكاك المخبر عنه بقوله تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا﴾ وأما قوله جل ذكره في الحديث المروي عن رسوله عليه السلام: فعشقني وعشقتة، فهو مؤذن بأن الذكر سبب العشق والعشق في نفسه وجد موقع في كل ما ليس من طريق المعتاد، ألا ترى أكثر العشاق كقيس بن الملوح وقيس بن زريح وجميل وكثير ونحوهم من العشاق يموت أحدهم بموت معشوقه ويهيم من أجل حبه ويفسد نفسه وحاله ويترك أهله وماله في جنب محبوبه كما في كتاب أنيس المشتاق في أخبار العشاق، فإذا كان هذا يقع في العاشق لقوة سلطان العشق، وقد عشق حادثا يخرج منه أفقر خارج متلبسا بصفات النقص من كل جانب، فما ظنك بمن عشق الله تعالى الموصوف بالجمال والجلال والعزة والكمال فلمثل هذا حق الصعق والوجد والطرب والنوح والرقص والصفق ونحوه، وفي الحديث أيضا: أنا جليس من ذكرني وحق لجليس الله تعالى الحجل و الوجل والسكينة والوقار ولذلك ترى أهل الذكر كثيرا ما يمكث أحدهم الدهر الطويل لا يرفع بصره، وربما خرس إلى غير ذلك مما يعطيه الوجه المسبب عن الذكر، ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ اهـ وقد أشار تعالى بقوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت

قلوبهم﴾ إلى أن الذكر مستلزم للوجد إذ حقيقة الوجد وما يرد على القلب من غير استدعاء قال شيخنا في منظومة الأحوال:

والوجد ما يصادف القلب يرد بلا تعمل عليك فاعتمد
وقد أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿تتشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ فإن
القشعريرة والمذكور بعدها من قوله: ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ هو
أقوى إشارة على الوجد، إذ القشعريرة وجد بنفسها لأنها إنما ترد على الإنسان من غير
استدعاء وكذلك لين الجلود والقلوب لذكر الله وهذا أعني الوجد رتبة عليّة في الدين
ومكانة عظيمة عند الله تعالى، ألا ترى قوله عقب ذكر الوجد المشار إليه بالقشعريرين
ولين الجلود والقلوب: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾ ولهذا كان الوجد والصعق
طريقة أهل الله تعالى من الأنبياء والأولياء، ولذلك قال ابن زكري في شرح النصيحة
الكافية: قال الشاطبي: وعن أنس بن مالك رضي الله عنه إن بنات النجار دخلن على
رسول الله ﷺ وضربن بالدفوف وغنين قصيدة كعب بن زهير التي مدح فيها رسول الله
ﷺ فلما قلن: "والعفو عند رسول الله مأمول".

تواجد رسول الله ﷺ، فلما قلن:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
زاد تواجهه ﷺ حتى سقطت البردة عن كتفيه فألقاها إليهن فاشترها منهن العباس
بأربعمائة دينار، فكانت عنده للبركة من رسول الله ﷺ. اهـ ولا يرد هذه الكلية حديث:
«شيبتي هود وأخواتها» قال في الإحياء: هو خبر عن الوجد، فإن الشيب يحصل
من الحزن والخوف، وذلك وجد، وحديث قراءة ابن مسعود على رسول الله ﷺ سورة
النساء حتى بلغ: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾
قال: حسبك وكانت عيناه تذرفان بالدمع قال في الإحياء: وفي رواية أنه عليه السلام
قرأ عنده: ﴿إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما﴾ فصعق وروي أنه
ﷺ قرئ عنده: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ فبكى، وكان عليه السلام: إذا مر بآية
رحمة دعا واستبشر والاستبشار وجد، وقد أثنى الله تعالى على أهل الوجد في القرآن
قال: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من
الحق﴾ وروي أن رسول الله ﷺ كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل. اهـ منه برمته

ومنه أيضا في المحل الذي قبل هذا المسود أن نسبة الوجد والصعق لرسول الله ﷺ من كتب بعض الفضلاء للشطبي في مفتاح الجنة، ونصه: دخل رسول الله ﷺ على أهل الصفة ومعه ابن عباس رضي الله عنهم فوجدهم يتناشدون الشعر فيما بينهم فلما رأوه أمسكوا إجلالا له ﷺ فقال عليه السلام: عليك قلت وهي اسم فعل بمعنى خذ فأنشده بعضهم:

في كل صبح وكل إشراق تبكي جفوني بدمع مشتاق
لقد لسعت حية الهوى كبدي فلا طبيب له ولا له راق
لآخر الأبيات فتواجد عليه السلام حتى سقط رداؤه فأعطاه لأهل الصفة وكانوا أربعين رجلا فقطعه عليهم أربعين قطعة. اهـ.

وأخرج الديلمي من حديث أنس أن أبا محذورة أنشد بين يدي النبي ﷺ: لسعت حية الهوى كبدي، البيت فتواجد ﷺ وقال ابن زكري أيضا: وأما ما نقل من الوجد بالقرآن ونحوه عن الصحابة والتابعين فكثير منهم من صعق ومنهم من بكى ومنهم من غشي عليه ومنهم من مات في غشيته. اهـ.

قلت: وأما كلام زروق في فإنما المراد به سد ذريعة السماع، أو إنما أنكر الوجد بالغناء والأشعار أيضا كما صرح به ابن زكري في شرحه هنا حيث قال في جواباته عن إنكار الشيخ زروق السماع، أما أولا فلأن هذا كله وجد لا تواجد، والوجد هاجم لا سبيل إلى دفعه بخلاف التواجد فإن متكلف مستعمل وهو وإن كاد يحمده إذا كان قصد به استدعاء الأحوال الشريفة إذ للكسب مدخل في جلبها، ولذلك أمر رسول الله ﷺ من لم يحضره البكاء في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن لكن كلام المصنف في وقوع ذلك منه أي إنما أنكر المصنف وقوع التباكي والتحازن من النبي لا إنما أنكر بكاءه ولا حزنه لأنه عليه السلام غني عن التواجد بالوجد وغني عن الاستدعاء بما أفاض الله على قلبه من أنوار الحضرة الإلهية في مشهد القرب على بساط الأنس والغيبة عن الحس. اهـ.

ثم قال: أو يقول يعني المصنف في وقوعه بسماع الغناء والأشعار: اهـ منه، قلت: وقد عقد الإمام العلامة ابن حجر فصلا لهذا في كتابه ضياء النهار فقال: فصل فإن قال قائل جاهل بأحوال أهل الخوف والشوق وجاهل بما في كتاب الاستماع من إحياء

علوم الدين وبما في كتاب القوة المتين وبما في القشيري وأبي نعيم وغير ذلك من كتب المتصوفة فما دليل الفقراء على جواز البكاء بالأنين والعيول والرقص والتصفيق والاهتزاز والزفر والصرع والصعق وتقطيع الثياب والسقوط على الأرض متغاشين؟ قلنا: له أصل جواز الرقص رقص الحبشة في مسجد رسول الله ﷺ وهو ينظر إليهم ويقول: دونكم يا بني أرفدة أي جدوا في الرقص والشطح ولباس المرقعات والصفق ونحوه، جميع ذلك أصل يبني عليه في الشرع فلا يلام فاعل ذلك بمجرد إذ لا يحرم من ذلك إلا ما كان رياء وسمعة وأما تقطيع الثياب فلا يسوغ تقطيعها اختيارا تقطيعا لا يبقى فيها منفعة.

أما الدليل على سوء البكاء في ملا من الناس بالأنين ونحوه، فحديث العرياض بن سارية الذي قال فيه: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، إلى غير ذلك من الأحاديث والحكايات ومن ذلك ما نقله الإمام ابن العربي في أول كتابه سراج المريدين عند افتتاحه الكتاب حين ذكر خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي خطب بها أبو علي الحلبي خطيب المسجد الأقصى حيث قال في كلامه: ولم يبلغ من الخطبة ههنا حتى غلب على الخلق الأنين واستولى عليهم الحنين وسال الدمع وارتفع الصعق وذكر الحكاية إلى آخرها وما نقله الفقيه الإمام أبو زمن في حياة القلوب في باب الخوف منها والإمام الغزالي في كتاب السماع من إحياء علوم الدين من أن رسول الله ﷺ أخذته وجد عند قراءة قوله تعالى: ﴿إِن لَدِينَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غِصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ فصعق به ﷺ قلت: وفي كتاب الطرائف أن أبا بكر رضي الله عنه رأى شابا من الأنصار أخذه الوجد فصعق واضطرب وكالفرخ المذبوح فالتفت إليه أبو بكر وجعل رأسه في حجره وقال: هكذا كنا حتى قست منا القلوب، ثم قال ابن حجر: ومن الإحياء من كتاب السماع أيضا أن عمر رضي الله عنه قرأ: ﴿إِن عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ فصاح صيحة وخر مغشيا عليه وحمل إلى بيته فلم يزل في بيته مريضا شهرا إلى غير ذلك من الحكايات التي لا يجمع دفتر واحد كحكاية الشبلي كان في مسجده ليلة في رمضان فقرأ الإمام ﴿وَلئنْ شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ فزعق الشبلي زعقة ظن الناس أنها صارت

روحه واخضر وجهه وارتعد إلى آخر الحكاية، وفي هذا المعنى قال ابن البناء في
المباحث الأصلية في باب السماع منها:
والرقص فيه دون هجم الحال ليس على طريقة الرجال
ومن يكن يقوى على السكون فإنه أسلم للظنون
والزعقات فيه والتمزيق صعب وهز الرأس والتصفيق
والضمير في قوله: فيه دون هجم الحال يعود على السماع ولا ينكر وجود هذه
الأشياء من غير رياء ولا تصنع إلا مسيء جاهل بأحوال علام الغيوب ولا يخفى
على من له عقل سليم أن حقيقة أول الخوف حدوث ألم ما في القلب وأقصى غايته
خروج النفس بالموت خوفا وانتهارا وحقيقة أول السرور حدوث أدنى شيء ما من
الفرح في القلب، وأقصى غايته خروج النفس بالموت شوقا، وتلك الحالة التي ذم بها
الجهال الذين لا قلوب لهم أرباب القلوب هي بين مبدأ حقيقة الخوف وأقصاه وبين
مبدأ حقيقة الفرح وأقصاه، قال أبو حامد في كتاب السماع من إحياء علوم الدين في
الوجد: اعلم أن الوجد ينقسم إلى هجم وإلى متكلف ويسمى التواجد وهو تواجدان فمنه
مذموم وهو الذي يقصد به الرياء وإظهار الحالة الشريفة مع الإفلاس منها، ومنه ما
هو محمود وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها بالحيلة فإن للكسب
مدخلا في جذب الأحوال النفيسة ولذلك أمر رسول الله p من لم يحضره البكاء في
قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن إلى أن قال أبو حامد: وانقسام الوجه إلى ما يمكن
الإفصاح عنه وإلى ما لا يمكن هو انقسامه إلى المتكلف وإلى المطبوع إلى أن قال:
ولا يرفع الواجد صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه، ولكن إن رقص وبكى فهو
مباح إذا لم يقصد به الرياء لأن التباكي استجلاب للحزن والرقص سبب في تحريك
السرور والنشاط، فكل سرور مباح يجوز تحريكه. اهـ كلام الغزالي. وهو مستدل به
على جواز السماع وليس من غرضنا إذا أن نقصد من هذا الباب تأسيس طريقة
الشيخ حفظه الله ورعاه وإن لم أره يستعمله بل ولا يأمر به بل قد سمعته ينهى عن
صورته ويزجر عنها ثم قال ابن حجر حاكيا عن الغزالي أيضا في كتاب الإحياء:
وقد روي عن جماعة من الصحابة أنهم يحجلون إذا ورد عليهم أمر أوجب ذلك من
ذلك قصة ابنة حمزة لما اختصم علي بن أبي طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة

رضي الله عنهم أجمعين فيها فتشاحوا في ترتيبها وقال ρ لعلي أنت مني وأنا منك فحجل وقال لجعفر أشبهت خلقي وخلقي فحجل وقال لزيد ابن حارثة: أنت أخونا ومولانا، فحجل، والخالة والدة، على أن قال أبو حامد: والحجل هو الرقص وذلك بفرح أو شوق وقيل في الحجل هو قفز برجل وقيل برجلين قال أبو حامد وقال عمرو بن عثمان المكي: لا نضع عن كيفية الوجد عبارة لأنه سر الله عند عباده المؤمنين إلى أن قال: الوجد أول درجة الخصوص إلى أن قال: فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصحا القلب ورقى وصفى انجمت الموعظة فيه وحل من المناجاة في محل قريب وخطب وسمع الخطاب بأذن واعية فذلك الوجد لأنه وجد ما كان معدوما عنده وقال أيضا: الوجد ما يكون عند ذكر مزعج أو خوف مغلق أو توبيخ على زلة أو محادثة بلطيفة أو إشارة إلى فائدة أو شوق إلى غائب أو أسف على فائت أو ندم على ماض أو استجلاب لحال أو داع إلى وجد أو مناجاة سر إلى أن قال بعد كلام في معنى العشق: ولعلك تقول: كيف يتصور العشق في حق الله تعالى حتى يكون السماع غير كماله فاعلم أن من عرف الله أحبه الله لا محالة وتأكدت معرفته وتأكدت محبته بقدر تأكيد معرفته والمحبة إذا تأكدت سميت عشقا فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة من ضياء النهار لابن حجر ثم قال أيضا: فصل فإن قلت إن الرقص والاهتزاز ونحو مما صرحتم بتحريم ما يقع من ذلك رياء وسمعة وأكثر الناس محمولون على الرياء فلأجل ذلك أنكرنا عليهم خوفا أن يلعب بهم الشيطان قلت: أصلح نفسك التي أنت تعلم مساويها بالدليل القطعي لتكمل الخير للأعيان فإن الصبح لا يحتاج للبيان ولا دليل لكم على الغير إلا مجرد سوء الظن وسوء الظن بالمسلم حرام والبحث عن مسوي الغير من الاشتغال بما لا يعني، وما في القلب من إخلاص ورياء لا يعلمه إلا علام الغيوب فكيف يحل لنا أن نظن بمن ذكر الله تعالى أو تلا القرآن أو سمع موعظة فرقص أو اهتز أو صفق أو ركض أو صعق به الرياء ونحن نقرأ قول الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ ﴿وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ ﴿وقلوبهم وجلت أنهم إلى ربهم راجعون﴾ وفي شرح الموطأ المسمى بالمختار الجامع بين المنتقى والاستذكار في باب الذكر منه ثبت عنه ρ أنه مشى يوما مع أصحابه حتى وقفوا على جبل فقال: يسروا سبق

المفردون، قيل: يا رسول الله: من هم المفردون، قال: الذين اهتزوا بذكر الله يضع الذكر عنهم أوزارهم.

قال صاحب المختار في شرح هذا الحديث: قوله: المفردون يعني أفردوا الله بالوجود الحقيقي وبعموم القدرة وبعموم الخلق وباختصاص الإرادة إلى أن قال: لم يروا إلا الله إلى أن قال: قوله: الذين اهتزوا بذكر الله يعني الذين غلب عليهم الذكر في الأقوال والطاعة في الأعمال حتى يكون كما روى الحسن البصري رضي الله عنه قال: أدركت أقواما لو رأيتموهم لقلتم جانين ولو رأوكم لقالوا فساق. اهـ من ضياء النهار أيضا وأخرج البخاري وغيره أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي تسجي ورغى كما يرغو البعير. اهـ.

فصل

كان بعض تلاميذ الشيخ رضي الله عنه وأفاض علينا جزيل بركاته السابغة الضافية ربما ركبوا إلى العامة لأخذ الأموال وربما يقبلون الهدايا فمن أتى بها من الخاصة وهو لا ينهاهم أنا ذلك فأقول وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب: هذه المسألة ربما تكلم فيها بعض الزهاد ممن لم يقف على حقيقة فقها إما لحاله أذهله عن طلب تحقيق فهمها، أو لأنه لم يكن ممن له في العلم حظ والحاصل أن طالب المال من أيدي العامة بالركوب إليهم من أهل الله لا يخلو أن يكون يطلبه لحاجة نفسه وعياله وما يلزمه القيام به أو لا، فإن كان يطلبه لحاجة نفسه فهو من السنة، لما ثبت أن النبي ﷺ خرج هو وأبو بكر وعمر من بيوتهم يستطعمون لا يخرجهم إلى الجوع فذهبوا إلى بيت أبي الهيثم فلم يجدوه في البيت فأذنت لهم امرأته في الدخول فدخلوا فأتى أبو الهيثم فلما وجدهم في البيت قال: هنيئا لي لقد غدوت اليوم خير أهل الأرض ضيفا، قال في فتح الباري على صحيح البخاري يفهم من هذا أنه يجوز للإنسان أن يسأل ما يحتاج إليه. اهـ باختصار.

وفي الخبر أيضا أن رسول الله ﷺ أعطى صفية بنت حبي لدحية فلما أخبر بجمالها سأله أن يبدلها له بأخرى ففعل. اهـ من كتاب كشف الغمة، وإن كان إنما سأله ليعطيه للمحتاج إليه من المؤمنين فله في السنة أصل أيضا لخبر سلمة بن الأكوع

رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في غزوة وأمر علينا أبا بكر رضي الله عنه إلى أن قال: فغدونا على القوم قبل طلوع الشمس فأغرنا عليهم قال: فلما عاينوا الغارة وذكروا إذا أنا بكثير من الناس فيه نساء وصبية يعمدون إلى الجبل وقد قربوا منهم فقصدتهم فخذت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم بينهم وبين الجبل فوقفوا فلحقتهم فأتيت بهم أبا بكر وأنا أسوقهم فنفلني جارية من أحسن ما يكون فتعلقت بها نفسي فلما أتينا المدينة كنت يوما واقفا إذا أنا برسول الله ﷺ فقال: يا سلمة أعطني الجارية فسكت ولم أجبه ثم لقيني مرة أخرى فقال: يا سلمة أعطني الجارية لأفدي بها أسارى من المسلمين قال فسكت ولم أجبه ثم لقيني مرة أخرى فقال يا سلمة الله أبوك أعطني الجارية لله أبوك، فقلت له: يا رسول الله خذها فلقد أعجبتني وما كشف لها ثوب قال: فأخذها رسول الله ﷺ فأرسلها في فداء أسارى. اهـ — من ابن الربيع وبعضها بالمعنى وفي الخبر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما حضرته الوفاة قال لابنه عبد الله يا عبد الله اقض ديوني في مالي فإن لم يف فمنا مالك فإن لم يف فمنا مال آل عمر وإلا فسل في آل الخطاب فإن لم يف فسل في آل عدي فإن لم يف فسل في قريش ولا تسأل أحدا بعد ذلك. اهـ.

وفي الذهب الإبريز عند قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم أن عليا بن أبي طالب رضي الله عنه قال: من دخل الإسلام طائعا وقرأ القرآن طاهرا فله في بيت مال المسلمين كل سنة مائة درهم ويروى مائة دينار وإن لم يأخذها في الدنيا أخذها في الآخرة وقال ميارة في شرحه على لامية الزقاق عند قوله:

يمين بعثت أو طلاق ومن يرى بمجلس قاض دون عذر تحصلا ما نصه فائدة نص أنمتنا رضي الله عنهم أنه إن لم يكن بيت مال ويعنون والله أعلم أو كان ولم يتوصل إليه فإنه يجب على الناس أن يجمعوا ما لا ليرتبوا منه للجند وحملة العلم يعنون علم فرض الكفاية ونقله الإمام في المحل المذكور وإذا كان ذلك واجبا على الناس والفرض أنهم لا يفعلونه اختيارا قطعا وأمكن بعض حملة العلم ممن للمسلمين به انتفاع أن يتوصل لبعض ذلك على وجه لا بأس به فذلك جائز اهـ. ببعض حذف ثم قال وقد نقل المواق في المحل المذكور مما يرشح هذا نظائر فراجعه إن شئت فإن كان المعطي مستغرق الذمة لبيت المال فالجواز في حقه أظهر بالنسبة

لحملة العلم. اهـ — منه ببعض حذف أيضا فإذا كان دخل الإسلام طائعا وقرأ القرآن طاهرا وكل طالب علم لهم في بيت المال ما تقدم ولو فرض عدمه أو عدم الوصول إليه ولم يجمع الناس مالا لطلبة العلم والأجناد والحقوق الواجبة في أموالهم فأى على من احتال لأخذ بعض حقه بوجه لا بأس به في عرض ولا غيره وأيضا حكى ميارة في هذا المحل إن الأمير زيادة الله أجاز علماء وقته بجائزة فمنهم من قبل ومنهم من تعفف عنها فاستنقص الأمير من قبلها وكان أسد بن الفرات ممن قبلها فلما سمع استنقص الأمير لمن قبل قال: ماذا ينقم علينا والله ما أخذنا إلا بعض حقنا والله حسيبه فيها يمنعنا منا وليست أموال العامة بأشهر ولا بعد عن الورع من أموال السلاطين فقد كان الصحابة والتابعين يقبلون هدايا الملوك والسلاطين ويأخذون جوائز العمال ودليلهم على واز ذلك قبول النبي ﷺ هدايا الملوك فقد قبل عليه السلام هدية المقوقس ملك الإسكندرية واستقرض من اليهود مع قوله تعالى فيهم أكالون للسحت قال صاحب الذهب الإبريز عند قوله جل وعلا في سورة البقرة ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ واختلف في طعام السلاطين وقبول جوائزهم فقيل يجوز للغني والفقير إلا أن تتحقق حرمتها وإنما تبعته على المعطي وقيل لا يجوز إلا أن يتحقق الحلية وقيل يجوز للفقير فقط وحجة الجواز أن النبي ﷺ قبل هدية المقوقس ملك الإسكندرية واستقرض من اليهود مع قول الله تعالى أكالون للسحت وقد أدرك بعض الصحابة رضي الله عنهم كأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وغيرهم أيام الظلمة وأخذوا منهم. اهـ.

وفي كتاب عرف الطيب في تاريخ ابن الخطيب المقرئ أن زيد بن ثابت وكان من الراسخين في العلم يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد وكان ابن عمر مع فضله وزرعه يقبل هدايا صهره المختار بن أبي عبيد ويأكل طعامه وقال ابن مسعود وقد ملئ علماء لرجل سأله فقال إن لي جارا يعمل بالربا ولا يجتنب في مكسبه الحرام يدعوني إلى طعامه فأجيبه قال: نعم لك المهناً وعليه المأثم وقال عثمان رضي الله عنه في جواز السلاطين لحم ظبي نكي وكان الشعبي يقبل جوائز عبد الملك ويأكل طعامه وكان يؤدب أولاده وممن يقبل جوائزهم مالك والشافعي وأبو يوسف والنخعي والحسن البصري مع زهده وورعه وغيرهما من علماء الكوفة والبصرة وممن يقبلها أبو سلمة

بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان والفقهاء السبعة وأبو الزناد وهي أكثر كسب ابن شهاب وقال الثوري جوائزهم أحب إلي من صلة الإخوان لأنهم يمنون والسلطان لأيمن. اهـ منه حرفا بحرف وإذا كانت جوائز الملوك مقبولة عند هؤلاء الأفاضل وما هي إلا بيوت أموال المؤمنين وقد تقرر من كلام ميارة والمواق أنه إن لم يكن بيت مال فيجب على الناس مال للجنود والمتعلمين لقيامهم عن الأمة بفرض الكفاية فإن لم يجمعوا فلا بأس أن يأخذ من له حق في الأموال ما أمكنه من حقه فإن لم يقدر على أخذه إلا بالركوب والتعرض فمن أين يمنع له ذلك بل هو الوجوب أقرب لأنه صار حرفة مباحة يصلح بها واجب وكفى شاهدا على الجواز استطعام النبي ﷺ وأبو بكر وعمر أبا الهيثم رضي الله عنه وصح من حديث أبي بكر رضي الله عنه في الهجرة أنه ورسول الله صلى الله عليه وسلم استحلبا راعيا من أهل المدينة لبناء في طريق هجرتهما وحلبه الراعي وشربا منه أخرجه مسلم والبخاري في المتفق عليه عن أبي بكر من رواية البراء بن عازب عنه وثبت عن الأئمة من الصحابة والتابعين وغيرهم ما يدل على جواز ركوب الإنسان لتخليص حقه فمن ذلك ما ثبت عن عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر كانا يركبان من الحجاز إلى الشام ليأخذا من معاوية وابنه يزيد بعده وكان الحسن وابن عباس يركبان إلى معاوية وثبت عن ابن سيد الناس وكان من جلة العلماء أنه ركب من دمشق حتى أتى العباسي ببغداد ليلتمس المال فسأله العباسي بعد أن أحسن ضيافته عن معنى حديث: لا تفضلوني على يونس بن متى فقال هو نفي الجهة عن الله فلم يفهم العباسي ذلك فقال له سل العلماء عما قلت لك فإن وافقوني بينوا لك وإن عجزوا بينت فلما سألهم الأمير قالوا: لا نفهم وجه ما قاله ابن سيد الناس فيه فأرسل له الأمير فأتاه فقال إن العلماء لم يفهموا وجه قولك في الحديث فبين فقال ابن سيد الناس قد تقرر عندكم أن الإنسان لا ينهى عن التشبه بأحد إلا إذا كان المنهي أعلى رتبة ممن نهى عن التشبه به فقالوا نعم، فقال لهم: قد نهى الله تعالى نبيه أن يكون كيونس بقوله: ﴿فاصبر لحكم رب ولا تكن كصاحب الحوت﴾ وانعقد الإجماع على تفضيله عليه السلام على سائر المخلوقات ولذا فلا وجه للحديث إلا نفي الجهة وذلك أن النبي ﷺ لما رفع ليلة الإسراء إلى المستوى حتى صار يسمع صرير الأقلام لا تفضلوه في القرب المكاني

لله تعالى عن يونس حين ابتلعه الموت وانغمس به ذاهبا حتى وصل إلى الأرض السفلى فقال الأمير والجماعة قد كشفت القناع وقطعت النزاع فأجازته الأمير أحسن جائزة وفي كتاب الطرائف والتلائد للشيخ سيد محمد الخليفة أن أباه الشيخ سيد المختار كان يركب إلى البلاد القاصية ويأتي منها بالأموال فسار زمنا إلى أرض الساحل ومكث عامين في غيبته فلما قدم تلقينا له من مسية يوم وتحتي ناقة لا تجارى أملك حينئذ غيرها فلما وصلته نزلت عنها وأهديتها له فسأل الشيخ فلانا يعني بعض التلاميذ عن ملكي فأخبره إني لا أملك غير تلك الناقة فقال له الشيخ قل له يأخذ ما أتينا به من الإبل من أرض الساحل وكان ينيف على مائتي ناقة فسكت حتى أتينا الخيام فلما كان وقت المنام أتيت فطردت الناس عن الشيخ ثم جلست له دبر الخيمة وقلت له: لقد خفت على نفسي قال: ولم قلت لأنكم قلت في كتابكم كشف اللبس إن عطاء المشائخ وبال على المريدين وقد أتاني من عندكم فلان بأني آخذ الإبل التي أتيتم بها من أرض الساحل فقال الشيخ إنما يكون وبالا على من أخذه بالشره وتشوف النفس وأمان أعطيت له من غير تشوف نفس فلا. اهـ

وذكر فيه أنه كان كثير الركوب لأخذ الأموال وكذلك روي عن المختار بن بون عالم عصره بأرض المغرب فلقد كان كثير الركوب لأخذ الأموال فأتى يوما بعض كبراء الترازه يلتمس منه عطاء فأعطاه مائة بيضة فاستنقصها وهجاه بلسانه فقال التروزي أتهجوني أيها المرابط فقال نعم قد هجتك العرب قبلي قال: فما قال العرب في هجائي فقال: يقولون:

سل الفضل أهل الفضل قدما ولا تسل يتيماربي في الفقر ثم تمولا
ولو ملك الدنيا جميعا بأسرها تذكره الأيام ما كان أولا
وقالوا أيضا:

تجنب بيوتا شبعت بعد رجوعها فإن بقاء الجوع فيها مخمر
وأت بيوتا جوعت بعد شبعها فإن كريم الأصل لا يتغير
وكان القصوى عالم ولاتة يركب لطلب الأموال وكذلك ابن أحمد الأسود وغير وغير
وبالجملة فعلماء أرضنا هذه وأولياؤها جرت عادة أكثرهم بالركوب إلى الناس ليأخذوا

بعض ما أوجب الله لهم على الناس ولو رأوا في ذلك نقصا في دينهم بذلك لما فعلوا بل ولو تبينت لهم حرفة تليق بهم خير من الركوب لبادروا إليها ولو رأوا الصبر على الفقر خيرا من أخذ بعض ما أوجه الله لهم على الناس لصبروا أيضا وقد قال زروق في قواعده على التصوف قاعدة الغني أفضل من الفقر لأن الأول وصف كمال والثاني وصف نقص وقالوا أيضا التكسب بالشبهة أولى من الفقر ومن كلامهم تكسب بالشبهة وكل بالورع. اهـ.

فإذا كان بالشبهة أولى من الفقر فكيف يأخذ ما لا شبهة فيه. اهـ.

وقد عقد الإمام ابن حجر في تأليفه ضياء النهار لهذا فصلا منفردا ونص كلامه فصل فإن قال قائل فقراء الزمان قد أبدلوا الزهد والتوكل والقناعة بالحرص وجب الدنيا والسؤال والدليل على ذلك كونهم يسألون الخلق ويجمعون المال وينمونته تكاثرا إلى أن قال ودعواكم عليه بالتكاثر هي نتيجة سوء ظنكم إذ هذا الأصل لم تأسسوه على غير مجرد سوء الظن والغيبة والنميمة وذلك كله حرام وفي سؤال السائل أموال الناس تفصيل لأنه لا يخلو حال السائل إما أن يكون يسأل لنفسه أو لغيره أما أن يكون محتاجا أم لا فإن كان محتاجا حل له السؤال لنفسه والدليل على حليته استحلاب اللبن الذي سأل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه لراعي الغنم في طريق هجرتهما إلى أن قال وإن كان السائل يسأل لغيره فإن سأل لمحتاج فهو سؤال جائز محمود مسنون والدليل على استنانه وإباحته حديث جابر بن عبد الله الذي قال فيه كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار فجاءه قوم حفاة عراة إلى أن قال مرضي فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة فأمر بلا لإفادة ثم اقام الصلاة فصلى وخطب فقال يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا، وقال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنتظر نفس ما قدمت لغد وحض على الصدقة إلى أن قال: من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة الحديث، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالِكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِيهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا﴾ قال الإمام الغزالي لم يسألهم لنفسه بل لإعانة غيره. اهـ.

قلت: وبهذا تبين أن ما ورد من النهي والوعيد في السؤال محمول على من سال ما لا معصوما لا حق له في شرعا غير محتاج إليه وعليه أيضا يحمل قولهم يا طالب الدنيا لتبر بها غيرك تركك لها إبر وإبر أي يحمل على من طلب ما لا معصوما لا حق له فيه ليبر به غنيا عنه لاحق له فيه أيضا والله تعالى أعلم.

فصل اعلم وفقني الله وإياك لماي حبه ويرضاه وأعانني وإياك على ملازمة الأخذ بتقواه أن طريقة القوم مبنية على تعظيم المشائخ وتبجيلهم والوقوف عند أوامره واجتناب نواهيهم وذلك لأنهم الوسطة إلى الله تعالى وهم في ذلك خلفاء الرسول عليه السلام وقد قال تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه﴾ فتعزروه أي تتصروه وتوقروه أي تعظموه الضمير فيهما راجع إلى رسول الله عند الأكثر وقال جل وعلا: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ فكان تلاميذ الشيخ حفظه الله ورعاه ورضي الله تعالى عنه وأرضاه يبادرون أمره ويجتنبون نهيه اقتداء بقوله جل ذكره ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ وقال: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهىكم عنه فانتهوا﴾ والولي خليفة الرسول ووارثه وكانوا يعضون أصواتهم عنده ولا يرفعونها بحضرتة إلا بذكر الله تعالى أخذا بقوله تعالى: ﴿إن الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذي امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ وكانوا لا يحدون النظر إليه ولا يشخصون بأبصارهم نحوه حرصا منهم على الأدب والتعظيم كما كان أصحاب رسول الله ρ يفعلون ففي الخبر عن عروة والله لقد وفدت على كسرى وقيصر والنجاشي والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا والله ما ينتخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها جلده ووجهه وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيما له وفي الخبر عن رسول الله ρ بجلوا المشائخ فإن تبجيلهم من تعظيم حرمة الله، وقال علي بقدر التعظيم تكون البركة أخرجها صاحب كشف اللبس، فكان تلاميذ الشيخ حفظ الله ساحته وأفاض علينا جزيل بركاته يقبلون يده الشريفة اقتداء بالسنة فقد أخرج أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في سرية فحاص الناس حيصة فلما

نفرنا قلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وقد بؤنا بالغضب فقلنا: ندخل المدينة فلا يرانا أحد فلما دخلنا المدينة قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كان لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا فأتيناها فقلنا، نحن الفارون فأقبل علينا وقال بل أنتم العكارون فدنونا فقبلنا يديه والعكارون الكرارون إلى الحرب العطافون عليها، وفي كتاب تيسير الوصول أن النبي ﷺ كان إذا أسلم من الصلاة ابتدره أصحابه فيأخذون يده فيمسحون بها وجوههم وصدورهم وكانوا إذا رأوه آتيا ابتدروه بالتلقي والترحيب وذلك لما روي أن رسول الله ﷺ قام لجعفر بن أبي طالب لما قدم من أرض الحبشة كما في الصحاح وغيرهم وقال عليه السلام للأنصار قوموا لسيدكم يعني سعد بن معاذ لما نزل بنو قريظة على حكمه وأرسل له عليه السلام فأتى راكبا على حمار. اهـ.

ومن حديث كعب بن مالك قال: لما نزلت توبتي وكننت من الثلاثة الذين خلفوا فأرسلت أم سلمة رضي الله عنها تبشرنني فأتيت رسول الله ﷺ وأصحابه معه في المسجد فقام طلحة بن عبيد الله مهر ولا إلى فلا أنساها له أبدا وأما حديث من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار وحديث أحب الناس إليهم رسول الله ﷺ وكانوا يقومون له لما يعلمون فيه من كراهة ذلك فقد قال ابن زكري في شرحه على النصيحة الكافية إن ذلك محمول على سد الذريعة مخافة أن يعتقدوا فيه ما تعتقده اليهود والنصارى في أنبيائهم فقد قالت اليهود عزيز بن الله وقال النصارى المسيح بن الله ولأجل ذلك قال عليه السلام: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم. اهـ قلت: وأما القيام للمشائخ والأكابر من الأولياء والصالحين فهو الأولى بدليل الاقتران الأمر به بلفظ السيادة أعني قوله عليه السلام: قوموا لسيدكم فإنه إيماء إلى أن السيادة علة للأمر بالقيام فلو لم تكن السيادة علة للأمر بالقيام لما أتى عليه السلام بذلك الوصف بل يقول قوموا لسعد بن معاذ أو لهذا الرجل الآتي أو نحو ذلك والله تعالى أعلم.

فصل

أخذ الشيخ حفظ الله ساحته ورضي الله عنه وأفاض علينا جزيل بركاته الطريقة عن أبيه الشيخ محمد الأمين صاحب الولاية والنفي والتمكين الولي الزاهد الغطريف النحرير العابد ذوي المناقب الشهيرة والكرامات الغزيرة فمن شهير كراماته ما أخبرني به الأخ الثقة الشيخ المصطفى بن أحمد بن عبد الدائم رحمة الله علينا وعليه أخذنا عن والده أحمد أنه قال له أبوه أن عمه الشيخ محمد الأمين بن الطالب اخيار أرسله يوما أخوه إبراهيم قبل صومه في ورد أيل بجمال وقرب فأتى البير فوجدها ملء بالناس فقال لبعض خدمه اجعل دلوك في البير فلتقت إليه بعض الجهلة ممن لا يعرفه فقال له رحم الله أمك أيها الطفل أيجعل دلوه في البير بلا سبب فما أتم الرجل كلمته إلا ورأسه أسفل ورجلاه أعلى وانتفخ بطنه حتى لم يقدر على التنفس فابتدر قرابة الرجل الشيخ محمد الامين يعتذرون ويسألونه منه العفو عن صاحبهم وصاحبهم ينازع الموت حتى أتى بعض من في البير فعرفه فجعل يمدحه ويمدح والديه حتى زال عنه الغضب فاقبل نحو الرجل فوكزه برجله وقال له قم فقام من حينه وكأنه لم يصبه غلبة مرض ومن كراماته أيضا التي ظهرت على يديه قبل بلوغه ما حدثني به شيخنا حفظه الله ورعاه وأطال حياته فيماي رجو من مولاه قال: كان لجدنا الطالب اخيار جار له إبل وله جمل أحسن ما يكون فأورد الجار يوما إبله لمنهل ملح فمر به هناك سيد بيكر بن الطالب جد بن نخثير الغلاوي فلما رأى الجمل أخذه لحسنه فلما أتى الجار أخبر بذلك جدنا الطالب اخيار فقال: ادعوا لي ابني محمد الامين فلما أتاه قال اركب مع فلان حتى تأتيته بجمله فركب معه في أثر سيد بيكر بن الطالب جد فوجدوه قد أتى أهله فنزلوا بهم قبل غروب الشمس بيسير فحلوا عند مسجدهم وأرسلوا الجمل الذي كان تحتهم يأكل في شجرة المسجد فلم يلبثوا أن جاء الطالب جد لصلاة المغرب فقام إليه الشيخ محمد الامين يسلم عليه فجعل الطالب جدير حب به ويقول مرحبا بابن حبيب فلم يرعهم إلا أن جاء سيد بيكر مغضبا ووكز بيده جملهم الذي جاؤوا عليه وقال له فيك يا ابن الطالب اخيار فصوة الجمل وسقط للأرض وأول ما أوصل الأرض منه سنامه فانسل الشيخ محمد الامين من تحت إبط الطالب جد

بسهولة ودنا من جملة وجلس عند رأسه ونفخ بغمه الشريف في إحدى منخريه فما استتم النفخ إلا وهو قائم يأكل في الشجرة وكأنما نشط من عقال ومن كراماته أيضا ما حدثني به شيخنا أطل الله حياته وأدام في الدارين عليه نعمته وعافيته أخبرني أن والدنا الشيخ محمد الامين ركب في طلب حمير مسروقين لآل الطالب المختار وسار بشيخنا معه صبيبا ابن تسع سنين أو سبع أو ثمان تحقيقا أنه لم يبلغ عشر أو تعدى ستا ومعهم من يتولى عنهم خدمة السفر وهذا في الخريف فكانوا في بعض الطريق إذ نسي الشيخ محمد الامين سبخته وهم ذاهبون في طلب حميرهم فوجدوا الحمير بعيدا من محل نسيان السبخة ورجعوا إلى أهلهم فلما كانوا بأرض إذا بكثير من الناس راحلين فظلوا يقطعون المراحل الحي بعد الحي والشيخ محمد الامين لا يكلم أحدا ولا يكلمه أحد فلم يزالوا كذلك حتى لقيتهم أمة كبيرة في آخر الناس فقال الشيخ محمد الأمين أي خالتي أطلب سبحة علامتها كذا وكذا فأنزلت قدرا على رأسها وأرسلت يدها فيه وناولته السبحة فقال شيخنا في نفسه يا عجا هذا هو الكشف الحقيقي أن السبحة لها مدة ونسيت في غير هذه البلاد ولم يسأل عنها أحدا غير هذه الأمة وإذ سألتها لم تعطل سبخته عنه ولم تراجعها كلمة قال: ثم سرنا غير بعيد فطلع علينا نوء عظيم فلما رأيته جعلت أبكي فقال لي أي بني وما يبكيك فقلت: أخاف أن ينزل علينا عذابا من هذا النوء فقال لي: هل تدري أي آية في كتاب الله تدل على الخوف فقلت: نعم يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا﴾ فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿بل هو ما استعجلكم به ريح فيها عذاب أليم﴾ قال: فنزلنا وأجلسني في حجره ولم تقطر علينا قطرة واحدة والمطر أكثر ما يكون وسال الماء عنا هنا وهنا قال شيخنا: فتعجبت أيضا كل العجب وقلت له: يا أبت أرأيت إن تلمذت عليك يعطيني الله ما أعطاك فقال: نعم، قال شيخنا: فتلمذت عليه إذ ذاك وأهديت بجميع ما أملك له وقبل الهدية وقسم مالي على أولاده وقربائه وجعل يعلمني فعلمني في ذلك اليوم الاسم الأعظم وكثيرا من الحكم وأسرار الله تعالى. اهـ.

وكان هذا الولي أعني الشيخ محمد الامين أسخى الناس نفسا وأجودهم كفا فقد حدثني ابن العباس حفظه الله أنه كان الشيخ محمد الامين زمنا قادما من أرض السودان

برفقة عظيمة له جميع زرعها ومراكبها وكان ذلك آخر الصيف فلما بلغ أرض الزوايا دون السودان إذا بقبائل الزوايا من لكسيم والاكوانين وانوازير وتتواجيو وادبزان وغير وغير قد سار رجالهم بالمال إلى بلديه ربيع وتركوا العيال من نسوة وصبية وكان العام قليل الزرع فنزل بهم وجعل يكيل لكل بيت من تلك القبائل كل ليلة ما يكفي عياله إلى أن أتاهم رجالهم ومراكبيهم ورحلوا بهم إلى أموالهم فلم يدركوا عنده من زرعه إلا قليلا وكان كثيرا ما يركب إلى لادم أعني تمظانت فيأتي من عندهم بالمال فيقضي كل من عليه دين من الناس دينه ويعيشمن به فاقة ولا يستتقي هو منه شيئا كما حدثني بذلك غير واحد ممن يوثق به وكان يذبح البقرة والبقرتين في اليوم الواحد ويتخاطفها الناس فلا يأتي الليل في بيته من ذلك لحمة واحدة.

وكان كثير القيام دائم الصيام لا يفتر من ذكر الله تعالى طرفة عين متواصل الأحران في غير عبوسة كثير التلاوة وكان مبرور القسم لا يقسم على ربه في أمر الإبرة سمعت المختار بن محمد بن اخيار رحمة الله علينا وعليه يحدث وهو أعدل عدل أنه رآه يوما في وقعة بين أهل الحوض انتزع قميصه وقال: والله يا رب لا ألبسه حتى تفعل كذا وكذا فما لبث أن عاين ما يريد فجعل يحمد الله ويثني عليه ومما بر الله فيه قسمه ما حدثني به الشيخ المصطفى رحمه الله نقلًا منه عن الأكابر قال لي: إن الولي الشيخ محمد الامين أتى محلة أهل امر بن هنون يطلب أمة لبعض آل الطالب المختار عند بعض ناس أهل أمر بن هنون وكانت الأمة عندهم بمكانة فلما دنا منهم قال بعض الناس: انزل عند السلطان يعني كبير أهل أمر بن هنون ليأخذ لك أمتك ممن هي عنده فقال نعم ما سرت من عند أهلي إلا وأنا أريد النزول عنده، فجعل المتكلمون يعنون بكلامهم سلطان أهل أمر بن هنون وهو يعني بكلامه الله فلما فهموه قالوا له لا بد من النزول عند أهل أمر بن هنون فقال لهم لا أنزل بالله والخيمة التي عندها أمتي فقالوا: إذا تمكث هناك دهرا طويلا، فقال: إذا لا أبيت هناك ليلة واحدة، فأتوا محلة أسكر عندما مالت الشمس للغروب فسأل عن بيت الرجل الذي عنده الأمة فلما نزل عندهم سألوه عن خبره فأخبرهم الخبر، فجعل الحاضرون يقولون: ما أبعدك من المسير بها فلما جاء رب البيت أخبروه الخبر فقال

كلاما لا يليق فتغير خاطر الشيخ فما لبثوا أن مات ابن الرجل وفرسه وقلوه وطعنت ابنته في ذلك الوقت فصاحت زوجة الرجل فأمكنه من أمته والشمس لم تغرب. اهـ.
ومن أجل كراماته أن زوجه الله تعالى خديجة بنت الطالب أبي بكر ولية الله تعالى وابنة وليه وبنت وليته فكانت أخشى الناس لله وأتقاهم له وأعرفهم به وأزهدهم في الفاني فكانت أكثر عصرها علما وحكما وكانت لا تكلم أحدا إلا بسبحان الله غالبا، ومن كراماتها أنها كانت إذا لازمها بعض عمالها لا تقول هي سبحان الله إلا عرف ما تقول فكانوا يترجمون عنها وكانت لا يأتيها أحد ولا تخرج من بيتها إلى أحد ولا يأتي خاطر إلا قالت سبحان الله ففهمت أمتها مرادها فعملت معه ما ينبغي من المروءة إما للبن يحلب له وإما الطعام يصنع له وكانت لا تنزل ببيتها إلا بعيدا من الناس، وكانت السباع لا تذعر لها بقرا ولا عجولا، وربما دفعوا على المحلة وأخذوا منها الصيد وأكلوه قريبا من بيتها هي وربما أصبحوا رابضين بنواحي خيمتها لا يذعرون لها عجلا ولا بقرا ولا حمارا ولا غنما ولا غير ذلك.

وأخبرتني ابنتها الولية العارفة بالله صاحبة المكاشفات فاطم شعوانة أنها أعني خديجة بنت الطالب أبي بكر أنها ربما أمسكت عن الطعام الأسبوع أو الأسبوعين ومتى طالت المدة بينها وبين الطعام والشراب تسلط عليها السمن فكانت لا تكاد تقوم لشدة الشحم وكانت تقول لها: لولا مخافة أن يقعدني الشحم لما أكلت طعاما ولا شربت شرابا قط، وكانت مآثرها خارقة للعادة في كل شيء، سمعت ممن أثق به أنها أتاها يوما بعض أولادها يبكي فقال لها: تضاربت أنا وفلان بن فلان فأنتني أمه فضربتني بيدها وأمسكتني لابنها حتى فعل ما شاء وأبوه ينظر ولم ينه عن ذلك فتغير خاطرها لذلك فمات أهل ذلك البيت كلا في ذلك الحين من أجل تغيير خاطر هذه الولية السيدة من غير أن تدعو بهلاكهم ولم تتو لهم ضرا بل غيره من الله تعالى لأوليائه.
ففي الخبر عنه جل ذكره وعز اسمه: وإنني لأغضب لأوليائي كما يغضب الأسد الحرد. اهـ.

ومن أجل كرامات هذه الولية وبعلمها أن الله تعالى لم يخرج منهما ولا منه قبلها إلا وليا فكان أكبر أولاده قبلها احمد المبيب سمعت شيخنا حفظه الله ورعاه يثني عليه بخصال الأولياء من سخاء وحسن خلق وتواضع في غير ذلك أكثر ما يثني على

غيره من بني آدم، وسمعت الولي بن شيخنا رحمة الله عليه يقول: نقلت من أبي الشيخ محمد فاضل أن أخاه أحمد الهيب بلغ مبالغ الأولياء بسخائه وحسن خلقه وسلامة صدره ونصيحته للمؤمنين، وأخبرني الأخ الولي العارف بالله تعالى محمد الامين بن البشير أن خاله أحمد الهيب أتى ليلة أهل المسجد ويده مملتان دما فقالوا: ومن أين هذا الدم فقال لهم: إن صاحبي محمد بن خير بوه كان في غزو من قومه فأغاروا على عدوهم فأصابته رصاصة وكنت أقلعها منه فقالوا له: وهل هو رآك أو واحد من قومه، قال: نعم رأني هو ولقد أدخلت إصبعي هذه حتى أخرجتها منه فأرخوا لتلك الليلة ثم سألوا أهل الغزو فاتفقت لهم الليلة وكان محمد بن خير بوه قد أخبر قومه بمجيء أحمد الهيب له وقلعه الرصاصة منه. اهـ.

ثم له من الأولاد لميم وهي ولية لله تعالى مشهورة بالمعرفة والزهد وخشية الله تعالى، وكان لها كشف ولها خوارق لم يتعلق بحفظي منها شيء الآن غير أن لها كرامة عظيمة وهي أن ولدت محمد الامين بن البشير رحمة الله علينا وعليه فهو ولي واصل صحب شيخنا وصاهره وتوفي وهو عنه راض وكفى كرامة ثم ولدت خديجة من الشيخ محمد الامين بنون أولياء كلهم مشهورون بالولاية ظاهر عليهم آثارها معروفون بالكرامة زاهدون فيها فمنهم الشيخ سيد محمد كان وليا كاملا في بدء أمره ذا جذب وشطح وكان مدة جذبه كلما جعل فيه الحديد ليسكن نفضه من رجليه فتساقط عنه إذ ذاك وكان يأتي النار العظيمة الشديدة الوقود فيجلس فيها ثابتا ساكنا حتى تطفئ وكانت له خوارق في جذبه أكثر من أن يحصيها العدا ويحصرها الحد وكان بعد الجذب أكمل الناس استقامة وأكثرهم عبادة وأتمهم طمأنينة وكانت له غيرة على جانب الحق سبحانه أخبرني بعض من أثق به أنه أعني الشيخ سيد محمد كان في رفقة إلى النصارى تحمل الكندر فكانوا معهم وسط البحر فتكلم يوما أحد كبراء النصارى بحضرته في جانب رسول الله ﷺ كلاما غير لائق فغضب الشيخ سيد محمد وضرب النصراني بيده ضربة عظيمة أدمت فمه وأنفه وسبه وأباه وقال له: يا كلب يا كلب، فقام النصارى من المجلس واجتمعوا وحدهم وقالوا فيما بينهم: ما أتاكم محمدي قط قبل هذا الرجل وأما ما سواه فالمنافقون اقضوا له ولقومه ديونهم ودعوهم يخرجون عنكم.

ثم منهم فاطم شعوانة وهي ولية لله تعالى كثيرة الكشف دائمة العبادة لها من المناقب ما تعجز عنه الدفاتر ولا يكفيه الخاطر فمن ذلك ما أخبرني به ابنها العدل الرضى الثقة الولي اجيه المختار أخبرني أنه كان ليلة بزمن مجاعة جالسا ببيته إذ هو بمسكين مضطر فأثره بجميع أو أكثر ما يحلبون فما لبث أن جاءته فقالت له أخبرني بماذا فعلت الليلة فقال لها: ما فعلت شيئا عظيما، فقال لها: بم علمت أنني فعلت شيئا عظيما فأبت أن تخبره وأبى هو أن يخبرها بما فعل، فلما طال الأمر بينهما في ذلك قالت: أي بني رأيت أن الله تعالى كلمني وقال لي إنه سيجزيك على ما فعلت الليلة جزاء حمد عاقبته. اهـ. وأنواع مكاشفاتها وأجناس خوارقها أكثر من أن تحصى.

ثم السيد العباس كثير التسبيح وملازمة شيخنا ودوام طاعة الله ما زلت أسمع له خوارق عظيمة ومناقب جليلة وعائنته يوما ونحن جالسون بالمسجد بين الظهر والعصر قال: إني إذا شئت أن أرى شيئا كائنا ما كان وأنا في مجلسي هذا رأيت، فقال أحمد باب بن محمد بن المختار أناحب أن ترى لي زوجتي خديجة وتخبرني خبرها وكانت لها سنة وهي بأرض تكانت فجعل طرف ثوبه على وجهه ومكث أسرع مكث ثم قال له: ها هي آتية ومعها رفاق كثيرة وبلغوا المكان الفلاني وسيأتيك خبرها اليوم أو الليلة أو غدا فكان الأمر على ما وصف. اهـ.

وكننت أسمع له من الخوارق والكرامات ما لا يحصيه الحصر ولا يكتنفه الفكر.

وأما شيخنا الشيخ محمد فاضل فمعاذ الله ما أكرم الله تعالى أباه الشيخ محمد الأمين ولا أمه خديجة ولا أحدا من أبنائهما كرامة أكرم ولا أعظم من انتسابهم إليه ولا أكرم بنوهم ولا بنو آبائهما بكرامة تقاوم الانتساب إليه فلعمري لمنه نالوا في عالم الشهادة ما يراه الرأؤون ولا ينكره من العيان إلا المعاندون الحمقاء الجاهلون ولقد نالوا منه في عالم الغيب ما هو أكبر وأعظم رتبة وأوفر وأغزر فمن ذلك ما سمعت بعض أهل الكشف من كمل العارفين بالله يحكي أن الله تعالى أعطى للبتول بنت البشير في دار الآخرة رتبة لم يبلغها صديق ولا شهيد تعظيما لحق خالها الشيخ محمد فاضل بن الشيخ محمد الأمين، ومن ذلك أيضا ما أخبرني به الثقة الناقلون الموثوق بروايتهم شرعا أن باب أحمد بن الشيخ سيد المختار أتاه واش يقول إن تلاميذ شيخنا يقولون الله الله ويجذبون ويشطحون وجعل الواشي في شأنهم ما لا يليق فأنكر عليه باب

أحمد ما سمع منه وقال: دعوني من نحو هذا فوالله لقد رأيت هذه الأرض التي كان يقال لها فنج لما نزلها سميت في ملكوت السماء محمودة، وكان يقابلها ثقب من السماء يصب البلاء ولما نزلها هو رأيت الملائكة يغلقونه، ووالله لقد رأيت رسول الله ρ حاملا لأبيه مامين على عنقه وجميع أولياء هذه الأمة ماشون تحته فسألت من أين نال مامين هذه الكرامة التي لم يكرم بها غيره من عامة الأولياء فقيل لي إنما نالها من وجاهة ابنه الشيخ محمد فاضل عند الله. اه وأنشدوا في المعنى:

فكم أب قد على بابن ذرى حسب كما علت برسول الله عدنان
وقد أخذ الشيخ محمد الامين هذه الطريقة على أبيه الطالب اخيار وأجازه فيها قبل بلوغه الحلم وأعطاه عمامة وأخبر بسر الله تعالى فيه وصحب بعد وفاة والده مشائخ آخر وأخذ منهم الأسرار والحكم، وأجازه كلا.

أما إجازة أبيه ففي الطريقة نفسها وأما الإجازات الأخر ففي الحكم والأسرار وكل من تلك الإجازات واصله إلى النبي ρ والغرض هنا ذكر شيخه ووالده الطالب اخيار لأنه هو الذي أخذ عنه الطريقة وهو الطالب اخيار بن الطالب محمد.

كان الطالب اخيار وليا كاملا قريبا غزير علم، يروى أنه كان يحفظ مائة مصنف عن ظهر قلب أصغرها مقامات الحريري وديوان الشعراء الستة أعني امرأ القيس والنابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة الملقب بعلقمة الفحل وزهير بن أبي سلمى وطرفة بن العبد وعنترة وكان يحفظ مختصر الشيخ خليل والمدونة وصحيح البخاري ومسلم ورتبته في العلم أكمل رتبة، وكان عزيزا عند الناس يزار من بعد، وتغنم الصلاة معه، سمعت شيخنا حفظ الله ساحته وأفاض علينا جزيل بركاته يحكي أن جدنا الطالب اخيار ركب يوما لبعض شؤونه فمر بمحلة من الناس فخرجوا لزيارته وطلبوا منه أن ينزل عندهم حتى يصلوا الظهر معه فاعتذر لهم عن ذلك وقال إن الشأن الذي ركب له المبادرة له فما تركوه حتى سألوه بوجه النبي ρ أن يفعل فنزل بهم فلما صلوا الظهر اشتغل تلاميذه بجعل الرجال على الجمال فما استتم ركوبهم حتى عقلت له مائة ناقة عشراء وقال له هدية لك نذر في شأن الصلاة معك، وله كرامات لا تحصى وخوارق جملة لا تستقصى، فمن خوارقه ما أخبرني به الأخ الصالح السيد خديم شيخنا أحمد بن صالح رحمه الله أخبرني أنه نقل عن يوثق بنقله أن الطالب اخيار كان ليلة جالسا

ببيته وله بقرة لا يشرب إلا من لبنها الطيب أصلها وكانت له إبل كثيرة وأغنام وبقر كثير فقالت تلك البقرة التي يعتاد الشرب من لبنها في ذلك الزمن لبقرة أخرى: يا أختي أفتتي في أمري فإن الطالب اخيار يعتاد الشرب من لبني وقد أكلت اليوم حشيشة حارة لا يشرب لبني الليلة أحد إلا مات من ساعته، فقالت لها صاحبته: اصبري حتى يتم حلابك واضربي القدر برجلك حتى تكفئيه على فمه أو تكسريه فإن سر القدر أولى من موت هذا الولي فقالت: لئن فعلت ذلك ليضربني الراعي فقالت: ولو يضربك فإن ضربك أيسر من موت هذا الولي وعسى الله أن لا يسلط الراعي عليك من بركة سيدك فأسمعه الله تعالى مقالة البقرتين وأخبر بها بعض تلاميذه وأمره أن يحضر وقت الحلاب وإذا فعلت البقرة ما أمرتها صاحبته أن يمنع الراعي من ضربها فكان الأمر على ما وصف. اهـ.

ومن كراماته العظام أن زوجه الله تعالى وليته عائشة بنت الداني وكانت لها مآثر وكرامات وكانت بعد وفاته معروفة بقضاء حاجات الزوار فلا يكاد زائرها يخيب، أخبرني الأخ الصالح أحمد بن صالح وأخبرني أيضا المصطفى بن أحمد بن عبد الدائم أن الطالب اخيار في حياته نزل يوما عنده كثير من الأضياف وكانت الإبل نحو السبخة لتأكل منها والغنم عزيز والبقر قد تركوه آخر الخريف عند أرض الماء فالتفت إلى زوجته عائشة وقال لها: يا عائشة غداء الأضياف اليوم عليك فقالت له: من أي شيء تحب أن تغديهم فقال لها: من القمح فقالت: وهل يستغني القمح عن إدام، فقال: هو الإدام عليك والغداء علي، فقالت نعم، فدعى هو بعض تلاميذه وناوله مزودين وأمره أن يملأهما من الحصباء ففعل التلميذ ذلك فدعا هو الخدم وأمرهن بالكيل مما في المزودين فوجدوا في أحدهما قمحا وفي الآخر دخنا أحسن ما يكون من القمح والدخن فلما أتى الخدم بالطعام قال لها: أين الإدام فأخذت عكة لها مدة عن الدن وجعلتها بين يديها وضربتها بيدها معها ثم أمرت أمة بنفخها فقالت الأمة هذه لها عن الدهن مدة طويلة فكيف يمكن نفخها، فقالت لها: افعلي أنت ما أمرتك به ففعلت فكلما بلغ النفخ بلغه الدهن حتى امتلأت نفخا، فإذا هي ممتلئة دهنا. اهـ.

قلت: ومن أجل ما أكرمهما الله به وأكرم والديهما وبنوهم أن جعل شيخنا ولدا لهم ففي الخبر أن الله تعالى إنما استجاب دعوة نوح ونجى إبراهيم من نار نمرود لما في أصلاهما من نور محمد p اهـ.

وقد أخذ الطالب اخيار الطريقة عن أبيه الطالب محمد أبي الأنوار وهو ولي كامل مكث في الصوفية والسياسة خمس عشرة سنة بعدما تمت ذريته ولما توفي أبوه وشيخه اجيه المختار أغار بعض بني حسان على من كان جارا له فركب في أثرهم فلما وقف جملة بين يدي الحساني لصق الحساني على سرجه وكان راكبا في بعض حوائجه ثم لصق ابنه على راحلته وكان أيضا راكبا ولم يبق أحد في تلك الخيمة إذ ذاك إلا لصق على ما هو عليه فالتفت إليه الحساني وقال له: قد علمنا يا ابن اجيه أنك ورثت من أبيك ما كان في يده فالآن فأطلقنا وخذ إبلك اهـ. بالمعنى نقلا عن شيخي الشيخ محمد فاضل أتحننا الله تعالى طول حياته وأفاض علينا جزيلا بركاته.

ومن كراماته أيضا أن بعض بناته أتته من قبل خيمتها فإذا هي غير سمينة فقال: أي بنية أنت غير سمينة فماذا يصلح حالك؟ فقالت: يا أبت لا أرى يصلح حالي إلا سنة كاملة تمر علينا خريفا كلها فقال: نعم إن ذلك على الله يسير، فاستمر الخريف من ذلك الوقت إلى الوقت من قابل، وهذه القصة مشهورة نقلتها عن أكثر من عشرة ويقال إن سبب إتيانه من السياحة أنه لما أراد الخروج من أهله إلى الصوفيين قال لزوجته: إذا نابكم أمر فأخبروني فإني أسمعكم أينما كنت، فلما تمت خمس عشرة سنة وهم كلما نابهم أمر أخبروه به فأتاهم في شأنهم حتى يعلموا أنه حضرهم فلما أرادوا إتيانه لهم أمروا راعي إبلهم أن لا يأتيهم بجمالهم بل يتركها في المرعى وأرادوا من كبير الناس أن يصبحوا راحلين ويتركوهم مقيمين في الدار لعله يأتيهم فلما رحلت الناس عنهم أمرت زوجته إحدى بناته أن تتاديه وتخبره بأن الناس رحلوا عنهم وتركوهم في الدار وجمالهم ذاهبون فلم يلبثوا إلا قليلا إذا هو بنفسه يسوق الجمال فطلبوه أن يسكن لهم بعض الجمال حتى يتمكنوا منه وقالوا له: الجمل شرود ونحن نريد الرحيل الآن في آثار الناس فأناخ الجمل ووقف على ركبته وأتته ابنته حتى أخذته هو وتركت الجمل فأتتها أخواتها وأمها فأمسكوه وأقاموا هناك حتى استأنس بهم، وهذا نقلته عن أخي الشيخ المصطفى بن أحمد بن عبد الدائم رحمة الله عليه

قلت: ومن أعظم كرامات الطالب محمد وابنه أن جعله الله تعالى جدا لشيخنا الشيخ محمد فاضل حفظه الله ورعاه وبه نصره الله تعالى على أعدائه من حسان فردوا إبل جاره يروى أن بني عدنان لما بلغوا أربعين رجلا مع كبراء آبائهم أغاروا على بني إسرائيل وفيهم موسى عليه الصلاة والسلام فأخذوا ماله في جملة أموال بني إسرائيل فضرع موسى عليه السلام لربه سبحانه ليهلكهم فأبى الله تعالى دعاءه قيل معنى إبايته تعالى دعاء الكليم أنه قال له: لا تدع عليهم فإني سأخرج منهم نبيي وحبيبي محمدا ρ وقيل معنى الإباية أنه لم يقبل دعاءه وفي ذلك يقول البدوي في نظم الأنساب في شأن معدن بن عدنان:

وأربعون من بنيه النبلا

شأنوا الإغارة على الكليم وعند ذا يضرع للرحيم

يبغي هلاكهم جميعا فأبى دعاءه لأجل نور المجتبي

ثم أخذ الطالب محمد عن أبيه اجيه المختار وهو ولي كامل عارف بالله تعالى له مناقب جمة كثيرة وخصال عديدة غزيرة فمن ذلك ما روي متواترا أن سبب نزول أولاد امبارك أنهم أتوه وتمسكوا به وسألوا منه أن يعينهم بأحد أولادهم لعل الله ينصرهم على عدوهم، فأعطاهم ولده الفاضل أصغر أولاده وعلمه حكمة يفعلها لهم، فلما وصلوا أرض العدو بكسار وجعل حكمته بين شجرتين وقال لأهل الجيش من مر بين هاتين الشجرتين سلم ولم يمت من حرب هذا الحدو فمر أهل الغزو كلا من بين الشجرتين إلا صانعا واحدا أبى أن يمر بينهما وصعد شجرة فسلم أهل الجيش كلهم وأصيب ذلك المعلم وحده.

وكراماته كثيرة مشهورة وفضائله معروفة ماثورة.

قلت: ومن أجل كراماته وأعظم ما أمده الله به أن جعله جدا لشيخنا الشيخ محمد فاضل رضي الله عنه وأرضاه وأطال حياته في حافية وحمد مسعاه وهي أكرم الكرامات يروى أن الله تعالى ما أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام ويرفعوه على أكتافهم إلا أنه أراد أن يظهر عنايته بنبيه عليه الصلاة والسلام قلت: وهذا لبيت الشريف لو حضر العاد الأول زمنه لعدده ثالث البيتين المشهود عند الأمة أنه لم يتتابع في بيت من بيوتات هذه الأمة من أولياء الله العارفين بالله الكمل في أحوالهم

وأديانهم مثل ما تتابع فيهما وهما أي البيتان أولهما وأشرفهما بيت آل الحسين بن علي رضي الله عنهم فقد تتابعت فيهم سلسلة الذهب فأولها الحسين سبط رسول اله ﷺ ثم ابنه علي زين العابدين ثم ابنه محمد الباقر ثم ابنه محمد الجواد ثم ابنه علي العسكر وأما البيت الثاني فهو بيت الإمام السبكي فقد تتابع فيه تاج الدين وأخوه تقي الدين ووالدهما الشيخ الإمام وغير وغير، وهذا البيت الثالث قد تتابع فيه شيخنا الشيخ محمد فاضل وأبوه الشيخ محمد الامين وأبوه الطالب اخيار وأبوه الطالب محمد أبو الأنوار، وأبوه اجيه المختار وأبوه الطالب الحبيب وهؤلاء كلهم ليس منهم واحد إلا وله إخوة معروفون بالولاية مشهورون بها وبالعلم، فله هذا البيت من بيت تتابع فيهم من الكمل ما لم يتتابع في بيت وقد اختاروا العبودية فأبقى الله فيهم الخصوصية فهم خلاصة آل الحسن، وفيهم ظهر قوله عليه السلام: الحسن لي والحسين لعلي أخرجه في الجامع، وقد تم الباب الثاني بحمد الله وحسن عونه.

الباب الثالث: في ذكر علومه أعز الله جنابه الكريم

وأطال حياته في كمال العافية ودوام النعيم

أعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه منا وكان لي ولك في الدارين بكل المنى أن العلم علمان علم حق وعلم باطل، وأصل كل منهما رواية كان أو دراية المناسبة العقلية، وأعني العقل المعتاد، وأما العقل الرباني فهو في واد غير هذا الواد لكنه أصل أصول علوم الحق والتحقيق، لكن تختلف المناسبة باختلاف الفنون والمتعاطيها، فأما علوم الرواية من كتاب وسنة فقد أوجب الله تعالى أن يؤول منها ما لم يكن يناسب العقل كقوله تعالى: الله خالق كل شيء، فإنه وجب عند كل الأمة أن يؤول ذلك العموم المفهوم من لفظة كل بأن الله تعالى ليس داخلا فيه لأنه لا يناسب العقل أن يكون الخالق مخلوقا وأجمعوا أيضا على تأويل اليد في قوله: يد الله فوق أيديهم بما يليق بجلال الله تعالى أو يؤمن بظاهر هذا وأمثاله ويوكل علم حقيقته إلى الله تعالى. اهـ ولا يعارض هذا قول علي كرم الله وجهه: لو كان العلم يؤخذ بالقياس لكان مسح أسفل الخف أولى من ظاهره لأن ذلك من علي كرم الله وجهه سد الذريعة الآراء ما جد الدليل السمعي إذ ليس كل الناس له حظ في معرفة المناسبة بين الأشياء، قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ والعلم بالكلية من حق وباطل علمان مطبوع في الناس يستخرجه العلماء بواسطة المناسبات من القوانين العقلية أو مسموع علمه الله تعالى بالوحي لأنبيائه ولا يخلو ذلك أن يكون من العلوم التي أمروا بتبليغها للناس أولا فإن كان منها فلا بد فيه من ظهور معنى المناسبة للناس وإلا وجب تأويله بالمعاني المناسبة أو التسليم له تعالى في شأنه والاعتراف بجهل حقيقته وإن لم يؤمروا بتبليغه للناس فليس يشترط فيه ما يشترط في غيره إذ الأكثر فيه أن يكون مظهر سر القدرة وذلك مما استأثر الله بعلمه ولم يختص به إلا بعض من اصطفاه من نبي أو ولي وأمر من عثر عليه بمحض التخصيص الإلهي بكتمانه.

أخرج ابن الخطيب في المواهب اللدنية من رواية ابن عباس أن النبي ﷺ قال بعد أن ذكر حديث الإسراء كما ورد في الأمهات: أتاني جبريل وكان السفير بي إلى أن انتهى إلى مقام ثم وقف عند ذلك فقلت: يا جبريل في مثل هذا المقام يترك الخل خليه، فقال: إن تجاوزته احتقرت بالنور فقال النبي ﷺ يا جبريل هل لك من حاجة إلى ربك قال: يا محمد سل الله أن يبسط جناحي على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه قال النبي ﷺ ثم زج في النور زجا فخرق في سبعين ألف حجاب ليس فيها حجاب يشبه حجابا وانقطع عني حس كل ملك وإنس فلحقني عند ذلك استيحاش فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر: قف إن ربك يصلي فبينما أنا أتفكر في ذلك واقول سبقني أبو بكر فإذا النداء من العلي الأعلى: ادن يا خير البرية ادن يا أحمد ليدن الحبيب فأدناني ربي فكنت كما قال تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ قال: وسألني ربي فلم أستطع أن أجيبه فوضع يده بين كتفي بلا تكيف ولا تحديد فوجدت بردها بين ثديي فأورثني علم الأولين والآخرين وعلمني علوما شتى فعلم أخذ علي كتمانته إذ علم أنه لا يقدر على حمله أحد غيري وعلم خيرني فيه وعلمني القرآن، فكان جبريل عليه السلام يأتيني به وعلم أمرني بتبليغه إلى العام والخاص من أمتي ولقد عاجلت جبريل في آية نزل بها فعانتني ربي وأنزل علي: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علما﴾ فهذا العلم الذي أخذ على النبي عليه السلام العهد بكتمانه هو علم سر القدرة فكتمه عليه السلام ولم ينله بعده أحد إلا بطريق الوراثة المحمدية وسابقة تخصيص العناية الأزلية، وإليه الإشارة بمقتضى الإيهام في قوله تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ وفي كتاب الفتوحات لابن العربي عن أبي هريرة أنه قال: أخذت من رسول الله ﷺ وعاءي علم فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو قلت منه كلمة واحدة لقطعتم هذا البلعوم قبل أن أتمها، قال البخاري البلعوم مجرى الطعام، وهذا هو معنى قوله عليه السلام في الحديث إذ علم أنه لا يقدر على حمله أحد غيري أي ومن ورثه مني وفيه أيضا عن ابن عباس: لو تكلمت لكم في معنى قوله تعالى: ﴿الله خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينتزل الأمر بينهن﴾ لرجتموني أو لقلتم إني كافر ، وفي ذلك يقول علي بن الحسين بن علي كرم الله وجهه:

إنني لأكتم من علمي جواهره كي لا يراه أخو جهل فيفتتنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به ل قيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولا استحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا
فهذا العلم الذي هو هكذا ليس للمناسبة العقلية فيه محل البتة وإلا لما قطع بلعوم
المتكلم به ولا رجم ولا قيل بكفره ولا استحل المسلمون دمه بل هو مظهر سر القدرة،
وهو العلم المكنون المصون المخزون يعلمه الله تعالى من يشاء من عباده بسابقة
التخصيص الأزلي.

وأما علم مظهر الحكمة فهو العلم الممكن إدراكه من طريق المناسبة وما من حرف
منه إلا وقد وضع عن مناسبة أدركها من أدركها وعميت على من عميت عليه، إذ
الحكمة في الأصل وضع الأشياء في محالها اللائق بها ولذلك سمي الله تعالى نفسه
حكيمًا إذ لا يضع شيئًا إلا في موضعه اللائق به من حيث المناسبة، قال تعالى:
﴿الله أعلم حيث يجعل رسالاته﴾ فافهم والأصل في هذا أن الله تعالى ما خلق خلقه
إلا ليعرفوه بصفاته التي دلت عليها آثار صنيعته، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن
والإنس إلا ليعبدون﴾ أي ليعرفوني ويوحدوني، فمن أراد الله أن يعرفه إياه من حيث
الحكمة فتح له باب علم المناسبة فوجد كل علم من حق وباطل مبني عليها فعلم
الحق هو العلوم الشرعية كلها من كتاب وسنة وغير ذلك من نحو ولغة وبيان وأصول
فقه وفروعه ومنطق على القول بأنه علم وأصول دين وعروض شعر وغير ذلك ليس
فيه علم إلا وله من معنى المناسبة ما صار به فنا متعلقا في نفسه له قواعد يرجع
إليها في تحقيق فروعه لأنها أصول لتلك الفروع وتلك الأصول هي القواعد المبنية
على المناسبة فأول علم أذكره في ذلك علم القرآن العظيم وهو مبني على ثلاثة علوم،
الأول علم القراءة أي الرواية المروي بها بلفظه عن النبي ﷺ ولهذه الرواية رواة ناقلون
لها منها المتواتر أي المروي عن النبي ﷺ وعن الناقلين عنه بجمع من الناس يستحيل
تواطؤهم على الكذب عادة وهم السبعة المشهورون فمنهم نافع بن عبد الرحمن بن
أبي نعيم مولى جعونة ويكنى أبا رؤيم، وقيل غير ذلك، وأصله من أصبهان أسود
كان إمام دار الهجرة وعاش عمرا طويلا قرأ على سبعين من التابعين منهم يزيد بن
القعقاع وشيبة بن نصاح وعبد الرحمن بن هرمز وقرؤوا على عبد الله بن عباس على

أبي بن كعب على رسول الله ρ ، يروى أن نافعا هذا كان إذا تكلم شم من فيه ريح المسك فقيل له في ذلك فقال: ما أمس طيبا ولكني رأيت النبي ρ في المنام يقرأ في في فم ذلك الوقت توجد فيه هذه الرائحة، ومات بالمدينة سنة تسع وستين ومائة في خلافة الهادي المهدي وقيل سنة سبع وستين وقيل غير ذلك وله رواية كثيرة والمشهور منهم اثنان هما عيسى قالون وعثمان ورش والثاني من لامشائخ السبعة عبد الله بن كثير المكي يكنى أبا معبد مولى عمرو بن علقمة، تابع أصله من أبناء فارس، كان طويلا جسيما أسمر أشهل يخضب بالحناء قرأ على عبد الله بن السائب المخزومي الصحابي وعلى أبي بن كعب وعلى مجاهد بن جبر ودرباس على عبد الله بن عباس على أبي يزيد بن ثابت على النبي ρ ، ولد سنة خمس وأربعين في أيام معاوية وأقام مدة بالعراق ثم عاد إليها ومات بها سنة عشرين ومائة أيام هشام بن عبد الملك، وله رواية كثيرة والمشهور منهم اثنان أحمد البزي ومحمد الملقب بقنبل، ولم يرويا عنه مباشرة بل قرأ الأول على عكرمة على إسماعيل وعلى شبل بن عباد على ابن كثير، والثاني على أحمد القواس على ابن الأحيوط على إسماعيل وعلى شبل ومعروف وقرأ هذا على ابن كثير.

وثالث الأشياخ السبعة أبو عمرو بن العلاء البصري المازني من بني مازن واختلف في اسمه فقيل اسمه كنيته، وقيل اسمه زيان وقيل غير ذلك قرأ على جماعة من التابعين بالحجاز والعراق، منهم ابن كثير ومجاهد وسعيد بن جبير على ابن عباس على أبي على النبي ρ ولد بمكة سنة ثمان أو تسع وستين، أيام عبد الملك ونشأ بالبصرة ومات بالكوفة سنة أربع أو خمس وخمسين ومائة في خلافة المنصور أو قبله بسنتين وله رواية كثيرة والمشهور منهم اثنان الدوري والسوسي ولم يرويا عنه مشافهة بل روى عن يحيى اليزيدي تلميذه.

ورابع الأشياخ السبعة عبد الله بن عامر الدمشقي التابعي قرأ على المغيرة ابن أبي شهاب عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وعلى أبي الدرداء عن النبي ρ وقيل إنه قرأ على عثمان رضي الله عنه ولد قبل وفاة النبي ρ بسنتين بقرية يقال لها رحاب ثم انتقل إلى دمشق بعد فتحها ومات بها في يوم عاشوراء من المحرم سنة ثمانية عشر

ومائة في أيام هشام بن عبد الملك، اشتهر من رواته اثنان هشام وعبد الله بن ذكوان ولم يباشره أحد منهما بالرواية بل روى كل منهما عن روى عنه.

وخامس الأشياخ السبعة عاصم بن أبي النجود وكنيته أبو بكر تابعي قرأ على عبد الله بن حبيب السلمي وزر بن حبيش الأسدي على عثمان وعلي وابن مسعود وأبي يزيد رضي الله عنهم عن النبي ρ ومات بالكوفة أو السماوة سنة سبع أو ثمان وعشرين ومائة أيام مروان الأخير روى عنه شعبة أبو بكر بن عياش وحفص.

وسادس الأشياخ السبعة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي يكنى أبا عمارة قرأ على جعفر الصادق على أبيه محمد الباقر على أبيه زين العابدين على أبيه الحسين على أبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وقرأ حمزة أيضا على الأعمش على يحيى بن وثاب على علقمة على ابن مسعود، وقرأ حمزة أيضا على عمران بن أعين على أبي الأسود على عثمان وعلي رضي الله عنهما، وقرأ عثمان وعلي وابن مسعود وأبي على النبي ρ ولد سنة ثمانين أيام عبد الملك ومات بجلوان سنة أربع أو ثمان وخمسين ومائة أيام المنصور أو المهدي روى عنه خلف وخلاد من غير مشافهة بل روى عن تلميذه سليم.

وسابع الأشياخ السبعة الكسائي واسمه علي وكنيته أبو الحسن وهو مولى بني أسد من أولاد الفرس قيل له الكسائي من أجل أنه أحرم في كساء، قرأ على حمزة الزيات وقد تقدم سنده وقرأ على عيسى بن عمر على طلحة بن مطرف على النخعي على علقمة بن مسعود عن النبي ρ مات برنبوتة قرية من قرى الري روى عنه الليل والدوري وقد تقدم أن الدوري روى أيضا عن أبي عمرو الثالث الآخر أعني عاصما وحمزة والكسائي كوفيون.

وهؤلاء الأشياخ السبعة كلهم من أولاد العجم موالي إلا أبا عمرو وابن عامر فإنهما من صميم العرب خالصين من ولادة غير العرب، وهؤلاء الأشياخ ليس في قراءة واحد منهم حرف غير متواتر بمعنى أن جميع قراءتهم مروية عن النبي ρ تواترا ويجوز الاحتجاج في الأحكام وغيرها بجميع ما قرؤوا به.

واختلف فيما بين السبع والعشر هل هو متواتر أو شاذ قال في جمع الجوامع: والسبع متواتر قيل فيما ليس من قبيل الأداء كالمدة والإمالة وتخفيف الهمزة قال أبو شامة

والألفاظ المختلف فيها بين القراء قيل كالغنة والإدغام ثم قال: ولا تجوز القراءة بالشاذ والصحيح أنه ما وراء العشرة وفاقا للبغوي والشيخ الإمام، وقيل ما وراء السبعة. أما إجراؤه مجرى الأحاد فهو الصحيح والحاصل أن المتواتر تجوز القراءة به والاحتجاج وما لا فلا. اهـ وهذا الشيخ حفظه الله ورعاه له في علم القرآن قدم الصدق فعنده فيه إجازات كثيرة متصل سنده بالنبي ρ وليس معنى كون علم الرواية من كتاب وسنة مبنيا على المناسبة أنه يتصرف فيه السامع بزبد أو نقص رعايا للمناسبة العقلية بل معناه أنه ما من لفظة فيه يتأملها العاقل إلا أدرك ما فيها من المناسبة لما يراد بها من المعنى ما لا يكاد يدخل تحت حصر ويدرك أيضا بمعنى المناسبة تصحيف المصحف منه وتحريف المحرف، ويروى أن بعض العقلاء ممن له علم باللغة قرأ بحضرتة قارئ: ﴿والنخل باسقات﴾ فأبدل الخاء حاء فقال له أي بني إني لست أحفظ القرآن لكن لا يصح ما قلت، فإن النحل لا تبسق إنما يبسق النخل أي تطول أغصانها وعروقها.

ويروى أن أعرابيا سمع قارئاً قرأ: إن الله بريء من المشركين ورسوله ﴿بخفض لفظ الرسول فصاح الأعرابي صيحة عظيمة يا عجا أيتبرأ الله من رسوله ولئن تبرأ منه فإني أول من يتبرأ منه فأخبر بأن القارئ لحن في قراءته فقال: والله ما أحفظ القرآن ولكن لا يليق بجلال الله أن يرسل رسولا ثم يتبرأ منه. اهـ.

وأما الثاني من علوم القرآن فهو علم تفسيره ويحتاج المتأمل فيه إلى تحصيل العلوم العربية ليعرف بعلم النحو معاني تراكب ألفاظه ويفهم به ما فيه من تقديم وتأخير وفصل بين المتلازمين كالفعل وفاعله المبتدأ وخبره والموصوف وصفته ويعرف باللغة معاني المفردات وبالتصريف ما يتغير به المعنى بين المشتق والمشتق منه بزيادة حرف أو حرفين أو نقصانهما نحو غفر واستغفر فإن معنى الأول أن الله تعالى غفر لعبده ذنبه ومعنى الثانية أن العبد سأل المغفرة فزيادة السين والتاء في المشتق دلت على مغاييرته للمشتق منه في المعنى بأن جعلت الأول فعل الله تعالى والثاني فعل العبد، ونحو ذلك ويعرف بعلم المعاني ما تشير له مفردات التراكيب من أسرار المعاني كأن يعرف من لفظ التوكيد إنكار المخاطب أو غرابة الخبر ومخالفته لظن ذلك الخطاب نحو: إني رسول الله إليكم جميعا، ونحوها مما ينكره المخاطبون،

والثاني نحو: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾ فإن المؤمنين لا ينكرون ما أخبر الله تعالى به ولا يشكون فيه وإنما أكد لهم الحكم لأن ذلك بعيد عنهم مخالف لظنونهم فافهم، ونحو: أصولك تأمرك فإن معنى الاستفهام وإضافة الصلوات إليه مشعر بالاستهزاء به وبالصلوات، ونحو: أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون، فإن لفظ أولئك يشير إلى أنهم جديرون بما وصفهم الله تعالى به من الهداية عاجلا والفلاح آجلا إلى غير ذلك من أسرار المعاني المتكفل بها علم المعاني ويعرف بعلم البيان تشبيهاته وأمثاله ومجازاته وكنائته وأسرار كل ذلك ويعرف بها أقسام الدلالة من مطابقة وتضمن والتزام ويعرف بعلوم السير ما يشير إليه من القصص كقصة أصحاب الأخدود وعاد وشمود وغيرهم.

وبالحديث ما يقوي به أحد التأويلين أو التأويلات المحتملة، ولا بد لمريد أحكامه من معرفة علم أصول الفقه وأسباب التنزيل ليعرف موضع الأمر والنهي لغة وأحكام العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والناسخ والمنسوخ والمجمل والمفصل والمشكل والمبين والمحكم والمتشابه إلى غير ذلك من احتمالات الألفاظ فمن حصل جميع هذه العلوم كلها مع معرفة ما فيه من المهمات نحو هذان خصمان اختصموا في ربهم فإن تعيين الخصمين لم يتوقف على أحد هذه العلوم وهو محتاج إليه في التفسير أمكنه التفسير وليس تفسيره إياه من الآراء المنهي عنها بقوله عليه السلام: من قال في القرآن برأيه وأصاب فقد أخطأ ومن قال فيه برأيه وأخطأ فقد كفر، أخرجه أبو داود.

قال شارح النصيحة وليس من الآراء أن يتكلم النحوي فيه بما تقتضيه القواعد النحوية أو يتكلم البياني بما تقتضيه القواعد البيانية أو يتكلم اللغوي بما تقتضيه لغة العرب أو يتكلم الفقيه بما يقتضيه علم الفقه أو نحو ذلك فافهم، وهذا الشيخ حفظه الله ورعاه وأطال حياته فيما يحبه ويرضاه هو حامل راية هذا الفن وأكل أزهار روض المن من كل فن.

وأما الثالث من علوم القرآن فعلم رسمه وهو موقوف أيضا على الرواية ليس للآراء فيه شيء قال:

واسلك سبيل ما رواه الناس منه وإن ضعفه القياس
وأما علم الحديث فيشتمل على أربعة علوم، علم روايته أي الألفاظ المروري بها عن
النبي ρ وعلم رواته أي علم من تعديل وتجريح وغير ذلك وعلم ألقابه
وعلم تفسيره، فأما تفسيره فيشترط فيه ما يشترط في تفسير القرآن من معرفة الفنون
المدونة لمعرفة معاني كلام العربية وقد تقدمت.

وأما علم الرواية فاعلم أنه تجب المحافظة على الألفاظ النبوية حتى تؤدي كما قال
عليه السلام، ولا يجوز فيها اللحن ولا التحريف ولا التصحيف ولأجل ذلك منعوا
قراءته لغير مصحح ضابط أو من يعرف العلوم العربية التي تحجزه عن اللحن في
الحديث، ولأجل ذلك تحفظوا في الحديث أكثر مما تحفظوا في القرآن والسر في ذلك
أن الله تكفل بحفظ القرآن من التحريف والتنزيل بقوله جل وعلا: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر
وإنا له لحافظون﴾ ولم يتكفل بحفظ الحديث، إذ ورد في الحديث أنه عليه السلام قال:
سيكذب علي، وقال: من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار. وهذا الحديث
صحيح متواتر رواه من الصحابة أكثر من سبعين رجلا، قال في طلعة الأنوار:

وقد روى حديثه من كذبا أكثر من سبعين ممن صحبا
وقد حض الأقدمون على حفظ الرواية كما وردت لأمرين أحدهما ما تقدم أعني
التحفظ من التحريف لأنه يفسد المعنى وإن تضمن مع التحريف معنى صحيحا فربما
كان مؤديا إلى ما لم يكن مقصودا للنبي عليه السلام، وربما أدى إلى الفساد قال
صاحب المراقي:

ومفهم الباطل من كل خبر في الوضع أو نقص من الراوي انحصر
والأمر الثاني من أسباب التحفظ في الرواية ليظفر الراوي بدعوة النبي ρ وحبه قوله:
نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، وعلل عليه السلام قوله: فوعاها
فأداها كما سمعها، بقوله في آخر الحديث: فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل
فقه إلى من هو أفقه منه.

والمعنى في ذلك أنه ρ أعطى جوامع الكلم وأقواله متضمنة للفقه الكثير فربما يتحملها
من لا يفهم فقهها لكونه ليس بفقيه النفس وكثيرا ما يحملها من ليس بفقيه النفس إلى
من هو أفقه منه نفسا فيعرف جميع فقهها ومعنى نضر بفتح الضاد المعجمة مشددة

قبلها نون مفتوحة وبعدها راء مهملة حسن وزين ويروى نصر بالصاد مهملة مخففة ولأجل هذه الدعوة جزموا بأن رواية الحديث من أسباب حسن وجه المرء هي وقيام الليل للحديث الوارد بذلك أيضا، وأما نقله بالمعنى فمسألة خلافية جزم الأكثرون بمنعه وأجازه مالك لمن يعلم مباحث الألفاظ ويؤدي كل معنى تضمنته الرواية واتفقوا على جوازه للمترجم يبلغه لمن لا يفهم لغة العرب باللسان الذي يفهمونه للضرورة وجوزوا أيضا تقطيعه بأن يروى بعضه دون بعض حيث لم يكن مرتبطا ببعض الآخر في المعنى كقوله عليه السلام في البحر: هو الطهور ماؤه الحل ميتته. اهـ.

وأما علم الرواة فإنهم جزموا بأن اصحابه رضوان الله عليهم عدول كلهم والصحابي كل من اجتمع مع النبي ρ وهو مؤمن إذ ذاك ولو حكما فدخل محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما فإنه ولد قبل وفاة النبي ρ بشهر واجتمع مع النبي ρ وهو في ذلك الصغر وكان محكوما له بالإيمان لكون أبيه مؤمنا، والصبي على ملة أبيه وكذلك كثير من أبناء الصحابة رضوان الله عليهم، وأما نحو عبد الله بن جعفر والحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وغيرهم ممن أدرك مع النبي ρ مبلغا تمكنه الرواية عنه وتمكن الإيمان من قلبه فلا خلاف في كونه صحابيا، وقيل: المقطوع بعدالتهم منهم الملازمون للنبي ρ لأن من رآه مرة واحدة وإذا ادعى العدل المعاصر للنبي ρ الصحبة قبلت دعواه لأن عدالته تمنعه من الكذب ومعاصرته دليل على صدقه.

وأما غير الصحابة فالعدل مقبول الرواية قطعا والفاسق والبدعي الداعي إلى بدعته أو البدعي مطلقا مردودون والصبي أده بعد زوال ذلك الوصف المانع من قبوله فإنه يقبل واختلف في المتساهل في الحديث الذي يأخذه في حال اشتغال باله أو اشتغال بال شيخه بنوم أو مرض أو غضب أو غير ذلك. اهـ

وأما علم ألقابه فمنه صحيح وهو الذي اتصل سنده من كون مخرجه كالبخاري أو مالك أو مسلم إلى النبي ρ دون شذوذ ولا علة معطلة ورواته كلا عدول ضابطون فالمراد بالشذوذ أن يسوء حفظ الراوي حتى لا تكون إصابته أكثر من خطئه ويلزمه ذلك والمراد بالعلة المعطلة أي القادحة في صحة الحديث المانعة من قبوله كإرسال خفي في الموصول أو وقف في المرفوع قال في طلعة الأنوار:

منه صحيح وهو ما يتصل سنده دون شذوذ يحصل

وليس فيه علة تعطل وكل راو ضابط معدل
قال في هدي الأبرار: أقسام الحديث وهي بحسب القوة والضعف ثلاثة: صحيح
وحسن وضعيف، وبحسب غير ذلك كثير ثم قال في تعريف الحسن وحكمه:
وهو في الحجة كالصحيح ودونه إن صير للترجيح
لأن هذا قصرت رجاله في الحفظ دون منكر يناله
فعلم بهذا تعريف الحسن وحكمه، فأما تعريفه فهو بأن يجمع شروط الصحة المتقدم
ذكرها، إلا أن رجاله دون رجال الصحيح في الحفظ، وهذا الحديث المقبول في
الاحتجاج صحيحا كان أو حسنا إن سلم من المعارض يسمى محكما، وإن عارضه
مثله وأمكن الجمع بينهما وجب وسمي مختلف الحديث، مثاله حديث: لا عدوى ولا
طيرة مع حديث: فر من المجذوم فرارك من الأسد، وهما في الصحيح والجمع بينهما
أن هذه الأمراض لا تعدي بطبعها لكن الله تعالى جعل مخالطة المريض سببا لإعداء
مرضه وقد يتخلف فيكون نفي العدوى من حيث طبع المرض بمعنى أنه لا يعدي
بطبعه، والأمر بالفرار من حيث السبب بمعنى طبع المرض بمعنى أن الله تعالى ربما
يجعل مخالطة المريض سببا لكون مرضه بالمخالطة. اهـ.

وأول من أُلّف في مختلف الحديث الإمام الشافعي ولا يمكن الجمع بينهما بالترجيح
وإلا فالوقف وإنما يصار إلى ترجيح أحدهما حيث لم يمكن النسخ بأن لم يعلم التأخير
والتقديم وإلا فالأول منسوخ والآخر ناسخ له. اهـ. وهذا المنقول صحيحا كان أو حسنا
منه غريب وهو ما انفرد به راو واحد سواء انفرد بالمتن أعني نص الحديث أو بالسند
ومنه ما يسمى عزيزا وهو ما يرويه اثنان أو ثلاثة ومنه مشهور وهو ما يرويه أكثر
من ذلك ومن المشهور ما يسمى متواترا وهو ما يرويه جمع من الناس عقلا
تواطؤهم على الكذب، فالمتواتر لا يكون إلا صحيحا صالحا للاحتجاج به شرعا وأما
الغريب والعزيز والمشهور فكل منهم تمكن فيه الصحة ويمكن فيه الضعف، ومن
ألقابه أيضا: المسلسل وهو ما اتفق رواته على وصف كأن يروي كل منهم عن الآخر
الحديث مع مقارنته أمرا آخر كقوله عليه السلام يا معاذ: إني أحبك فقل في دبر كل
صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، فقد تسلسل بقول كل من
رواته للراوي عنه وأنا أحبك ومنه المدبج وهو الذي يرقله القرين عن قرينه الذي

يروى عنه المتقارب معه في السن والسند معنى أنهما متقاربان سنا وسندا وكل منهما ينقل عن الآخر. اهـ.

وهذان أعني المسلسل والمدبج يكونان في الصحيح والضعيف أيضا ثم يقابل المقبول من صحيح وحسن المردود قال في هدي الأبرار: الضعف وهو المردود يعني أن الضعيف مردود لا يحتج به في الأحكام الشرعية بخلاف المقبول الذي هو الصحيح والحسن، والرد يكون لسقط أو لظعن والضعيف هو الذي فقد شرطا من شروط الحسن، قال في تعريفه:

فاقد شرط للقبول نجتني شرطا من التي مضت للحسن
بقدر بعده من الشروط مختلفا يكون في المبسوط
فأما الضعيف المردود لسقط بعض سنده فالمعلق والمرسل والمعضل والمنقطع والظعن يكون لكذب الراوي أو تهمته بالكذب أو فحش أو غلظه أو غفلته أو فسقه أو مخالفته أو جهالته أي كونه جهولا، أو بدعته أو سوء حفظه الأول الموضوع والثاني المتروك، وصورة التهمة أن لا يروى ذلك الحديث إلا من جهته ويكون مخالفا للقواعد المعلومة أو عرف بالكذب في كلامه ولم يظهر وقوعه في الحديث.

والقسم الأول من المتروك ومن أخف الضعيف الثلاث وهو ما كان الظعن فيه بفحش أو غلط أو غفلة أو فسق هو المنكر على رأي والمخالفة إن كانت بتغيير السند كأن يروي جماعة الحديث بأسانيد مختلفة فيرويه عنهم ويجمع الكل على إسناد واحد منها ولا يبين فمدرج السند وإن كانت بتقديم وتأخير في السند أو المتن فمقلوب، أو إبدال الراوي أو لفظ بآخر ولا يرجح فمضطرب، أو بتغيير نقط فمصحف أو شك فمحرف والمراد بسوء الحفظ أنه لا ترجح إصابته على خطئه فإن لازم فالشاذ أو طرأ الكفر أو مرض أو احتراق كتبه وكأن يتعمدها فرجع إلى حفظه فساد. اهـ من هدي الأبرار والشيخ أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته مع العافية في كل النعيم مبلغه في هذه العلوم لا تحوم حوله حوائم الرسوم فله في علم الرواية من الحفظ والخبرة ما عجز عنه كل الحفاظ ولا تحصره الألفاظ، وله من علم الرجال ومعرفة طرقهم وأحوالهم وطرق كل متن بخصوصه ورجال كل مصنف وأشياخ مصنفه ما لا تكيفه العقول ولا يمكن حصره بالنقول.

وأما علم ألقابه وألفاظ الرواية وكيفية الإجازة فذلك ضروري عنده وأما تفسيره فهو الخاتمة في العلوم المدونة لفهم العربية وبيده شرح كل كتب الحديث وجوامعها الكبار ونصوصها حتى لا يمكن عقلا أن يكون له سابق في هذا الفن ولا أن يلحقه فيه لاحق. اهـ.

وأما علم النحو وهو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب وأول من وضعه أبو الأسود الدؤلي بإشارة من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وذلك أن عليا لما أسلم الأعاجم واختلطت بالعرب فتشوف الأعاجم إلى معرفة كلام العرب وكثر اللحن في الناس عربا وعجما اغتم لذلك غما شديدا لعلمه أن أصل الدين الكتاب ولاسنه ولا يمكن ضبطهما ولا فهم معانيهما إلا بالعربية لأنهما عربيان فدخل عليه أبو الأسود فقال له: يا أمير المؤمنين ما لي أراك حزينا مغموما؟ فقال: إني خفت على الأمة لأني سمعت الناس يلحنون كلام العرب لحنا يفسد معانيه، فقال أبو الأسود: يا أمير المؤمنين ضع لهم قواعد لذلك فبقي علي متفكرا في ذلك ثم دعا بأبي الأسود وعلمه الاسم والفعل والحرف وشيئا من الحروف التي تنصب المضارع أو تجزئه وقال له: انح ذلك النحو فاستخرج أبو الأسود أشياء أخر ثم جعل العلماء يزيدونه في ذلك استخراجات أخر من استقراء كلام العرب حتى اتسع الفن وانتشر فهو مشتمل على ثلاثة علوم، الأول الإعراب وموضعه معرفة معاني التركيبات كالفاعلية والمفعولية والابتدائية والخبرية وكون هذا وصفا وهذا موصوفا وغير ذلك، واثاني التصريف وموضعه معرفة النسب الكائنة بين المشتق والمشتق منه وبماذا يتغير المعنى الجامع لها بتغير أحدهما عن الآخر زيادة ونقصا أو غير ذلك والثالث الرسم وهو معرفة الكتابة وقواعدها القياسية التي جرى عليها عمل الكتاب ولم تكن الكتابة من شأن العرب ولا من علومهم بل كانوا أميين لا يعلمون الكتابة ولا القراءة والدراسة لأنهم لا كتاب لهم وإنما أهل الكتاب الكتّابيون وكان علم العربية سلاقة أي طبيعة مركوزة في نفوسهم يتكلمون به كيف شأؤوا، وإذا احتاجوا إلى كتابة شيء طلبوا له كاتباً فربما كان كاتبهم منهم وقد تعلمها من غيرهم، وربما كان من غيرهم، فلما انتشروا وكثروا وغلبوا اليهود بعد الحرابة وتملك فيهم الملوك كالنعمان بن المنذر بالحيرة والنعمان بن الحارث الغساني وغير وغير احتاجوا إلى الكتابة وتشاجروا عليها

فكتبوا الأشعار والرسائل على حسب ما في نفوسهم من القواعد العربية المستتبطة من المناسبة العقلية فحذفوا من الحروف اختصارا ما علم ضرورة مع الحذف نحو الألف من اسم الله والرحمن والألف من جميع السلام والتثنية كالواو من داود والياء من النبيين وغير ذلك وكتبوا هذه المحذوفات أيضا نظرا للأصل لأن الأصل إثباتها، وفرقوا بين اللذين واللتين بصيغة التثنية مع الذين بصيغة الجمع بأن كتبوا المثني بلامين والجمع بلام واحدة، وفرقوا بين التي بصيغة الإفراد واللاتي بصيغة الجمع بأن جعلوا المفرد لاما واحدة والجمع لامين وتركوا تلك التفريقات نظرا لعدم الفارق الأصلي، ووكلوا التفريق إلى السياق ولم يضبطوا له ضبطا محكما لا عدول عنه لكونهم وكلوه إلى السلاقة وهي متأثرة بما في النفوس من معاني المناسبات فكان أحدهم يكتب الكلمة في أول الرسالة أو القصيدة أو البيت بأحد هذه الأوجه ويكتبها في آخره بالوجه الآخر فلما نزل القرآن وأسلم العرب وكتبوا المصاحف اختلفوا في رسمها كما كانوا يفعلون قبل فكان ذلك مؤديا للاختلاف في القراءة مع ما انضم إليه من اختلال قواعد اللسان العربي، فجمع عثمان بن عفان رضي الله عنه المصاحف عنده وأمسكها عن أهلها وجمع عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص القرشيان وزيد بن ثابت الأنصاري وأمرهم بنسخ المصحف فاجتمعوا في مكان واحد ورسموه ولم يتعرض أحدهم للآخر فيما كان من قبيل الرسم ولا تشاوروا عليه بل كتبوه فوضى بينهم فجمع عثمان الأمة على ذلك المصحف وأمر بإحراق غيره من المصاحف وأرسل إلى كل قطر نسخة منه، فاجتمعت عليه الأمة ولم يرسمه الكتاب على قاعدة مضبوطة فقد كتبوا فيه ما لا يؤول على قاعدة عربية كالواو في أولئك والألف في لا اذبحنه فإن الألف الذي قبل الذال وبعد لام الألف لا أصل له، وكالياء في بأييد وفرقوا في الكتابة بين كلمات لا فارق بينها في المعنى نحو: يا أيها الناس يا أيها النبيء ونحوهما فإنهم كتبوا ألفا بعد الهاء ولم يكتبوه بعدها في قوله وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون وقالوا يا أيه الساحر وليس ذلك إلا لأنهم لم يتقيدوا في الكتابة بشيء وإنما وجب اتباع الرواية في رسم المصحف مخافة الاختلاف في الألفاظ حتى لا يختلف فيه شيء ما ولذلك قال صاحب الضبط:

واسلك سبيل ما رواه الناس منه وإن ضعفه القياس

وفي ذلك إشارة إلى أنهم رسموا فيه أشياء على غير قياس. اهـ.
والله تعالى أعلم.

وأما جهة المناسبة في علم النحو فإن العلماء لما تتبعوا كلام العرب وجدوهم يرفعون العمدة كلها وذلك لأن الرفع أعلى أنواع الإعراب رتبة وأرفعها درجة والحمد أعلى الأسماء رتبة وكذلك أما الفاعل أو النائب عنه أو المبتأ أو خبره فكانت مناسبة الرفع العمدة بنية وينصبون الفضلات التي يمكن الاستغناء عنها كالمفعول به وفيه وله ومعه والمفعول المطلق ونحوها وذلك لأن النصب في اللغة الشيء الذي ينصب ليرمي به الناس وهي أي الفضلات عملت فيها الأفعال كما عمل الراشق في الرشق الذي نصبه وخفضوا كلما انضاف إلى غيره ووجه المناسبة في ذلك أن الشيء لما انضاف إلى غيره بأن انتسب إليه بحيث لم يتعلق ولم يعرف بدونه كان ذلك أخفض في رتبة المضاف فكان هو أي المضاف معمولاً لما قبله وعمل هو فيما بعده الخفض مناسبة لعمله مع رتبته وكذلك أيضاً المجرور بالحرف فإنه لما كان معنى الحرف لا يظهر إلا فيما بعده كان عمله الخفض كالمضاف وحكموا بالتبعية في الإعراب للنعته والعطف والتوكيد والبدل وذلك لأن هذه الأشياء لما كانت راجعة في المعنى إلى المتبوعات صفات أو توكيد لها أو معطوفات عليها للاشتراك في الحكم أو المغايرة فيه أو مدلولات منها لكونها عيونها أو أبعاضها أو جواهرها المشتملة عليها أو مجانساتها بحيث يغلط فيها من أراد ذكرها كان المناسب لها اتباعها ووجودهم بانين كلما فيه شبه الحرف لأن الحرف كذلك ولم يكن هذا عن قاعدة ولا علم مدونة عند العرب وإلا لما استخرج هذا العلم بالمقاييس المستنبطة من استقراء أي تتبع كلامهم بل كان حاصلًا ومتحصلاً عن مجرد المناسبة العقلية لا غير، وهذه المناسبة هي معنى السلاقة المغروزة في نفوسهم، وهذا الشيخ حفظه الله ورعاه له من التمكين في هذا الفن ما لا أحسبه لأحد قبله وله فيه تأليفان حسنان، أما أحدهما فسماه التيسير نظمه في بحر المتقارب وطوى فيه هذا الفن طياً بليغاً وهو قريب من ثلاثمائة وأما الآخر ففي بحر الرجز وسماه فقه المنى وهو ينيف على خمسمائة بيت وهو أحسن ما يكون أبدع فيه إبداعاً باهراً وحلاه من جواهر لفظه حلياً فاخراً فله دره ما أبدع كلماته وأجمعها وما أحلى معانيه وأنصعها ووضع معينا مختصراً مقرباً للطالبيين على

ألفية ابن مالك فلعمري لنعم المعين هو ما أحسنه وأجمله وأعدله بين فيه الإفراط والتفريط.

وأما علم اللغة فهو العلم الذي لا تعرف به الموضوعات اللغوية أي يعرف به المعنى الذي وضع له هذا اللفظ واللغة قال ابن السبكي هي الألفاظ الدالة على المعاني، وتعرف بالنقل تواترا وآحادا وباستنباط العقل من النقل لا مجرد العقل. اهـ قال الشيخ ابن جماعة في الدرر اللوامع، أي يعرف وضع اللفظ للمعنى بالنقل الصرف ومثل استنباط العقل من النقل بقوله كما إذا نقل إلينا أن الجمع المعرف باللام يدخله الاستثناء.

ونقل أن الاستثناء إخراج بعض ما يتناوله اللفظ فإن العقل يدرك بذلك أن الجمع المحلى باللام العموم. اهـ ثم قال ابن السبكي: ومدلول اللفظ إما معنى جزئي أو كلي أو لفظ مفرد مستعمل كالكلمة فهي قول مفرد أو مهمل كأسماء حرف الهجاء أو مركب والوضع جعل اللفظ دليل على المعنى ولا تشترط مناسبة اللفظ للمعنى خلافا لعباد حيث أثبتها يعني أن عباد الصيمري أثبت وجود المناسبة بين اللفظ والمعنى المدلول عليه به فقليل في معنى ذلك الإثبات أنها أي المناسبة حاملة على الوضع أي هي السبب الحامل على ذلك الاسم دليلا على ذلك المسمى، وقيل: المناسبة كافية في دلالة اللفظ على المعنى.

وفي فيض الفتاح: قال القرافي: حكي عن بعضهم أنه يعرف المسميات من الأسماء فقليل له: ما مسمى ادغاغ؟ قال: لم يكن ادغاغ من لغة العرب بل لغة فارسية فتأمل وقال: أجد فيه يبسا شديدا وصلابة وأراه اسم الحجر وهو كذلك. اهـ.

وهذه المناسبة التي هي هكذا يطلع الله عليها بعض خواصه كما يدرك القائف الأشياء الصورية حتى يدرك بها النسب بين الأشخاص وفي ذلك يقول القائل:

وقلما أبصرت عيناى ذا لقب إلا ومعناه إن فكرت في لقبه
ثم اختلفوا أيضا هل الألفاظ الدالة على المعاني بحسب وجودها الذهني أو الخارجي أو هما معا. اهـ.

ثم اختلفوا أيضا هل اللغات توقيفية علمها الله تعالى بالوحي لبعض أنبيائه وهو آدم أم اصطلاحية اصطلح عليها البشر أم القدر المحتاج إليه بالتعريف توفيقى والغير

اصطلاحى خلاف، ثم اختلفوا هل فى اللغة لفظان مترادفان فى معنى أم لا وهل فيها معنيان مشتركان فى لفظ واحد أم لا، والمشهور فىهما الوقوع، ثم اختلفوا أيضا على القول بأن اللغات اصطلاحية هل يدخل لفظ فى معنى مسمى آخر لاشتراكه معه فى المعنى المشتق منه اللفظ فىثبت له ذلك الاسم بالقياس أم لا. اهـ.

وهذا الفن العظيم القدر الجليل المنصب هذا الشيخ هو الحائز قصب السبق فيه فلا يجارىه فيه المجارى ولا يباريه فيه المبارى وله فيه تأليف ينيف عن ألفى بيت جامع من أصوله ما فيه البغية والمنى لذوى فصوله فلقد أجاد فيه وأفاد وجاوز فى حسن سبكه حد المعتاد.

وأما المناسبة فيه فمن تدبر مسائله المدونة وجدها وخلافاتها مبنية على تخفيف معنى المناسبة، ولهذا الشيخ فيه مناسبات آخر فاتحه الله تعالى بها منها ما هو مبني على معاني حروف الهجائية وطبائعها وأفلاكها يدرك بها معاني الموضوعات اللغوية من حيث هي حتى لا يكاد الخبير بها يسمع لفظ كلمة من غريب اللغة إلا عرف من اللفظ المعنى المدلول عليه ولو نشر علم تلك المناسبات الحرفية لاستوى العام والخاص فى معرفة اللغات العربية.

ومنها أيضا ما لا أدري وجهه ولا من أين أتاه ولا أنى له هو قال ابن مالك: وإذا كانت العلوم منحا إلهية ومواهب اختصاصية فغير مستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين. اهـ.

ولقد كان علم العربية أحب العلوم إليه وأرضاه لديه. اهـ ومن جملة علومه المعرضية عنده علم البلاغة وأسرار المفردات العربية المعتبرة الزائدة على المعاني التركيبية التي باعتبارها تطابق الألفاظ لاعتبار المناسب وقد بوب لها فى فن المعاني وفن البيان، فن المعاني إنما يبحث فيه عن المعاني المدلول عليها بمفردات التراكيب المؤثرة فى معاني التراكيب معاني آخر مدلول عليها بطريق الالتزام ويقول فى تعريفه: هو العلم الذى أدرك به أحوال اللفظ العربية التى يحصل بمراعاتها مطابقة اللفظ لمقتضى الحال وأعني بالحال السبب الحامل على اعتبار تلك المعاني الزائدة على معنى أصل التركيب وأما فن البيان فهو العلم الذى يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة وضوحا وخفاء ويبحث به عن أركان التشبيه من مشبه ومشبه به وآلة تدل عليه ووجه

يشتركان فيه وعن حقائق الأركان وأقسام التشبيه وعن أقسام المجاز وعلاقاته وكيفية تقابله للحقيقة وعن الكناية وأقسامها وهذا العلم أعني علم البلاغة الشامل للفنيين وتابعه من علم براعة وهو المعبر عنه بالبديع وموضوعه تحسين الكلام البليغ بالأوجه المحسنة له معنوية كانت أو لفظية لا تكاد تجد فيهما مسألة إلا ومبناها المناسبة العقلية ولهذا الشيخ فيهما من السبق ما قصر عنه شأو السابقين ولا أرى أن يبلغه مدى جري اللاحقين، فلقد رأيت ليلة يحضنا على هذا الفن قال لنا انظروا ما ينبئكم عليه هذا الفن من أسرار المعاني وجعل يبدي لنا ما في قوله تعالى: ﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ فأبدي لنا فيها ما ينيف على أربعين معنى لازم للفظ زائد على معنى التركيب المدلول باللفظ مطابقة، وكان إذا تكلم في بلاغة القرآن وأسرار معانيه وأساليب تراكيبه وشدة بيانه وتبينه في فرط إيجازه وسلاسة ألفاظه أتى في ذلك بفريادات الجواهر وبيتمات الدرر النواضر وفي ذلك يقول الأمين بن ألفغ المصطفى الديمانى برد الله ضريحه في قصيدة يمدح بها الشيخ حفظه الله ورعاه، وأطال حياته فيما يرجوه من مولاه:

إذا خاض من بحر العلوم عبابه أتى بجمان رائق ولآلي
وله من التصانيف في هذا العلم معين وضعه على منظومة الأخضري المسماة
بالجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون فهو المعين المطابق معناه لاسمه.
وكان علم أصول الفقه من أجل العلم لديه وأحبها عليه، وهو العلم الموضوع لمعرفة الأحكام الشرعية وأدلتها وقيل: الأدلة فقط وأول من ألف فيه الإمام الشافعي رضي الله عنه وكان قبله سلاقة في نفوس العرب وبحث فيه عن القواعد العربية والقضايا العقلية اللاتي يتقوى بها على استخراج الأحكام من محالها عند النوازل، فالمراد بقولي القواعد العربية أقسام الكلام فإنه ينقسم إلى منطوق ومفهوم وينقسم المنطوق إلى خبر وطلب والطلب إلى أمر ونهي واستفهام وتمن وعرض وحلف فمقتضى الأمر لغة طلب الفعل من غير نظر إلى إيجاب أو نذب أو غير ذلك ومقتضاه شرعا الوجوب أو النذب وربما ورد في كلام الشارع لغيرهما، والقرائن تعين المراد ومقتضى النهي

لغة طلب الشرع وشرعا التحريم أو الكراهة وربما ورد لغيرهما أيضا، والقرائن تعين المراد أيضا.

وينقسم اللفظ أيضا إلى حقيقة ومجاز وإلى صريح وكناية، وإلى عام وخاص ومطلق ومقيد وإلى نص ومحتمل والمحتمل إلى ظاهر ومؤول، وينقسم إلى مجمل ومفصل وإلى مشكل ومبين وإلى ناسخ ومنسوخ وينقسم الخبر إلى متواتر وآحاد، فالمتواتر يوجب العلم والآحاد يوجب الظن إلى غير ذلك من تقسيمات الألفاظ ومحتملاتها.

وأما القواعد العقلية فقياس الشيء على الشيء في حكمه إذا ساواه في علة الحكم وكقولهم الأصل بقاء الأشياء على ما كانت عليه والأمور بمقاصدها والضرر يزال وارتكاب أخف الضررين أولى والمشقة تجلب التيسير واليقين لا يرفع بالشك والعرف حاكم فيما لم يخالف نصا ولا إجماعا قيل: ولا قياسا ونحو ذلك من القواعد وهذا العلم أحسن عنده من علم فروع الفقه وله في كليهما من الخبرة ما لا سبيل لغيره عليه وله أيضا في علم الإجماعات والمسائل الخلافات يقظة الفطن الخبير العالم النحرير السيد المقدم فلهو اليوم مجمع البحرين في كل العلوم القائم بأعباء ردها كما هي إن ابتلع البحر كل مرسوم فلهوم العالم الفقيه المجتهد، والولي القطب المربي والمرشد.

وأما علم المنطق وهو العلم الذي تبحث فيه التصورات ومبادئها والتصديقات وأسبابها وأول من ألفه واستخرجه للأمة قيل: المأمون بن هارون الرشيد، قال النابغة:

أول من ألف هذا القانون سليل هارون الرشيد المأمون
وقيل أول من استخرجه الفلاسفة وطلبوه شاهدا في مذاهبهم الضالة وآرائهم الفاسدة
وقيل: كان المنطق من علوم اليونان، فلما رأى الكتابيون أن لا يد لهم على أهل هذه
الملة كتبوه كتابة نفيسة في أوراق جديدة، وأرادوا أن يرسلوه إلى المأمون بن هارون
وهو الأمير إذ ذاك فقال بعضهم: لا تمدوا العرب بعلمكم الذي في أيديكم وليس لهم
به علم، فقال بعضهم بل أرسلوا بها إليهم، فما دخلت هذه العلوم على أهلة ملة إلا
أوقعت بينهم التخالف.

والبحث في هذا الفن عن التصور وهو حصول الصورة في الذهن والتصديق وهو الحكم على الشيء بأمر ما، فمبادئ التصورات أقسام الدلالة وتقسيم المفرد إلى كلي وجزئي وإلى ذاتي وعرضي وإلى داخل في نفس الماهية وخارج عنها وإلى تمامها

ومبادئ التصديقات أنواع القضايا، وعكوسها، وتناقضها ولوازمها، والمعرفات هي الحد التام والناقص والرسم التام والناقص، والتقسيم نحو الكلمة إما اسم أو فعل أو حرف، والمثال واللفظي منه تبديل اللفظ بمرادف له أشهر منه.

وأما أسباب التصديق فالقياس بأنواعه أعني المركب من مقدمتين وهو المعني عندهم بالقياس عند الإطلاق، والمركب من مقدمات، وقياس الاستقراء وهو الاستدلال على بعض أجزاء الماهية ببعضها، كقولهم: كل حيوان يحرك فكه الأسفل عند المضغ مستدلين على ما لم يشاهدوه من الحيوانات بحال ما شاهدوه والتمثيل وهو قياس معلوم على معلوم الاستواء في علة الحكم فهذا الفن لهذا الشيخ به من الخبرة ما لا يعلمه إلا علام الغيوب، ولقد رأيت يأمُر به ويحض عليه وربما رأيت ينهى ويزجر عنه وأراه في ذلك ناظرا أحوال الأشخاص ولعله والله أعلم يشهر قول الأخصري:

والقولة المشهورة الصحيحه جوازه لكامل القريحه
ممارس السنة والكتاب ليهتدي به على الصواب
والحاصل أن الأقدمين اختلفوا في هذا الفن فحرمه ابن الصلاح والنووي وغيرهما
وجزم الأكثرون بندبه حتى قال المغيلي: هذا الفن لا يعطيه الله بكماله إلا لأصفيائه.
وفي هدي الأبرار على طلعة الأنوار لسَيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي ما
نصه: ويؤيد كون المنطق فرض كفاية قول سيد الحسن اليوسي في نفائس الدرر،
ولو قيل بوجوبه كفاية ما بعد لكونه يتأدى به إلى القوة على رد الشبه وحل الشكوك
في علم الكلام الذي هو فرض كفاية وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب.
اهـ.

ويدل على ذلك أيضا تسميته بخديم العلوم الأخروية وقد صرح بوجوبه من غير
المالكية القطب الرازي والسيد الجرجاني واشتغل به الجماهير تدريسا وتأليفا وحثوا
كثيرا على تعلمه لكونه لا ينفك عنه علم من العلوم ولا يستغنى عنه، وبتحقيق الهمم
منه تكون العلوم طوع اليد، لأن كل مسألة من العلم إما تصور وإما تصديق، وذلك
نظرا لمنطقي وممن أثنى عليه الفخر الرازي والآمدي وابن الحاجب ومن لا يعد كثرة،
وتحريم من حرمة محمول على ما كان مخلوطا في ذلك العصر بالفلسفة وفروعها
من المنطق الإلهي والطبي والرياضي وإليه الإشارة بقول القائل:

وإنما هذا الخلاف آئل إلى الذي صنّفه الأوائل أما الذي حرره من انتقى فلا خلاف فيه قطعاً مطلقاً اهـ منه حرفاً بحرف، وقد شرح شيخنا حفظه الله ورعاه من هذا الفن تأليف الأخصري المسمى بالسلم شرحاً مختصراً يسميه معينا وهو أحسن وأبسط من المعين. اهـ .

وأما علم العروض فأول من وضعه الخليل بن أحمد إمام أهل اللغة وسبب ذلك أن سيبويه كان يقرأ النحو على الخليل فلما أتم إقراءه عليه أدرك سيبويه من علم النحو واستخرج بالمقاييس ما لم يكن الخليل يعلمه فمال الناس إليه وكملت به المدرسة وبقي الخليل بلا تلاميذ فسأل الله أن يعلمه علماً يعلمه للناس ليدوم له أجر التعليم فألهمه الله علم ميزان أشعار العرب فاستخرجه منه فأتاه الناس لتتعلمه عليه. وموضوعه ميزان الشعر ولهذا الشيخ به من الخبرة ما ليس لغيره، وقد ألف تأليفاً بليغاً أحسن ما يكون وسماه التوضيح، وهو يبلغ مائة وعشرين بيتاً وأفرد علم القوافي بتأليف أبدع فيه غاية الإبداع وصاغ فيه ما يشنف الأسماع ويثير الطباع، وله بعلم الطب والحساب الخبرة الكاملة والمعرفة التامة، ولا يكاد علم من علوم الشرع كالسيرة والقصص وغيرها يوجد له من يقندر على إحيائه إن اندرس غير هذا الشيخ فيما أعلم. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

وأما علوم أسرار الله تعالى وخواصها وخواص آي كتاب الله العزيز وأسرار الحروف والأدعية الماثورة عن النبي ﷺ وأحزاب القوم وأدعيتهم فكل هذه العلوم هو قطب رجاها بل شمس ضحاها، فلقد نظم الأسماء الحسنی داعياً بها على رواية الصحاح المشهورة نظماً بديعاً سماه: النور الساطع، ونظمها أيضاً داعياً على رواية ابن ماجه نظماً أحسن ما يكون سماه الستر المسبول ونظمها أيضاً على رواية ابن مردويه والحاكم وأبي نعيم وأبي الشيخ ونظمها أيضاً على رواية جعفر الصادق ونظمها مخلوطة ببعض الأسماء العجمية نظماً أحسن ما يكون وسماه حسن الطريد ما دعا به ذو كرب إلا كشف الله كربيه ولا ذو حاجة إلا قضى الله حاجته وربما دعا بالحروف مشيراً بها إلى ما في ضمنها من الأسماء فتكشف الغمة وتجاب الدعوة عندما يدعو فمن ذلك دعاؤه بقصيدته الحرفية التي سبب تأليفه إياها ودعائه بها أنه أرسل له الولي التقي الشيخ محمد الامين بن عبد الوهاب أن الجان طردوه عن بيته بكثرة من

جن من تلاميذه ومن دوابهم فرحل عنها وحفر بئرا آخر فكانوا فيها كما كانوا في التي قبلها أو أشد ولم يجد لهم مدفعا، فألفها شيخنا وأرسل بها عليه وأمره أن لا يرتحل عن بيته وأن يقرأها بالمسجد مساء وصباحا، فلما وصلتهم وقرئت في المسجد فبرئ من كان مجنونا وما جن بعد ذلك أحد منهم ولا أصاب الطاعون دابة من دوابهم ولا أحدا من أناسهم بعد وقد كان الطاعون ومرض الجان برح بهم قبل ذلك فعافاهم الله من حينهم، وأول هذه القصيدة المذكورة:

الحمد لله الذي فاء الخطوب فانفئات بالدعاء عن كل كرب
وواصل الأنام جم لطفه وعم حماه جميل خلقه
ومن ذلك أيضا ما أرسل له الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود في عام جذب شديد
أن الأمة مضطرة إلى الغيث وقد أهلك من أهل الأمصار كذا وكذا فدعا بقصيدته
الحرفية التي أولها:

يا ربنا يا أوجد الذي سئل أوسع من أعطى وأعلى من كمل
فما دعا بها مرتين أو ثلاثا إلا أنزل الله الغيث وأخصبت الأرض من حينها، وما من
اسم من أسماء الله تعالى ولا آية من كتاب الله العزيز إلا لو شاء لأوقر من خواصها
إبل الدنيا بأجمعها لكنه أزهده في هذا من تراه مشتغلا به طرفة عين وهو كذلك مع
سائر العلوم معقولها ومنقولها اكتفاء بالله تعالى عن معلوماته، واشتغالا به عن
مخلوقاته، فهو البالغ مبلغ الاجتهاد، إذ كلها له أصول وقواعد تعرف بها فروعها
ويرجع إليها في تحقيق مسائلها، وتلك القواعد هي اصولها وهو بتلك الأصول أعلم
عالم واسبر وأخبر خبير بها وأمهر، وله من العلوم التي فاتحه الله بها ما لا يكاد
يدخل تحت حصر فلكثيرا ما أسمع في بعض الأوقات يملئ الإملاءات من العلوم
ولا أدري من أي علم هذا ولا من أي معدن أخذ وله في علم أسرار المناسبة في
الحروف من العلم ما يقتدر به على تخريج كل علم من أشكال هذه الحروف الهجائية
وما من فن إلا ويقدر أن يستخرج منه فروع كل فن كائنا ما كان.

وقد تم الباب الثالث بحمد الله وحسن عونه وما توفيقني إلا بالله عليه توكلت وإليه
أنيب.

الباب الرابع في كرامات الشيخ حفظ الله ساحته في مدة حياته وأفاض علينا جزيل بركاته

اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه وسلك بي وبك طريق تقواه إن كرامات الأولياء يجب التصديق بها شرعا ولا ينكرها إلا كافر طبعاً لورودها في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فمن الآي الدالة على كراماتهم ما ورد في قصة مريم ابنة عمران رضي الله عنها حيث قال تعالى في شأنها: ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وكفى كرامة حملها بولد من أولي العزم من الرسل برأ بها من غير أب وكان حملها به ووضعها له في أسرع وقت بشهادة عطفه تعالى كل ذلك بالفاء الدالة على الترتيب مع الاتصال وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا غَلِيهَا رُوحَنَا﴾ إلى قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا فَوَدَّعْتُهُمْ مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهَزِي غَلِيكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا فَكَلِي وَاشْرَبِي وَقْرِي عِينًا﴾ فهذا الهز بجذع النخلة والرطب المتساقط منه والعين التي شربت منها كرامات أيضاً، ويكفي أيضاً شاهداً على الكرامة قوله تعالى في قصة سليمان وبلقيس حكاية عن الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ وأتاه به إذ ذاك فلما رآه سليمان مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي، ومن شواهد ما في السنة ما أخرجه البخاري وغيره في كتاب القصص من أنه كان ثلاثة نفر من بني إسرائيل يمشون فأتاهم السحاب فدخلوا في غار فسقطت صخرة عظيمة على فم الغار فسدته فلما عاينوا الهلاك قال بعضهم: هذا أمر عظيم ولا ينجيكم منه إلا الإخلاص فمن علم منكم أنه كان عمل عملاً مخلصاً فيه فليسأل الله به فقال بعضهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان ضعيفان وصبيبة وكنت أرى عليهما غنماً وكنت إذا رحلت حلبت لأبوي قبل الصبيبة فتباعد بي المرعى ذات يوم فرحمت وقد نام أبواي فحلبت لهما على عادتي فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما فببت قائماً على رؤوسهما

مخافة أن يستيقظ أحدهما ولا يرى لبنه والإناء في يدي والصبية يبكون حولي وأنا كذلك حتى أصبحت إن كنت تراني فعلت ذلك لوجهك ففرج عنا فانفرجت عنهم الصخرة حتى رأوا الضوء، وقال الثاني: اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة عم جميلة وكنت محبا لها غاية الحب وكنت كلما راودتها عن نفسها امتعت، فأصابتها مجاعة شديدة فأنتني تستطعمني فقلت لها لا إلا أن تقبلي ما كنت أطلبك به فأبت ورجعت ثم اشتد بها الجوع أيضا حتى أتت تستطعمني فقلت لها مثل مقالتي الأولى فتحيرت ثم رجعت ثم اشتد بها حتى عاينت الهلاك فأنتني تستطعمني فأتيته بمائة دينار وقلت لها إن قبلت أطعمتك وأعطيتك المائة فقبلت فلما دنوت منها ارتعدت فرائصها وقالت يا هذا خذ مالك ودعني حتى أموت، ولم أفعل هذا فإني ما فعلت قط فتركته وترك المال لها، وفي رواية فلما قدرت عليها تركتها وترك لها المال، اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك لوجهك ففرج عنا فانفرجت عنهم الصخرة أوسع مما كانت غير أنهم لم يستطيعوا الخروج فقال: الآخر اللهم إنه كان لي أجير استأجرته بصاع من أرز فلما تم عمله دفعت له حقه فتركه وسار عنه فجعلت أصرفه له حتى أخرجت له منه بقرا فبعد مدة أتاني وقال لي يا فلان ألا تتقي الله وتدفع لي حقي، فقلت له اذهب إلى ذلك البقر فاستقه فقال: أتسخر بي، فقلت: لا بل هو لك فذهب إليه واستاقه، اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت هذا لوجهك ففرج عنا فسقطت الصخرة عن فم الغار وخرجوا يمشون.

هذه كرامة ثبت عن النبي ρ وقوعها وثبت من الكرامات عن الصحابة في زمنه عليه السلام وبعده أقوى شاهد وأدل دليل على وقوعها، فمن ذلك ما ثبت أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه نزل به ركب في حياة النبي ρ من وفود اليمن مستضيئا له فصنع لهم جنفة من عيش فأتاهم بها ليلا فأكلوا منها حتى أنهلوا وهي على حالها ولم تنقص فلما أتى بها وردها إليهم فقال لهم: كلوا فإني ما أتيتكم بها إلا لتأكلوها، فقالوا له: والله ما منا من أحد إلا وقد شبع فقال لهم كيف شبعتم ولم تنقص، فقالوا: هو كذلك فحملها على عياله فأكلوا منها وهي بحالها، فتركها حتى أصبح فأتى النبي ρ فقال له يا رسول الله: لعن الشيطان تلاعب بي البارحة فقال رسول الله ρ وما ذاك فإن الله لم يجعل للشيطان عليك سبيلا، فقال له: إن وفدا من اليمن استضافوني

فصنعت لهم جفنة عيش ما أظنها تشبعهم فأكلوا منها حتى نهلوا وهي بحالها ثم رفعتها إلى عيالي فأكلوا منها حتى شبعوا وهي بحالها وكانت نفسي أحقر عندي من أن يكون ذلك من الله فأقبل عليه النبي ﷺ بوجهه وقد ظهر فيه السرور وكان عليه الصلاة والسلام إذا سر استتار وجهه فقال: هو من الله يا أبا بكر، أما علمت أن الله تعالى يظهر الآيات على أيدي الأولياء كما يظهرها على أيدي الأنبياء، وإن هذه كرامة أكرمك الله بها فأمره أن يأتي بالجفنة فبعث إليها رضي الله عنه وقد بعث عليه الصلاة والسلام إلى أهل الصفة فجعلوا يأكلون منها أرسالا يأكل العشرة وينصرفون حتى شبعوا عن آخرهم ثم أمر عليه الصلاة والسلام بحملها إلى حجرات فأكلت منها أزواجه حتى شبعن ثم أمر بها فردت إلى بيت أبي بكر وقال له إنها ستقوم بضيفك ما أقاموا فجعل أبو بكر رضي الله عنه يبعثها إليهم ليلا ونهارا فقالوا له: يا أبا بكر إنك لتتهنأنا من أحب الطعام إلينا وكنا أهل ريف ولا نقدر على هذا إلا المرة بعد المرة، فقال لهم: هذا من بركة أثر أصابع رسول الله ﷺ فيها فازدادوا إيمانا إلى إيمانهم فقالوا: نشهد أنه عبد الله ورسوله، أخرجه صاحب كتاب المنة على اعتقاد أهل السنة. اهـ.

فإذا كان عليه الصلاة والسلام يقول إن الله تعالى يظهر الآيات على أيدي الأولياء كما يظهرها على أيدي الأنبياء فقد صار ذلك دليلا قاطعا على وجوب كرامتهم في الجملة، وأصلا لقول الفقهاء: كل معجزة لنبي جاز أن تكون كرامة لولي، قلت: وكل كرامة أعطها الله تعالى لولي من أوليائه فهي كرامة له ومعجزة لنبيه فإنه خليفته الداعي إلى الله بدعوته النائب عنه في أمته.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ قيل الشفاعة الكبرى يوم القيامة وقيل الحوض وقيل بأن يجعل الله في أمته خلفاء الرسل علما وحكما وحالا، وقيل بأن لا تنقطع شريعته ولا تبيِّن معجزاته بل تتجدد بتجدد الأعصار والأدهار على أيدي الأولياء الأخيار بحكم الوراثة له. اهـ.

والآن أشعر في المقصود بعون ذي الكرم والجود وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، فأقول وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، أكرم الله تعالى هذا

الوليكمال الأثر النبوي، وبتتبع آثار النبي ﷺ فلقد قال عليه السلام في أمته لتتبعن سنننا لأمم قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع.

ومن كرامات الله لهذا الولي أن جعله متبعا لسنن نبيه وحببيه محمد ﷺ فمن ذلك ما صح وثبت في إرخاص نبوءته عليه الصلاة والسلام من إخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبشاراتهم به وإخبار الجن والكهنة والأخبار والرهبان ولم تنقطع هذه المعجزة النبوية بموت النبي عليه السلام بل أظهرها الله تعالى في كرامات هذا الولي، فلقد أخبر به قبل ميلاده من أولياء الله تعالى ما لا يكاد يدخل تحت حصر ولا يجمعه لسان بذكر ولا قلب بفكر فمن ذلك ما ثبت وصح أن أبا شيخنا الشيخ محمد الأمين بن الطالب أخيار سافر لأرض الساحل فوجد بها وليا مشهور الولاية فأمره أن يمكث معه سنة ووعدته على ذلك ببشارة عظيمة فمكث معه السنة فلما تمت أمره بالرحيل إلى أهله وأن يتزوج إذا أتاهم وقال سيخرج من صلبك قطب هذه الأمة ومجدد أمر دينها وأخبره باسمه ونعته. اهـ — ومن ذلك أيضا ما ثبت وصح أن أباه الشيخ محمد الأمين قبل تزويجه بأب هذا الولي رأى وهو فيما بين النائم واليقظان أن رأى شمسا والناس يرمونها كلهم ويخطئونها فلما رما هو أصابها فتسقط في حجره منها قطع حسان وخرز والوسطى من تلك القطع أنور من الشمس وأكمل ضوءا وأزهر والخرز حسان أيضا فأتى معبر الرؤيا فلما قصر عليه رؤياه ابتهج المعبر واستبشر وقال له: سيزوجك الله ولية من أوليائه وستلد منها ثلاثة بنين هم قطع الشمس وبنات هن الخرز وأوسط الأبناء الذي قبله أحدهما وبعده أحدهما سيكون أبلغ في عالم الغيب من الشمس في عالم الشهادة. اهـ.

ومن ذلك ما نقل إلي نقلا متواترا أن والد الشيخة خديجة ابنة الطالب أبي بكر كان يقول: قد صحبت من أولياء الله تعالى ثلاثة أولهم الطالب جد بن نخثير والثاني سيد عبد الله بن عبد الرزاق الكناني والثالث الشيخ سيد المختار بن أحمد بن أبي بكر وكلهم يبشرنني بابني هذا ويخبرني باسمه ونعته ويقول لي: هو قطب زمانه وفريد أقرانه وسيصب الله عليه من جزيل فضله وإحسانه موهبة لا كذا ولا كذا. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما صح عندي وثبت بالنقل الصحيح أن الشيخة خديجة لما قربت ولادتها به أتاها عمه الفاضل بن الطالب أخيار وقال لها إن عزمت أن تسمي علي

ولذلك أخبرتك متى تلديه فقالت له: نعم فقال لها: ستلديه طلوع الساعة السابعة من الليلة الفلانية وسيكون له نبأ عظيم وشأن خطير وأمر مستقيم، فلما ولدته عند الساعة التي عين لها سمته عليه وزادت باسم محمد قبل اسمه هو. اهـ.

ولو تتبععت إخبار الأولياء وبشاراتهم به قبل ميلاده لوسعت الوقت حتى ما أمكنني غيرها، ومن بشاراتهم به قبل ميلاده لوسعت الوقت حتى ما أمكنني غيرها.

ومن بشاراتهم به بعد ميلاده وإخبارهم بما سيعطيه الله تعالى إياه ما روي أن الطالب إبراهيم بن الطالب عبد الله لما أتاه والد الشيخ أعز الله ذكره وأطال في العافية عمره ليزوره وكان زوارا لأولياء الله سأله الطالب إبراهيم عن ولده فلان يعني شيخنا هل ولد أم لا فأخبره بأنه قد ولد ولكنه صغير جدا فلح عليه أن يأتيه به ليتشفع به إلى ربه واعتذر عن المسير إليه لما به من الضعف وأخبر بشأنه كله. اهـ ومن ذلك أيضا ما ثبت وصح عندي بطريق النقل عن الثقات أن الشيخ المختار بن أحمد بن عثمان نزل بمحلة آل الطالب المختار فلما أتاه الشيخ محمد الأمين ليزوره طلب منه أن يأتيه بابنه فلان يعني شيخنا أطال الله بقاءه وأكمل له كل المنى فلما أتاه به قام الشيخ وأخذه وجعله في حجره وعلمه اسما وقال له: إني علمتك هذا الاسم لتجعلني من أشياخك ثم جعل يخبر بما أعد الله له مما يدخر. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما أخبرني به غير واحد ممن يوثق به أن الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود نزل بحلة آل الطالب المختار وشيخنا إذ ذاك صبي صغير فكان يتحدث مع الجماعة حتى قال لهم بعد حصول الموجب: لا أعلم اليوم وليا لله تعالى أعطيه الاختيار علي في مراتب أهل الله تعالى في بلادكم هذه أو البلاد التي يبلغكم خبرها إلا الشيخ محمد فاضل بن مامين وتلميذه محمد بن المصطفى بن أحمد فقام خال شيخنا محمد تقي الله بن الطالب أبي بكر ليبشره بها فوجده هو ومحمد بن المصطفى بن أحمد مجتمعين إذ ذاك وهما صبيان فبشرهما بذلك قال محمد بن المصطفى: فعزمت من حينئذ إن سلمني الله وسلمه أن أكون تلميذه. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما أخبرتني به والدتي رحمها الله وأخبرني به أيضا ابن عمها سيد محمد بن الشيخ بن الحسن أن أباه وعمه الطالب بن الحسن سمع يوما شيخنا حفظه الله ورعاه وأطال في العافية حياته وأرضاه، وهو صغير يمدح الشيخ محمد الاغظف

ويثني عليه ببعض ما آتاه الله فقال له: يا بنيك إنك والله خير من الشيخ محمد الاغظف ومن غيره وإن الله تعالى قد أعطاك من فضله ما لم يعطه فجعل شيخنا يستبعد ذلك ويثني على الشيخ محمد الاغظف ويقول إنما أنا رجل من عامة المؤمنين وأولياء الله منزهون عن أن أكون منهم فالتفت إليه والدها الطالب بن الحسن وقال: أي بني هذا والله دليل على صدقي وما تكلمت أولاً إلا أن يقين ولأنت والله وارث خير البرية وشفيع أهل المحشر يوم القيامة، وما قلت الآن إلا كما قال عليه السلام: «لا تفضلوني على يونس بن متى» ولما أنزل عليه ρ أن إبراهيم خليل الرحمن قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، فقال له الله تعالى: أو لم تؤمن، قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال عليه السلام: نحن أولى بالشك من إبراهيم.

ولما أنزل عليه في قصة يوسف قوله تعالى فلما جاءه الرسول قال: ارجع إلى ربك الآية قال: يرحم الله أخي يوسف لو كنت أنا لبادرت بالخروج من السجن والمسير معه ولهذا تحقيق إرثك للنبي ρ . اهـ ومن ذلك أيضاً ما ثبت عندي وصح بالنقل عن الثقات أن باب أحمد بن الشيخ سيد المختار قال: رأيت رسول الله ρ حاملاً لمامين بن الطالب اخيار على عنقه والأولياء يسيرون تحته حفاة فقلت: وأين لمامين هذه الكرامة التي ما نالها غيره من عامة الأولياء فقبل لي له تنويها بقدر ابنه الشيخ محمد فاضل وتبييناً لوجاهة وجهه عند الله تعالى. اهـ ومن ذلك أيضاً ما صح وثبت عندي أن الشيخ محمد الامين الأدهم أتاه يوماً شيخنا وأخوه الشيخ سيد محمد وابن عمه محمد المختار بن عبيد وشيخنا هو أصغرهم سناً وكانوا حاملين له مزوداً فيه هدية له والمزود على حمارة راكب عليها محمد المختار والشيخ سيد محمد يقودها وشيخنا يسوقها فكان الشيخ محمد الامين الأدهم يقول: الحق عند السائق فلما دنوا منه قام إليهم مسرعاً وأخذ شيخنا وجعله على عنقه وأخبر بما أعد الله له من فضله ثم قال: ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾. اهـ وهذه البشارات من علامة تتبع الله تعالى به آثار النبي ρ شبرا بشبر وذراعاً بذراع، فقد ورد في الخبر من أخبار أهل العلم من أهل الكتاب به بعد مولده ومعرفتهم له بنعته ما لا يكاد يدخل تحت الحصر، ويكفي في ذلك قول الله جل وعلا: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ وفي الخبر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني أبي قال: خرجنا إلى

الشام في أشياخ من قريش وكان معي محمد ρ فأشرفنا على راهب في الطريق فنزلنا وحللنا رواحنا فخرج إلينا الراهب وكان قبل ذلك لا يخرج إلينا فجعل يتخللنا حتى جاء فأخذ بيد محمد ρ وقال: هذا سيد العالمين، فقال له أشياخ قريش وما علمك بما تقول؟ فقال: أجد صفته ونعته في الكتاب المنزل وإنكم حين أشرفتم لم يبق شجر ولا حجر إلا خر له ساجدا ولا تسجد الجمادات إلا لنبي وأعرفه بخاتم النبوة من أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ثم رجع فصنع لهم طعاما فأتى به وكان محمد في رعية الإبل فجاء وعليه غمامة تظله فلما دنا وجد القوم قد سبقوه إلى ظل الشجرة فجلس في الشمس فمال فيء الشجرة إليه وضحوا هم في الشمس فبينما هو يناشدهم الله أن لا يذهبوا به إلى الروم ويقول إن رأوه عرفوه بالصفة وأذوه فبينما هو يناشدهم الله في ذلك إذ التفت فإذا تسعة من الروم مقبلين نحو ديرهم فاستقبلهم وقال: ما جاء بكم قالوا: بلغنا من أحبارنا أن نبينا من العرب خارج نحو بلادنا في هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه أناس وبعثنا إلى طريقك هذه عين قال: وهل خلفكم أحدكم خير منكم، قالوا: إنما اخترنا لطريقك هذه خيرة فقال: رأيتم أمرا أراد الله تعالى هل يستطيع أحد من الناس أن يردّه قالوا: لا، قال: فبايعوا هذا الرجل فإنه نبي حقا فبايعوه وأقاموا مع الراهب ثم رجع إلينا وقال: أنشدكم الله أيكم وليه، فقالوا: هذا يعنوني فما زال يناشدني حتى رددته مع رجال كان فيهم بلال رضي الله عنه وزوده الراهب كعكا وزبيبا أخرجه الترمذي.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خرج أبو طالب وذكر نحو ما تقدم، أخرجه رزين، وعن علي بن الحسين رضي الله عنه عن أبيه باللفظ المتقدم، غضروف الكتف رأس لوحه وضحوا في الشمس أي برزوا لها والأحبار جمع حبر بفتح الحاء وكسرهما وهو العالم.

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى بن مريم يدفن معه، قال أبو داود المدني قد بقي في البيت موضع قبر أخرجه الترمذي. اهـ.

ومن كرامات هذا الشيخ الولي الدالة أن الله تعالى تتبع به إرث النبي ρ شبرا بشبر وذراعا بذراع إقرار أولياء عصره بفضلهم وشهادتهم له بسابق العناية، وتخصيص

السابقة الأزلية: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وقال الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهي حباله واقتد بها الجوزاء فهي عنان
فمن ذلك ما أرسل به الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود بخط يده وحفظته من كتبه
ونصه بعد الحمدلة والصلاة على النبي ﷺ: أما بعد فمن سيد محمد بن أحمد الأسود
إلى الأخ الكريم المودود ذي الدين القويم والسماحة والجود ثمال اليتامى والأيامى
والمساكين، بل هو أب وأخ لجميع المسلمين ذاك الشيخ محمد الفاضل الذي عم
فضله كل بليد وعافل ابن الشيخ محمد الامين صاحب التقي والولاية والتمكين من هو
للمسلمين كالويل الغادي وعلى غيرهم كالليث العادي موجبك إليك أن رسول الله ﷺ
يقربك السلام ويأمرك إذا أتاك اعل بن المختار أن تجعله من المخلصين، وإني
متعلق بأذيالكم من كل ما أختشي يا خير من على الأرض يمشي وإن الخلق اليوم قد
جعلك الله عليه سيدا فلا تلتفت إلى من هو دونك وبشر بالفتح والقبول والرضى فإنك
مرضي ومن بينة صادقة فهو كذلك ولا أقول ولا على الله إلا الحق، وأي شيء
أحوجني على الكذب والسلام عليك والرحمة والبركات. اهـ. من خط الشيخ سيد محمد
بن الأسود حرفا بحرف.

ومن ذلك أيضا ما أرسل له به مع أخينا الخليل بن بي رحمه الله من قوله إنك وكيل
أمة المصطفى وولي أمرها اليوم وليس فيها من أحد إلا وهو عيالك وضيئك.

ومن ذلك أيضا ما أرسل له به مع أخينا محمذن بن محمد الأعبيد رحمه الله من
قوله: قل لشيخك إن الله تعالى أعطاه مناه في مناه، وسيصل على يديه كثير من
أولاد المؤمنين إلى الله تعالى وقال: هكذا أخبرني رسول الله ﷺ ومعنى إرساله عليه
الصلاة والسلام لي بهذا لأعلمه للمؤمنين، وإلا فما أرسلني إليه برسالة إلا وهو
حاضر إذ ذاك. اهـ.

ومن ذلك أيضا كثيرا ما يرسل به الشيخ محمد الامين بن الطالب عبد الوهاب من
الاستغاثة به والتشفع إلى الله تعالى بجاهه، وكذلك أيضا الشيخ محمد الامين بن سيد
محمد القلمي كان يقول له: قد اخترت الله فاخترت الله وكانوا كثيرا ما يركبون إليه

للزيارة وقد ركبوا لزيارته عام قحط على الناس يقال له عام حبس فاجتمعوا عنده ليزوروه وليسمعهم نظمه على أسماء الله العربية والأعجمية المسمى بحسن الطريد فلما قرأه عليهم قالوا: والله ما هذا إلا من الله بلا واسطة، ومن ذلك أيضا ما صح عندي بالنقل الصحيح أن الشيخ سيد المختار بن أحمد بن أبي بكر لما فطم تلميذه الشيخ محمد الامين بن الوافي اليلبي قال له: قد أجزتك في كلما أعطيتك إلا هذه الحكمة فلا تخرج من فيك إلا لمن تراه يوصلها إلى الشريف الذي من علامته كذا وكذا والتمسه نحو بني عمك إدويج فإنه سيأتيهم ويتزوج منهم امرأة يقال لها منين بنت المعلوم، فلما أتى ابن الوافي لقبية ادويج أعطى الحكمة للشيخ سيد المصطفى بن عثمان وأخبره الخبر فكان الشيخ سيد المصطفى ينتظر من هذه علامته حتى أتاهم شيخنا فإذا هو كما وصفه الشيخ سيد المختار لتلميذه ثم تزوج منين بنت المعلوم ولما أتى للشيخ سيد المصطفى وتزوجها ما صلى إلا خلفه حتى قبض إلا في وقت ليس معه ومن ذلك أيضا ما صح عندي من الثقات أن الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار في بعض شرور حسان من أهل الحوض تكلم بعض جلاسه في شرور أهل الحوض فقال: لا أراهم يصطلحون حتى يأتوا إلى مشملة فم الخيمة فظن بعض الحاضرين أنه يعني بها أخاه باب أحمد أو ابنه عابدين فسألوا من مشملة فم الخيمة فقال ابن آل الطالب اخياره واسمه الشيخ محمد فاضل بن مامين بن الطالب اخيار: فوالله لا يصلحون ما دام تاركا لشأنهم ومتى توجه إلى الله في صلحهم اصطلحوا إذ ذاك وكان الأمر كذلك. اهـ.

ومن ذلك أيضا قول باب أحمد بن سيد المختار أنه رأى النبي ρ حاملا لمامين على عنقه تعظيما لشأن هذا الولي وكذلك أيضا قوله إنه الأكبر والكبريت الأحمر والشمس الأضوأ الأزهر والقمر السعدي الأنور. اهـ.

ومن ذلك أيضا إخبارات الشيخ محمد الاغظف به قبل موته، ولقد رأيت ابنه الشيخ سيد أحمد زروق ركب من أقصى بلادكوش حتى نزل بنا عند لقول قاصد للزيارة قلت: وبهذا تتبع الله تعالى فهذا الولي أثر النبي صلى الله عليه وسلم فلقد أوجب الله تعالى على الأنبياء قبله الإيمان به والتصديق بخصوصيته وتبليغ خيره وأنزل نعوته في كتبه ويكفي في ذلك قوله تعالى حكاية عن عيسى بن مريم ومبشرا برسول يأتي

من بعدي اسمه أحمد، ومن حديث عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرز الأميين، أنت بعدي ورسولي سميت المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى تتم به الملة العوجاء ويفتح به أعينا وأدانا صما وقلوبا غلغا. أخرجه البخاري.

الأميون العرب لأنهم كانوا لا يحسنون الكتابة والفظ القاسي القلب والغليظ الجانب والصخب بالصاد والسين المهملتين الصياح والغلف بضم الغين المعجمة وسكون اللام جمع أغلف وهو الذي عليه غلاف.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعت النجاشي صاحب الحبشة رحمه الله يقول: أشهد أن محمدا رسول الله ﷺ وأنه الذي بشر به عيسى عليه السلام ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمور الناس لأتيتته حتى أعمل نعليه أخرجه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: حدثني أبو سفيان بن حرد قال: انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ إلى الشام فبينما أنا بها إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل جاء به دحية الكلبي فدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه إلى عظيم الروم هرقل فقال هرقل هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم، فدعيت في نفر من قريش فأخذنا عليه فأجلسنا بين يديه فقال: أيكم أقرب نسبا منه؟ فقلت: أنا، فأجلسني بين يديه وأصحابي خلفي ثم دعى بترجمان فقال: قل لهؤلاء إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي فإن كذبتني فكذبوه قال أبو سفيان: وايم الله لولا أن يؤثر علي الكذب لكذبتته قال لترجمانه: سله كيف حسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو حسب فقال: في آبائه ملك؟ قلت: لا، قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون، قلت: لا بل يزيدون، قال: هل يرتد أحدهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ قلت: لا، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: كيف قتلكم إياه، قلت: يكون الحرب بيننا سجالا يصيب منا ونصيب منه، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في هذه المدة ما ندري ما هو صانع، قال: فوالله ما

أمكنني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه، قال: فهل قال هذا القول أحد قبله، قلت: لا، قال لترجمانه قل له: إني سألتك عن حسبه فيكم فزعمت أنه ذو حسب وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها، وسألتك هل كان في آباءه ملك فزعمت أن لا فقلت: لو كان في آباءه ملك قلت رجل يطلب ملك آباءه، وسألتك عن أتباعه ضعفاؤهم أم أشرفهم فقلت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن يدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى، وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه فزعمت أن لا فكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فقلت: لا بل يزيدون وكذلك أهل الإيمان إنهم يزيدون حتى يتم وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قاتلتموه وأن الحرب بينكم وبينه سجال ينال منكم وتنالون منه وكذلك الرسل تبلى فتكون لهم العاقبة، وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكذلك الرسل لا يغدرون، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله فزعمت أن لا فقلت لو كان قال هذا القول أحد قبله قلت رجل انتم بقول قيل قبله ثم قال: بم يأمركم، قلنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف، فقال: إن يك ما تقولون حقا فإنه نبي ولقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أعلم أنه منكم ولو كنت أعلم أنني أخلص لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغظ فأمر بنا فأخرجنا فقلت لأصحابي: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام. اهـ من حديث مسلم والبخاري، وأبو كبشة رجل من خزاعة حالف قريشا في عبادة الأوثان، وعبد الشعري النجم المعروف فلما خالفهم النبي ﷺ في عبادة الأصنام نسبوه إليه فانظر يرحمك الله إلى قول هرقل كنت أعلم أنه خارج تعلم أن الله تعالى أشعاع

خبره وأذاع أمره عند كل ذي علم. اه وفي الذهب الإبريز عند قوله تعالى: ﴿والله ولي المؤمنين﴾ في سورة آل عمران ما نصه: روي أنه لما هاجر جعفر وأصحابه إلى الحبشة واستقرت بهم الدار وهاجر p إلى المدينة وكان من أمر بدر ما كان اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: إن لنا في الذين عند النجاشي من أصحاب محمد p ثأر من قتلك منكم ببدر فاجمعوا مالا وأهدوه للنجاشي لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم ولينتدب لذلك رجلان من ذوي رأيكم فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد معهما الهدايا الأدم وغيرها فركبا البحر حتى أتيا الحبشة فلما دخلا على النجاشي سجدا له وسلموا عليه وقالوا: إن قومنا ناصحون شاكرون ولأصحابك محبون وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء الذين قدموا إليك لأنهم قوم رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول الله ولم يبايعه أحد منا إلا السفهاء وإننا كنا قد ضيقنا عليهم الأمر وأجأناهم إلى الشعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم أحد فقتلهم الجوع والعطش فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم، قالوا: وآية ذلك إنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التي تحييكم بها الناس رغبة عن دينك وسنتك، قال: فدعاهم النجاشي فلما حضروا صاح جعفر بالباب يستأذن عليك حذب الله فقال النجاشي: مروا هذا الصائح فليعد كلامه، ففعل جعفر فقال النجاشي: نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته فنظر عمرو إلى صاحبه، فقال: ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله وما أجابهم به الملك فسأهم ذلك ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له فقال عمرو بن العاص ألا ترى إنهم يستكبرون أن يسجدوا لك؟ فقال النجاشي: ما منعكم أن تسجدوا لي وتحيونني بالتحية التي يحييني بها من أتاني من الأفق، فقالوا: نسجد لله الذي خلقك وملكك وإنما كانت التحية لنا ونحن نعبد الأوثان فبعث الله فينا نبيا صادقا أمرنا بالتحية التي رضيها الله وهي السلام عليكم تحية أهل الجنة، فعرف النجاشي أن ذلك حق وأنه في التوراة والإنجيل فقال: أيكم الهاتف يستأذن عليك حذب الله قال جعفر أنا، قال: فتكلم، قال: إنك ملك من ملوك الأرض من أهل الكتاب ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم وأنا أحب أن أجيب عن أصحابي فمر هذين الرجلين أن يتكلم أحدهما ولينصت الآخر فتسمع محاورتنا فقال عمرو لجعفر تكلم فقال جعفر للنجاشي: سل هذين الرجلين: أعبيد

نحن أم أحرار، فإن كنا عبيدا أبقنا من أربابنا فردنا عليهم قال النجاشي: أعبيد هم فقال: بل أحرار كرام فقال النجاشي: نجوا من العبودية، فقال جعفر: هل هرقنا دما بغير حق فيقتص منا، فقال عمرو: لا ولا قطرة، فقال جعفر: سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها؟ قال النجاشي: إن كان قنطارا فعلي قضاؤه، فقال عمرو ولا قيراط قال النجاشي: فما تطلبون منهم؟ قال: كنا وهم على دين واحد وأمر واحد على دين فتركوا ذلك واتبعوا غيره فبعثنا قومنا لتدفعهم إلينا، فقال النجاشي وما هذا الدين الذي كنتم عليه والدين الذي اتبعتموه، فقال جعفر: أما الدين الذي كنا عليه فهو دين الشيطان نكفر بالله ونعبد الحجارة والدين الذي تحولنا إليه فهو دين الإسلام جاءنا به من عند الله رسول وكتاب مثل كتاب عيسى بن مريم موافقا له، قال النجاشي: يا جعفر تكلمت بأمر عظيم على رسولك ثم أمر النجاشي بضرب الناقدوس فضرب فاجتمع إليه كل قسيس أي عالم وراهب أي عابد فلما اجتمعوا عنده قال النجاشي: أنشدكم بالله الذي أنز الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين القيامة نبيا مرسلا، قالوا: اللهم نعم قد بشرنا به عيسى بن مريم وقال: من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد كفر بي، فقال النجاشي لجعفر: فماذا يقول لكم هذا الرجل وما يأمركم به وما ينهاكم عنه؟ قال: يقرأ علينا كتاب الله ويأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر ويأمرنا بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له فقال: اقرأ علي ما يقرأ عليكم فقرأ عليه سورة العنكبوت والروم ففاضت عينا النجاشي بالدموع وقالوا: زدنا من هذا الحديث الطيب فقرأ عليهم سورة الكهف، فأراد عمرو أن يغضب النجاشي عليهم فقال: إنهم يشتمون عيسى وأمه فقال النجاشي: وما يقولون في عيسى وأمه، فقرأ عليهم سورة مريم فلما أتى إلى ذكر عيسى ومريم رفع النجاشي من سواكه قدر ما يقذي العين وقال: والله ما زاد المسيح على ما يقول هذا، ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي يقول: آمنون من سبكم وأذاكم عزي ثم قال: أبشروا ولا تخافوا فلا دهورية اليوم على حزب إبراهيم، فقال عمرو: يا نجاشي: ومن حزب إبراهيم، فقال هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاءوا من عنده ومن تبعهم، ثم رد النجاشي على عمرو صاحبه المال الذي حملوه إليه، وقال: إنما هديتكم رشوة فاقبضوها فإن الله ملكني ولم يأخذ مني رشوة. اهـ. فانظر يرحمك

الله كيف إخبار الأنبياء بنبينا وحبينا محمد ﷺ وإعلامهم بفضله تعلم أن إخبار الأولياء بهذا الولي وإعلانهم ما اختصه الله تعالى به من كرامة دالة على تحقيق إرثه إياه. اهـ.

ومن كرامات هذا الولي الدالة على كمال إرثه وتحقيقه بحقائق الخلافة النبوية أن جعله الله تعالى أشبه الناس برسول الله ﷺ خلقا وخلقا، أما مشابته إياه في الخلق بفتح الخاء وسكون اللام أي الصورة فوالله لقد كان أشبه الناس صورة بالنبى ﷺ ما شاء الله لا قوة إلا بالله ومن تتبع كتب الشمائل في صفات النبي ﷺ ثم رآه يعلم أنه أشبه الناس به خلقا، فلو حضر زمنه العاد للنفر من صحبه المشبهين له لعدده فيهم وهم الحسن بن علي وجعفر بن أبي طالب وابنه عبد الله وثابت وأبو عمران وقثم وأظنه قثم بن العباس بن عبد المطلب وعبد الله بن نوفل ونظمهم بعضهم فقال:

قد قيل إن رسول الله يشبهه من صحبة نفر من خيرة الأمم
فجعفر وابنه يتلوهما حسن وثابت وأبو عمران مع قثم
ثم ابن نوفل عبد الله سابعم يا عرف مبتدا منهم ومختتم
وقد ذيلت هذه الأبيات فقلت:

وعد نجل الأمين الشيخ ثامنهم يا حبذا مكملا لعدة الكرم
وكثيرا ما كان أخي محمد ناجم بن سيد محمد رحمه الله يقول لي: يا فلان إن شيخك
أكمل الناس شبها برسول الله ﷺ خلقا وخلقا، وأما مشابته إياه في الخلق بضم الخاء
المعجمة واللام أي الطبيعة فلقد كان هذا الشيخ تجمع صفات هذا الرسول مما لم
يختصه الله تعالى به فلقد جمع كل فضيلة وحاز كل خصلة جميلة اتصف بها
موروثه عليه السلام فمن ذلك شرف نسبه ووفور عقله وصحة فهمه ما شاء الله لا
قوة إلا بالله، وكثرة علمه وكثرة عبادته لربه وشدة حبه له وخشيته إياه ما شاء الله لا
قوة إلا بالله ومن ذلك أيضا السخاء والصدق والشجاعة والصبر والشكر والمروءة
والاقتصاد والزهد والتواضع والشفاعة والعدل والعفو وكظم الغيظ وصلة الرحم وحسن
المعاشرة وحسن التدبير وفصاحة اللسان ما شاء الله لا قوة إلا بالله وقد قال عليه
السلام: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، وما من خلق كريم إلا ورثه منه هذا الشيخ جبلة

من أصل خلقته وأول فطرته، لم يحصل له ذلك باكتساب ولا رياضة بل بجود إلهي وخصوصية ربانية ومن خلق الشيخ حفظ الله جانبه الكريم وأطال حياته معافى في كمال النعيم المخصص به منة من إلهه ووراثته من نبيه كرم الصنيفة ولين الجانب وبذل المعروف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وعبادة المريض المسلم وتشجيع جنائز المسلمين وحسن الجوار لمن جاوره، وتوقير ذي الشيبة المسلم والإصلاح والجود والكرم والسماحة ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وحسن الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم ولين الكلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه بالقرآن وحب الآخرة وخفض الجناح هين لين تطلق الوجه ما شاء الله لا قوة إلا بالله بسنام من غير ضحك محزون من غير عبس متواضع في غير ذلة جواد من غير سرف يصافح الغني والفقير ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عتاب ولا مداح ويقوم مع الحر والعبد في حاجتهم يذبح أضحيتة بيده لا يضرب شيئاً بيده يعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئاً ولا يذم طعاماً ولا يمدحه أكثر الناس لله ذكراً وأقلهم لغوا وأكثر جلوسه مستقبل القبلة، وكان أبعد الناس غضباً، وأيسرهم رضى، وأرأف الناس بالناس وأنفعهم للناس وأحلم الناس وأكثرهم حياء وعن العورات إغضاء وكان أشد حياء من العذراء في خدرها ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لا يثبت بصره في وجه أحد، ويقبل عذر المعتذر ويكثر المشورة ويرحب بالمؤمنين ويخالطهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ويكرم كريم كل قوم وينزل الناس منازلهم ويحذرهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه ويتألفهم ويتفقدهم ولا ينفهم ويتخولهم بالموعظة مخافة السامة عليهم ويسر صاحبه إذا رآه مغموماً بالمداعبة ولا يكره اللعب المباح ويصبر جفوة الغريب ويحصن أولاده ويحملهم معه على الدابة ويصنع الإناء للهرة والديكة ليشرب منه ويضع الماء الكثير للعصافير لتشرب منه أيضاً، ويعجبه الفأل الصالح والكلمة الحسنة ويقول إن ذلك يعجب النبي ρ ويعجبه أن يسمع يا رشيد أو يا مبارك عند الشروع في الأمور، ولا يتطير من شيء ويحب الطيب ويقول إن الطيب من أخلاق الأنبياء وإن الملائكة تحب الطيب ويكره الرائحة الكريهة وكان كثير العرق ما شاء الله لا قوة إلا بالله مثل النبي ρ وكان لا يحب أن يبلغه أحد نميمة عن أحد ويقول: سبك من بلغك السب، وكان وصولاً

لرحمه ويعرض عن تكلم بغير جميل ولا يواجه أحدا بما يكره ويعطي كل جلسائه نصيبه من وجهه وسمعه وحديثه، لا يحسب جلسيه أن أحدا أكرم عليه منه، وكان يكتفي عما اضطره الكلام إليه مما تتبغى التكنية عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ولا يجزي بالسيئة السيئة وكان أحلم الناس وأقلهم طعاما وشرابا وأزهدهم فيهما وكان أحب الطعام إليه ما يحبه النبي ρ وكان أحب الشاة إليه ذراعها وكتفها وما زاد على ذراع شاة قط، وإن أخذ من الكتف لا يجاوز ثلثه، وكلما صح عنده أن النبي ρ يحبه كان أحب إليه وكان لا يشرب لبنا إلا ممزوجا بالماء لا يأكل متكئا بل إنما يأكل على إحدى الجلسات المروي عن النبي ρ أنه كان يجلس للطعام عليها، فقد ثبت أنه عليه السلام كان يأكل كالمستوفز للقيام واضعا الإناء على جهة اليسار ورأيت في كتاب كشف الغمة عن جميع الأمة أنه عليه السلام كان يجلس للطعام جلسته للتشهد بأن يضع ركبته اليسرى على الأرض هي وفخذه ويجعل عليها اليمنى ويفرق الركبتين والقدمين ورأيت أيضا في كتاب المدخل لابن الحاج أن هيئة الجلوس للطعام أن يضع الفخذ اليسرى من غير أن يعتمد ويقوم اليمنى وكان لا يأكل وحده أخذا بعمله عليه الصلاة والسلام، وكان لا يجلد عبده ولا يمنع رفده وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة ويتكلم بجوامع الكلم مجلسه مجلس حياء وحلم ما شاء الله لا قوة إلا بالله وصبر لا ترفع فيه الأصوات إلا بذكر الله وإذا تكلم أطرق جلساؤه فإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ لا يقدر أحد أن يمر من وجهه مهابة ألبسه الله تعالى إياها ما شاء الله لا قوة إلا بالله يعذر الغريب في جفوته في كلامه ومروره ومسألته وكثيرا ما يقول الحديث الوارد عنه ρ : إن من شر الناس من تركه الناس اتقاء شره، وفي رواية اتقاء فحشه.

وما سئل شيئا قط فقال: لا، ولكن يقبل بوجهه وحديثه على أشرف القوم يتألفه بذلك أخذا بعمل النبي ρ ولا يذم ولا يعيبه ولا يطلب عورة أحد ولا يتكلم إلا فيها يرجى ثوابه وكان أوسع الناس صدرا وأصدقهم لهجة وألينهم عريكة وقد وسع الناس بسطة وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء، وإذا قام مع أحد في حاجة صابره حتى يكون ذو الحاجة هو المنصرف عنه وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الأخذ وما التقم أحد أذنه فيحني رأسه حتى يكون الرجل هو الذي يحني رأسه وكان لا

يغضب إلا الله وإذا غضب لا يقوم لغضبه شيء وما انتقم لنفسه قط أخذا بعمل النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا خير بين أمرين اختار أيسرهما ما لم يكن إثما أو قطيعة رحم، وكان يأمر أن تبلغ له حاجة من لا يقدر أن يبلغها، ويقول: كان عليه السلام يأمر بذلك فيقول: إذا أتاني ذو حاجة فاشفعوا له توجروا وكان يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهنه، أخذا بالخلق النبوي ويكرم من يأتيه ولا يقطع على أحد حديثه إلا أن يقطعه صاحبه بانتهاء أو قيام وكان يطلب البركة والدعاء من الصالحين أخذا بالعمل النبوي فقد صح عنه عليه السلام أنه قال لعمر: لا تنسنا يا أخي من دعائك، فقال عمر: كلمة ما يسرنني أن لي بها الدنيا وقال لهلال غلام المغيرة: ادع لنا، واستغفر لنا، وكان يخاطب الصالحين من جلسائه بما يعجبهم ويدعو الجليس بأحب أسمائه إليه أخذا بالسنن النبوي، فقد ثبت أن النبي ﷺ قبل عثمان بن مظعون وهو ميت وهو بيكي، وأعتق زيد بن حارثة وقبله، والتزم جعفر بن أبي طالب وقبل ما بين عينيه، وقال للزبير: فذاك أبي وأمي، وكذا قال لسعد. اهـ.

وكان لا يضيق على أحد من المسلمين فيما تحتل السنة التوسعة فيه، ويحكي قوله عليه الصلاة والسلام دين الله يسر، وقوله: يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا، وكان يأخذ بالأخلاق النبوية في كل شيء فكان لا يلبس العمامة إلا قائما ولا يلبس السراويل إلا جالسا، لما قيل في ذلك من النهي وكان يلبس القلنسوة تحت العمامة، وكان يظاهر بين العمامة السوداء والبيضاء أخذا منه بالسنن المحمدي، وكان يتلثم بطرف العمامة السوداء أخذا بعمل السلف الصالح، ففي السنهوري عند قول خليل: وتلثم أي لصلاة ليخرج من عادته ذلك كالمرابطين ومن عمله لشغل واستمر عليه لكان أولى ولعله حذفه لدلالة ما قبله ابن عرفة استحباب ابن رشد تلثم المرابطين لأنه زيهم به عرفوا وهم حماة الدين، ويستحب تركه في الصلاة، ومن صلى به منهم فلا حرج. اهـ. قال بعضهم لأن النبي ﷺ إنما نهى العرب عن التشبه بالعجم ولم يأت أنه نهى وفدا قدم عليه من وفود العجم عن زيهم وندبهم إلى زي العرب، وذكر عز الدين بن عبد السلام القائل فيه ابن عرفة إنه لا ينعقد للمسلمين إجماع بدونه أن زي الفقهاء إذا صار لهم شعارا ينبغي أن يلتزموه قال: وليس كلما فعلته الجاهلية منهيها عن ملابسته بل إذا نهت الشريعة عنه، أما ما فعلوه على وفق شرعنا من إيجاب أو

ندب فلا يترك لأجل تعاطيهم إياه فإنه لا ينهى عن التشبه بمن يفعل ما أذن الله فيه. اهـ. قال بعض ومن هذا المعنى صلة الناس أرحامهم في المباحات في النيروز والمهرجان، وقد حفر p الخندق ولم تكن العرب تعرفه، ومدح قسي العجم وقال: هي أقوى منكم رميا، وقال مالك لا بأس بلباس البرانس وليست من لباس السلف أبو عمر الأصل في الأشياء الإباحة حتى يثبت النهي. اهـ من السنهوري حرفا بحرف في المحل المذكور.

قلت: قد صرح هذا بأن اللثام كان زيا للعجم واستعمله أفاضل هذه الأمة حتى صار زيا لهم، ولا ينبغي لهم تركه لخبر: ما استحسنته الناس فهو حسن، أورده صاحب نشر البنود في مبحث الاستحسان، قال: وأمر بالمعروف، قال مالك: هو العوائد الجارية ما لم تخالف النص، قال:

والعادة التي جرت محكمه ما لم تكن في الشرع تدعى مظلمه
قلت: وبهذا أعني كلام ابن عرفة وابن عبد السلام تبين أن الأولى بالفقهاء والمرابطين وكل حماة الدين أن يتلثموا لبسوا العمائم أو لم يلبسوها، وأما العمائم نفسها فقد أمر بها النبي p بلبسها على القلانس ففي الخبر عن محمد بن ركانة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله p فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس، أخرجه أبو داود والترمذي وعن أبي المليح رضي الله عنه قال: قال رسول الله p اعتموا تزدادوا حلما، قال: قال علي رضي الله عنه: العمائم تيجان العرب أخرجه أبو داود، وعن ابن عمر رضي الله عنهما كان رسول الله p إذا اعتم يسدل عمامته بين كتفيه، أخرجه الترمذي وعن ابن عوف رضي الله عنه عممي رسول الله p بعمامة فسدلها بين يدي ومن خلفي أصابع، أخرجه أبو داود عن عمرو بن حريث رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله p وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين منكبيه أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي، وعن أبي كبشة الأنصاري رضي الله عنه قال: كانت عمامة رسول الله p فطحة يعني لائطة أخرجه الترمذي. اهـ. واعلم أن هذا الشيخ جبله الله تعالى على خلائق هذا الرسول جيلة لا يراها إلا من أنار الله تعالى بصيرته وجعل فيه قابلية الاستدلال بالمشهودات على المغيبات إلا عرف تحقيقا أنه الوارث له إذ يعسر التخلق بكل هذه الخلائق على غير من هو في الإرث المحمدي وأحرى إذا

انضم إلى ذلك تواتر كمل أولياء الله العارفين وأما من حجبته الله عنه بظلمة الخذلان والحسد أو جعله ممن لا حظ له في الاستدلال على المغيبات بالدلالات الظاهرات أو ممن لا تشوف له إلى ما اختص الله به أوليائه فلا انتفاع لهم بأمر لا بل كلما ازداد الحق وضوحا ازداد الأول عمى، وكان الآخرون عنه غافلين، ألا ترى أن ضوء الشمس يفسد بصر الأعشى ولا يؤثر في الأعمى، قال الله تعالى في أمثال الأول: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية﴾ وقال في أمثال الآخرين: ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ وقال في أمثال الجميع: ﴿من يضل الله فلا هادي له ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ ومن كرامات هذا الولي الدالة على تحقيق وراثته لهذا النبي عليه السلام ما فطره الله عليه من حين نشأته من رفع الحجاب البشري والتحقيق بحقائق الخصوصية الاصطفائية والعناية الإلهية من غير كد ولا كدح ولا عنت ولا مشقة حتى أكمل له كل ما يرجوه منه من غير تشوف إلى شيء ولا طلب لشيء قبل أوانه جذبة منه تعالى له إلى حضرة قدسه وحيطة وده وقربه وأنسه وذلك أن هذا الشيخ أعز الله ذكره في العالمين ومتع بطول حياته الأولاد والمريدين ولد بين أبويه وكانا وليين لله تعالى غنيين معافين في بدنهما آمنين في سربهما لم تكن بهما آفة ولا عاهة تشغلها عن حسن تربيته فلما بلغ خمس سنين أدلوا به إلى المكتب فحفظ كتاب الله في أقل مدة وأنذر عدة فكان محمد المختار بن لحبوس بن أبابك يقول أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإن أخذ أجره التعليم من ابن مامين هذا حرام جدا بل هي عين السحت الذي لم يستحله آكله بشيء إنه ليكتب بيده حزبا من كتاب الله أول النهار يتمه قدر ما يكتب المعلم ثمنا لبعض الصبيان ويكتب آخر النهار حزبا بيده سريعا ويحفظ حزبه بمجرد إمرار عينه عليه ولا يحتاج بعد ذلك إلى من يقول له فيه كلمة، وإذا أخذ المعلم لوحه لم يجد فيه حرفا ولا نقطا ولا شكلا يحتاج بعده إلى قلم وحفظ في تلك المدة الكتب الصغار وقصص الأنبياء وسيرهم وآثار الصالحين من الأولياء وخبرهم فلما بلغ سبع سنين تتلمذ على أبيه وبايعه على أن يوصله إلى الله تعالى ويبلغ على يديه مبلغ الأولياء الكمل فعلمه أبوه إذ ذاك الاسم الأعظم والاسرار والحكم وكانت تحت يده يتصرف عن أمره فيما يأمره به أو ما يراه يحبه ويهواه وهو في ذلك مع الله بقلبه مشاهدا له في

جميع أحواله فكان إذا خرج مع الصبيان يلعبون واشتغلوا باللعب اشتغل هو بذكر الله عز وجل فكانوا يقبونه بصاحب لا إله إلا الله وكانوا يهابونه أكمل المهابة ويحترمونه غاية الاحترام لأنه كان أشجعهم قلبا وأكملهم قوة فتبارك الله أحسن الخالقين، لا يقدر أحد منهم على مصارعتة وكان أنكاهم جنانا وأفصحهم لسانا وأتمهم وأصدقهم لهجة وأحسنهم بهجة فكانوا يرون له الفضل عليهم وكان إذا خرج معهم يطلبون الفواكه من كندر ونبق وغير ذلك وتفرقوا في الشجر قال هو: إن الله تعالى يقول حاكيا عن أصحاب الكهف: فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا، وأنا آوي إلى شجرة أعبد ربي تحتها حتى يأتيني الصبيان أو يذهبوا إلى أهلهم فيختار شجرة ظليلة فيجلس تحتها يذكر الله فإذا رجع الصبيان إليه وجدوا عنده من أنواع الفواكه ما ليس عندهم فيقولون له أنى لك هذه الفواكه وأنت لم تنزل من تحت هذه الشجرة ولم نجد لك أثرا خارجا عنها فيقول لهم: هو من عند الله، فكانوا يتعجبون من ذلك ويخبرون أهلهم بذلك وكان الرجاء والنساء وغيرهم يعرفون له سابقة التخصيص بما يشاهدون فيه من آيات التمحيص القائمة مقام التخصيص، فسأله يوما أحد كبار الرجال فيما بينهما فقال: إن أصحابك يخبروننا عنك بكذا وكذا ويقولون: إنهم إنما يجدونك غالبا تحت شجرة ظليلة، فما السر في ذلك فقال: أما ما أخبرك به صحتي عني فالله يعفو عني وعنهم وأما الظل فإنني أراه أفضل من الشمس لأن الله تعالى يقول: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور﴾ وقال في قصة موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال ربي إنني لما أنزلت إلي من خير فقير، ففهمت من هذه الآيات تفضيل الظل على الشمس وتفضيل الدعاء على تركه، والتعريض بالدعاء فقال له الرجل: بخ بخ ما كنت أحسب من سنه سنك يعرف هذا إن صرح له به وأحرى أن يفهمه من لفظ غير موضوع له، والآن لا أسألك عن مقالة الصبيان ولا غيرهم فأنا الآن أعلم بك من غيري قلت: ونعم الفهم فهمه، فقد روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: إياكم والجلوس في الشمس فإنه يبلي الثوب ويغير اللون وينتن الرائحة ويثير الداء الدفين. اهـ ومن أجل إطلاع الناس عليه في صغره كان عمه اعبيد بن الطالب اخيار يقول لابنه محمد المختار: يا بني إياك وابن عمك هذا فإن له من الخصوصية

ما لا يسع الناس إلا التسليم له والانتقاد وإلا فالهرب وطلب السلامة. اهـ قلت: وهذا نظير ما في الخبر عن النبي ρ أنه كان في صغره مغمورا بمشاهدة ربه هائما في محبته يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ أي هائما في محبته فهداك إلى معرفته، وقد كان العرب يعبرون عن شدة المحبة بالضلال يدل على ذلك قوله تعالى حكاية عن أولاد يعقوب: تالله إنك لفي ضلالك القديم أي هيمنك من فرط محبة يوسف، ولو كانوا قاصدين للضلال الذي هو ضد الهدى لكفروا، لأنه رسول الله وسب الأنبياء كفر، وأحرى نفيهم عن الهدى ونسبتهم إلى الضلال. اهـ وفي الخبر أن سفية بنت عبد المطلب قالت لرسول الله ρ وهو صبي يا ابن أخي ما لي أراك شاحبا مهزولا مصفر اللون ضامر البطن وليس بالناس مجاعة ولا شدة، فأخبرني بحالك، فإن كنت بك شدة أزلتها، وإن كان مرض داويتك منه وإن كان غير ذلك احتلت في إزالتة، فقال: يا عمتي ما بي من شدة ولا مرض ولا غير ذلك غير أن قلبي يمتلئ من محبة ربي، ولم أجد الطريق التي أتقرب إليه بها، فقالت: يا ابن أخي: ومن ربك الذي بلغت بك محبته هكذا، فقال: ربي هو الله خالقي وفاطري وهو فاطر السماوات والأرض ومن فيهما ومن عليهما وجميع ما بينهما. اهـ فإذا تأملت هذا علمت أن الله تعالى تتبع بهذا الولي آثار موروثه عليه الصلاة والسلام. اهـ.

قلت: وكان هذا الولي مع ما أعطاه الله وما استأثره به عن جميع عصره وما خصه به من الزلفى والمكانة الحظية عنده ساكنا مطمئنا ثابتا في ربة بيعة أبيه وشيخه الشيخ محمد الأمين وتلمذه عليه والناس في تلك المدة يحمونه ولا يذمه منهم دام ويعرفونه لا ينكره من له به رؤية أنوار عناية الله به تتلأأ على وجهه ومحاسن أخلاقه التي جبل عليها تدعو إلى طلعه الناس حتى نصبوا إليها وكانوا يتحدثون أن سيكون له نبأ عظيم وشأن خطير لا يشك في ذلك منهم عاقل ولا بليد ولا جاهل فكانت عمته حي بنت اطالب اخيار تقول له: هذا باني أساسنا ولام شعنتنا ومعدن ميرتنا ولباسنا وسفينة مركبنا إلى نجاتنا من بأس دنيانا وآخرتنا وكانت ابنة عمه فاطم بنت أحمد بن الطالب اخيار تقول له وهو صبي: لا أخلى الله مكانك علينا يا سلم الخيرات الواصلة إلينا، حتى نأكل بك أزهار روض لم يأكله من كان قبلنا، ولا من يأتي بعدنا، وكانت قدراته يوما يسير مع صبيان من بني عمه وحلفائهم منهم من في

سنه ومنهم الكبار جدا فدعته من بينهم فأتاها فقالت له: يا وليتاي: أنت تذهب مع هؤلاء فوالله ما كنت أظن لك تريا إلا جدنا اطالب اخيار لا غير، ولقد روعتني رؤيتي إياك تماشي أترابك من الصبيان أو من هو أكبر منك، فقال لها: لا يروعك ذلك، وكان أعمامه يقولون فيه الأقاويل الحسنة وكان جميع الناس يذكرونه بالخير ويتوسمون فيه، حتى ما اختلف اثنان أنه في عصره غطريف دهره فلقد أتى في تلك المدة ليلة لتلاميذ الطالب الفاضل بن اخيار بن أحمد فوجد فيهم الفتيان الشامخين بني بيوتات العز والكرم منهم أحمد باب بن المصطفى بن اجيه والفاضل بن سيد عثمان بن الحاج اخيار وغير وغير من أبناء الأكارم فوجدهم مع نسوة فلما رأوه وهو صغير هابوه واحتشموا وعظموه وتفرقوا مع النسوة وتفرق النسوة أيضا، وكان لا يتجاسر أحد أن يعمل بحضرته ما لا يعمل بحضرة أكابر المشائخ وهو في غاية صغر السن.

قلت: وهذا نظير ما روي صحيحا أن قريشا كانوا قبل البعثة يلقبون النبي ρ بالأمين ويثنون على أخلاقه الكريمة الشريفة ويرون له من الفضل ما لا يروونه لغيره من أحداثهم، وكانت الرياسة عندهم تنتهي إليه لا يتجاوزونه في أمر ما ففي كتاب مستعذب الأخبار في سيرة النبي المختار أن قريشا لما بنوا الكعبة وأرادوا أن يضعوا الحجر الأسود مكانه تشاح كبارؤهم أيهم يرفعه حتى يضعه في محله حتى كادوا يقتتلون فاجتمع رأيهم أن يحكموا أول من يدخل عليهم فلم يلبثوا أن دخل رسول الله ρ فقالوا كلا: رضينا رضينا الأمين الأمين، فأخبروه الخبر وقالوا له: احكم فينا ما تشاء، فانت مطاع الحكم، فحكم ρ أن يبسطوا ثوبا ويضعوا الحجر فيه ويأخذ كل بطرف الثوب ويرفعوه حتى إذا وصلوا موضع الحجر أخذه هو عليه الصلاة والسلام بيده الشريف الكريمة على الله فيضعه في محله فرضوا بحكمه وفعلوا ممتثلين أمره. اهـ.

وفي كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء أن أبا سفيان بن حرب كان في الجاهلية يسافر إلى اليمن وكانت قريش تستودعه الودائع على جعل فاستودعه النبي ρ فلما جاء أتاه الناس يطلبون ودائعهم ولم يأته النبي ρ ليأخذ وديعته فلما انصرف عنه الناس وخلي بزوجته قال لها: هل حدث فيكم حدث بعدي، قالت: نعم حدث فينا أكبر حدث وأعظمه قال: وما ذلك قالت: إن يتيم أبي طالب يدعي الرسالة وتابعه على ذلك ابن

أبي قحافة، فقال لها: ويلك: والله لا يتفقان على باطل، ولا يدعي محمد باطلا، فوالله لقد كان محمد أكمل قریش مروءة وأتعم عفافا وأحسنهم خلقا وأبعدهم عن الكذب وعن منازل الذم، فوالله لسيظهر أمره هذا حتى يكون كالشمس فقالت: وبم ذلك قال: لأن محمدا ادعاه وتابعه عليه ابن أبي قحافة فوالله ما من قریش أحد إلا وأتاني الليلة يطلب أمانته إلا محمدا وحده، وبات أبو سفيان ينتظر الصباح فلما أصبح غدا على النبي ﷺ بأمانته فقال له: يا ابن عمي هذه أمانتك لم آخذ منها شيئا تكريما لك وإيثارا على قریش فقال له النبي ﷺ: يا أبا سفيان خذ من أمانتي ما أخذت من أمانات قریش، فامتتع أبو سفيان فقال له النبي ﷺ: والله لا آخذها حتى تأخذ منها ما أخذته من أمانات قومي، فلم يأخذها عليه السلام حتى آخذ منها أبو سفيان ما يأخذ من أمانات الناس. اهـ.

فإذا تأملت قول قریش رضينا رضينا الأمين، وقول أبي سفيان: لا يتفقان على باطل ولا يدعي محمد باطلا مع ما تقدم علمت أن الله تعالى تتبع بهذا الشيخ آثار هذا الرسول ﷺ شبرا بشبر وذراعا بذراع، وتحققت بذلك صحة إرثه إياه وتحقيقه بأعباء خلافته إياه، إن كان لك نور بصيرة وذهب عن قلبك حجاب الحرمان وظلمة الخذلان، وإلا فلا ينفعك وصف واصف ولا يغني عنك تعريف عارف، قال تعالى مخاطبا نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ وقال الشاعر:

علي نحت المعاني من معادنها ما علي إذا لم تفهم البقر
وكان الشيخ حفظه الله تعالى في كمال العافية وأطال عمره في جزيل نعمه وأسبغ عليه خيراته الضافية في تلك المدة مع ما هو متلبس به من العز والرفعة لا يتخلف عن أمر والده وشيخه، ولا يتحرك إلا عن أمر وإشارته حتى بلغ خمس عشرة عاما أجازه أبوه وشيخه، وفك عنه حجره، وأعطاه عمامته، وقال له: اذهب حيث شئت أو امكث حيث شئت، فما لي عليك اليوم من حق، فأرا أن يقرأ الفقه على أحمد عم بن عيني فأخذه محمد فال بن زروق رحمه الله وقال له: والله لا تقرأ عليه حرفا، ولا تجعل له عليك شيوخة، فقال له شيخنا: ولم، فهذا أنت تقرأ عليه، فقال له محمد فال:

إني لست مثلك فأنت سلمنا ومرقي عزنا وإنما يريد أن يجعلنا تحت قدميه، فقال له شيخنا دعني من هذا فإني لست بصدد ما تقول، وإن الله قد قسم بين عباده أنصباهم وليأخذن كل قسطه غير منقوص ولا موفور، فقال له محمد فال: أقسمت عليك بوجه ربك أن لا تتعلم عليه حرفا واحدا، فقال له شيخنا: إذا أبر وجه ربي فلقد أقسمت بقسم عظيم، نقلت هذا من محمد فال بن زروق رحمه الله فذهب إلى ابن عمته الطالب بن الحسن ليقراً عليه رسالة ابن أبي زيد فلما أتاه أظهر الله على يديه هناك من خوارق العادات وبوارق السيادة ما عجزت عن دركه العقول ولم تستطع وسعه النقول فأبرأ الله على يديه الأمراض وأتم الأغراض فجعل الطالب بن الحسن مع كبر سنه ووفور علمه يأخذ منه علوم الحقائق ويلتمس بركاته في كل مهماته، فأنته يوما إحدى أخواته وقالت له: أي للطالب بن الحسن إن ابنتك هذه تعني والدتي قد تزوجها فلان ثم فلان ثم فلان ولم تلد لأحدهم وهي الآن عند فلان تعني والدي فاكتب لها كتابا لعلها تلد له، فقال لها: يا أختاه زوري بها خالها فلانا ابن مامين يعني شيخنا فزارته بها فقال لها نعم سيتم مرادك لها، فتلد إن شاء الله وتكون ذريتها الذكور وتكون فيهم البركة، فحملت من حينها ببركة الشيخ، وكانت ذريتها الذكور كما أخبر.

وسمعه يوما يثني على الشيخ محمد الأغظف فقال له: أنت والله خير من الشيخ محمد الأغظف ومن غيره، وصحبه في تلك المدة ابن أخت الطالب بن الحسن أحمد بن سيد الهاد بن القلقم، فكان يقول له الدول فلما رجع إلى أهله بعد أن قرأ رسالة ابن أبي زيد في أسرع مدة ورجع بأكمل فيد التفت إليه يوما والده وقال له: إن صاحبك الذي يقول لك الدول محتضر الآن بقرية أكنب في رفقة فذهبا إليه بعد صلاة العصر فدخلنا في دار من دور أكنب فأدركهما والتفت إلى قومه وقال لهم قد دخل علي الآن خالي مامين وابنه الدول وبشراني بالجنة، وأنا أموت الليلة، ولا بأس علي، ثم رجعا من وجهتيهما فلقيهما الشيخ محمد الأغظف طائرا متعرضا لهما فرحب بهما أكمل الترحيب وسأل مامين أن يرسل إليه شيخنا فلما ذهب من عندهما قال شيخنا لأبيه: من هذا الرجل فقال له: ذلك الشيخ محمد الأغظف كان يسأل مني أرسلك إليه فأتيا أهلها إذ ذاك في أسرع لحظة فكان قدومهما من أرض الساحل وإتيانهما أكنب

ورجوعهما إلى أهلها أسرع شيء فكان في ساعة مما بين صلاة العصر وغروب الشمس لم يستوعب ذلك الوقت كله ولا أكثره بل كان في بعضه. اهـ — ونظير هذه الكرامات من المعجزات ما صح وثبت في كتاب المعجزات أنه ρ غرس نخلا بيده ليفادي به صاحبه سلمان الفارسي فأثمر ذلك النخل في سنة واحدة، وما روي أيضا أن لاني ρ أسري به إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات ثم إلى المستوى ثم رجع وهذا كله في ساعة واحدة من الليل. اهـ.

وصحبه في تلك المدة عبد الرحمن بن محمد بن اخيار وكان قد قرأ القرآن أربع مرات أو خمسا ولا يثبت في صدره بل كلما غسل منه شيئا من لوحه إذا هو كأنه لم يسمعه بأذنيه، فكان ذلك أشد عليه من كل شيء، فلقى الشيخ حفظه الله في تلك المدة فإذا هو يجري الله على يده من قضاء الحوائج ما علم منه أنه سيكون له وسيلة في حفظ القرآن، فشكا إليه حاله وتقلت القرآن من صدره، فقال الشيخ إن كتبت علي ثبته الله في صدرك وأتممته في أسرع مدة، فقال نعم، فكتبه عليه، فكان يكتب منه حزبا ويحفظه كل يوم وما شك في كلمة منه غسلها من لوحه بعد ذلك، حتى قبضه الله، وانتفع بالقرآن جدا، وكان يقرئه التلاميذ، واكتسب منهم المال، وقرأ على الشيخ حفظه الله رسالة ابن أبي زيد وتأليف الأخضري على الصلاة والطهارة ومنظومة ابن عاشر قال لي رحمه الله: وما شككت قط في كلمة كتبتها عليه إلى الآن، وتوفي رحمه الله وهو من أحسن الناس حفظا للقرآن ولتلك الكتب، منتفعا بها. اهـ.

ونظير هذه الكرامة من معجزات النبي ρ ما رأيت في بعض كتب الأسرار وبعض كتب الأحاديث أيضا أن عليا كرم الله وجهه كان لا يثبت في صدره القرآن فشكا ذلك إلى رسول الله ρ فعلمه شيئا يصلي به ركعات فلما صلاهن مرتين أو ثلاثا ما شك بعد ذلك في شيء قرأه، فلما أخبر رسول الله ρ بذلك قال له: إنك لمؤمن، وفي رواية إن عليا لمؤمن. اهـ.

ثم ذهب إلى محمد بن الطالب ابراهيم ليقرا عليه مختصر الشيخ خليل ومعه إذ ذاك عدة من التلاميذ منهم امر بن المختار بن محمد بن الطالب اخيار وابن عمه محمد الامين بن البشير ومحمد بن المصطفى بن احمد بن محمد بن المختار بن لحبوس بن ابابك وعبد الرحمن بن محمد بن اخيار وعنده كثير من البقر حلائب فلما أتوا

محمد بن الطالب ابراهيم رحب بهم غاية ولما أراد الشيخ حفظه الله أن يكتب عليه قال: لا يجاوز أحد من التلاميذ نصف قف فأبى شيخنا أن يكتب عليه وأراد الارتحال إلى سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي فمنعهم محمد بن الطالب ابراهيم وكان يرسل من تلاميذه من يرعى عجائيلهم ليلا يسيروا بها من غير علمه وإذا كان الليل جلس هو بنفسه في فم الحظيرة التي فيها عجائيلهم ومع ذلك يقول: لا يكتب أحد عندي غير نصف قف فأبى شيخنا إذ ذاك أن يكتب حرفا وهو في تلك المدة عنده أتاها من بعض من حسان وأخذ لمحمد بن الطالب ابراهيم مركوب بقر غصبا فأراد المسير إليهم فقال له الشيخ حفظه الله ورعاه اجلس أنت فأنا آتيك به إن شاء الله، فركب أطال الله حياته في العافية في أثره فوجده نازلا بمحلة من الزوايا فلم يأت الحساني بل أتى المركوب فوجده مكتوبا حول البيوت فقال لتلميذه حل الكتاف فلما رآه الحساني وقومه قاموا مسرعين فلما وصله السابق منهم التفت الشيخ إليه فسقط على الأرض منتفخ البطن أشد انتفاخ حتى كاد رأسه يمس وركبه فجعل قومه يعتذرون للشيخ حفظه الله ورعاه حتى أرسل صاحبهم فذهب هو والتلميذ الذي معه حتى أتى لابن الطالب ابراهيم بمركوبه من الغد فلما أرادوا الارتحال من عند محمد بن الطالب ابراهيم ليلا أعلمه بذلك بعض تلاميذه فجاء فجلس في فم الحظيرة التي فيها العجائيل فأمر شيخنا تلاميذه أن يخرجوا عجائيلهم ومحمد بن الطالب جالس لم يسمع لهم كلمة ولم ير لهم شخصا وهم مع ذلك لا يخفضون صوتا ولا يألون أن يمشوا بين يديه ومن خلفه حتى ساروا وبعثوا فسأل عنهم إذ لم يجدهم فقيل له قد أخرجوا عجائيلهم وبقروهم وأنت بفم الحظيرة فجعل يسترجع ويقول لو استقبلت من أمري ما استدبرت قبلت له أن يكتب ما شاء. اهـ ونظير هاتين الكرامتين من المعجزات المحمدية ما ثبت وصح من كفاية الله تعالى نبيه عليه السلام جميع ما أراد به سوء من عدوه وعمى امرأة أبي لهب عنه، وذلك أنه لما نزلت سورة تبت يدا أبي لهب قامت امرأته العوراء بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية وكنيتها أم جميل فأخذت فخر حجر وأتت به لتضرب به رسول الله ﷺ فأعمى الله بصرها عنه فسالت أبا بكر فقالت لهك أين صاحبك فقال لها اطلبيه، فقالت له: والله لو رأيته لشدخت رأسه بهذا الفهر فإنه بلغني أنه سبني، ثم رجعت. اهـ قلت: وليس في إتياني

بهذه المعجزة الكريم إثر تلك الكرامة الشريفة تشبيها لمحمد بن اطالب ابراهيم بامرأة ابي لهب وحاشاه ثم حاشاه ثم حاشاه من ذلك بل إنما فيه تأسيس هذه الكرامة على تلك المعجزة ليعرف الموفق من ذلك أن الله تعالى تتبع بهذا الولي آثار النبي ﷺ شبرا بشبر وذراعا بذراع، إذ قد أعمى الله عن كل منهما من كان يحب أن لا يراه. اهـ.

ثم ساروا قاصدين لسيد عبد الله بن الحاج ابراهيم وقد دنا أجله فلما كانوا ببعض الطريق قالوا تحت شجرة وكان الشيخ أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته في العافية ودوام النعيم تحت شجرة ومعه محمد بن المختار بن لحبوس والآخرون تحت شجرة أخرى فأتاه شخصان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما ألم تدر أين يذهب هذا الرجل وتلاميذه، فقال الآخر إلى سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم فقال الآخر أما ذلك فقد دنا أجله فلو ذهبوا إلى سيد المصطفى بن عثمان بن محمد الكيحل لكان خيرا لهم والشيخ عمره الله في عافية وأسبغ عليه جميع نعمه وكرمه يستمع لهما فلما استيقظ محمد قال قال له شيخنا إن سيد عبد الله قد دنا أجله فاذهبوا بنا إلى سيد المصطفى بن عثمان بن محمد الكيحل. اهـ.

قلت: ونظير هذه الكرامة من المعجزات ما روي أن رسول الله ﷺ لما سحره بنات لبيد بن الأعصم صار يخيل إليه أنه فعل الشيء وهو لم يفعله أتاه ملكان في صورة رجلين وهو مضطجع فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما بال الرجل؟ فقال: مطبوب، فقال: من طبه؟ قال: بنات لبيد بن الأعصم اليهودي فقال: فيما طبوه؟ قال: في جف نخل ومشط مشاطة وجعلوه في البير الفلانية فأخبر النبي ﷺ بذلك وشفاه الله ثم ذهب مع أصحابه إلى البير فإذا ماؤها كنعاعة الحناء فقيل له: ألا تخرجه فقال: أما أنا فقد شفاني الله من سحرهم ولست أخرجه ليلا يصيب المسلمين منه شيء. اهـ.

ثم توجه نحو سيد المصطفى وكان وليا مكاشفا فلما توجهوا إليه قال شيخنا لتلاميذه رأيت أنا أتيانهم فوجدناهم بدار من صفتها كذا وكذا ثم توجدوا إليهم فوجدوهم بدار ليست بتلك الصفة فكانوا هنالك إلى أقرب السبنة، ثم ذهبوا إلى أهلهم ليأتوا بحلائب وبعض أغراضهم ثم أتوهم عند تمام السنة فوجدوهم بدار صفتها ما وصف الشيخ حفظه الله ورعاه عام أول، ونظير ذلك في السنة ما قاله صاحب الذهب الإبريز في

تفسير قوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ وذلك أنه ρ رأى في النوم عام الحديبية أنه يدخل مكة ويطوف بالبيت هو وأصحابه آمنين يحلقون ويقصرون فحقق الله رؤياه في العام القابل، ورؤيا الأنبياء وحي، ثم إنه أخبر أصحابه برؤياه فرحوا فلما خرجوا وصددهم الكفار بالحديبية وشقهم عليهم وراب بعض المنافقين وقوله بالحق متعلق بصدق أحوال من الرؤيا وما بعده تفسيرها . اهـ. من الذهب الإبريز .

وكانوا أول ما قدموا على سيد المصطفى العام الأول أتاه النبي ρ قبل قدومهم عليه بليلتين وقال: يأتيك ابني وتلاميذه من هذه الجهة وهم عطاش وهو مفتوح له أبواب الحكمة فباكر سيد المصطفى وتلاميذه حاملين للقرب خارجين متوجهين إلى الجهة التي أراه النبي ρ فلم يجدوهم في ذلك اليوم ثم خرجوا إليهم من الغد كذلك فوجدوهم، ونظير ذلك في السنة ما روي من تلقي الأنصار رضوان الله عليهم للنبي ρ لما علموا بمقدمه إليهم مهاجرا فكانوا يخرجون صباحا فيقفون بكل شرف وثنية حتى يشتد الحر فيرجعوا إلى بيوتهم فلما كان في اليوم الثاني أو الثالث طلع عليهم من ثنيات الوداع، وفي ذلك يقول شاعرهم برد الله ضريحه:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ولما أتى المدرسة شرع يكتب مختصر الشيخ خليل ووجد في المدرسة كثيرا من أبناء الزوايا وغيرهم، فجعل مع كل ذي لوح في تلك المدرسة يكتب المختصر لوحا وانفرد هو نفسه في تلك المدرسة بعدة ألواح، فكان يكتب في كل يوم ستين قفا ويحفظها كلها عن ظهر قلب، وكان أهل المدرسة يتعجبون من ذلك، فقال لهم بعضهم: العجب كل العجب من كتابته ستين قفا قدر ما يكتب منا واحد قفا واحدا أو أقل فالتقت إليهم شيخهم وقال: بل أعجب من ذلك كله أنه لا يأتيني للتفسير إلا قدر ما أقيل فيه قبل الوقت فيمتد الوقت له حتى أفسر له هذه الستين ويذهب عني والظل على حاله الذي أتى به لا يزيد ولا ينقص ثم يخرج عني وأنا لم أنصب ولم أتعب ولم أسأم بل يزداد نشاطي حتى كأني ما أقرأت إنسانا شيئا ثم أقيل مقيلا تاما وكان مع ذلك يفسر لأهل المدرسة كلا قبل قدومهم على شيخهم، ونظير هذه الكرامة في المعجزات أن النبي ρ كان لا ينسى ما أقرأه الله تعالى من الوحي يشير إلى قوله تعالى: ﴿سنقرئك فلا

تتسلى ﴿ نظير امتداد الزمن له ما ورد في الخبر عنه p إنه لما غرس النخل بيده الشريفة أثمرت في سنة وعادة النخل أن لا تثمر إلا في ثلاث سنين فقد امتد الزمن لنخلته حتى ساوى العام الواحد لها ثلاثة أعوام. اهـ.

ولما أتى على الشيخ سيد المصطفى وقومه اويج أسبغ الله عليهم النعم فهابهم حسان وكفاهم الله السباع فلما مكث عندهم شهرا أتم المختصر بحفظه على ظهر قلب، وفي تلك المدة توفي سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي وكانت بيده مفاتيح العلوم اجتمع الأولياء عنده وقالوا: اطلبوا منكم رجلا تجعل هذه المفاتيح بيده، فقال بعضهم: هو لها أهل لولأن أجله قد دنا، فقال قائل: اجعلوها بيد الشيخ محمد فاضل بن مامين فهو أهلها وهو الحائز قصب السبق فيكم فلا يجاريه المجاري ولا يباريه المباري، فأخذها كافة أهل تلك الحضرة من الأولياء والملائكة وأتوه بها وقالوا: هذه مفاتيح العلم كانت بيد هذا الرجل وليس لها بعده من أهل غيرك فأخذوها واختص بها دون غيره، فعلم كل علم بلا كد ولا كدح بل بمحض تخصيص إلهي وعناية ربانية ونظير ذلك في المعجزات النبوية ما روى أبو الخطيب من رواية ابن عباس أن النبي p في بعض روايات حديث الإسراء وسألني ربي فلم أستطع أن أجيبه فوضع يده بين كتفي بلا تكييف ولا تحديد فوجدت بردها بين ثدي فأورثني علم الأولين والآخرين. اهـ فإذا كان النبي p وهب الله له العلم في ساعة وورث هذا الولي تلك المعجزة الكريمة على سبيل الكرامة فذلك أدل دليل على كمال إرثه له واقتفاء الله تعالى به أثره شبرا بشبر وذراعا بذراع. اهـ وكان بعد ذلك لا يجلس تحت شجر ولا ينظر في حجر ولا غيره إلا تعلم منه علما إما أن يراه مكتوبا فيه وإما أن يخاطبه به فكانت العلوم تجيش عليه جيشان الريح العاصف والبحر الطامح ففاض عليه الكشف والعلوم الإلهية فلم يبق في تلك المدرسة أحد إلا بايعه تلميذا له وسبب ذلك ما شاهدوا فيه من عجائب الفتح في العلم والكشف وغير ذلك، فمن ذلك ما ثبت وصح عندي أن محمد بن عبد الل بن الطالب ابراهيم كان هناك من أكابر التلاميذ فلما رأى الشيخ حفظه الله ورعاه فاتحه الله تعالى بما لم ينله أحد وأكثر عليه فضله حتى صار مع قبيلة ادويج ومع التلاميذ أهل المدرسات في مواسات الأضياف جعل يقول: ما هذا إلا الفخر، وكلاما لا يليق فلما علم بذلك حفظه الله ورعاه أخذه وحده ناصحا له وقال: اتق الله ودعني

عنك واشتغل بمرضاة ربك لعله يقيل عثرتك فإنك منذ عامين قبل قدومي هنا مسلوب فقال له: وما سبب سلبي، قال: أتذكر يوم كنت تجاذب مع زوجة شيخك القطعة من جلد البقر حتى أدركك في تلك الحالة معها قال: نعم، قال له: لقد سلبت من حينك ذلك فقال محمد بن عبد الله صدقت وأنا أشهد الله وأشهدك أنني تلميذك وممثل لأمرك ثم ذهب وأتاه بشيء من القرطاس وحزمة من الأعواد وناصحه في التلميذ فراح مجذوبا غاية الجذب فرد الله عليه ثمرة علمه في الحين وصار من أهل القلوب ومن أكابر العلماء العاملين فكان الشيخ سيد المصطفى كلما رأى سفيها أو بليدا من تلاميذه يقول: يا بني إن كنت تحب أن يفتح الله عليك بالعلم والتقوى فكن تلميذا للشيخ محمد فاضل بن مامين. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما صح عندي وثبت بالسماع الفاشي عن الثقة وغيرهم أن الأمين بن غلام لما توفي أخوه جد وكان جد مهيبا ارتقبته حسان وهموا يفسدون عليه زمانه فأتى الشيخ سيد المصطفى يريد منه أن يعلمه حكمة يجمع الله بها عنه تسلط حسان، فقال له الشيخ سيد المصطفى: أما أنا فلا سبيل لي إلى ما تريد ولكن أدلك على من هو أهل لذلك، فقال له: ومن ذلك؟ قال: طفل هنا مفتوح له أبواب الحكمة من آل الطالب المختار فدلّه عليه فلما أتاه الأمين بن غلام قال له شيخنا: إني لست أهلا لذلك، فلما أخبر بذلك الشيخ سيد المصطفى قال له: ألا تتركه على ذلك فلا سبيل لك إلى مرادك إلا من جهته فلح عليه الأمين وأهدى له هدية نفيسة فأعطاه شيخنا الحكمة أعني حكمة الإسهال وأجراها الله على يديه، فلما عاين الناس في ذلك وغيره أته من كل جانب، وكانوا إذا أتوه وهو معتكف تحت شجرة وجدوا الوحش دائرا به وكانت تعتاده غزالة كلما أتى تلك الشجرة أته فبركت بإزائه فإذا أراد الاضطجاع أدخلت ظهرها تحت رأسه. اهـ.

ونظير هذا من المعجزات ما في كتاب الاكتفاء من أن سبب إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان غائبا على اليمن يتجر فيه فلقيه يوما شيخ كبير من أهل اليمن فلما رآه الشيخ نظر إليه وقال له: كن خليفة، فلم يفهم أبو بكر ما معنى الرجل بكلامه فأخذ الرجل بيد أبي بكر رضي الله عنه وأخبره خبر النبي ﷺ وأنه هو خليفته بعد موته فلما قدم أبو بكر مكة وجده قد بعث فدعاه إلى الإسلام، فقال: يا محمد أين

الدليل على أنك رسول الله، فقال النبي ﷺ: الدليل على ذلك الشيخ الذي لقيت باليمن، فقال أبو بكر: وكم شيخ لقيت باليمن وشاب، فقال عليه السلام: أعني الشيخ الذي قال لك كذا وكذا وأخبره الخبر، فأسلم أبو بكر من حينه.

ونظير شأن الغزاة ما روي أن أعرابيا صاد ظبية فأوثقها في الصحراء ثم نام فمر به رسول الله ﷺ فنادته الغزاة: يا رسول الله ثلاثا، فقال: ما حاجتك؟ فقالت: صادني هذا الأعرابي ولي خشفان أي ولدان في البرية فتعقد اللبن في أخلافي لا هو يذبحني ولا هو يدعني فأرجع إلى خشفي فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع وعذبني الله عذاب العشار أي المكاس إن لم أرجع، فأطلقها ﷺ فانتهب الأعرابي فإذا رسول الله ﷺ فقال: ألك حاجة، قال: نعم تطلق هذه الظبية فأطلقها فخرجت تعدو في الصحراء وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. اهـ من شرح النابغة لقصيدة المدح التي مطلعها:

صلاة ربي مع السلام على حبيبي خير الأنام
ويروى أيضا في المعجزات أن النبي ﷺ أتاه بعض الصحابة يشكو ضررا به من ألم فقال له: ضع يدك على مكانه وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله تعالى وقدرته من شر ما أجد وأحاذر، فلما فعل ذلك أزال الله عنه ضرره. اهـ.

وسمعه حفظ الله جنابه الكريم يحكي أنه في تلك المدة أصابه مرض عظيم أيقن فيه الموت فسره أنه لا قريب له هناك وذلك مكفر للذنوب كما في الخبر عنه عليه السلام، وقال ناظم المكفرات عاطفا على ما يكفر الذنوب:

ومرض الغريب إن لم يعرف لجهة منه قريبا فاعرف
فالتقت فإذا ابنة خاله من بنت المختار بن الداه هناك في بيتها فخرج إلى الصحراء يريد مكانا لا قريب له فيه فغشى عليه فما إفاقة إلا فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ واضعة له في حجرها تقبل ما بين عينيه، فقام، وكأنما نشط من عقال، وأخبرته أنه ابنها. اهـ.

يروى أن رسول الله ﷺ قال: رأيت عيسى بن مريم فإذا هو أشبه الناس بعقبة بن مسعود ورأيت إبراهيم فإذا هو أشبه الناس بصاحبكم يعني نفسه ﷺ، وذكر فيه أنه رأى موسى ولكن لم يحضرني الآن ما ذكره في صفته. اهـ.

قلت: كلما ذكرته في هذا الباب من أوله إلى هذا المحل إنما هو توطئة وإرهاص لخصوصيته وعناية الله تعالى به إذ قد ابتدأها بما أخبر به الأولياء عنه قبل مولده ثم تتبعت ما بعد المولد إلى حين بلوغه الأمن والمني بكونه وسيلة الخلق إلى الله تعالى في تحقيق السلوك إليه على متون مطايا العناية الإلهية وذلك كله وإن كان كرامات بل هي أكرم الكرامات وأصحها شواهد في المعجزات، فإنما الغرض منها إرهاص تحقيقه بالوراثة المحمدية في منازل الخصوصية الأزلية، والآن أشرع في الكرامات مرتباً لها على الفصول بأن أجعل كل فصل مهاداً لجنس تلك الكرامة التي عقدته لها.

فصل في كرامات الله تعالى إياه بالاستقامة.

اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه وسلك بي وبك طريقة وده وسبيل تقواه أن الكرامة هي الاستقامة، قال شيخنا في كشف الحجاب:

كرامة الرجال الاستقامة أجلها أعظمها استقامته والاستقامة هي أن لا يختار العبد على الله شيئاً وقال الجنيد: الاستقامة: لا يطيقها إلا الأكابر، ولهذا قال: الاستقامة الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات من حظوظ النفوس والشهوات والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق.

وقال القشيري: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جده، ولا يستغني عنها أحد من السالكين، وهي مراتب ثلاثة أولها التقويم ثم الإقامة ثم الاستقامة، فالتقويم يكون من حيث تأديب النفوس لأنه عبارة عن إصلاح الجوارح وتعديلها بميزان الخوف والرجاء لتسلم من المنهيات وتستقيم على فعل الطاعات والإقامة تكون من حيث تهذيب القلوب أي تطهيرها من الأخلاق الذميمة والاستقامة تكون من حيث تقريب الأسرار من القلوب بأن تكون أفعال العبد كلها موزونة بميزان الشرع من غير تكلف تقويم ولا إقامة، فالمعنى الأول تمحيص والثاني تحقيق والثالث توفيق، والاستقامة بالنظر إلى محلها خمسة أنواع: استقامة اللسان بالنطق بالحكمة واستقامة القلب بصدق الهمة واستقامة النفس بحسن الخدمة واستقامة الروح بتعظيم الحرمة

واستقامة السر بالاشتغال بالمنعم دون أنواع النعمة. اهـ قال شيخنا في كشف الحجاب:

والاستقامة بأن لا تختار غير إله واحد وقهار
ليس يطيقها إلا الأكابر صاحبها على الأمور صابر
منها خروجك عن العهودات تفارق الشهوة ثم العادات
تهاجر النفس إذ هي أعدى عدوك اليوم وثم وغدا
فالاستقامة بكل أنواعها وجميع معانيها من التقويم الذي هو عبارة عن إصلاح
الجوارح وتعديلها بميزان الخوف والرجاء لتسلم من المنهيات وتستقيم على فعل
الطاعات ومن الإقامة التي هي عبارة عن تهذيب القلوب من الأخلاق الذميمة، ومن
الاستقامة التي هي عبارة عن تقريب الأسرار من القلوب بحيث لا يتعلق بالقلب محبة
ولا شهود غير الله تعالى هذا الولي منها في الرتبة العليا والمنزلة العظمى بحيث
ينالها المبعدون عنها بمجرد صحبتهم إياه ومجاورتهم له، وما ذلك إلا لتخلقه هو بها
وتحققه بحقائقها حتى صار جلساؤه مستقيمين أكمل الاستقامة ظافرين بأعلى الكرامة
اقتباسا من مشكاة نور زجاجة استقامته كما تقتبس الأبصار من ضياء الشمس عندما
تطلع في الأفق إدراك المحسوسات بعد أن كانت بظلمة الليل من المحجوبات حتى
كأنها من جملة المغيبات وأما هو بنفسه فلقد كانت استقامته بحيث يبادر كل
المأمورات عندما يدخل وقت الأمر بها ويأتي بها على الحالة التي أمر الله أن تؤدي
بها متأديا بين يديه بكل خلق مرضي لديه لا يحوم حول المنهي عنه في حركة ولا
سكون، ولا يقصر عما يرضي ربه كائنا ما يكون، يدرك منه ذلك بالعيان من يراه من
كل الإنسان فهذه استقامة ظاهره فيما يتعلق بنفسه، وأما ما يتعلق بغيره فلقد كان
أكثر الناس عشرة وأكملهم لجيرانه أثره يعينهم على نوائب دورهم ويحضهم على
التقوى، يوصيهم بوصية الله تعالى في قوله جل وعلا: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا
الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ ويذكرهم بدوام ذكر الله ولا يخرج عليهم في ما
لم يسد الله عنهم بابيه بل يأمرهمب الاقتصاد والتزام السنة والنفقة في دين الله ويحذر
من الفتنة واتباع النفس الأمارة فيما تدعوا إليه من الشهوات الردية.

وأما استقامته في باطنه فدلائلها اكتساب الأحوال السنية البدنية والقلبية بمجرد مصاحبته ودوام ملازمته إذ ذلك أدل دليل على التلخق بها، إذ قد جرت حكمة الله في خلقه بأن الإنسان يسرق طبع جليسه، قال الشاعر:

اصحب من الإخوان من أطاعا إن الطباع تسرق الطباعا
آخر:

ولا تخالط جليس السوء مبتعدا فكم جليس له طبع الجليس سرى
آخر:

فالليث يسير سره في الفهر
ويدل أيضا على تحقيقه الباطن ألفاظه الدالة على ذلك فإنه لا ينطق إلا بذكر الله ولا يدعو إلا إليه ولا يترجم إلا عنه ولا يختار عليه غيره، بل ولا يحب سواه ولذلك كان يقول حفظه الله تعالى ورعاه في بعض مناجاته لربه:

ذكرتك فاضمحل المحبوب كله وفي نكرتك ما يحلي المحبوب أجمعا
ذكرتك ينسي المحبوب وهو حاضر فيا ليت شعري أن أكون بك مولعا
جفوت لك الأخلاء فحل بينها وقلبي فالأشواق إليك أرفعا
ولهذا كل أشعاره وإنما هي مترجمة عما في قلبه من كونه لا يحب ولا يعرف على الحقيقة ولا يجنح لغير ربه، وذلك أقوى دلالة على ما في الباطن، قال الشاعر:
إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا
وقالوا: ما فيك يظهر على فيك، وقالوا: تكلم تعرف، وقالوا: كل كلام عليه حلة من قلب صاحبه. اهـ.

وبالجملة فالاستقامة هي أكرم الكرامات وأنصع العلامات على التحقيق بأعلى المقامات وهي أصعب ما أخذ به الرجال ولا يقدر عليها إلا الكماة الأبطال، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية أشد ولا أشق عليه من قوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ أي استقم على أمر ربك والدعاء إليه ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: قد أسرع الشيب إليك، قال: شيبنتي هود وأخواتها.

وروي أنه ρ قال لبعض الصالحين في النوم: إن التي شيبتني من هود هذه الآية: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ قال ابن عطية: التأويل المشهور في الحديث أنه إشارة إلى ما فيها مما حل بالأمم السالفة فكان حذره على هذه الأمة مثل ذلك شبيهه عليه السلام قاله الثعالبي، وقيل: الاستقامة أن تستقيم على الإتيان بالأمر وتجنب النهي ولا يروغ روع الثعلب، وقال عبد الله الثقفي لرسول الله ρ : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم، وفي الحديث إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة. اهـ من الذهب الإبريز، قلت: وكفى من مدح الاستقامة قوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ وقوله جل وعلا: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم لكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم. اهـ. والله أعلم.

فصل في كرامة الله تعالى إياه بوهب العلم من غير كد ولا كدح.

اعلم وفقني الله وإياك لطاعته وسلك بي وبك سبيل مرضاته أن وهب العلم كرامة عزيزة ومنقبة فائقة عظيمة لا يخص الله تعالى بها إلا من اختاره من خلقه ولا يؤيد بها إلا ذوو صدقه ألا ترى إلى قوله في صفة الخضر: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾ وقال في داود: ﴿وآتيناها الحكمة وفصل الخطاب﴾ وقال تعالى حكاية عن سليمان: ﴿يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين﴾ وقال تعالى في ذكر فضله على نبيه محمد ρ : ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ وقال في موسى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ وما مدح الله تعالى أحداً بشيء أشرف من العلم، ألا تراه سمى نفسه العليم وعالم الغيب والشهادة وعلام الغيوب، وقال حكاية عن الرسل: يوم يجمعهم ويسألهم ما ذا أجبتم قالوا: لا علم لنا تواضعا له وأدبا معه بنفي تلك الصفة الشريفة عن أنفسهم وردّها إليه بقوله: إنك أنت علام الغيوب، ولما أراد سبحانه أن يظهر للملائكة فضل آدم عليهم أظهر أنه أعلم منهم فقال لهم: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، فاعترفوا

بالعجز قائلين: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ اعترفوا بفضلهم عليهم فقال سبحانه: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ قال بعض المحققين دل قوله تعالى حكاية عن الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك أنهم يدعون التفضيل على آدم ومن يستخلف منه ودل قوله تعالى بعد أن أتى آدم بما عجزوا عنه: ألم أقل لكم إني أعلم غيب اسماءات والأرض على انعكاس زعمهم وانقلاب ظنهم وأن الفضل لآدم لكونه أغزر منهم علما. اهـ وفي الخبر أن موسى عليه السلام قام في بني إسرائيل خطيبا بعد أن كتب الله له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فسأل بعضهم من أعلم الناس؟ فقال: أنا فعتب الله عليه حيث لم يرد العلم إليه وأخبره بأن له عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منه، أخرجه البخاري وغيره.

وفي الخبر عنه عليه السلام فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وفيه أيضا فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، وقال جل وعز: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب العزيز والسنة الغراء من مدح العلم والتنويه بفضلهم وأهلهم فإذا تأملت هذا وفهمته علمت أن وهب العلم والفتح فيه هو الكرامة العظمى التي تدل من ليس بأعمى على إرث من وهبه الله له وفاتحه به لنبيه وحببيه محمد ρ وقد فاتح الله سبحانه هذا الولي به في محل الكفاح فتشربته منه الذوات والأرواح فأوهبه في صغره علم القرآن العظيم فحفظه بلا كد ولا تعب ثم وهبه علوم الحقائق كلها حتى احتاط بفرعها وأصلها فلما بلغ الحلم فاتحه بعلم الفقه حتى كان أعلم الناس به فلما كان ابن عشرين سنة جعل الله مفاتيح العلوم في يديه فصارت العلوم طوع يديه كافة بشهادة العيان المغني عن الدليل والبرهان، بتعليمه لفنون العلم كلها وتأليفه في كل فن منها.

أخبرني الثقة الصادق الشيخ حفظه الله بعدما وهب الله له كل العلوم كان يستتر من ذلك ويحب أن يقرأ الفنون على أربابها، فركب إلى أحمد بن الطالب محمود بن أعمر إدوعيشي فطلب منه أن ينزل عليه ليقراً علم النحو فقال له الآخر: نعم لكنني في جرب وأحب أن أنحر بقرة وأكل لحمها لعل الجرب يبرأ مني فإذا برئت أتيتك فركب

الشيخ عنه وقال له: ارسل لي تلاميذك أعطهم بقرة تذبحها فلما أتى تلاميذ أحمد يطلبون البقرة وجدوا تلاميذ الشيخ حفظ الله جنابه الكريم وأطال حياته في العافية ودوام النعيم، يكتبون عليه كتب النحو فمنهم من جعل في لوحه خلاصة ابن مالك، ومنهم من يكتب فريدة السيوطي ومنهم من يكتب التسهيل ومنهم من يكتب الكافية إلغير ذلك من كتب النحو، ووجدوا التلاميذ يعرفون الإعراب وحضروا إقراءه إياهم فإذا هو تعلم الإقراء، فلما أرادوا المسير إلى أهلهم أعطاهم الشيخ حفظه الله البقرة التي جاؤوا يطلبونها للشيخ فلما أتوا شيخهم أخبروه بما شاهدوا فتعجب من ذلك غاية العجب وقال: هذه كرامة أكرم الله بها هذا الولي وأنا مؤمن بكرامات الأولياء وهنا مشكلات في هذا الفن لم يفتني فيها أحد على التحقيق الذي تظمنن له نفسي وسأرسلها عليه عسى أن يؤتيه الله علمها فيفتيني فها فجمع تلك المشكلات وأرسل بها إلى الشيخ أطال الله حياته في العافية، فأفتاه فيها بأبلغ ما يكون، فلما أتاه الجواب قبله وقال: الآن بان الحق والصواب فنشر حفظه الله العلم بالإقراء والتأليف وتبيين الغامض وفتح المشكل وغير ذلك حتى لا تكاد تجد من العلم شاردة إلا وهو قيدها ولا يتيمة فريدة إلا وهو عيبتها، وهذا كله بمحض منة الهيبة وعناية ربانية لم يأتته عن سبب ولم ينله بعد محنة طالب بل بمحض فضل سابق وعناية أزلية، قال تعالى مخاطبا لنبيه عليه السلام مذكرا له بنعمته عليه: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ وبهذه الآية وأمثالها من الآيات كقوله تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ و﴿وعلمناه من لدنا علما﴾ وغير ذلك استدل المحققون على تفضيل العلم الوهبي على العلم الكسبي فقالوا: الوهبي تراث الأنبياء والكسبي تراث العلماء، فلقد كان مالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد والبخاري والسفيانان يرتجلون في طلبه وينصبون في درسه وطلب تعلمه، وكذلك خلفاؤهم من بعدهم رضي الله عنهم، وليس كذلك خلفاء الأنبياء بل كان الله يفيض عليهم العلوم من غير طلب وينيلهم إياها بلا كد ولا سبب ألا ترى إلى أبي بكر حيث بكى لما سمع نزول سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فعلم أن ذلك نعيًا لرسول الله ﷺ ولما نزل قوله عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ وفرح بها المسلمون حزن هو بنزولها وبكى وعلم أيضا مما

وهبه الله من العلم أنها نعي له ρ وقال عليه السلامك إن من الأمم قبلكم محدثين يعني يحدثون بالعلم من الله بلا تعلم، وإن يكن في أمتي فمنهم عمر بن الخطاب. وعن علي رضي الله عنه ما كنا أصحاب محمد نشك أن السكينة تنطق على لسان عمر وعن علي أيضا: ما عندي من العلم إلا فهم يعطيه الله في كتابه أو ما في هذه الصحيفة وأخرج لهم صحيفة فيها مقدار النصاب وأسنان الزكاة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان عمر بن الخطاب يدخلني في أشياخ الصحابة فقال له عبد الرحمن بن عوف: لا تدخل معنا هذا الصبي الذي ليس أكبر من أبنائنا فقال له عمر: إني أعلم منه ما لا تعلمون، قال: فجمعنا يوما لوليمة فلما طعمنا سألنا فقال: ما تقولون في هذه الآية: ﴿أبود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت﴾ فقالوا كلهم: الله أعلم، فقال: الله أعلم أنا أعلم ذلك، لكن قولوا: نعم أو لا نعم، فقالوا كلهم: لا نعم، فقلت يا أمير المؤمنين في نفسي لها شيء، فقال: تكلم يا ابن أخي ولا تحقر نفسك، فقلت: أراه مثلا ضربه الله لرجل عمل بالخير حتى إذا حضره الموت أتاه الشيطان فأضله فعمل بالشر فمات على الكفر فقال عمر: هكذا أجدها والله، فهؤلاء أهل العلم الوهبي هم خلفاء الأنبياء، والآخرون خلفاء العلماء، وكان على سبيل موروثه والكل خير، وقد قال تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ فشتان ما بين تعليم الرجال وتعليم ذي الجلال.

وبالجملة فطرق وهب العلم كثيرة، وفائدة تقوى الله العظيم وسابق عناية التخصيص وولاية التمحيض. اهـ.

وقد جمع الله لهذا الولي بين تينك الخصلتين، فلقد فاتحه بكل العلوم من معقولها وممكنه من كل فروعها وأصولها ثم يسر له أن أعرض الفنون على أربابها حتى أخذ الإجازات من عيانها فكملت له الأسوة بالرسول ρ حيث أوحى الله إليه العلم ليلة الإسراء كله في الحديث الذي أخرجه ابن الخطيب في المواهب اللنية من رواية ابن عباس حيث قال: وعلمني علوما شتى فعلم أخذ علي العهد بكتمانه إذ علم أنه لا يقدر على حمله أحد غيري، وعلم خيرني فيه وعلمني القرآن فكان جبريل عليه السلام يأتيني به، وعلم أمرني بتبليغه إلى الخاص والعام من أمتي، ولقد عاجلت جبريل في

آية نزل علي بها فعاتبني ربي وأنزل علي: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾ وفي الخبر عنه عليه لاصلاة والسلام أنه كان يعرض القرآن على جبريل عليه السلام في كل شهر رمضان، فقد جمع هذا الشيخ بين أخذه العلم وهبا من الله وعرضه الفنون على أربابها كما جمع عليه الصلاة والسلام بين أن علمه الله العلم بلا واسطة وبين عرضه القرآن على جبريل فكملمت للشيخ فائدة الاقتداء بالنبي عليه لاسلام في كل من الحالتين، وإن كانت الأولى منهما منا من الله من غير أن يحتال فيها الوارث ولا الموروث، فلقد أخذ الله به أثر نبيه في الأولى من غير تحيل منه وفي الثانية بواسطة اختياره فكان وارثه في كل منهما.

فصل

في كرامة الله تعالى إياه بكون أولاده أولياء كلا.

اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه واستعملني وإياك في طاعته وملازما تقواه أنه من أكرم ما يكرم الله به الآباء أن يجعل أبناءهم صالحين عبيدا له مقربين يعملون بطاعته غير محجوبين عدد الله ذلك في مننه على أنبيائه في كذا وكذا موضعا قال تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد﴾ وقال في إبراهيم: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ ﴿وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين﴾ إلى غير ذلك من الآيات الواردة في تعداد النعم على الأنبياء بصلاح أولادهم، وقد أكرم الله تعالى هذا الولي بأن جعل أولاده أولياء كلهم، وسأهمد لذلك أربع قواعد كل واحدة منهن تكفي من لم يجعل الله تعالى داء الحسد غشاوة بصره ولا ظلمة الجهل غطاء نظره.

وأما من هو بتلك المثابة فلا ينفعه البرهان ولا يغني عنه شيئا شهود العيان، قال تعالى في أمثالهم: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا﴾ وقال: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾.

أما القاعدة الأولى فهي قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ فإن لفظ الفعل موضوع للعموم عند

الأصوليين لأن معناه اتصفوا بإيمان كائنا ما كان فشمّل إيمان الأنبياء والأولياء الذي هو أكمل الإيمان وإيمان أضعف الناس إيماناً، وكذلك قوله: واتبعتهم ذريتهم بإيمان، أي كائنا ما كان من كمال أو نقصان لأن لفظ التنكير أيضاً يدل على العموم الذي معناه الشيعوع في الأفراد بحيث لا يختص به بعضها عن بعض فيكون الحكم عاماً في كل تلك الأفراد وكذلك أيضاً قوله: ﴿ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ فإن لفظ الفعل في ألحقنا دليل أيضاً على عموم الإلحاق لأن معنى ألحقنا بهم ذرياتهم جعلناهم لاحقين بهم، وذلك يقتضي الإلحاق في كل شيء. اهـ.

ولا يعارض هذا بما في الكتاب العزيز من قوله تعالى حكاية عن نوح: ﴿رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح غنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ لأن ابن نوح لم يتبعه بإيمان بل كان كافراً وهذا الإلحاق إنما يكون فيمن لم يندس صحيفته ولم يبدل ولم يغير وإلا فلا، قال تعالى: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ وقال: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ وقال: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ وقال تعالى مجيباً لخليله إبراهيم لما قال له: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ فقال إبراهيم: ﴿ومن ذريتي﴾ أي واجعل أئمة من ذريتي، قال: لا ينال عهدي بالإمامة الظالمين من أمتك. اهـ.

وهؤلاء ولله الحمد أبناء هذا الولي الكامل قطب دائرة الأواخر والأوائل شيخنا الشيخ محمد فاضل بن الشيخ محمد الأمين بن اطالب اخيار بن اطالب محمد بن اجيه المختار وكل واحد من هؤلاء ولي كامل سراج منير غطريف عالم نحير وأولاد الشيخ ولله الحمد ما بدلوا ولا غيروا بل اتبعوا واستقاموا كما أمروا فوجب على كل من يؤمن بالله وما جاء به كتابه العزيز أن يعتقد إلحاقهم بأبيهم في درجاته، وهم ولله الحمد والشكر منذ سبع سنين أو ثمان ما حفظت على صبي منهم في دينه زلة ولا رأيت في شبا توجهه لربه فلة مشتغلين بما يرضي ربهم آناء الليل وأطراف النهار، يعمرن الأنفاس بذكر الملك الجبار، وطاعته في كل الأوقات والأدهار، حظهم من كتاب الله قوله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾ ونعنتهم فيه: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا

وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴿١٠﴾. اهـ.

وأما القاعدة الثانية فهي أن خبر الأولياء يجب تصديقهم فيه فيما تبلغه عقول أهل زمانهم مما لم يكن مستحيلا عقلا ولا عادة وإلا وجب التسليم لهم فيه يشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: الولي في قومه كالنبي في أمته، قال في نزهة الراوي وبغية الحاوي ما معناه: إنه كما يجب تصديق النبي يجب تصديق الولي فيما تبلغه عقول أهل زمنه والتسليم فيما لا تبلغه. اهـ وقد أخبر كثير من الأولياء بكون أولاد هذا الولي أولياء كلا وذلك مما تبلغه العقول إذ لا يستحيل عقلا ولا عادة. اهـ فمن ذلك ما سمعت شيخنا أطال الله بقاءه يحدث أنه كان ذات يوم يمشي وهو صغير قبل بلوغه الحلم إذ رآه جده لأمه الطالب أبو بكر فدعاه فلما أتاه قبل رأسه وقال له: أبشرك يا بني بأن ذريتك كلها صالحون ذكورها وإناثها. اهـ.

ومن ذلك ما سمعته حفظ الله ساحته وأطال الفسحة في مدة حياته وأفاض علينا جزيل بركاته يحدث أن بعض تلاميذه مرواب الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود وهم مسافرون فجعل الشيخ سيد محمد يسألهم عن بعض أحوال الشيخ ثم قال: ستكون في ذريته البركة أو بشره بأن في ذريته البركة أو شيء ذلك معناه. اهـ وأظن والله أعلم بأني سمعت هذا من أخي محمد ناجم بن سيد محمد، وسمعت شيخنا حفظ الله جنباه الكريم وأطال حياته معافى في كمال النعيم قال: ما دام ثلاثة من أبنائي على ظهر الدنيا لا يدخل أحد عليهم أرضهم إلا برضاهم. اهـ وسمعت ممن أثق به حقا أنه قال: ما دام أحد من أبنائي على وجه الأرض لا يستقر أحد في أرضه إلا برضاه، وسمعته يوما وقد قال له بعض الحاضرين: يا شيخنا ما يصنع آل الطالب المختار بعدك فإنك حصنهم من كل المكاره فقال: إن مت تركت لهم من أبنائي من هو خير مني. اهـ وسمعت أخي محمد الفاضل بن الهيب يحدث أنه سمع أحدا يسأل شيخنا عن هذا الأمر هكذا فقال له: لا أموت عنهم حتى أدع لهم من أبنائي من لو نظر إلى جبل بعين الغضب لذاب ذلك الجبل. اهـ وسمعته أيضا أعز الله جنباه الكريم وأطال حياته في كمال عافية ودوام نعيم يقول: أما أبناء الصالحين ويعني الأولياء إذا كبر أحدهم مع أبيه حتى بلغ الحلم فلا يهتمك شأنه بعد ذلك. اهـ.

وبلغني عنه بنقل ممن أثق به وكنت أظن أنني سمعته منه قوله في أبنائه الصغار أبناء الشيب ليس فيهم العيب، يعني أنهم يولدون على فطرة غيمانية لا يدنسها شيء بعد، وسمعت أيضا ممن أثق به أنه أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته في العافية وكمال النعيم يقول: قد أعطاني الله في أبنائي أن جعلهم خلفاء الله في هذه الأرض، وأن لا تخرج منهم الخصوصية إلى منتهى الدنيا. وسمعت أيضا ممن أثق به أن الشيخ حفظ الله ساحته وأطال فسحة حياته يقول: أرجو الله أن لا يخرج القبطانية من أبنائي إلى منتهى الدنيا، وحدثني الولي العارف بالله تعالى سيد القوم ابن شيخنا أنه سمع الشيخ أطال الله حياته يقول: أرجو الله أن يجعل خلف ذريتي خيرا من سلفها إلى يوم القيامة. اهـ. وسمعت هذا أيضا متكررا ممن أثق به غير سيد القوم. اهـ. ولا أرى هذا الرجاء المتكرر إلا لكون الله تعالى قد أعطاه ذلك قطعا كما جزم بعض من رويت عنه أنه ذكره بالقطع لا بالرجاء، ولو لم يكن إلا محض الرجاء فرجاؤه محتوم ودعاؤه مستجاب لأن للوارث من الحكم ما لموروثه وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في دعائه عليه السلام إنه مستجاب قطعا، يشير إلى ذلك قوله تعالى فيما يرويه عنه رسوله عليه الصلاة والسلام: «أنا الله خالق كل شيء فمن أطاعني أطاعه كل شيء أنا الله الذي أقول للشيء كن فيكون فمن أطاعني فيما أمرته ونهيته أجعله يقول للشيء كن فيكون» أخرجه صاحب كتاب الجمان.

وقوله أيضا: لا يزال عبيد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها إن دعاني أحببته وإن سألني أعطيه وإن تقرب إلي قربه وإن أتاني يمشي أتيته مهرولا، قلت: ولا يعارض هذا الحديث المصريح بإجابة دعاء المحبوب بقوله عليه السلام: سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة أي الجذب فأعطانيها وسألتها أن لا يهلكها بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها، ولا بقوله عليه السلام: لكل نبي دعوة مستجابة وقد أخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، أو كما قال عليه السلام، لأن حديث الإجابة قطعي لا احتمال فيه وتعضده نصوص الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ﴾ وقوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وأما حديث المنع فيحتمل

أن يكون معنى سألت ربي أي أردت أن سألته كذا على حد قوله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا وهم قائلون﴾ أي أردنا هلاكها فجاءها بأسنا، لأن مجيء البأس بعد الهلاك لا معنى له إذ المراد بالبأس العذاب الذي كان سبب الهلاك وقوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ أي فإذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ. اهـ. ويكون معنى منعنيها أن أسأله إياها كما روي أن موسى عليه السلام لما أغار عليه بنو معد بن عدنان أراد أن يدعو عليهم فأوحى الله إليه أن يا موسى لا تدع عليهم فإني سأخرج منهم نبيي وصفيي وحببي محمد ص. اهـ — وأما حديث: لكل نبي دعوة إلخ فقد صرح لكل نبي بإجابة دعوة في الجملة، ولم يصرح بإجابة غيرها ولا بنفي الإجابة عنه، لكن قد جبل الله تعالى الأنبياء على الحياء منه والتأدب معه، والتسليم في أموره والرضى بما عسى أن يفعل، فلأجل ذلك كانوا غير دائمين على الدعاء، ولا متأهين له إلا حيث يأمرهم الله به أو حيث يستعملونه في مقام العبودية وإظهار الفاقة، ألا ترى إلى قوله عليه السلام في حديث الإسراء لما أمره موسى أن يرجع إلى ربه فيسأله تخفيف الخمس الصلوات: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت، وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿رب إنني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ فكان دعاؤه تعريضا بإظهار الفاقة وقول إبراهيم خليل الرحمن: علمه بحالي يكفي عن سؤالي، فإنه هناك مسلم أمره الله تعالى مستغن بعلمه بحاله عن تدبيره لنفسه، ومع كل هذه العوارض الرفيعة التي تقتضي منهم عدم الدعاء فقد أوجب الله لكل منهم دعوة مستجابة. اهـ.

وأما قوله عليه السلام وقد أخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فيحتمل أن يكون معناه أن الله تعالى خيره في أمر يدعو به فيستجيب له فيه فاختر ذلك ويحتمل أن الله تعالى أعلمه أنه خبا له دعوة إلى يوم القيامة فيستجيب له فيها وأخبره أنها الشفاعة لأمته، ويحتمل أن الشفاعة لأمته هي الدعوة التي يميل إليها بطبعه، فكانت هي دعوته، وأما غير ذلك من الدعاء فيعلمه تشريعا وعبودية واعترافا بالافتقار لله تعالى، قال تعالى: ﴿قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ وقال تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ أي عن دعائي سيدخلون جهنم، قال عليه السلام: الدعاء مخ العبادة. اهـ. وإذا كان الأمر هكذا فيجب علينا

القطع بإجابة الله تعالى دعاء من كان الله تعالى يحبه من عباده إيماناً وتصديقاً بقوله جل ذكره: فإذا أحببته كنت سمعه إلى قوله: إن دعائي أجبته وإن سألتني أعطيته. وأما غير المحبوبين فقليل: يجب القطع بإجابة الداعي منهم ما لم يمنعه عارض كأن يسأل الله فيما لا ينبغي كالمعصية أو أسبابها وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» وكأن يدعو وهو مطعمه حرام وملبسه حرام أو غير ذلك تمسكاً بظاهر الآية في الإجابة، وإن من لم تظهر له إجابة دعوته فإنما اختار الله له خيراً منها في آخرته، لأمر اقتضه الحكمة الإلهية، وقيل: لا يجب القطع بإجابة غير المحبوبين لاحتمال وجود ما يمنعه الإجابة من معائب نفسه لقولهم: «استقيموا ولن تحصوا» أو لأن أحدكم ربما يدعو بما ليس له بأهل ولا مضطر إليه، وإنما حملة على الدعاء به أمر من نفسه كشهوته لذلك الأمر مع عدم مراعاة الأدب فيه وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى لما سأله الرؤية: لن تراني، قيل: معناه لأنك لست أهلها ولا اضطررك إليها ضرر، وإنما أهلها حبيبي محمد ρ اهـ، وأما ما أخبره به هو أو غيره من أهل الله عنهم عن التفصيل ما شاء الله لا قوة إلا بالله فقد كنت أريد الاختصار عنه حتى قيل لي: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ وسأذكر بعض الذي قد سمعته يوماً يقول بمحضر الجم الغفير في المسجد سيد عثمان ومحمد تقي الله مثلي ومحمد الغيث وسيد المصطفى خير مني، وسمعت سماعاً فاشياً عن ثقة وغيرهم أن الأمين بن اعل النون سأل الشيخ حفظه الله ورعاه عن أبنائه بمحضر الجم الغفير من الناس، فقال له: أما سيد عثمان وسيد محمد ومحمد تقي الله فليس عندي شيء إلا عندهم، وسمعت يقول وقد أتى سيد بن كرميش والمختار بن الشين يستصرخون ابنه سيد عثمان وقد كان مغضباً عليهم كلاماً معناه: إن الله تعالى لا يمهلهم بغضب سيد عثمان، ويقول إن سيد عثمان قد أرضعته عندما ولد قبل أن يتم الأربعين وذلك أن أمه نفست مريضة عند أهلها فلما أتيتهم وجدتها لا لبن بها وهي في غاية المرض فسرت بها من عند أهلها بأكمل إلى أهلي ببير غاجاط وليست لها مرضعة بل كلما اشتهى الرضاع ناولته أنفي فارتضع منها حتى روي فمكثنا في الطريق ليال عدية نسير سيرا رفيقاً فأمه مريضة وهو لا نفقة له غير أنفي ولذلك الصبيان في الصغر يذكرون الله بالتهليل أو غيره وهو لا يذكره إلا بحضرة

الأنية فيقول: أنت أنت، فأنتهه وأقول له ما أجراك وأقوى عينك إذ تقدر على مخاطبته مواجهة وهو لا ينتهي وذلك حاله. اهـ. وسمعت يومًا يثني عليه بكمال الخصوصية ثناء بليغا وحدثني أخي محمد المختار بن محمد البشير بن الطالب صالح بأمر وأظن أنني حاضر له وذلك أن الشيخ عمره الله في العافية كان جالسا في المسجد وأهل المسجد محدقون به إذا بسيد عثمان قادم إليهم واضعا يده على خاصرته فقال الشيخ أعز الله جنبه الكريم وأطال حياته في كل عافية وكل نعيم انظروا إلى تكلمكم انظروا إلى تكلمكم يجعل يديه على خاصرته كالمرابط ثم ضح وقال: هذا تكلمكم. اهـ وسمعت ليلة قال: لما توفي ابني أبو الفلح حزنت عليه فقبل لي أتحنن عليه وقد ولد لك سيد عثمان وأحمد الهيب فإن كنت تريد من يقوم لذريتك بعدك فسيد عثمان.

وأخبرني أيضا من أثق به منهم أنه قال: إن المخلوق قال إن برورك يظهر في أحمد الهيب، وإن سيد عثمان يحفظ عليك مكانك من بعدك ويقوم لعيالك مقامك، وأخبرني أيضا عدلان رضيان من أبناء شيخنا وهما محمد المامون واطالب أبو بكر أنه حدثهم أنه لما أراد أن يحلق قرون شعر الرأس عن سيد عثمان قالت له والدته أي والدة سيد عثمان لا تحلق شعر رأس ابني حتى تعطيه سلم جارية لشيخنا كانت إذ ذاك صغيرة، فقال: إن شئت أعطيته سلم وإن شئت أعطيته مقام الشيخ عبد القادر الجيلي فاخترت له مقام الشيخ عبد القادر الجيلي، فقال لها قد أعطيته إياه. اهـ.

وحدثني أيضا محمد المامون أنه سمع الشيخ حفظه الله ورعاه يقول لسيد عثمان كل واحد من أبنائي يمكنني أن أخلي عنه وأطلق له التصرف في التخلف عني إلا أنت فإنني أريدك لما لا أريدهم له. اهـ.

وسمعت محمد المامون أيضا يقول إنه سمع الشيخ يقول: أما أنا فأشهد على خصوصية سيد عثمان وأحمد الهيب، وسمعت يومًا قال إن سيد عثمان هو أحب أبنائي إلي، وسمعت يومًا قال: ليس سيد عثمان منكم إنما هو من أهل مامين الأقدمين، قال ذلك في مقام الإعجاب، وسمعت أخاه محمد الغيث يقول: ما أعلم أحدا اختصه الله تعالى تخصيص عناية بلغ مبلغ سيد عثمان، وسمعت هذا هكذا حرفا بحرف من أخيه محمد تقي الله بمحضر الجم الغفير من الناس.

وسألت الولي الكامل سيد المختار بن شيخنا عن أكمل من يعلم من الناس غير الشيخ فقال لي أكمل من أعلم من الناس بعد أبي أخي سيد عثمان أو محمد الغيث، وحال سيد عثمان أشد في تأثيرا من غيره. اهـ وسألت أيضا الولي العالم العارف بالله تعالى صاحب الكشف الكبير: محمد الحسن بن شيخنا عن أكمل من يعلم غير الشيخ؟ فقال لي: لا أعلم أحدا بعد والذي أكمل في درك العناية من سيد عثمان ولا أعلم من الأولياء مثله ألا ترى إلى قلبه لا نصيب فيه للدنيا وليس فيه قابلتها بل إنما هي في اليد لا في القلب، ولا يحسن إمساكها بل قلبه مثقوب فتسيل منه. اهـ. وسمعت يوما محمد الغيث ذكر بحضرته وليا لله تعالى مشهور الولاية ظاهر الاستقامة كثير الكرامة من أبناء شيخنا، فأنتى عليه غاية الثناء حتى رأيت أن قد أدى حقه، ثم قال: والله لنومة واحدة من سيد عثمان خير منه.

وسمعت أخي محمد جد بن المختار بن اخيار يقول حدثه الطالب اخيار بن شيخنا أنه كان ليلة مضطجعا يقظان ولم يدر إلا وهو مضطجع على الفرش يعني الأرض السابعة السفلى وإذا بحيتان البحار وضفادعها وأجناد ساكني المياه ومن هناك من الملائكة تسبح الله فقال: ما هذا فقيل له إن كل هذا التسبيح لأخيه سيد عثمان في مقابلة إنفاقه.

وأخبرني أيضا بعض أبناء شيخنا من أهل الكشف أنه كان قد أصابه غضب على بعض إخوته فلم يلبث أن أتاه ملائكة بسيد عثمان ومحمد تقي الله فقالوا له: هذان هما رؤسائهم فافعل فيهم ما يبدو لك.

وسمعت الشيخ أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته في عافية ونعيم يثني على سيد القوم رحمة الله علينا وعليه أكمل الثناء.

وحدثني من أثق به أنه سمع شيخنا يقول: ما أعلم أحدا أكمل في تقوى الله من سيد محمد، وبلغني ممن أثق به أن الولي محمد اتق بن اطالب بيكر كان يقول: أشبه أبناء الشيخ به سيد محمد، وحدثني من أثق به أنه سمع محمد المامون بن شيخنا يقول: قال شيخنا: أما سيد محمد فما من فائدة ظاهرة ولا باطنة إلا وهي فيه. اهـ.

وسمعته أيضا قرأ في الحديث أن من سبقه ولد صالح له من الأجر كذا وكذا فحمد الله إذ سبقه سيد محمد ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وسمعت الشيخ أعز الله جنابه الكريم واطال حياته في كل ما يرجو من المولى الرحيم يثني على ابنه محمد الحسن ثناء بليغا، وحدثني أخوأي محمد مولود بن عبد رحمه الله ومحمد العرب بن ابات أنهما رأيا محمد الحسن مضطجعا في المسجد والشيخ فيه إذ ذاك وكثيرا ما يلتفت إليه ويقول: ما أكثر ما تنظره هاتان العينان من الكشف. وحدثني بعض أبناء شيخنا ممن أثق به أن إحدى أمهاتنا ممن يوثق بروايتها أخبرته أن الشيخ أعز الله جنابه، وأقر فيه أحبابه أخبرها أن قدر أراه الله في أبنائه رؤيا، فرآهم مضطجعين في صدر أحد بيوته إلا محمد الحسن فإنه جالس غير مضطجع، قال: فعلمت أن لمحمد الحسن خصوصية عظيمة.

وحدثني اطالب أبو بكر بن شيخنا أنه أتى الشيخ ليلة بلبن ناقة أصلها لمحمد الحسن فقال الشيخ: نحها عني إن المرید إذا قضيت حاجته وصار وليا لا خير في ماله. اهـ. وحدثني محمد المامون أنه سمع شيخنا يقول: لما عزمتم على طلاق عيش بنت الحسن قبل أن تلد محمد الحسن قيل لي: ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾ وسمعت محمد المامون أيضا يقول إنه سمع الشيخ يقول: إن عيني محمد الحسن كعيني مامين، وسمعت أعز الله جنابه ومتم بطول حياته أصحابه وأحبابه ما شاء الله لا قوة إلا بالله يقول في محمد تقي الله إنه مثله، وسمعت ليلة ونحن في سفر قال لتلميذه البخاري بن المختار: هل عشيت فرس محمد تقي الله؟ فقال البخاري: أريد أن أعشي قبلها فرسكم أنتم، فقال: قدمها فإن أباه الشيخ محمد الامين الأدهم كان يقول: من بجله الله نبجله ونحن نقول: من قدمه الله قدمناه، وسمعت أيضا قال: لما توفي الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود جعل محمد تقي الله في خلافته وبلغني بعد ذلك من عند محمد المامون أنه سمع الشيخ حفظه الله ورعاه قال: ولم يمكث في مقام الشيخ سيد محمد إلا مدة يسيرة ثم تجاوزه، وسمعت محمد المامون بن شيخنا يقول إنه سمع الشيخ حفظه الله ورعاه يقول إن لمحمد تقي الله لشأنا فإنه ولد وفاة الشيخ سيد محمد الخليفة بن الشيخ سيد المختار، وجذب وفاة الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود. اهـ.

وحدثني من أثق به من أبناء الشيخ وهو محمد المامون أنه سمع الشيخ يقول: أما محمد تقي الله فإنه قد أخذ صاحبه واستكفى به فكفاه، يعني بصاحبه الله، وسمعت

أعز الله جنباه الكريم وأطال حياته في العافية وكمال النعيم يقول: ما عاتبت محمد تقي الله إلا لأظهر كرامته وفضله، فقد قالوا بالامتحان يكرم المرء أو يهان. اه
وسمعت شيخنا أيضا يقول: ما وجد مني أحد ولا أخذ مني من البركة ما وجد ابني محمد تقي الله، ثم قال للمخاطب: اعلم ذلك وتيقنه.

وسمعت أيضا محمد المامون يقول إنه سمع الشيخ يقول إن كانت كرامة الله للشيخ سيد المختار بابنه الشيخ سيد محمد فقد أكرمني بابني محمد تقي الله لقد بلغ مبلغ الكمال. اه.

وسمعت الشيخ أعز الله جنباه الكريم وأطال حياته في كمال العافية ودوام النعيم يثني على الحضرام أكمل الثناء ما شاء الله لا قوة إلا بالله ويشير إليه بالتخصيص والاصطفاء.

وحدثني محمد المامون أنه سمع شيخنا يقول: الحضرام ابن ضلعي هذا حتى كأنه ما مر بامرأة بعد بل كأنما خرج مني إلي وحدثني من أثق به أنه سمع الشيخ أطال الله بقاءه وأكمل في كل المعالي ارتقاءه يقول للحضرام: أما أنا فقد قمت أولا جاعلا لمحمد تقي الله بين عيني حتى أعطاه الله خيرا كثيرا ومنذ ثلاثة أعوام اجتهد في شأنك فأعطاه الله ما ففته به هو وغيره، أو كلاما هذا معناه. اه.

وسمعت أيضا ممن أثق به قال إنه سمع الشيخ قال للحضرام قد فككت عنك ربة وثاق الإرادة وأطلقت لك التصرف في نفسك، ولم يبق لي عليك إلا أن لا تتساني، وكن معي بهمتك فيما أنا فيه. اه.

وحدثني أيضا الأخ الصالح محمد الامين بن عبد الوهاب أنه كان قبل إتيانه إلينا رأى أن شيخنا قال له: إيتني ثم أتاه أيضا بعد ليال وقال له: ألم أقل لك إيتني فقال: لم أتحقق أن القائل أنت فقال له الشيخ: بل هو أنا، فانظر إلي فإني شبيه بالحضرام.

قلت: وقد رأيت ليلة أني وإياه طائران فيما بين السماء والأرض ولكل منا نور صاعد إلى السماء، فلما قصصت الرؤيا على الشيخ وكنت فيها بين النائم واليقظان، قال لي الشيخ: لقد جمعت ما بين الحقيقة والشريعة. اه. ولقد رأيت في بعض الليالي وإني إلى اليقظة لأقرب الله تعالى يقسم شيئا على الكبار من أبناء الشيخ فإذا حظ الشيخ سيد عثمان في عناية الله أو شهود الله أو محبة الله فلم يبلغه أحد وأما سيد محمد

رأيت ثعبانا عظيما أسود على صورة الكلب رابضا عند بيته أو عند خاطره وأما محمد بن الحسن فله من العلم مبلغ لا يدرك، وأما محمد تقي الله فكرامته في الأبناء، ورأيت الحضرام اقتطف من حظ كل وسمعت محمد عبد الوهاب يقول: لا أعلم أحدا غير شيخنا أكمل استقامة من الحضرام، وسمعت محمد المامون يقول إنه سمع محمد المصطفى يقول تلك المقالة بعينها عن الحضرام. اهـ.

وسمعت أيضا محمد المامون يقول إنه سمع محمد الحسن يقول: لا أعلم أحدا أكمل ورعا من أخي الحضرام. اهـ. وسمعت أيضا محمد المامون والطالب أبا بكر يقولان إنهما سمعا شيخنا يقول لأبنائه: ألا فدعوا عنكم أبناء اخديج بنت الشيخ محمد الأمين الأدهم فإنكم لستم مثلهم ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وسمعا أيضا يقول: دعوا لي أبناء بنت الشيخ محمد الأمين الأدهم فقال له محمد المامون نعم ها هم قد تركناهم لك فقال له الشيخ حفظه الله أحسنت لله أمك ثم قالها الطالب بو بكر وبعض الحاضرين.

وحدثني محمد المامون أنه سمع الشيخ عمره الله في العافية يقول: الحضرام والقطب لي، ومحمد تقي الله والول ومحمد الغيث لأبيهم الشيخ محمد الأمين الأدهم، وكنت كثيرا ما أسمع الحضرام يقول: لا أعلم أحدا لا وعاء للشر في قلبه إلا أخي الولي، وكثيرا ما أسمع سيد عثمان يثني على القطب ويقول: لا أعلم أحدا مثله، وسمعت الشيخ حفظ الله ساحته وأطال عمره في عافية يقول: لما ولد ابني اطالب اخيار كنت ليلة جالسا في البيت عندما أتيت من المسجد إذا بأبوي مامين وأبيه اطالب اخيار آتيان عامدان إلى بيت أمه فلما قريا منه توقف اطالب اخيار وتقدم والدنا مامين حتى دنا من البيت ثم وقف فقامت إليهم فدخلت البيت وأخذت الصبي فأتيت به أبي مامين فناولته إياه فأخذه ناوله أباه اطالب اخيار فدنا منه بفيه مرتين أو ثلاثا ثم قال له: أنت ابني وأنت أبوهم مرتين أو ثلاثا قال: فلأجل ذلك سميته عليه.

وسمعته أيضا يقول: إن الطالب اخيار يوم ثامن ولادته كانت أمه جاعلة له في ظل بيتها صباحا ثم قامت لحاجتها فأتته فرس عظيمة تسنن فوضعت رجليه على بطنه من غير جرح ولا تأثير، قال: فتعجبت من ذلك بم ناله فلم ألث أن أرسلت لي أمي

أخديجتن أنها قد تعجبت من شأنه فقيل لها: إن الكرامة التي أوتيتها ابنك الصبي الصغير لا يؤتاها إلا أكابر أولياء الله تعالى ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وسمعت محمد المامون يقول إنه سمع الشيخ أطال الله حياته يقول: أما اطالب اخيار فما أكرمه الله به سابق عناية لا يعمل له فيه ولا احتيال. اهـ وسمعت الشيخ أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته في العافية وكمال النعيم يقول إن سيد محمد بن أحمد الاسود قال في شأن سيد المصطفى بن شيخنا عسى الله أن يحضر أباك فيما سيعطيك من نعمه ويظهر عليك من فضله، وقال في محمد الاغظف: هذا ولي كبير ستهرب منه الجبال، وسمعت محمد تقي الله بن شيخنا يحلف أن محمد الاغظف بن شيخنا لقد استكمل الآن إرث الشيخ محمد الاغظف ما شاء الله لا قوة إلا بالله حتى لو كان وعاء فيه شراب فشرب جميع الشراب وألقى بالوعاء وقال: ما ترك محمد الاغظف لأبناء الشيخ محمد الاغظف من أبيهم شيئاً. اهـ.

وكان محمد الامام بن المختار بن الحاج عيسى يقول: أما أنا فما قضى الله لي حاجة ولا كنت لي نفعاف بحاجة إلا على يد محمد الاغظف بن شيخنا وأما هو فما أتته في حاجة قط إلا قضاها الله. اهـ.

وسمعت محمد المامون يقول إنه سمع شيخنا يقول: أما أنا فأشهد أن ابني محمد الاغظف سلم من خاطري فلا يعذب بحق لي في الآخرة، وسمعت شيخنا حفظ الله جنابه وأطال حياته في العافية على ما يرضى أولاده وأحابيه يقول ليلة ولادة أحمد الهيب أته تلميذة له ولية يقال لها عيش بنت سيد احمد فقالت له: رأيت الملائكة تنزل من السماء لولادة صبي يولد لكم الليلة ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فولد أحمد الهيب تلك الليلة وسمعت أعز الله جنابه الكريم وأطال في العافية حياته دائم السرور والنعيم يقول إنه عزي في مصيبة ابنه أبي الفتح بسيد عثمان وأحمد الهيب. اهـ. وسمعت الشيخ أعز الله جنابه الشريف وأطال حياته في أكمل عافية وأحسن يقول في ابنه سيد المصطفى هو الذي له الخيار ولفظ كلامه سيد عثمان ومحمد تقي الله مثلي، وسيد المصطفى ومحمد الغيث خير منه، وحدثني الشيخ المصطفى بن أحمد بن عبد الدائم أنه سمع شيخنا يقول: وقد سمع سيد المصطفى يبكي فقال: من أبكى سيد المصطفى فقيل له: فلان يعنون بعض التلاميذ

فقال: ما أحسن فلان يبكي ولدي ماء العينين وقد رأيت الملائكة يلوون له لوائى فوق السماء، وسمعت محمد المامون يقول إنه سمع الشيخ أطال الله حياته قال: كنت أعزم على إمساك ماء العينين معي فلما رأيتَه إذا هو أجرى الله على يديه من فضله ما لا تسعه فيه أرضي فإن فحلين لا يهادان في دولة. اهـ.

وسمعت محمد المامون قال إنه سمع شيخنا قال: لقد رفع الله صيت الشيخ سيد المختار بابنه الشيخ سيد محمد الخليفة، وجعل الله رفع صيتي في ابني ماء العينين، ومن أخبار أهل الله تعالى عن ماء العينين لما قدم مكة حاجا وجد بها وليا مكاشفا مشهور الولاية يقال له عبد الرحمن أفندي فتلقى له ذلك الولي وقال له: أخبرني بك الرسول عليه الصلاة والسلام وأعلمني بقدمك وأخبرني إن عندك السر الذي تقوم به الدنيا وأمرك أن تعطيني سر الحاء وأخبرني أنك ابنه وأن أباك هو القطب وأمري أن أحج عنه وأخبرني أيضا محمد عبد الوهاب أن عبد الرحمن أفندي كان مواصل الإحسان على ماء العينين إظهارا لفضيلته، وكان الشيخ حفظ الله ساحته، وأطال مدة حياته كثيرا ما يثني على ابنه قطب العارفين ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وحدثني محمد المامون أنه سمع الشيخ يقول إن قطب العارفين ما من شعرة منه إلا وتحتها حكمة.

وسمعته يوما قال: أما القطب فقد أوتي الحكمة، وقال تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾. اهـ.

وقد سمعت أخاه سيد عثمان يقول: ما بلغ أحد في نفسه ما بلغه أخوه القطب إعجابا به وتعظيما لشأنه.

وحدثني محمد المامون أنه سمع محمد تقي الله وقد قرأ عنده أبياتا من مطية المجد ونصها:

واعلم بأن شرف النفس على قسـمـين أهله كمالك جلا
قسـم فيه الله خلق القوة تحمل أنوار التحلي مثبت
ربانيه نيران حب تكتـم في سويداء قلبه لا تعلم

فاهتز محمد تقي الله غاية الاهتزاز وقال: مثل أخي القطب اهـ.

وحدثني أيضا محمد المامون أنه سمع الشيخ أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته في العافية وكمال النعيم يقول: أما القطب فإني لا أعده من أبناء أمه بل إنما أعده لي كله. اهـ.

وسمعت شيخنا اطال الله حياته وأكمل له المنى يقول إن ابنه محمد الغيث خير منه ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ونص كلامه قال سيد عثمان ومحمد تقي الله مثلي، وماء العينين ومحمد الغيث خير مني، وسمعتة يوما وقد رأى محمد الغيث في صغره يلعب مع بعض إخوانه أكبر منه فقال له: يا محمد الغيث أتلعب مع فلان؟ فتعجبت من ذلك لأن فلانا أكبر منه وتبسمت فالتفت إلي الشيخ حفظ الله ساحته وقال لي أتعجب من قولي له لا يلعب مع فلان فإنه والله خير من فلان.

وحدثني محمد المامون واطالب أبو بكر بأن شيخنا حدثهم أنه عند ميلاد محمد الغيث وجد الملائكة في السماء يسمونه ويجعلون له اللواء على رأسه فقال بعضهم: اسمه محمد الغوث، فقال ملك آخر بل اسمه محمد الغيث، لأن الغيث أعم من الغوث. اهـ.

وحدثني محمد المامون أنه سمع شيخنا يقول: إن كان الله أعطى أهل فوطة كوريا يعني الأدهم فقد أعطاني كوريا أفضل منه وهو محمد الغيث وكان الشيخ أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته في العافية والنعيم يقول إنه كان قد نادى مناد في السماء هلموا لقسمة تركة الشيخ محمد الامين الأدهم فابتدره الصالحون وأتى شيخنا فأخذوا أربعة كتب حسان وقالوا: هذا لابنته اخديج ودفعوا له هو ذاك، ثم أخذوا كتابا آخر ليس مثله كتابا وقالوا: هذا كتابه الخاص به فدفعوه له أيضا، وقالوا: ليس يدخل في التركة وأعلموه أنه محمد الغيث.

وسمعت الحضرام ومحمد تقي الله يحدث أنه سمع الشيخ أطال الله حياته يقول إنه لما أراد الله دخول محمد الغيث بطن أمه أتى الشيخ ملك ومسح على ظهره وقال: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾ وكان الشيخ أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته وكرمه كل التكريم يقول: لم أكن أدري فائدة الأولاد قبل ابني محمد عبد الوهاب ما شاء الله لا قوة إلا بالله. حدثني بهذا غير واحد ممن أثق به وسمعت محمد المامون قال إنه سمع الشيخ يقول إن محمد عبد الوهاب

أمان لكل أرض دخلها، وحدثني من أثق به إنه سمع الشيخ قال: إنه قيل له في محمد عبد الوهاب: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ الآية وسمعت محمد تقي الله يقول ذلك فيه أيضا، وحدثني محمد الحسن أنه سمع الشيخ أطال الله حياته يقول: أما الذرية الصغار فأحياها قلبا محمد عبد الوهاب ومحمد المصطفى وحدثني محمد المامون أنه سمع الشيخ يقول: ما أحد يسرني ما له ما يسرني ما لمحمد عبد الوهاب، وكذلك أيضا كان يقول إخوته سيد عثمان ومحمد تقي الله والحضرام وغيرهم من إخوانه: وكان الحضرام يقول: لا أعلم أحدا تذكر فيه أي خلقا وخلقاً كأخي محمد عبد الوهاب، وبلغني ممن أثق به أن الشيخ سيدي لما أتاه محمد عبد الوهاب مسافرا لقبه الغوث بن الغوث، وسمعت محمد البيضاوي وكان معه في سفر يقول: لا أعلم أحدا أرق قلبا من محمد عبد الوهاب، وكان الشيخ أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته معافى مكرما في الأكوان كل التكريم يثني على ابنه اجيه المختار الثناء البليغ ما شاء الله لا قوة إلا الله وسمعت محمد المامون يقول إنه سمع الشيخ يقول في اجيه المختار إنه صاحب خصوصية وكذلك أيضا سمعت إخوته يثنون عليه بها فلقد سمعت سيد عثمان يثني عليه بها منذ صغره، وسمعت محمد الحسن يثني عليه بها وحدثني به عن رواه عن سيد محمد رحمه الله وما قد أظهره الله فيه أوفر وأكثر وأتم وأغزر، فلقد رأيته يسافر مع البليد المقفل فيرجع من عنده عارفا بالله تعالى ممتلئا أنوارا مشاهدا عظمة ربه يخافه فيما بينه وبينه، وسمعت محمد المامون يقول: سمعت الشيخ يقول: اجيه المختار له يقين بي لا يتعسر عليه شيء لأجل ذلك. اهـ وقد عن لي أن أسكت عن لم أنكره فيما قدمت من أبناء الشيخ اقتداء بكتاب الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ فما سكت الله تعالى عن لم يقصصه على نبيه عليه السلام من رسله استخفافا به ولا استهانة بأمره بل بأمر اقتضته الحكمة الإلهية، ولأنه قال له: ﴿وكلا نقصص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ وقال: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ وقد حصل تثبيت فؤاده عليه السلام بذكر من قص ربنا جل وعلا خبره منهم وكان غرضي في هذا التمهيد الفائدة على تصديق أولياء الله تعالى فيما أخبروا به من كرامات الله تعالى، لهذا الشيخ بكون أولاده أولياء كلا،

وبذكر ما ذكرت يستدل على ما لم أذكر بطريق المساواة في المعنى المقصود في الذات وهو حصول الولاية الكبرى والخصوصية العظمى لأبناء هذا الشيخ من غير نظر إلى السابق في ذلك واللاحق إذ لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا بالوحي وقد انقطع، أو بالكشف وأنا لست من أهله كلا ولا من فرسانه بل ولا ممن يرتع في ميدانه، وأما ما أخبر به الشيخ أعز الله جنباه الكريم من قوله: فلان مثلي أو فلان خير مني، أو نحو ذلك فإنما هو إخبار عن المعقول فيه، ويمكن أن يكون المسكوت عنه خير ممن قيل فيه ما قيل، ودائرة الممكن تحتل كل ما لم يقطع الشرع العزيز باستحالته، قلت: وأما حديث عبد بن عمر كنا نفضل بين أصحاب رسول الله ﷺ على عهده، فكنا نفضل أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم نسكت عن أصحاب رسول الله ﷺ وحديث محمد بن علي: سألت أبي علي بن أبي طالب فقلت له: يا أبت من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ قال: أبو بكر، فقلت: ثم من، قال: ثم عمر، فعلمت أنني إن سألته أيضا قال عثمان، فسبقته فقلت: ثم أنت فقال: إنما أنا رجل من المهاجرين.

وحديث عائشة وقد قيل لها من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ فقالت: فاطمة فقيل لها: ثم من؟ فقالت: ثم بعها، فإنما ذلك لعلم رواية عندهم من رسول الله ﷺ كقوله في أبي بكر، فوالذي نفسي بيده ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء بعد النبيين أفضل من أبي بكر، وقوله: إن لي وزيرين من أهل الأرض ووزيرين من أهل السماء، أما وزير أهل الأرض فأبو بكر وعمر، ووزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل، وكقوله في علي: علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وقوله: علي مني كريقي في فمي، وقوله له: أنت مني وأنا منك، وحديث: مؤاخاته له دون غيره من المهاجرين والأنصار فهذه الأحاديث كلها يسوغ بضمونه هي وأمثالها التفاضل بين أهل الفضل ومن لا فلا بطريق الكشف الإلهي وهو حجة في غير إثبات الأحكام الشرعية به قال في المراقي:

في غيره وفيه القطع لأجل كشف ما عليه نفع
والظن يختص بخمس الغيب لنفي علمها بدون ريب
قال في شرحه يعني أن غير حكم الله تعالى من فراسات الصالحين بعض منه
يحصل فيه الظن وبعض منه يحصل فيه القطع، وقوله: "لأجل كشف ما عليه نفع":

أي لأن الله تعالى يكشف عما عليه نفع أي غبار قوله: والظن يختص إلخ قال يعني أن الظن خاص بخمس الغيب المشار إليه بقوله جل وعز: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت. اهـ

وقد رأيت في الحاشية المسماة باللباب في علم الكتاب هنا ما نصه: هذا في غالب الأمر، وقد يطلع الله عليها بعض النفوس الطاهرة كنفوس الأنبياء والأولياء. اهـ. وأما القاعدة الثالثة فهي ما أظهر الله تعالى على أيديهم من علامات الأولياء وسيما الاصطفاء فقد ورد في الخبر عن النبي ρ أن أولياء الله هم الذين إذا ذكروا ذكر الله أخرجهم الطبراني من رواية سعيد بن جبير وأجل البغوي من غير سند عن النبي ρ أنه قال: قال الله تعالى: «إن أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم» وورد في الخبر أيضا: إن أولياء الله هم المتحابون في الله، فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ρ: إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، بمكانهم من الله، قال: يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله من غير أرحام ولا أموال بينهم، أخرجهم أبو داود، ومعنى بروح الله أي على دين الله.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ρ يقول: قال الله تعالى: «المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء» أخرجهم الترمذي، وقال أبو بكر الأصبم: أولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة إليه، وأصل الولي من الولاء وهو القرب والنصرة، فولي الله هو الذي يتقرب لله بكل ما افترض عليه، ويكون مشتغلا بالله مستغرق القلب في نور معرفة جلال الله، فإن رأى رأى دلائل قدرة الله وإن سمع سمع آيات الله، وإن نطق نطق بالثناء عن ذكر الله، ولا يرى قلبه غير الله فهذه صفة أولياء الله وإذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه، قال الله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ وقال المتكلمون: ولي الله من كان آتيا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ويكون آتيا بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿الذين آمنوا﴾

وكانوا يتقون ﴿ وقال بعض العارفين: إن الولاية عبارة عن القرب من الله ودوام الاشتغال به. اهـ.

قلت: وكل هذه الصفات مشهودة في أولاد هذا الولي فهم والله الحمد المداومون لذكر الله آناء الليل والنهار قد عمروا به الأنفاس واستغنوا به عن محادثة الجنة والناس حتى صار ذكر الله شعارهم وتقواه دثارهم فعرفوا به دون غيرهم من أهل عصرهم فكان الله يذكر لرؤيتهم ويذكرون بذكره كما يشهد له العيان المغني عن النعت والتبيان الكافي عن الدليل والبرهان فلقد رأيت الناس ربما تكون مشغلة بشؤونها في أمور دنياها فإذا رأت منهم قادمة ذكرت الله كلها أو بعضها وهم والله الحمد المتحابون في الله دون ما بينهم من النسب حتى لم يكن للنسب في تلك المحبة من سبب وهم المحبون لأهل الله أقارب كانوا أو أجانب وتلك هي قاعدة الولاية ومنشور العناية يروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام يا موسى: هل تقربت إلي بشيء فقال: نعم يا رب تقربت إليك بصلاة فقال: جل وعلا أما الصلاة فهي لك نور فقال: بصيامي فقال: أما الصوم فهو لك جنة وحصن فقال بذكرى إياك فقال أما ذكرك إياه فإني أذكرك في مقابلته، فقال: يا رب وما القربة إليك فقال: يا موسى: وهل واليت وليا من أوليائي في أو معادة أعدائه في قلت وأما قوله عليه السلام هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتبادلونها فالمراد منه المحبة في الله على غير ثبوت الرحم ولا معاطاة الأموال كانتا حاصلتين أم لا كما يدل لذلك حديث معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ: المتحابون لجلالي لهم منابر من نور فإنه ما اشترط في محبتهم إلا كونه لجلاله أي على دينه، ولأجل هذا المعنى كانت محبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وإخوانهم من الصحابة فيما بينهم أو لمحبتهم لرسول الله ﷺ بجلال الله وإن كانت بينهم الأرحام ومعاطاة الأموال. اهـ.

قلت: وقد أظهر الله تعالى في أولاد هذا الولي من كل هذه العلامات أعني مداومته في ذكر الله والقيام بخدمته على مراعاة حرمة والمحبة فيه حتى لقد شاهدت الناس كثيرا ما يقولون عندما يسمعون أحدا يذكر الله تعالى: لعل هذا من أبناء الشيخ محمد فاضل أو تلاميذه. اهـ وفي الخبر عنه ﷺ: ما حيل ولي لله إلا على السخاء، وفي رواية ما حيل ولي الله إلا على خصلتين السخاة والأناة أي التأنى وقد أظهر الله

تعالى في أبناء هذا الولي من السخاء والتأني وحسن الخلق ما لا يكاد يدخل تحت حصر ولا يكتنفه لوح فكرهم أسخياء عصرهم وكرمهم دهرهم، وفضلاء غيرهم، فكانت الأموال بينهم فوضى، وسيرهم فيها كما ينبغي ويرضى، تقر عيون المحبين، وترغم أنوف الحاسدين، لا يعدونها إلا لسد الواجبات أو تحصيل القربات أو قرى الأضياف وتحف العفاة إلا للتعيم والترفهاة، يرون أعراضها فانية وعقباها باقية، فيؤثرون فيها الباقي على الفاني ويختارون الآتي عن الماضي لم يرتعوا في رياضها ولم يكرعوا في حياضها، ولا تنزهوا في فياضها، بل أخذوها من محض حلها، ووضعوها في عين محلها فلقد كانوا ينفقونها في السراء والضراء يصلون بها الأرحام ويغتمون بها الكرام من غير سرف ولا تبذير بل كما أمرهم العليم الخبير وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ما شاء الله لا قوة إلا بالله. اهـ.

وكانت أناتهم وتثبتهم في الأمور وحسن أخلاقهم أمر لا يحصيه ولا يحيط به إلا علم خلاقهم فما وجدت إنسانا عاشر منهم أحدا إلا قال إنه خيرهم ثم إذا عاشر غيره بعده أنساه الأخير من قبله سير الأنبياء وسيماهم سيما الأولياء وخيمهم خيم الفضلاء ومآثرهم مآثر الكرماء وأحوالهم أحوال الصديقين من العلماء، وبيوتهم بيوت السلاطين الأتقياء العارفين بالله الفقهاء مجالسهم مجالس العلم والحكمة وذكر الله وشكر النعمة يود جلسهم إذا جلسوا أن لا يقوموا، وإذا اجتمعوا أن لا يتفرقوا وإذا حدثوا أن لا يسكتوا ما اجتمعوا على عبث ولا شتم ولا سب ولا لغيبة ولا قول هجر ولا تفرقوا عن مذمة ولا نميمة ولا عن سخط ولا ضجر يغتمون رضى الله برضى أبيهم وشيخهم ويسارعون إلى ما يروونه أحسن عنده يبرونه في كل من ينسب إليه من عبد وخدام وغيرهما، ويراعون حرمة في قبيلته ومريدين وغيرهما، بروره شعارهم ومحبته دنارهم، وسيرته لا تميل لغيرها أبصارهم يحبون صغار أولاده ويعظمونهم كما يعظمونه بنفسه يحملونهم على رقابهم ويؤثرونهم على أنفسهم وأعقابهم فلقد رأيت سيد عثمان حمل سعدا على رقبته وهو صغير في رحيل طويل ولم يرض أن يجعله خلفه على كفل الفرس ولقد رأيت محمد المعلوم أكمل الله عليه النعيم وفتح له في كل علوم كاد أن يظل اليوم أو أكثره غير ما يوم حاملا أحدهم على عنقه لا ينزله عنه لحظة وهو مسرور بذلك كأنه حامل للشيخ بنفسه ولقد رأيت في سيد المختار والطالب أبي

بكر من ذلك ما ذكرني بحال محمد تقي الله وأحمد الهيب قبلهما، وكان الحضرام يقول: ما وجدنا للدنيا لذة في صغرنا حتى كبر أخونا سيد عثمان فصار لنا فراشا ووساد وظلا ومهادا وقرينا معتادا وكذلك أيضا كان محمد تقي الله يقول: وكانوا يعظمون أزواجه وإماءه ويراعون لهم حرمتهم كحرمة ويقومون بخدمتهم كما يقومون بخدمته يدعونهم بأحب أسمائهم إليهم نحو: يا أمي ويا أمنا ويا كذا وكلما علموا لإحداهن اسما تحبه جعلوا يدعونها به حتى يصير لها علما بالغلة بحيث يكون ذكرها به أكثر من ذكرها بغيره، وكانوا يراعونه في أصهاره ويجعلونهم إخوانهم ويكرمونهم حتى يكادوا يجعلونهم أمثالهم فما رأيت صاهرا أحدا إلا جعلوا له عليهم نمة وعهدا وكانوا يحفظونه في إخوته وأخواته وبنوهم فلقد رأيتهم لا يقولون للعباس إلا عمي أو عباسي بالإضافة وكثيرا ما أسمع سيد عثمان يقول: أعوذ بالله أن يسألني عمي العباس شيئا إلا رجع به هو أو رسوله لأن من لم يراع الشيخ في أخيه يعز عليه أن يراعيه في نفسه، وكانوا يلقبون أخته فاطم شعوانة بفاطم أمي حتى صار ذلك لها علما تكرمة للشيخ وتعظيما لحرمة وبرورا لجانبه، وكانوا يعظمونه في أبناء إخوانه وأخواته، ويرون لهم عليهم من حق الشيوخية قريبا مما يرونه للشيخ بنفسه، وكانوا ولله الحمد يعظم كلهم الآخر ويحبه في الله ويحترمه احترام الشيخ بنفسه ولا يمنع أحدهم أن يقبل يد الآخر أو رجله إلا احترام الشيخ بحضرتة وتعظيمه فيستحيي أحدهم أن يستعمل ما اختص الله به الشيخ لغيره بحضرتة في البلد ففي الخبر: كانت الصحابة رضوان الله عليهم لا يتبرك أحدهم من الآخر بحضرة النبي ﷺ، وقد اختلف في حضرتة هل المراد بها البلد أو المجلس، فإن كان المراد المجلس فيكون تقبيل يد غيره في مجلسه سوء أدب معه وإن كان المراد بالحضرة البلد فيكون المجلس أخرى بالترك، فلقد حدثني أخي موسى بن إبراهيم رحمه الله أنه سأل الشيخ هل يقبل أيدي أبنائه الشرفاء بحضرتة فأبى عليه ذلك، ولقد أمرني أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته في كمال العافية ودوام النعيم أن أنهى أخي اليزيد بن محمد ناجم أن يقبل أيديهم بمجلسه، ولقد رأيت بعض كاتبه هل أدع الناس تقبل يدي أم لا، فكتب الشيخ له أما بحضرتي فلا وأما غيرها فلا بأس. اهـ. وكانوا يعظمونه في أنصاره ويراعونه فيهم فكانوا يدنون ويودون أهل وده ويرون لهم الحق عليهم، ولقد رأيت ماء العينين

بأرض تكب يتبرك من الحجارة ومن عشبة غنف التي يقال لها إني ويتركه عالقا به تبركا به لأنه في أرض الحوض وتلك أرض الشيخ، وهذا كله أدل دليل على ولايتهم لله تعالى وولايته إياهم، فقد قال ابن عطاء الله في حكمه: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه وفي بعض الأخبار عن الله تعالى: معرفتي أهون من معرفتهم ولا يعرفهم إلا أشكالهم الطاهرون دخلوا عليهم بمحبتهم وتلاوة أسماء. اهـ.

وفي الخبر عن النبي p: راع أباك يرعك ابنك، ومن كلام علي رضي الله عنه: بر الوالدين سلف وفي الخبر عنه عليه الصلاة والسلام: ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قبض الله له من يكرمه في سنه. اهـ.

وأما استقامتهم فمعاذ الله أن يتقدمهم في الاستقامة متقدم أو يدركهم فيها مستقدم فهم أهل قيام الليل وصيام النهار ودوام التلاوة والأذكار والدعاء والاستغفار بالأسحار، ومن أتى خيامهم ليلا أو مسجدهم أو مجلسهم ظن ملائكة السماوات ينزلون إلى الأرض فهم رعاة الشمس والقمر والنجوم والظلال للصلاة حذار أن يدخل أمر مولاهم إلى وجدهم متأهبين لهم مستعدين لتأديته بيتدئون الطهر قبل وجوبه ولا تنتهم مشقة الأمور به عن ركوبه، فاستقامة جوارحهم بتبرك ما نهاهم عنه مولاهم وابتدار ما إليه قد دعاهم وناداهم غاية الإدراك لا يدرك مداها ومرتبة لا ينال أقصاها بل ولا أدناها. اهـ ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وأما أحوالهم مع الله تعالى في قلوبهم فأمر خفي لا سبيل إلى الاطلاع عليه إلا بالكشف أو إخبار الأولياء عنه، أما إخبار الأولياء فقد تقدم منه ما يكفي ويشفي، وأما الكشف فلست من أهله لكني منذ استهل شهر ذي الحجة عام أول جعل الله في قلبي شيئا ما رأيت عيني وليا لله تعالى إلا عرفته غالبا، وسبب ذلك أني عام أول كنت في دور ولاتة مسافرا وكنت جالسا بعد العصر فلم يرعني إلا أن ألقى علي شيء كالنوم حتى غبت عن وهلي فإذا بي وقد تجردت للشيخ أعزه الله تعالى وأطال حياته في العافية، وما يرجوه من المولى من جميع ما أملك من قليل المتاع، فعندما تجردت له منه إذ بنفسني كالمرأة الصافية، أرى بها النفوس والأرواح كما أرى بالبصر المحسوسات من الأشياء، فلما قدمت على أهله تجردت له منه كما رأيت وقصصت

عليه في ذلك ما رأيت فقال لي: أما تجردك لي منه في الباطن فقد كفاك وأما في الظاهر فلا لأنني قد أعددت لبناء بيت ابنتي وما رأيت بعد ذلك ولما إلا عرفته، وذلك زعمي والله تعالى أعلم بغيبه، وأدرى بالحق والصواب، وأنا أشهد شهادة أقوم بها بين يدي الله تعالى أن عيني ما أبصرت من أولاد الشيخ محمد الفاضل أحدا إلا وهو ولي لله تعالى وذلك الذي أده الكشف لي في شأنهم، والله حسبي فيما قلته، وهو رقيب فيما خضته، والحاصل أن الله تعالى قد أغناهم عن شهادتي عليهم بما شاهدته فيهم، وإنما شهدتها مخافة أن أؤخذ بكتمانها، وألجم بلجام من نار إذا لم أودها، فإني الآن في حكم المسؤول عما أعلم فيهم إذ قد أصغى أهل هذه الحضرة إلى ما سأذكره فيهم كالسائلين عنه لخبر: من سئل عن علم يعلمه وكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة. انتهى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ قيل: يلعنهم الله أي يبعدهم عن رحمته ومعنى يلعنهم اللاعنون أي يدعون عليهم باللعنة أي البعد من رحمة الله، واللاعنون هم الملائكة وقد أشهد الله ظواهر أحوالهم على ما أودعه في بواطنهم من نفائس الأسرار وتوقد الأنوار، وأعني بظواهر أحوالهم الدموع الجارية والأحزان المتواليية، والأشواق المنهمرة المتكاثرة، والأثرة على النفس للإخوان والثقة بالحنان المنان، والتوكل على الملك الديان، دون جميع الأكوان، والرضى بعلم المقدور حتى يوجد فيه السرور والإخلاص لله تعالى في كل الأحوال بشهودها بارزة من الملك الفعال، فلم ينسبها لأنفسهم فضلا عن أن يطلبوا بها الجزاء والثواب بل يرونها صادرة به منه لا لغيره فيها حيلة يظهر هذا من أقوالهم، ومن اطمئنناهم وسكونهم في أفعالهم يظهر هذا منهم بالبديهة ولا ينتقدون فيه بالجهة، وشاهد ذلك منهم أن من نطق بالله ومن رأى رأى دلائل قدرة الله ومن حاول منهم أمرا فإنما يحاوله بالله، وقد قالوا: الظواهر دلائل البواطن، ومن أسر سريرة ألبسه الله رداءها ما فيك يظهر على فيك، تكلم تعرف، ولا يخفى ما اختصهم الله به على من يعلمهم إلا من حجبه الله عنهم بظلمة جهله أو علة حسده، أو كونه مبعدا عن الحضرة الإلهية وكل من كان هكذا فلا نافع له بل يزيده الدليل عمى فيدوم في تلك

العماية عمى، قال تعالى في أمثال هؤلاء: ﴿وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ والله در البوصيري حيث قال:

لا تعجبن لحسود راح ينكرها تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
القاعدة الرابعة ما أظهر الله على أيدي بعضهم من الكرامات الدالة على ولاية الحق سبحانه وتعالى إياهم.

اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه وجعلني وإياك ممن أحبه وارتضاه أن الكرامة ليست شرطا في الولاية ولا لازمة لها، إذ الولاية هي القرب من الله تعالى والاشتغال بذكره مع انجماع الهمة إليه دون غيره، ومن شأن من هذه صفته ألا تتوق نفسه إلى غير الله تعالى، قيل: للجنيذ أيزني العارف فقال: وكان أمر الله قدرا مقدورا، قال ابن عطاء الله: ليت شعري لو قيل له: أتتعلق همة العارف بغير الله لقال: لا، فإذا كان العارف لا تتعلق همته بالكرامة فليس بينها وبين الولاية ملازمة لتمام أصل الولاية بدونه، وعدم التفاته إليها. اهـ.

ومن كلام القوم: الكرامة لصبيان الأولياء وأما فحولهم فلا يبالون بها، ومن كلام بعضهم: من رآنا في البداية ظن أنا صديقون، ومن رآنا في النهاية ظن أنا زناديق، قلت: يشير إلى ذلك قوله تعالى حكاية عن نبيه سليمان: ﴿يا أيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ إلى قوله: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ فإن سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام أكمل وأتم من الذي عنده علم الكتاب وهو آصف بن برخيا وعلم الكتاب الذي عنده قيل: هو اسم الله العظيم، فدعا به فنقل الله عرش بلقيس إليه في ذلك الوقت، وإنما طلب سليمان أن يأتيه غيره بعرشها وإن كانت دعوته أجدر بالإجابة وأعلم بالاسم الأعظم من آصف لأنه ليس له التفات إلى الخارق، فالكرامة في التعريف هي الأمر الخارق للعادة الغير المقرون بالتحدي احترازا من المعجزة يهبه الله لبعض أصفياؤه من بركة أعمالهم الصالحة، احترازا بهذا القيد أيضا من الاستدراج، فليست الكرامة من لوازم الولاية لكنها من أدلتها، وهي واجبة للأولياء من حيث الجملة، لكن ربما اختص بها بعضهم دون بعض، وربما اختص بها الكامل دون من هو دونه، وربما اختص بها

الناقص، وربما اختص بها أحد المتساويين في الرتبة دون الآخر يشير إليها شيخنا بقوله في كشف الحجاب:

لأولياء الله شرعا وجبت كرامة بها يقينهم ثبت
لصاحب الضيعة سلف وصفا وصاحب الكمال عنها أنفا
كرامة الرجال الاستقامه أجلها أعظمها استقامه
وبعضهم أكرمهم التذاذا بسائر الطاعات قل هذا
ليست على الزوم في الولايه فصاحبه لكلهم درايه
في طرف الله ولا يقال لها الجميع كلهم قد نالوا
فمن مشهود كراماتهم ما فاتحهم الله تعالى به من العلم بلا مشقة ولا تعب ولا كد ولا
نصب، فلقد رأيت بعضهم يكتبون خمسة عشر قفا أو أكثر أو أقل من مختصر
الشيخ خليل ويحفظها ويكون بعد ذلك أعلم الناس به، وقد ظهرت هذه الكرامة على
غير واحد منهم، ولقد رأيت بعضهم يفتحه الله تعالى ببعض العلوم من غير قليل
اشتغال به فلم يشعر مشعر إلا هو يحقق مسائل ذلك الفن من غير تعلم له ولا
إنصات لمعلمه ولا لمتعلمه، وقد شاهدت هذه الكرامة أيضا في غير واحد منهم ومن
جليل كراماتهم أيضا ما فاتح الله به غير واحد منهم من كشف عالم المعاني حتى لا
تكاد تجد عويصة من لفظ عربي تعصو لهم ومن كراماتهم أيضا ما أبرأ الله على
أيدي بعضهم من الأمراض والعلل، فمن ذلك ما صح عندي وثبت أن سيد عثمان
كان مسافرا وبات ليلة عند قوم فسمع أنين إنسان فسأل عن شأنه فقيل له إنها امرأة
جميلة صغيرة السن كانت قد تزوجت في صغرها ولها ثلاثة بطون كلما حضرت
ولادتها عسرت عليها ولا يخرج منها الجنين إلا بطبيب يدخل يده فيها ويقطع الجنين
في جوفها ويخرجه منها إربا إربا وكلما أخرج طبيب منها يده برصت يده والآن هابها
الأطباء وخافوا فهي منذ ثمان ليال في هذه الحالة وعزم زوجها إن سلمها الله من هذه
أن يطلقها وعزمت أمها أن لا تتزوج بعد وها هي عاجلها الموت دون هذا كله فرق
لها لشدة كربها وقال لهم: إيتوني بطعام ولو ماء لعل الله يفرج كربها فأتوه بلبن فأخذه
وقال: بسم الله الرحمن الرحيم ونفث فيه وأمر بشربها إياه فأتوها به فشربته فلما

وصلت جوفها وضعت من حينها صبيا ذكرا سالما من غير تأخير فلما كان الصباح دعا زوجها وأمره أن لا يطلقها وأخبره أن سيقبل الله عثار ذريتها، فما عسرت عليها ولادة بعد ذلك، وكانت آيتها أعظم آية عن من يعرفها. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما ثبت عندي وصح بنقل الثقة أن أحمد بن محمد بن اعل مولود كان صديقا لسيد عثمان في زمن تعلمه الفقه فلما كبرا لقيه سيد عثمان في سفر فإذا هو مريض مرض ذات الجنب الذي يقال له السعلة وقد أنحل المرض جسمه وأضناه حتى أيقن بالموت، فلما قيه قال: يا حبيبي إن هذا المرض قد أهلكني فاسأل الله لي الشفاء منه، فرق لما رآه به حتى بكى، فلم يرع أحمد آخر تلك الليلة إلا أن أتاه سيد عثمان وضربه بيده تحت كتفه ضربة عظيمة أيقظه ألمها من نومه فمكث ساعة سكران وما هو بسكران ثم تحرك جوفه وجعل يتقيأ حتى تقيأ وعاء عظيما فيه قيح كثير وتقيأ بعد ذلك كثيرا من الدم، فلما أصبح الله بخير الصباح أمرهم أن يسندوه فلما أتاه قال: لا بأس عليك، فشفاه الله، وأبرأه حتى تم برؤه ونبت لحمه وعاش بعد ذلك مدة رحمة الله علينا وعليه.

ومن ذلك أيضا ما أخبرني رجل من قبيلة إجمان أخبرني أنه كانت بأنفه قرحة تأكل اللحم وعالجها الأطباء حتى أعيتهم قال: فكنت ليلة بائنا عند محلة فإذا بسيد عثمان نزل بتلك المحلة فقلت له غناء حسنا مدحته به وأسمعته الغناء فإذا هو أحسن ما يكون، قال: فلما أتيته وأسمعته الغناء ما عاودتها بيدي أحكها إلى الآن ولم يبق لها أثر وشفاني الله منها شفاء تعجبت منه الأطباء وجميع من يعرفني، ومن ذلك ما وقع لي مع الحضرام بن شيخنا وذلك أنني كنت معه في سفر فأصابني مرض الجوف أعني وجع ما تحت الصدر الذي يقال له الاغراذيف وأصابنتي فيه حمى شديدة فكتمت المرض جهدي وكنت أقوم في الأشغال التي تعترينا من شؤون سفرنا، فسرنا عشية يوم من الأيام إلى محلة كنا بها قابلين إلى أهلنا فأصابنا مرض عظيم فبنينا بيتا عندنا فما انقطع المطر عنا حتى دجا الليل واشتدت الظلمة فلما انقطع المطر إذا بالمحلة قرية منا بحيث نسمع أصوات دوابها فقال: أيها التلاميذ هل فيكم من يسير إلى المحلة فيأتينا من عندها بعشاء تلاميذنا وأضيافنا فاعتل بعض التلاميذ فقلت له أنا أفعل، فقال لي: إنك عليك الحمى فقلت: ما بي من بأس وكنت أكتم من

الوجع ما عدا الحمى فتركني فذهبت إلى المحلة راكبا وكان في المحلة بعض أقاربي فذهبت إليهم وأتيت التلاميذ والأضياف بعشاء جيد وأتيت في غاية المرض لكني أكتمه فلما وصلتهم إذا بثوبي مبتل من الرشاش آخر المطر فرق لي وأضجني معه على سريره وإني إلى الموت لأقرب لكني أخفي غير الحمى من مرضي فلم يوقظني قبل الصباح إلا الحضرم جاعل يده على موضع الألم يرقني وينفت وما كنت قد ذكرت الألم لأحد بل أطلع الله عليه فأصبحت وكأنما نشطت من عقال، ولم أتألم بوجع ذلك المكان إلى الله والله الحمد. اهـ.

وحدثني سيد محمد بن لحبيب بن الجود رحمه الله أنه كان مع اجيه المختار في سفر فزلوا بقوم فكلموه في امرأة منهم قد أقعدها المرض وكاد يعميها وأتوه بها وبهدية نفيسة فلم تلبث إلا قليلا حتى شفاها الله تعالى وردها كما كانت.

ومما شاهدت من كرامة الله تعالى بسرعة الحفظ وجودة الفهم ووعي العلم ما شاء الله لا قوة إلا بالله أني رأيت ماء العينين كتب عشرين قفا بعضها بيده وبعضها بيدي من ابتداء ثمن المختصر الأخير من قوله: إن أتلف مكلف، وإن رق إلى منتهى أحكام الحدود عند ابتداء أحكام العتق، وحفظه في يوم واحد وكتب من الغد آخر الكتاب وحفظه أيضا ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

ورأيت قطب العارفين كثيرا ما يكتب تسعا وعشرا ويحفظها قبل صلاة العصر وتبقى في رأسه حتى لا يحتاج ينظرها بعد ذلك.

ورأيت سيد عثمان كتب يوما أحد عشر قفا من ابتداء باب النكاح إلى فصل الخيار وكان درسه من خلاصة ابن مالك ثلاثين بيتا وأربعين وخمسين.

وكان محمد تقي الله كثيرا ما يكتب مائة بيت ويحفظها في مجلس واحد ثم لا ينسى ما حفظه أبدا. اهـ وأما كتابة المختصر هنا بأربعة أقفاف وخمس أو ست أو أكثر أو أقل فأمر متكرر دائم من بركة هذا الشيخ والحمد لله، ولقد رأيت منهم من يفتح عليهم في بعض العلوم من غير قليل اشتغال فلم يشعر مشعر إلا وهو يحقق مسائل ذلك الفن ويأتي فيه بما يجاوز حد الظن من غير تعلم ولا تعليم ولا حضور مجالس تعلمه ولا نظر في كتبه بل محض منة إلهية وموهبة ربانية، وقد شاهدت هذه الكرامة في غير واحد منهم فمن ما شاهدت من ذلك مما أرانيه الله تعالى في محمد الحسن من

مفاتيح الله إياه بعلم أصول الفقه وفروعه من غير تعليم ولا تعلم حتى لقد رأيتته يجاري أرباب دينك الفنين فيهما فتقوم حجته عليهم حتى صرت أقول أتى فيهما بعدما أشتغل بقراءتهما ودرابتهما دون حالته الأولى ومن ذلك أيضا ما شاهدته في محمد المصطفى من تحقيق مسائل علم النحو وغوصه على دقائق المعاني وغوامض الإعراب حتى كأنه قد اشتغل بهذا العلم الدهور الطوال والحق أنه ما اشتغل به ولا ألقى إليه البال، بل وهبه الله إياه دون معاناة اشتغال، وكذلك أيضا علم السيرة المحمدية والسيرة العرنية. اهـ.

ولقد رأيت في اطالب اخيار من المكاشفة والمفاتيح في علم أصول الفقه وفروعه أمرا عجيبا بليغا، ورأيت ماء العينين قبل مسيره عنا حاجا ففتح وكوشف بعلم التفسير أعني تفسير الكتاب العزيز ومعرفة علومه من ناسخ ومنسوخ وأسباب نزوله وتفسير مبهمه وغير ذلك من موضوعات اللغوية واشتقاقها ومعرفة استعاراته ومجازاته المرسلة وكناياته وإيجازاته وإطناباته وغير ذلك حتى كأنه ما اشتغل بفن غير ذلك الفن وما كان اشتغل به قط قبل أن وهبه الله إياه.

ومن جليل الكرامات أيضا ما فاتح الله به غير واحد منهم من كشف عالم المعاني ومباحث الألفاظ وفهم أسرار التركيبات العربية حتى لا تكاد توجد عويصة من لفظ عربي ولا دقيق معنى غامض يعصو له وما رأيت في ذلك مثل قطب العارفين ومحمد المصطفى، ولقد رأيت محمد الغيث في صباه قبل إثغاره يجالس شيخنا في المسجد وقت قراءة الحزب فلا يسمع آية رحمة إلا رفع يديه وسأل الله من فضله، ولا آية عذاب إلا ترب واستعاذ، وكان أخي محمد العرب بن اباه يتعجب من صغره وفهمه معاني كتاب الله قبل الإثغار أول طور تمييز لذاته.

ومن جليل الكرامات المشهورة فيهم ما سقى الله بهم من قلوب المريدين بعد كونهم عميانا مقفلين ولقد أظهر الله هذه الكرامة على أيديهم بأسرهم فما منهم أحد إلا وهو مرب في الحين يسقي القلوب ويربيها ويوصل الرجال إلى الله ويقربها منه ويدنيها، وذلك مشهود فيهم بالعيان، فما منهم من أحد إلا وقد شوهد فيه من تربية القلوب ما دل على بلوغه كل مطلوب، ونيله لكل مرغوب، وما رأيت من أجرى على يديه من هذه الكرامة ما أجرى على يد سيد عثمان سقى الله على يديه محمد جد بن الشيخ

محمد رحمه الله قبل صحبته للشيخ وعثمان بن محمد بن غلاب والبكاي بن محمد بن عبد الدائم والخليف بن محمد بن اطالب اعمر وغير وغير، ولقد سقى الله على يد اجيه كل من سافر معه في بدء أمره، ومما أظهر الله على أيديهم من الكرامات الدالة على صدق أولياء الله في إخبارهم بولاية الله تعالى إياهم ما شاهدته فيهم من الكشف بأنواع فما من نوع إلا وقد أظهره الله تعالى في بعضهم، فلقد كان القوم يقولون: الكشف أقسام: منه ما هو في المغيبات وخفايا الضمائر وأسرار النيات، ومنه ما هو في علوم التحقيق وحقائق الأشياء من محسوسة كانت أو معقولة، ومنهم ما هو في أصول العلم حتى لا يكاد صاحبه يسمع فرعا إلا رده إلى أصله كائنا ذلك الفرع ما كان، ومنه ما هو في التحقيق الإلهي وهو أكمل أنواعها وأتمها بأسرها، وقد شاهدت هذه الأنواع فيهم بأسرها، فلقد رأيت في محمد الحسن من الكشف في حقائق الأشياء وصفات النفوس ما لا يكاد يدخل تحت حصر.

وكان الحضرام كثير الاطلاع على خطرات القلوب وخفايا النفوس، وكان محمد المصطفى كثير الاطلاع على المغيبات مباركا فيما توجه إليه، ولقد شاهدت من محمد تقي الله ومحمد الغيث الكشف بأسره وشاهدت في اطالب اخيار كثرة لقاء أولياء الله وكثرة لقاء النبي المصطفى μ ولقد كان اطالب اخيار مع ذلك كثير الذكر لله تعالى ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولقد شاهدت في محمد الحطاب وسعد من الكشف ما لا أكاد أكذره ولا أستطيع نشره، وشاهدت فيهما من الوهب غاية لا يدرك مداها ولا يبلغ أعلاها، ولقد كان محمد المامون كثير الكشف في حقائق العلوم وأصول فروعها وخواطر القلوب وخفايا النفوس وأسرارها، ولقد كان كثير اللقاء للنبي μ والأولياء والملائكة، وكان أكمل الناس كشفا في ذات الله تعالى، فلقد أرانيه الله تعالى ليلة من الليالي في مجمع من أولياء الله وفيهم الكمل، ورأيتهم يفوقهم بعلم اختصه الله تعالى به في ذات الله لم يبلغه من أهل تلك الحضرة أحد، فكان يعرف الله بغير عجز بل على التحقيق كما هو سبحانه وتعالى، وإني والله في ذلك المشهد ليقظان كما أنا الآن، ولقد أرانيه الله تعالى ليلة وإني ليقظان كما أنا الآن وإنه في أهل الله من الأولياء لكالخرقة التي فيها الطيب التي يقول لها النساء الحفيظة مع سائر خرق الثوب فهو ريحانهم وأعلامهم.

وأخبرني بعض أولياء الله من أهل الغيب فقال لي: يا فلان: إن هذا الكتاب ليقرؤه أهل الملا الأعلى وينصتون له ويحضره أجلتهم، وإن الله تعالى ينتر ما ستورده في محمد المامون ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فإن قيل: كيف يعرف واحد الله تعالى من غير عجز بل على التحقيق بما هو عليه وقد انقطعت الغايات وتمت النهايات دون درك جلال عظمته، ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ وقال عليه السلام: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ويروى أن الصديق الأكبر أبا بكر رضي الله عنه قال: العجز عن إدراكه إدراك فالجواب عنه والله تعالى أعلم أنني إنما أخذت ما ذكرت عنه من طريق الكشف وليس لي به علم غير ذلك لأن هذا مما يخفى على نفوس أهله، ولا أرى الدليل عليه إلا بالكشف، لكن شواهد في الشرع العزيز مذكورة وأدلته فيه مشهورة، قال تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ فقد دل الإبهام على موحى هنالك أمره أعظم أن يذكر وشأنه أعلى من أن يفشى وينشر.

وأخرج ابن الخطيب في المواهب اللدنية من رواية ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال في حديث الإسراء: فعلمني علوما شتى فعلم أخذ علي العهد بكتمانه إذ علم أنه لا يطيقه غيري. اهـ قيل: وذلك هو العلم الذي يخصص الله تعالى به خاصته وأصفياه بحكم الوراثة النبوية والخلافة المحمدية، وفي هذا يقول أبو هريرة رضي الله عنه يقولون: أكثر أبو هريرة، فوالله لقد أخذت من رسول الله ﷺ جرابي علم أما أحدهما فبثنته، وأما الآخر فلو قلت منه كلمة واحدة لقطعتم هذا البلعوم قبل أن أتمها.

قال ابن العربي في كتاب الفتوحات المكية: قال البخاري: البلعوم مجرى الطعام أو النفوس وفي كتاب الفتوحات أيضاً ما نصه: قال ابن عباس: لو تكلمت لكم في معنى قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾ لرجتموني أو لقلتم إني كافر، وفي ذلك يقول علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهما وعن أسلافهما:

إني لأكتم من علمي جواهره كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
يا رب جوهر علم لو أبوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولا استحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا

واعلم أن ذات الله تعالى وصفاته وجميع ما ينسب إليه رسوله ρ من كاليد والقدم والوجه والجنب وغير ذلك فهو المتشابه، وقد قال تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ واختلف في الوقف فقيل يوقف عند قوله: وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون مبتدأ وخبره يقولون آمنا به وقيل الوقف عند قوله في العلم فيكون المعنى: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم حال كونهم يقولون آمنا به، قال صاحب مراقي السعود في تعريف المتشابه:

وما به استأثر علم الخالق فذا تشابها عليه أطلق وإن يكن علم به من عبد فذاك ليس من طريق العهد قال في شرحه: يعني أن المتشابه هو الذي اختص الله تعالى بعلمه واستأثر به فلم يطلع عليه غيره، وإن يقع علم به من عبد صفي اصطفاه الله وعلمه حقيقته فذلك ليس من طريقة المعتاد أي لا يخرج ذلك عن كونه متشابها استأثر الله بعلمه، إذ النظر للغالب ولا عبرة بالنادر. اه بالمعنى.

وفي الذهب الإبريز عند قوله تعالى: ﴿كل من عند ربنا﴾ في آخر آية المتشابه: وعن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين في العلم، وعن مجاهد: أنا ممن يعلم تأويله، ثم قال: وحجة من يقول بعطف الراسخين على الله تعالى أنزل كتابه لينتفع به ولا يجوز أن يكون في القرآن شيء لا يعرفه أحد من الأمة، قال ابن السمعاني: لم يذهب إلى القول الأول يعني الوقف على الله إلا شذوذة قليلة. اه

ولقد قصم الله على أيديهم من الظلمة ما لا يكاد الفكر يحصره ولا الذكر يجمعه فمن ذلك ما صح عندي وثبت أن سيدي عثمان أتاه يوما رجال من لادم يريدون أن يأخذوا مال ضيف عنده، فأراد أن يمنعهم منه فما تركوه له حتى أسأوه فقال لأحدهم: أما أنت فلا ينتفع أهلك بك بعدي بقليل ولا كثير وأما أنت يا فلان فالله يصيبك في أولادك وأحب مالك عليك، وكان الأمر كذلك وأنا أعلمهما وأعلم شأنهما وحاضر لكني لم أحضر الواقعة. اه.

ومن ذلك أيضا ما وقع له مع عشيرة المهاجرين كان قد أتاهم لحاجة فلم يسعفه فيها، فقال لهم: لتؤخذن منكم هذه النعمة كرها بلا تأخير، فما لبثوا بعده شهرا أو شهرين حتى احتوشتهم العدو. اه— ومن ذلك ما وقع للحضرامي مع محمد المختار بن أحمد

محمود بن الامحيميد، وذلك أن الحضرام ركب إليهم يطلب أموال جيرانه فاشتغلوا بردها إليه، فلما كان بعد برهة أراد محمد المختار أن يأخذ ما رد من الأموال من أيدي مشظوف حتى يأخذ غرضه فلما تبين ذلك للحضرام غضب وركب راجعا إلى أهله فركب الآخر معه ليرده أو يشيعه وهو مع ذلك مصر على ما كان عليه فلم يلبث أن أخذ مدفعه ليصيب طائرا يراه فلما تكلمت صاعقة مدفعه قطعت يده إذ ذاك فلجأ إلى الحضرام وأرضاه في ذلك الوقت فأقال الله عثرته من ذلك. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما روي أن سيد المختار بن شيخنا لما تبع أبناء الناصر يريدون بعض أغنام لشيخنا عندهم فردوها له فأتى منهم رجل فأخذ شياها فقال له سيد المختار: لعمر أبي لا تأخذهن وتجعلن في مال إلا هلكته فأخذن وصار بهن إلى غنمه فلما دخلتها وسرحن فيها أياما أتاهاهم مطر ليلا فأنزل الله منه صاعقة على تلك الغنم فأهلكتها عن آخرها ولم يبق منها إلا تلك الشياه، حدثني بهذا سعد بن شيخنا عن حضر القصة من أولها إلى آخرها.

ومن ذلك أيضا ما حدثني به من أتق به من أن محمد الغيث أتى الشيخ بن بيد يريد جمالا لبعض تلاميذ الشيخ، فلما أتاه وتعالل عليه قال لبعض جلسائه: اشهدوا أنني قد حبست فيه البول فما بال بعدها حتى أتاه محمولا وأرضاه. اهـ.

ومن ذلك ما ثبت عندي أن ماء العينين لما قدم من الحج وأتى الساحل ونزل بتجكانت وصاهرهم وكان له مال قال له: اذبح على أحد من الناس ليكلأك ويمنعك ممن أراذك بسوء وينصرك إذا احتجت إلى نصره، وكانت عادة أهل تلك البلاد إذا أتاهاهم الغريب أن يختار منهم أحدا ويذبح ذبيحته عليه فيكون له وليا في كل الأمور ولا يصل إلى الغريب أحد إلا بذل المذبوح عليه جهده في نصرته فيقاتل عنه ويضارب ويشاتم، فلما قالوا له ذلك قال: أما أنا فلا أذبح إلا على الله تعالى وقال في ذلك شعرا ونص كلامه في ذلك:

ألا والله والله العظيم ولو في النار أجعل كالطريحه
فلم أذبح على الأكوان طرا ومني القول فاستمعوا صريحه
ولكني على ربي اتكالي ومن يكل الأمور له ربيحه

فتعجبوا من ذلك كل العجب وبقوا متحيرين في شأنه، فكان من قدر الله سبحانه أن تحرك سراق من قبيلة ادوبلال بأرض الساحل وأخذوا إبله وكانت عزيزا في المرعى مع آبال تجكانهم، فلم يرعهم إلا أن جاء الخبر أن الأموال أخذت كلها فتأهب تجكانت للنهوض في أثرها فأتاهم هو وقال لهم: الأولى عندي أن تسكنوا حتى تستوضحوا الخبر فإني لا أرى الخبر هكذا فلم يزل بهم حتى أسكنهم فلما أتى الليل جاء الخبر على صحته بأن المأخوذ إنما هو إبل ماء العينين فقط، فقال تجكانت: وهذه أشد علينا وتأهبوا للنهوض في أثرها، فأتهم وحلف لهم بالله جهد أيمانه لا يركب في أثرها منهم راكب بل إنما يردها الله تعالى إن شاء أو يمشهم بها فكان ذلك أشد عندهم مما قبله فجلسوا واستاق السراق الإبل فظلوا بها وباتوا إلى وهن من الليل فلم يرعهم إلا أن أوقد الله النار في لباسهم وعصيتهم ومدافعهم ورحالهم وقربهم وغير ذلك فبادروا بنزع اللباس ليلا يحترقوا وألقوا كلما معهم وبقوا هناك عراة وجعلوا يستغيثون به وبأبيه الشيخ حتى أطفأ الله عنهم النار فقالوا فيما بينهم: ردوا لهذا الشيخ إبله، فمنعهم الخجل أن يذبوا إليه فبقوا هناك حتى مر بهم من يريد القدوم إلى تجكانت فأرسلوا بالإبل معهم وأرسلوا له بالاعتذار واجتمع رأيهم أن يكتموا خبرهم عن أهليهم فقال بعضهم هذا أمر لا يمكن كتمانها، أين لباسكم وأين أعواد مدافعكم وأين عصيكم وأين ما ذهبتم به من عند أهلكم بل سيروا إلى أهلكم وأخبروهم الخبر. اهـ.

ومن ذلك ما روي أن سيد المختار بن شيخنا ركب في أثر سراق من لادم سرقوا شياها من غنم الشيخ فأتاهم فهرب منهم اثنان وبقي منهم واحد متمرد لم يهرب فأتى سيد المختار إلى بيت المتمرد، فجعل المتمرد يتكلم حتى قال له اجلس هناك حتى تذهب بما جئت تريد، ما أبعدك منه فقال له سيد المختار اجلس أنت هناك فما أتمها إلا أخذت اللية والزحمة ذلك المتمرد وأجلسته هناك حتى حملوه إلى سيد المختار وأرضاه فبرئ من حينه. اهـ.

وأخبرني بعض من أثق به أن الطالب أبا بكر مر به قوم من أبناء الناصر فأخذوا له دابة من إبل الشيخ فتبعهم فما جاوز معهم ميلا حتى تضاربوا بينهم وكادوا يقتتلون حتى ردوه بناقته وأهدوا له سراويل جيدا. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما حدثني به الثقة الصادق أن محمد المصطفى بن شيخنا كان قادما من أرض الساحل ومعه رفقاء ولحق بهم بعض أعداء الله فقالوا له: أما أنت فلسنا بصددك ولا حاجة لنا إليك وأما هؤلاء الرفقاء فلا ندعهم يمشون حتى نأخذ أموالهم فأبى عليهم ذلك فلم يزلوا به حتى أعطاهم شيئا من اللباس، فلما ذهبوا عنه قتل أحدهم الآخر وهرب فتبعه بعض أقارب المقتول وقتله هو. اهـ.

ومن جليل كراماتهم ما سخر الله لهم من الظلمة والعتاة الجهلة والعمارة النفاريت وليس أحد منهم أولى بهذه الكرامة من الآخر ما شاء الله لا قوة إلا بالله، بل كانت الجبارة يذلون لمن يلقونه منهم ويخضعون له ويخافون دعوته ولا يواجهونه بسوء، ولقد سخر الله لبعضهم الحديد حتى كان القفل لا يمنع ما وراءه، ولقد أخبرني محمد المامون أن أخاه محمد الامام كان الحديد مسخرا له لا يمنع ما وراءه وقال لي كان للشيخ أقفال تجعل على ما يعد لإكرام الضيف من تمر وسكر ولحم وكانت تلك الأقفال لا يمكن فتحها إلا بمفاتيحها، ولا يفتح أحدها مفتاح صاحبه وهي ستة فضلت مفاتيح تلك الأقفال الستة فمكنت دهرًا طويلا لا يفتحها إلا محمد الامام كلما ناب فيها أمر دعوه إليها فسخرها الله له بلا معالجة ولا عتاب وأخبرني محمد المامون وسعيد أنهما رأيا الطالب أبا بكر أخذ قفلا عظيما له حساسيد لا يفتحه بمفتاحه إلا من له قوة، ولا سبيل لفتحه بغير مفتاحه وسل عرقوبه من صندوقه بعد أن أراد فتحه فعسر فقال الله فسله عندما قالها، فما عسر سله على أحد بعده حتى قال له أخوه محمد المعلوم لقد أفسدت قفل الشيخ فقال له إن كنت تريد أن أقفله لك فلا يفتح بعدي فعلت، فقال له نعم، فأقفله فما قد أحد أن يفتحه بعد ذلك فقال له: وهذا أيضا مفسد له ومفيت للغرض منه بل رده على حاله فأخذه فسله ثم أقفله فرجع كما كان يفتحه بمفتاحه من له قوة. اهـ.

قلت: ولا أعلم كرامة أكرم عندي من تسخير الله تعالى للطالب أبي بكر ومحمد الامام وسيد المختار ومحمد المعلوم نفوسهم في خدمة الشيخ والانخراط في مرضاته ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فلقد سخر الله لهم النفوس في خدمته وبروره وتعظيم من يقف عليه من ابن أو زوجة أو أمة أو غير ذلك حتى وصلوا بذلك إلى مرادهم وشهد الشيخ أن قد أعطاهم الله جميع أغراضهم. اهـ.

وبالجملة فكرامة الله تعالى لأولاد هذا الشيخ أغزر وأشهر وأتم وأوفر من أن تفسر أو تتشر وليس غرضي مما أتيت به استتباعها ولا أن أجمع أنواعها بل أردت التنبيه على بعض شواهد صدق من أخبر بولاية الله تعالى إياهم من أولياء الله تعالى وربما لم أذكر كرامة لمن أعلم له من الكرامة أكثر وأوفر مما ذكرت.

ومن شواهد ولايتهم أيضا ما اختصهم الله به من محبة خلق الله والفقهاء في دين وسخاء الأنفس فلكل واحد منهم في هذه الخصال الثلاث مبلغ لا يبلغه غيره. اهـ.

يروى أن الجنيد قيل له: ما علامة الولي؟ فسكت فقيل له: علامة الولي أن يطير في الهواء فقال: لا، الغراب يطير في الهواء ويأكل الدبر، فقيل له: علامة الولي أن يمشي على الماء، فقال السمك يمشي على الماء ويؤكل بلا نكاة، فقيل له علامة الولي أن تطوى له الأرض؟ فقال: إن إبليس أبغض الخلق إلى الله وأن الأرض كلها له خطوتين، فقالوا له: أخبرنا ما علامة الولي، فقال: علامة الولي أن يكون حبه منزرعا في قلوب الناس كأنزراع الماء في العود الأخضر وأن تكون له سخاوة في النفس، وأن يلهمه الله علما يغنيه عن علم العلماء وحكمة الحكماء. اهـ وأنا أشهد شهادة أقوم بها بين يدي الله تعالى أنني ما شاهدت أحدا من أولاد هذا الشيخ إلا وهو جامع بين هذه الخصال أعني السخاء ومحبة الخلق له ونور علم يجعله الله تعالى في قلوبهم يغنيهم به فيما بينهم وبينه عن علم العلماء وحكمة الحكماء حتى إن أحدهم لا يكاد الحق يخفى عليه ولا يتحير فيه. اهـ.

قلت: والأصل فيما ذكره الجنيد قوله عليه الصلاة والسلام: ما اتخذ الله جاھلا وليا ولكن إذا اتخذ علمه من لدنه علما يربو على علم العلماء وحكمة الحكماء وقوله عليه السلام: ما جبل ولي الله إلا على السخاء، وفي رواية: إلا على خصلتين السخاء والأناة، وفي رواية: السخاء وحسن الخلق، وقوله عليه السلام: إن الله إذا أحب عبدا أمر جبريل فنأدى في أهل السماء: إن الله قد أحب فلانا فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض. اهـ.

وأما قول الجنيد رضي الله عنه إن الطيران في الهواء والمشى على الماء وطى الأرض ليس من علامات الولاية واستدل لذلك بما ذكره من شأن الغراب والسمك وإبليس اللعين فوجهه والله أعلم أن هذه المذكورات ليست علامة للولاية ولا شواهد

عليها بل هي من صفات بعض الحيوانات التي اقتضتها الحكمة في ذلك البعض من حيث طبعه العنصري وخاصة حارضه الأرضي، لأن الطير وإن كانت أجسامها كثيفة فنفوسها رحيية وطبائعها نارية وأكثر أجسامها الريش وطبعه الخفة والارتفاع بأي محرك، فقد جمع الله لها بين خفة الجسم الريشي وسرعة النفس الريحي، فالريح من عالم الأرواح وطبعها السرعة والتحرك في نفسها وتحريك غيرها، فمتى تحركت في الجسم شالت الريش ورفعته في الهواء بقدرة الله تعالى وإرادته، وأسكنه الله تعالى في الهواء بواسطة القوة الريشية، ألا ترى الطير إذا أزيل ريش أجنحته أو كسر عظمها ضعفت قوته وغلبه الطيران. اهـ.

ولا يعارض هذا قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ لأن هذا تبيين لمعنى كون الطيران يقتضيه عنصرها في عالم علم الحكمة والآياتان تترجمان عن حقيقة الأمر في عالم علم القدرة والقدرة أصل كل حكمة، قال تعالى: ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾.

وأما السمك فإنما عنصره الماء وبه قوامه، ألا تراه متى أخرج منه مات، فكانت ملاءمته له ملاءمة الفرع للأصل، كما أن الريح مقرها الهواء فكان للطير مقرا لذلك، وأما إبليس وغيره من الجان فأصلهم النار، قال تعالى: ﴿وَالْجَانِ خَلْقناه مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾.

وفي الذهب الإبريز قال البيضاوي: السموم ريح حارة تدخل مسام الإنسان فتقتله، وبهذا تبين أن معنى قول الجنيد إن الطيران والمشبي على الماء وطبي الأرض من صفات الحيوانات المقتضاة من حيث العنصر ولو كانت علامات للولاية لزم أن يقال الطيور أولياء الله والضفادع والحيتان وجميع دواب الماء أولياء والجان والشياطين أولياء وذلك باطل بل علامة الولاية الاتصاف بالخصلة المحبوبة عند الله تعالى وهي السخاء لقوله عليه الصلاة والسلام: إن فيك لخصلتين يحبهما الله السخاء والأناة، أي التثبت في الأمور، أو ظهور إحدى ثمرتي الولاية أعني العلم الوهبي الثابت في القلب وظهور القبول بمحبة الناس. اهـ.

وأما الطيران في الهواء والمشبي على الماء وطبي الأرض الذي من صفات حيواناته فإنما يتصف بها ممن ليست طبعه من تجرد من ظلمة حسه وخرق حجاب عادة

جنسه، حتى كان طبعه ملكيا أو شيطانيا، فأما الأول أعني المتجرد من طبعه لطبع الملائكة فهو الولي، وإنما يتجرد من طبعه بتخليص جوهرية نفسه من كثائف الطين العنصري التي من جملتها الغفلة والشهوة والغضب والحدة فإذا خرق هذه العوائد وزكى الطباع حتى كان بالله في الله الله ساغ له أن يتصف بكل ما اتصف به الملائكة كائنا ما كان لأن نفسه من جنسهم، وأما من تجرد من طبعه لطبع الشياطين ك بعض السخرة فإنهم يستعملون الآلات والخواص الأرضية والتجليات الشيطانية وتعظيم غير الله والموثوق به حتى تغلب فيهم عادة الشياطين وتتصف نفوسهم بصفات الشياطين فتقوى على ما تقوى عليه الشياطين، لأن أرواح الأدميين والملائكة والجان من عنصر واحد وهو النار، التي أنشأ الله منها جميع الأدميين والملائكة والشياطين فحصل الثقل للأدميين بكون أجسامهم من الطين وأرواحهم مغبرة بغبار الأرض، وبقي الملائكة والشياطين على أصل اللطافة فلما سخرت الملائكة لخدمة الله تعالى ومداومة ذكره وتسبيحه بقيت على أصل نورانية العنصر ولما بدلت الشياطين وغيرت وكفرت اسود أجسامهم اللطيفة فكانت ظلمة متمكنة من الطيران وغيره للطافتها. اهـ.

وبهذا يحصل الفرق بين خرق العادة للأولياء وغيرهم من السحرة والشياطين والمستدرجين، فعلامة كرامة الأولياء الاستقامة ومداومة الذكر والفكرة وأثرة الحقوق الربانية على الحظوظ النفسانية والعكس بالعكس فإن قيل: إن قوله عليه السلام ما اتخذ الله جاهاً ولها ولكن إذا اتخذ علمه من لدنه علماً. إلخ معارض لما روي أن بعض أولياء بغداد وجده علماً ولا يحفظ الفاتحة فطلقوا عليه زوجته لذلك فقال لهم عندما اجتمعوا في المسجد لصلاة الجمعة لتردن علي زوجتي وإلا فما تأتي الجمعة على رجل في بغداد مالك عصمة امرأة، فلم يردوها عليه فما أتت الجمعة على رجل مالك عصمة امرأة في بغداد بأسرها فردوا عليه امرأته فترجعوا. اهـ ومعارض أيضاً لما روي أن بعض العلماء كان راكباً مع أصحابه في سفينة فإذا برجل جالساً بشاطئ البحر يتوضأ منكساً للوضوء فأوقفوا سفينتهم حتى علموه الوضوء ورتبه فلما بعدوا منه أراد أن يتوضأ مرتباً فنسيه فشد يجري على وجه الماء حتى لحق بهم وهو ينادي: علموني ما كنتم تعلموني فالجواب عنه أن قوله عليه السلام ما اتخذ الله

جاهلا وليا لكن إذا اتخذ علمه، فالمراد بالجهل هنا الجهل بما يجب لله تعالى من التنزيه والتعظيم وما يجوز له وما يستحيل عليه من النقائص كالولد في حقه تعالى والوالدة والزوجة، ولكن إذا اتخذ الجاهل بهذا وليا علمه من هذا علما من لدنه يربو ذلك العلم ويكثر على علم العلماء، والمراد بالجاهل الجاهل بذلك وبطريق فقهي يعبد الله به على التحقيق على مذهب صحيح ينجي من تمسك به من عذاب الله تعالى، كمذاهب الأئمة المجتهدين المقطوع بنجاة من تمسك بهم من النار، ولو كان صاحبه مفضولا فيكون المعنى أن الولي لا يجهل ما يجب عليه من توحيد الله تعالى وعلم فرائضه المجمع على فرضيتها. اهـ.

وبهذا التأويل يندفع التعارض بين الحديث وهاتين القضيتين، فإن الفاتحة إنما يحكم بوجوب حفظها من جزم بوجوب قراءتها في الصلاة ولا دليل على ذلك الوجوب إلا حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: لا صلاة لمن لم يقرأ بأمر الكتاب، وفي رواية: كل صلاة لم يقرأ فيها بأمر القرآن فهي خداج خداج أي ناقصة غير تامة، وهذا الخبر إنما روي آحادا ولم يرو تواترا وخبر الآحاد إنما يفيد الظن لا القطع، أي لا يفيد القطع بأن النبي قاله أصلا وكذا قوله لا صلاة فإنه محتمل أن يكون معناه لا صلاة صحيحة ويحتمل أيضا أن يكون معناه لا صلاة تامة، فبالأول أخذ الجمهور وبالتالي أخذ أبو حنيفة مستدلا بقوله تعالى: ﴿فأقرؤوا ما تيسر من القرآن﴾ وأما ترتيب الوضوء فالمشهور عند الكافة عدم وجوبه ولم يقل بالوجوب إلا شردمة قليلة ذهبوا إلى أن الواو في الآية مقتضية للترتيب أعني آية الوضوء، وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ الآية. اهـ.

والمعنى فيكون علمه يربو على علم العلماء وحكمة الحكماء لصحة اعتقاده ووفوره حتى لا يعتريه فيه شك ولا وهم عالم بأنه الحق وأنه من عند الله. اهـ.

وفي الذهب الإبريز عند قوله تعالى: ﴿مدهامتان﴾ ما نصه: وفي ابن خلكان أن السلطان محمود بن سكتكين على مذهب أبي حنيفة فجمع يوما العلماء وأمرهم أن يصلوا له صلاة على مذهب الشافعي وصلاة على مذهب أبي حنيفة ليختار أي المذهبين، فاتفقوا أن يصلوا بين يديه ركعتين لا يجيز الشافعي دونهما وركعتين لا يجيز أبو حنيفة دونهما لينظر السلطان ويختار أي المذهبين فصلى الففال المرري

ركعتين بطهارة مسبغة وشرائط معتبرة من طهارة وستر واستقبال قبلة وأتى بالأركان والهيئات والسنن والأنداب والفرائض كاملة على مذهب الشافعي، ثم ركعتين على مذهب أبي حنيفة فلبس جلد كلب مدبوغا ولطخ ربه بنجاسة وتوضأ بنبيذ التمر وكان في صميم الصيف فاجتمع عليه الذباب والبعوض وتوضأ منكسا معكسا ثم أحرم من غير نية وكبر بالفارسية فقال: خدائي مدر كبر ست ثم قرأ آية بالفارسية وهي مدهامتان فقال ذو بركك سبراي أي ورقتان خضراوان، وهي معنى مدهامتان ثم نقل نقرتين كنقرات الديك من غير فصل ومن غير ركوع وتشهد وخرج منها بغير نية السلام، وقال: أيها السلطان هذه صلاة أبي حنيفة، فقال السلطان: لم تكن هذه صلاة أبي حنيفة، فأمر القفال بإحضار كتب أبي حنيفة، أمر السلطان كاتباً نصرانياً يقرأ المذهبين جميعاً فوجدت الصلاة على مذهب أبي حنيفة كما زعم القفال. اهـ وبهذا يتبين أن من المذاهب الصحيحة التي اجتمعت الأمة على هداية المتمسك بها من لا يوجب قراءة الفاتحة ولا ترتيب الوضوء ومن علم توحيد الله تعالى ومن الفروع الشرعية أو الأحوال المحكمة ما يتقرب به إلى الله تعالى على وجه صحيح في العلم فليس بجاهل كما يراد عنه من تحقيق العبادة على وجه يتقرب بها إلى الله تعالى علم ذلك. اهـ.

ولا يصح أن يقال: لا يكون ولياً حتى يجمع كل العلوم إذ العلم صفة الله تعالى وصفة العباد الجهل ألا ترى إلى قوله تعالى مخاطباً لنبيه عليه السلام: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ وفي الخبر أن عمر بن الخطاب زمن خلافته أتاه يوماً أبو موسى الأشعري يستأذن عليه فقال: السلام عليكم، فسكت عمر فقال أبو موسى: هذا عبد الله بن قيس يستأذن عليكم، فسكت عمر أيضاً فقال: السلام عليكم هذا الأشعري يستأذن عليكم، فسكت أيضاً فرجع أبو موسى مولياً فأرسل عمر في أثره فلما أتاه قال: ما ردك يا أبا موسى فقال أبو موسى سمعت رسول الله ﷺ قال: الاستيذان ثلاثاً فإن أذن لك وإلا فارجع، فقال عمر: لئن لم تأت بشاهد على هذا لأفعلن بك فرجع أبو موسى فلما ولى قال عمر: إن من وجد من يشهد له لتجدنه في المسجد ينتظركم فلما أتى عمر المسجد إذا بأبي موسى ومعه أبي بن كعب وغيره في المسجد فناشدهم أبو موسى هل سمعوا هذا من رسول الله فقالوا: نعم فقال أبي لعمر: يا ابن الخطاب

لا تكن عتابا على أصحاب رسول الله فقال عمر: والله ما أردت عتابا ولكن سمعت شيئا فأردت أن أثبته. اهـ وبهذا يتبين أن عمر كان جاهلا لهذا الحديث وعمر إذ ذاك هو قطب الأمة، وهذا من أمر الدين المهم، وكثيرا ما كان رضي الله عنه يستفتي الصحابة كرجوعه عن الشام لما وجد أرضه وبئنة فأخبره عبد الرحمن بن عوف أنه سمع النبي ﷺ يقول: إذا سمعت بالوباء في أرض فلا تقدموا عليها، وإذا نزل بكم في أرض فلا تخرجوا عنها فرارا منه، فوجده لم يكن سمع هذا الحديث.

ويروى أنه رضي الله عنه جمع كثيرا من الصحابة فسألهم عن معنى قوله تعالى: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ الآية فلم يعرفوه بل قالوا الله ورسوله أعلم، فعلم بهذا أن العلم الذي لا يجله الولي إنما هو ما يجب لله تعالى أو طريق صحيح من علم يتعبد بمقتضاها لله سواء كان ذلك الطريق مشهورا عند أهل زمنه أم لا. اهـ.

ومما ينسب لسيبويه في هذا المعنى:

لساني فصيح ناطق جد معرب فيا ليته يوم القيامة يسلم
فما ينفع الأعراب إن لم يكن تقى وما ضر ذو التقوى لسان معجم
وبالجملة فسلطنة بواطن أولاد هذا الولي في الله تعالى واستقامة ظواهرهم غاية لا يدرك مداها وذروة قنة لا يصل الواصلون لأدنى أدناها، فكيف لهم بالوصول لأعلاها، وأقول ما اختصم الله به متمثلا بقول القائل:

معاجزه ما استطعت ذكر جميعها فأبهمت منها ما استطيع تعظما
كواجد ماء قاصر عن وضوئه تجنب طهرا ناقصا فتيما
ولله در البوصيري حيث يقول:

لو ناسبت قدره آياته عظما أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم
فصل فيما أكرم الله تعالى به هذا الولي من إصلاح أزواجه وعلو مكانتهن عند الله تعالى

اعلم وفقني الله تعالى وإياك لما يحبه ويرضاه، وسلك بي وبك طريقة العاملين بطاعته من أهل تقواه أن الله تعالى جعل صلاح الأزواج كرامة كريمة أنعم بها على خاصته

من خلقه، قال تعالى فيما منحه لنبيه زكرياء عليه السلام: ﴿ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه﴾ وفي الخبر عنه ρ أنه قال: «الدنيا كلها متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» وعنه ρ أنه قال: ثلاثة من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة لا تبغيه حبة في نفسها ومالها. اهـ.

وقد مهد تعالى للأزواج قاعدة يعرف بها صالحهن من غيره وهي قوله تعالى: ﴿الخبيثات للخبِيثين والخبِيثون للخبِيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ وقد أكرم الله تعالى هذا الولي بأن والاه الصالحات من الأزواج الطيبات من أمهات الأولاد يشهد لصلاحهن ثلاثة شهود صادقين، أولهم القرآن حين شهد أن الطيبات للطيبين، والخبِيثات للخبِيثين، فعلم به أن رتبة الأزواج لاحقة برتب أزواجهن يشهد لذلك ما في الخبر أن أزواج الأنبياء والأولياء والصدّيقين والشهداء يكن معهم في الجنة، وفي الحكم: المرأة على دين زوجها، والمرء على دين خليله قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي
ولا يعترض على هذا بقوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة﴾ الآية لأن لفظ الخبيثات والخبِيثين والطيبات والطيبين في الآية عام وهذه النسوة خاصة فبقي اللفظ العام على عمومته في غيرهن إذ القاعدة لا تتخرق بخروج فرع أو اثنين من فروعها عن حكم مجموعها قال ميارة في التكميل في جواب عن نحو هذه القاعدة العامة:

جوابه الأصل الذي قد اطرد ليس حله الذي قد انفرد
الشاهد الثاني هو ما نقلته عن شيخي حفظه الله ورعاه وأطال حياته فيما يحبه من مولاه أنه قبل تزويجه أعطي سجلا فيه أسماء مواريدته وزوجاته وخدمته وفيه البشارة بسعادة الجميع. اهـ.

الشاهد الثالث العيان المغني عن الدليل والبرهان، فلقد شوهد في أزواجه الرضيات من المناقب السنيات ما يدل على ولايتهن، فلا تكاد تجد منهن واحدة إلا ولية عارفة بالله تعالى زاهدة في غيره تختاره وتؤثر رضاه عن شؤون الدنيا والآخرة، وظهر على

بعضهن من مشاهد القرب وأحوال القوم ودلائل الحب ما ظهر به فضلهن وصلاحن على غيرهن ومنهن المكاشفات بحقائق المغيبات. اهـ.

وثبت عند كل مخبر مجرب أنه ما تزوج امرأة قط ولو لم تثبت عنده إلا ليلة أو ليلتين إلا زرع الله في قلبها رقة ورأفة ورحمة وخشية وذلة واستكانة ومحبة لله تعالى واعتصامة به حتى تظهر عليها شواهد الخصوصية وعلامات الصديقية. اهـ.

فصل في كرامات الله العلي إياه بالقرب الإلهي والمنزلة الوجدانية المعبر

عنها عند القوم بالقطبانية واختصاصه كمال إرث النبي م

اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه وسلك بي وبك طريقة وده وسبيل تقواه أن هذا المقام قد قصرت دونه كافة الأقسام، وليس نيله من كدح كادح من الأنام، بل هو منة من ذي الجلال والإكرام، وهذا المقام غيبي لا يدرك بالعيان وإنما يتوصل إلى معرفته المختص به من أهل الله تعالى بأمر واحد هو إخبار الأولياء الكمل به عن علمهم المتوصل إليه بطريق كشفهم وحضورهم مجالس حضرة اجتماعهم.

ويجب الرجوع إلى خبرهم في كل ما أخبروا به مما لا سبيل إلى خبره مما تحمله عقول المخبرين ويستدل على حصول هذا المقام بوجود ثمراته وحصول آياته فإن هذا المقام عبارة عن ظهور العبد في تنوعات الأسماء والصفات بمعنى أنه يحصل له تمكن إلهي يمكنه به الظهور في كل معنى يشير إليه اسم من الأسماء الإلهية أو صفة من الصفات المقدسة الأزلية، مع كثرة تنوعات الأسماء والصفات، فيصير في جوار الله تعالى وقربه بحيث لا يستقصي عليه شيء مما يطلبه فعلم ما تشوف لعلمه وفعل ما أراد حدوثه في العالم مثلا كإبرائه العلل والأمراض ومشيه على الهواء وقدرته على التصور بكل صورة، وهذه الرتبة تسمى بالوسيلة لأن الواصل إليها وسيلة القلوب إلى السلوك على التحقيق بالحقائق الإلهية. اهـ.

أما إخبار أولياء الله تعالى عنه بهذا المقام فقد تواتر وتكرر واستفاض وانتشر فمن ذلك ما رويته عن محمد بن محمد الاعبيد عن الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود من قوله له تخلف في القطبانية بعد الشريف الهادي الشيخ محمد الفاضل بن مامين عام موت سلطان باغنة اعل بن اعمر بن اعل، ومن ذلك أيضا ما حفظته من كتابته

إلى شيخنا حفظه الله ورعاه من قوله: وإني متعلق بأذيالكم من كل ما أختشي يا خير من على الأرض يمشي، إن الخلق اليوم قد جعلك الله عليه سيدا إله، ومن ذلك أيضا إرساله له اعلم أن المصطفى يقرئك السلام ويخبرك أنك وكيل أمته وخليفته عليها من بعده. اهـ. ومن ذلك أيضا ما أخبر به باب أحمد بن الشيخ سيد المختار من أنه رأى رسول الله ﷺ حاملا لمامين على عنقه وأولياء هذه الأمة تسير تحته حفاة فلما سأل هو عن ذلك قيل له ذلك لوجاهة ابنه الشيخ محمد الفاضل عند الله تعالى، وقوله إنه رأى الملائكة يغلغون ثوبا من السماء كان يصب الوباء على محمودة قبل نزوله إياها، وإنما أغلقوه بعد نزول الشيخ أدام الله عزه وبقائه إياها. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما أخبر به أخوه الشيخ سيد محمد الخليفة وأن الشيخ محمد الفاضل بن مامين هو امشملت فم الخيم، يعني بذلك أنه المقدم في سابقة الخصوص في ميادين القرب الإلهي، ومن ذلك أيضا ما أخبر به عند أبيها الشيم سيد المختار وإطالب جد بن نخثير، وسيد عبد الله بن عبد الرزاق جده الطالب أبا بكر من كونه سيلا ابنة ولية لله تعالى وتلد هي وليا هو قطب الزمان ووحيد الأقران وفريد حيطة الوجود من الأكوان.

ومن ذلك أيضا ما أخبر به الشيخ المختار بن أحمد بن عثمان عنه بعد ميلاده وقبله.

ومن ذلك أيضا ما أخبر به الشيخ محمد الامين بن الأدهم عنه من أنه فريد العصر ووحيد الدهر.

ومن ذلك أيضا ما أخبر به الشيخ محمد الامين بن الشيخ الوافي عن شيخه الشيخ سيد المختار بن أحمد بن أبي بكر من أن الحكمة الفلانية لا تمكن إلا من يد الشريف الذي من علامته كذا وكذا وهو الذي يتزوج منين بنت المعلوم، وذكر له من خصوصيته ما شاء الله أن يذكر.

ومن ذلك أيضا ما ذكره سيد بن الشيخ سيد المختار بن أحمد بن عثمان وسيد بوبكر بن الشيخ سيد احمد اكاد من أنهما كانا يطلبان أموالا لهما قد أخذت تلك الأموال قوم من قبيلة لادم، وكانت لادم أنصار الشيخ حفظه الله، فلما أرادوا أن يمكر الله لهما بلادم أتى كل منهما ابوه وقال له: لولا الشيخ محمد الفاضل بن مامين كانت قبيلة

لادم هكذا، وأراه شيئا سافلا جدا وذكر كل منهما لابنه من خصوصية الشيخ أدام الله عزه وأطال بقاءه ما شاء الله أن يذكر.

ومن ذلك أيضا ما أخبر به عنه من أولياء العصر الولي التندغي المسمى بعبد الجليل من قوله: والله

أن الشيخ سيدي ليعلم أن الشيخ محمد الفاضل هو قطب الزمن اليوم وقد اجتمع عنده الأولياء الليلة الفلانية في شأن كذا واجتمعوا عنده الليلة الفلانية في شأن كذا وكذا، ومن ذلك أيضا ما أخبر به الشيخ سيدي من قوله في رواية محمد المصطفى بن الحبيب بن سيد محمد عنه والله إن الشيخ محمد الفاضل لقد خاض بحورا من الغيب ما خاضها أحد بعد الشيخ عبد القادر الجيلي، ومن ذلك أيضا ما أخبر به الشيخ المام الولي اليعقوبي من قوله: ليس على وجه الأرض اليوم انتفاع ظاهر ولا باطن واصل إلى صاحبه إلا من يد الشيخ محمد الفاضل بن مامين، ومن ذلك أيضا ما أخبر به الشيخ سيد المصطفى بن شيخنا أنه وجد بمكة المشرفة وليا مكاشفا مشهور الولاية يقال له: عبد الرحمن أفند فأخبر ذلك الولي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يحج عن الشيخ أعز الله جنابه الكريم ومتعنا بطول حياته في أكمل النعيم، وأخبره أنه قطب هذه الأمة وفريدها وخاصة خاصتها ووحيدها. اهـ.

وقد سمعته أعز الله جنابه الكريم سأله عن ذلك سائل وأقسم عليه أن يخبره بما أعلمه الله به في ذلك بعد أن كان أحد يحكي كلام الشيخ سيد محمد في ذلك، فقال له الشيخ نعم قد أعطاني الله من فضله ذلك المقام منة منه وفضلا وأخبرني أيضا من أثق به أنه سمع الحضرام بن شيخنا سأله عن ذلك بأن قال له شيخنا: أخبرني هل أنت القطب أم لا، فقال له: يا بني ما أقول لك لقد قال ذلك الأولياء كلا من الإنس والجن والملائكة وتحدث به أهل السماء وأهل الأرض وأما أنا فما سألته الله قط ولكن ما من الله به لا توقف له على الطلب. اهـ.

وسمعته أيضا حفظ الله ساحته يقول: والله لقد تحير في شأني المتقدمون والمتأخرون من الأولياء وما دروا ما أنا فيه ولا من أين أوتيته، وسمعته أيضا كثيرا ما يقول عند موجبه: والله لا يتخلف عن خاطري هذا ولي ولو في القطبانية إلا أسقط الله لي رأسه وجعله أسفل. اهـ.

وسمعته أيضا يقول: لا علم لي بعمل يسرني وإنما يسرني كرم ربي وثلاث كلمات إحداهن أني أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدت معه بعضا من الأولياء فلما أتته قام لي ورحب بي ولم يجز اسمي بل يقول: مرحبا بابني الشيخ محمد الفاضل وأظهر لي من البشر والسرور ما أسرني على نفسي وأتى بعد ذلك كثير من الأولياء ولم يعمل مع أحد منهم ما عمله معي من الفرح والترحيب والتلقيب باسم الشيخ فعلت أن ما أعطاني الله ليس استدرجا والثانية أن فاطمة الزهراء أخذتني وجعلتني في حجرها وقبلتني بين عيني وأظهرت لي من الفرح والسرور ما أسرني على نفسي، والثالثة كلمة تتابع لي عليها وليان الله تعالى مكينان في مقام الولاية أحدهما المختار بن آب الجكني والثاني ولي شريف من أهل الغرب مداح للنبي صلى الله عليه وسلم كلاهما حلف لي بالله جهد أيمانه لا يرى وجهي إنسان ويشقى أبدا. اهـ قلت: وأنا أشهد بالله لقد رأيت فيه ماسا ذكره الآن إن شاء الله ولا أذكر منه إلا ما رأته يقظة أو بين النوم واليقظة فمن ذلك أني كنت في بدء أمري من صباي أزرع الله في قلبي خصوصية الشيخ حتى أعلمني أن ليس مثله من أولياء هذه الأمة أحد فتفكرت يوما في نفسي بعد كبري وإدراكي وسألت الله أن يريني الحق ويوضح لي ما في نفس الأمر من منزلته في منازل أهل الله فلم ألبث وأنا في مجلسي ذلك إلى أن جمع الله لي أولياء هذه الأمة كلا ونصب لبعضهم المنابر النورانية وأعلاهم عليها ول بعضهم الأسرة الشهيرة ول بعضهم الأسرة غير الشهيرة، إلى أن أراني الله رتبة كل ثم أتاني آت وأراني طريقا وأمرني أن أسير معها وأخبرني أن كل من تجاوزته قبل أن أصل إلى الشيخ فالشيخ أعلى منه مقاما وأمكن منه منزلة عند الله تعالى وأكمل سابقة وأوفر تخصيصا، فأخذت الطريق التي أراني وسرت معها فما مررت بأحد منهم إلا وعرفته وأنا أتخللهم واحدا بعد واحد، فلما تجاوزتهم كلا إذا بالشيخ أعز الله جنابه الكريم وأطال بقاءه في كمال عافية وتمام النعيم ومعه النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين. اهـ

ومن ذلك أيضا أني كنت ليلة جالسا في المسجد بين المغرب والعشاء والشيخ هناك والناس مجتمعة عليه ينتظر الصلاة فلم أشعر إلا أن التفت فإذا الشيخ أطال الله بقاءه والنبي صلى الله عليه وسلم جالس معه وهما على صورة واحدة كلما التفت إلى

أحدهما إذا هو الشيخ والرسول فمكتا هناك ما شاء الله وأنا لم أميز بينهما ومن ذلك أيضا أني أرانيه الله تعالى ليلة في مدينة عظيمة لا يقدر قدرها إلا الله تعالى ليس فيها إلا الرجال، ولها مسجد عظيم فاجتمع فيها أهل الله كلا فإذا هو سلطانهم ورئيسهم ثم أرادوا الصلاة فقدموه فصلى بهم فلما سلم وسلموا قام فاستقبلهم بوجهه الشريف الكريم على الله وخطبهم ووعظهم قائما وهم خاضعون متأدبون كأن على رؤوسهم الطير وقعا تعظيما له واحتراما واحتشاما منه. اهـ ومن ذلك أيضا ما أرانيه الله تعالى وذلك أني كنت يوما من الأيام جالسا فلم يرعني إلا أن قمت متوحشا من الناس زائل العقل مسلوب الإدراك وسرت بعيدا من الناس لا عقل لي فلما بعدت من الناس جدا جعل عقلي يتقارب مني ويأتيني شيئا فشيئا فلما رجعت إلى عقلي أدركت أني كنت في البيت فأصابني ما لست أدري أهو نوم أو إغماء أو غير ذلك، ولم أدر إلا أني رأيت أن أتاني آت بنجيب من إبل عظيم لم يركب قبلي ولم يظهر عليه أثر العقال وأناخه بين يدي وجعل لي عليه رحلا عتيقا وأتاني برديف فركبنا عليه وجعل يسر بنا في الهوى يمر كمر الرياح فيما بين جهة وجهة اليمين فلم يلبث أن نزل بنا بين كثير من أولياء الله تعالى فمنهم من عرفت ومنهم من لم أعرف وأكثر من هناك أرواح لا أجساد لها فإذا هم عند الله تعالى كأنه جل وعلا دعاهم إليه فأتوه هناك جعلوا كلهم خاضعين خاشعين متخيرين في أمرهم لا يدرون لماذا دعوا وماذا عسى أن يفعل بهم، ولا يملكون منه خطابا وهم كلهم في ذلك المكان لا يتجاوزهم منهم أحد والشيخ حفظ الله جنابه الكريم وأطال حياته معافى دائم النعيم بعيد من مكانهم ذاك بينهم وبينه مسافة وهم إذ ذاك في ضيافته وهو الوساطة بينهم وبين الله تعالى لا يقدر أحد منهم على الوصول إليه وهو يوصل إلى كل منهم حظه من تلك الضيافة الغيبية فلما وصلتهم أردت القدوم إلى الشيخ أطال الله بقاءه فقالوا لي كلا لا يمكن أن يتجاوز هذا المكان غيره فلم أكثرث بقولهم وذهبت نحوه حتى وصلت مكانا بعيدا منهم قريبا إليه لم أقدر أن أتجاوز ذلك المكان إليه، فرجعت إليهم ثم تجاوزتهم وأنا في كل هذه الحالات لا حيلة لي بل الله تعالى يفعل بي وأنا أنظر ثم جلست بمعزل عنهم على ناحية اليمين فلم ألبث أن ألهمني الله تعالى أن أخذت لوحا وجعلت أكتب فيه شيئا لم يكن في حظي قبل ذلك الوقت ولست أحفظه إذ ذاك ولا يمليه على أحد بل الله

تعالى يجريه على القلم، وأنا أكتب فلما أتمته جعلت أقرؤه فلما قرأته مرارا أقامني الله تعالى وأمشاني إلى جهة اليمين من غير اختيار لي ولا تدبير بل محض انفعال منه، وأنا أنظر وأعي فلم ألبث أن وصلت دوحة عظيمة وإذا بنور عظيم ونار بيضاء لأجربها عند أصل الدوحة على جهة اليمين عنه، فلما وصلت ذلك المكان لم أدر ما فعل الله بي ولا ما كان من أمري ولا شعرت بشيء إلا وأنا متوجه إلى قومي، فوجدتهم حيث تركتهم فقاموا إلي كلاً وقالوا: هنيئاً هنيئاً فمنهم من يجعل يده على عضو مني ويضعها على وجهه يرون أنني رأيت الله تعالى وأنا والله لا أدري وهم كلهم في ذلك المكان وفي تلك الحالة في ضيافة الشيخ وهو واسطتهم إلى الله تعالى والمتولي تقسيم أنصبتهم عليهم مثال ذلك في عالم الشهادة مثال الوزير الحاجب الحظي عند الملك القائم على باب الملك لا يدخل داخل إلا به ولا يصل لأحد نصيب إلا على يديه. اهـ.

وهذا المشهد لا أدري هل وقع في نوم أو يقظة أو بينهما وأما ما قبله مما أشهدهني الله تعالى فبين النائم واليقظان واليقظة إلى في أكثره أقرب، ومما أشهدهني الله تعالى فيه يقظان أنني كنت آتياً من سفر بعيد معي رجال ثلاثة أنا رابعهم وأنا مريض بوجع العنق فأصبحنا عند الناس ومكثنا النهار كله راكبين والناس بعيد منا مسافة أربعة أيام أو أزيد فرحنا في مكان لا أناس به ونزلنا عند غروب الشمس فلما صلينا المغرب قام الرجال يجمعون لنا الحطب وبقيت في مكان الصلاة واضطجعت فلما وصل قرني الأرض إذا برجل على نجيب إبل وألقى الله في قلبي أن الرجل شريف وأنه من أهل المغرب وأن اسمه عبد السلام، فلما استقر به النجيب شد بأعلى صوته يمدح النبي صلى الله عليه وسلم فلما أتم مدحته سقط وجعل يتقلب كالفرخ المذبوح فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم جالس وإذا بالأولياء ينزلون نزول دفعة المطر فاجتمع منهم عدد لا يحصيه إلا الله فجعل النبي صلى الله عليه وسلم بكله إلى ذلك الرجل المداح وهو يتقلب كالفرخ المذبوح والشيخ حفظ الله ساحته يلتفت إلي لكنه متأدب مع الرسول ووجهه إلى حي توجه الرسول عليه الصلاة والسلام، فلما سكن روع ذلك الشريف التفت النبي عليه السلام إلي وكان الشيخ أعزه الله يميل إلى أن يضع النبي عليه السلام يده الشريفة على موضع الألم مني فالتفت عليه السلام وجعل يده على

عنقي يضمناها بيده ويقبضها فبرأت عنقي من حينها، ولم أتألم بعد ذلك والله الحمد، فما حضر ذلك المكان بعد النبي صلى الله عليه وسلم أكمل منه سمته ولا أنور منه طلعة ولا أعلى منه هناك مرتبة. اهـ.

وهذا المشهد إنما كان يقظة لا نوم فيه والله على ما نقول وكيل، فلما أتاني قومي حاملين الحطب أخبرتهم أنني برئت وأن الطريق سهل ولا نلقى فيها مكروها وكتمت عنهم غير ذلك، ومن ذلك أيضا ما أرانيه الله تعالى في بعض الأوقات يقظة وذلك أنني رأيته يصرف الله تعالى على يديه مقادير الأمور حتى رأيته يرسل ساعات الزمن من يده عن قدرة خالقه إرسال الخازن الأمين لما جعله الملك تحت يده فما تجري ساعة وإلا من كفه أو من فروج أصابعه. اهـ — ومن ذلك أيضا ما أرانيه الله في هذا العام فيما بين النائم واليقظان وأنا إلى النوم أقرب من اجتماع أولياء الله تعالى عليه عند بيته وصلاتهم به فكنت وقت هذه الرؤيا أرى أنني في جنابة وساءني أنني لم أكن متطهرا فأصلي معهم فلم ألبث إلا وكأني متطهر لا جنابة بي ولا حدث أصغر، فصليت معهم ورأيت الشيخ أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته في كمال العافية ودوام النعيم سرته صلاتي غاية ورأيته في تلك الرؤيا يقدم ابنه سيد عثمان في شؤون الصالحين وكأنه يريد تقديمه عليهم. اهـ قلت: وإنما أتيت بما أرانيه الله تعالى في شأن هذا الشيخ معي مع علمي بما أنا فيه من قبح الحال وسوء الطوية وخبائة النفس وجهل الحق، لأن المقام الشهادة على خصوصية الشيخ وصحة وراثته للنبي صلى الله عليه وسلم وتقدمه على سائر الأولياء فكان الحق لله في ذلك، وقد قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ قال صاحب الذهب الإبريز في معنى الآية: أي لا أحد أظلم ممن كتم أي أخفى عن الناس شهادة عنده كائنة من الله وقال في قوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أنها تهديد لهم وقال تعالى: ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ قال في الذهب الإبريز قيل ما وعد الله تعالى على شيء كإيعاده على كتمان الشهادة فإنه قال: آثم قلبه، أي فاجر قلبه، والآثم الفاجر وأراد به مسخ القلوب نعوذ بالله من ذلك، قال ابن عباس: أكبر الكبائر الإشراك بالله وشهادة الزور وكتمان الشهادة. اهـ. منه.

وقال تعالى: {ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين}. اهـ. وأخرج ابن المبارك من رواية جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الساكت عن الحق كالتكلم بالباطل وكاتم الشهادة كالشاهد بالزور ومحرم الحلال كمحلل الحرام. اهـ. وسكت عما أرانيه الله فيه في صرف النوم مع كثرتة واتساعه مع علمي أن الرؤيا وحي لأمرين أحدهما أن فيما ذكرت ما يكفي في أداء الشهادة والثاني لدناءة الرؤيا عند العامة وعدم التفاتهم إليها وأما غير العامة فالرؤيا عندهم بمكان لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، أخرجه الخمسة إلا النسائي والمراد بالخمسة مسلم والبخاري والترمذي والنسائي وأبو داود، وزاد بعضهم وما كان من النبوة فإنه لا يكذب كما في ابن الربيع وعن أبي قلابة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلما يكرهه فليبصق عن يساره وليستعذ بالله منه فلن يضره، وفي آخر البخاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي، وفي أخرى لأبي داود والترمذي عن أبي مدين العقيلي رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة والترمذي عن أبي سعيد أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة أخرجه البخاري متصلا ومالك عن عطاء مرسلا وزاد يراها الرجل المسلم أو ترى له. اهـ.

وفي الذهب الإبريز عند قوله تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة} أن البشرى في الحياة الدنيا فسرت في حديثه صححه الحاكم بالرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له، وفي الذهب أيضا عند قوله تعالى: {وما كان لبشر} إلخ قيل: الوحي أنواع الرؤيا الصادقة ونفث الملك في روع النبي من غير أن يراه أو يأتيه مثل صلصلة الجرس وأن يكلمه بلا واسطة من وراء حجاب يقظة كما وقع في الإسراء على القول بعدم الرؤية وأن يكلمه كفاحا من غير حجاب على القول بالرؤية ليلة الإسراء، قلت: وهذه الأنواع كلها أقسام الوحي هي طرق وهب العلم لأولياء الله تعالى إذ كل ما كان معجزة

لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، وقد روي عن أولياء الله تعالى من ذلك ما لا تسعه العبارة ولا تحيط بأدنى ذرة منه الإشارة.

أخبرني عبد الدائم بن شيخنا أنه سمع شيخنا حفظ الله ساحته وأطال مدة حياته وأفاض علينا جزيل بركاته يقول: والله ما أخذت شيئا إلا عن الله تعالى بلا واسطة غير أن أبي علمني كتاب الله تعالى وما يعلم من علوم الأسرار. وأما غير ذلك فوالله ما أخذته إلا عن الله بلا واسطة.

قلت: رأيت في بعض الكتب أن بعض الأولياء لقي الخضر عليه السلام فقال له: هل وجدت قط من أولياء هذه الأمة من هو أفضل منك؟ فقال: نعم دخلت يوما مسجد الكعبة وفي رواية: مسجد الجامع الأزهر فإذا الناس مجتمعة على عبد الغفور لتأخذ منه الحديث، وإذا شاب في المسجد قد لف رأسه بين ركبتيه فوكزته برجلي وقلت له: ألا تدنو فتأخذ الحديث من عبد الغفور، فقال لي الناس: تأخذه من عبد الغفور وأنا آخذه من الغفور، قال الخضر: فقلت له إن كنت صادقا فمن أنا فالتفت إلي وقال إن كانت الفراسة صادقة فأنت الخضر. اهـ.

وأما شواهد إرث هذا الشيخ الكريم للرسول عليه أركى الصلاة والتسليم واختصاصه بالمقام الذي ما فوقه مقام ولا ينال إلا بوهب من ذي الجلال والإكرام، فاعلم وفقني الله وإياك لما يرضيه عنا وكان لي ولك بكل المنى أن حقيقة ذلك المقام هي المعبر عنها بمقام ظهور أن يعطي الله تعالى عبده من التمكين ما يظهر به في كل معنى من معاني الأسماء والصفات على كثرة تنوعاتها فيظهر في معنى الاقتداء مثلا بأن يصير في جوار الله بحيث لا يستعصي عليه شيء مما يطلبه كإبرائه العلل والأمراض ومشيه على الهوى وقدرته على التصور بكل صورته وكل صفة هكذا وتسمى الرتبة برتبة المحبة فيسمى صاحبها بالمحب وتسمى رتبة العبودية فيسمى صاحبها بالعبد والأصل في كل ما يعبر عنه أهل الله تعالى في هذا المقام من معنى الظهور في تنوعات الأسماء والصفات قوله تعالى فيما يرويه عنه رسوله عليه الصلاة والسلام: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير من ملئه، وإن تقرب إلي شبرا تقربت ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة، ولا

يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعا ويدا ورجلا فبي يمشي ويسمع ويبصر ويبطش وفي رواية كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وفي رواية كنت له سمعا ويدا ومؤيدا. اهـ فمن كان سمعه بالله ما ليس للحواس فيه مسمع ومن كان بصره بالله أبصر ما تشوف لبصر ومن كان بطشه بالله أيضا أبطش من شاء بما شاء كيف شاء، ومن كان مشيه به الله مشى كيف شاء لمن شاء ولا يتقيد من هذا حاله بوصف في أمر ما كما أن الله تعالى لا يقيد بشيء. اهـ.

وقال في التوشيح في معنى الحديث: أي كنت متوليه في جميع حركاته وسكناته قال الطوفي: اتفق العلماء ممن يوثق بهم أن هذا مجاز وكناية عن نصره العبد وتأييده وإعانتة حتى كأنه سبحانه ينزل نفسه من عبده منزلة الآلات التي يستعين بها. اهـ كلامه.

قلت: فمن كان الله له بهذه المثابة حتى كأنه ينزل نفسه منزلة الآلات استحال أن يستعصي له ممكن أو يمتنع عن إرادته أمره ما وقال الفيشي: على الأربعين، قالوا: المعنى: كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الاستماع وبصره في النظر ويده في البطش ورجله في المشي. اهـ قلت: ومن كان الله أسرع إلى قضاء حوائجه أيضا من حواسه في محالها الموضوعة لها فكيف يستعصي عليه شيء إذ قد كان الله المتولي لأمره ليس له فيها إلا مجرد الميل إلى الوقوع قال في الذهب الإبريز: ويجوز أن يكون المعنى كنت له معينا في الحواس المذكورة، وقيل غير ذلك. اهـ.

ويشير أيضا إلى حقيقة هذا المشهد أعني ظهور العبد في تنوعات الأسماء والصفات الإلهية قوله تعالى: {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} وقوله: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} وقوله: إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله}. اهـ.

ويسمى هذا المقام أيضا مقام الوسيلة لأن الواصل إليه صار وسيلة للقلوب إلى السلوك على التحقيق بالحقائق الإلهية، وقد أوقف الله تعالى هذا الشيخ في هذا المقام وفوق المقام المتصرف بإذن ذي الجلال والإكرام العامل في خدمته وأمره بالاستسلام الناظر إليه بعين الاحترام وسأرتب ما ظهر لي على يديه من آثار هذا المقام بالرواية وبالعيان على الفروع فأقول وبالله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق:

فرع: فيما أظهر الله تعالى على يديه من إبراء العلل والأمراض من غير رقية ولا علاج بل ظهورا في مظهر اسمه البارئ واسمه الشافي أقول والله على ما نقول وكيل أتيته ليلة وقد أصابني شيء قوي في ظني أنه لسعة حية، فخرج لي من البيت وأخذ برجلي وجعل يحدثني مليا وأرسل رجلي وقال لي: لا بأس عليك فخرجت من هناك وأنا في غاية الخجل والاحتشام مكذبا نفسي عما أصابها وأقول: لعلي أخرجت الشيخ من بيته على غير شيء بل محض جزع أو عدم تثبت. اهـ.

وحدثني أخي محمد الفاضل بن أحمد الهيب أنه قد لسعته حية ليلة فقتلها وقطع رأسها ثم أتى الشيخ حفظه الله ليرقيه فأخذ موضع اللسعة وقال له: يا ابن أخي: لعلك أصابك فار أو خنفساء، فقال له: بل أصابتنى حية فقتلتها وقطعت رأسها، فقال له الشيء أطال الله بقاءه وأكمل في كل المعاني ارتقاءه هل أنت شجاع أو جبان فزال روعه وضحك وكأنما نشط من عقال. اهـ ورأيت ليلة بت للتخلف إليه في عشاء الأضياف إلى وهن من الليل فعندما سرت عنه أتاه آتون منا آل اطالب مختار قد أصيب أحد كبرائهم بل هو كبيرة بجنة فركب معهم في ذلك الوقت وسار إلى خيامهم على مراحل منا فأبرأ الله صاحبهم بمجرد وصوله إليه وركب من عندهم إذ ذاك وأتانا بعد طلوع الشمس وكأنه لم يلبث عندهم إلا قدر ما وصل إليهم. اهـ.

وشاهدته ليلة أتاه رجل من محلته من أبناء عمه بابن أخت له قد أصيب بجنة وقد نام الناس فشفاه الله عندما أتاه وأصبح كما أمسى، ولم يتحدث اثنان أنه قد أصيب بالجنون قط. اهـ وشاهدته كثيرا ما يأتيه ذو الجنة أو ذو العلة الفادحة خفية طلبا للستر على نفسه فيشفيه الله غير أن يشعر به مشعر أو بصر علتة مبصر. اهـ وشاهدته أيضا يأتيه الإنسان وبه البرص فيشفيه الله منه أسرع ما يكون حتى يكون كأنه ما أصابه قط. اهـ وشاهدته أيضا وقد أتاه حماد بن حيمدوه وقد عظم بطنه حتى أنحل جسمه ودق عظمه ورق جلده ولم يقدر إلا على الاضطجاع ولا يمكنه أن يمكث ساعة على جنب واحد ولا يقدر أن يقلبه على الجنب الآخر إلا إنسان يقدر على حمله فلما أتاه وأهدى له بجاريتته وأم أولاده فاطم الخادم شفاه الله في أسبوع أو أقل أو أكثر بقليل فبرئ وجعلت قواه ترجع إليه حتى شاهده بعد شهر يسوق بقرات سمان كلما أرادت إحداهن أ، ترجع إلى المراح الذي سيقنت منه شد عليها حتى

ضربها بعصاه فكان شأنه عندي أعظم آية رأيتها، فقلت عند ذلك: اعلم أن الله على كل شيء قدير، وأخبرني أخوأي محمد الامين بن البشير وأحمد بن صالح أن بعض التلاميذ من أكابر آل اطالب المختار كان قد أصابه ذلك المرض أعني عظم البطن حتى واجر عليه أقاربه بعض الأطباء بأن يعطوه ديتة فيداويه لهم فقال الطبيب: ليس له من دواء غير أن أشق بطنه وأزيل ما فيه من العيب ثم أخيطه فلما أتوه به أسرع الله له الشفاء حتى كنت أعلمه من أحسن الناس حالا وأقلهم ظهور آثار المرض عليه. اهـ.

وشاهدته أيضا وقد أتاه سيد عثمان بن أمر بابنه محمد عبد الرحمن وقد أصيب بالجنون وفي يديه قيد وفي رجليه آخر فكان الشيخ يأتيه فيحدثه ويزيل عنه الوحشة فلم يلبث عندنا إلا مقدار أسبوعين حتى شفاه الله وأبرأ سقمه وشاهدته أيضا وقد أتاه محمد بن سيد ابراهيم برجل من قبيلة اكسيم ما شاهدت عيني أسوأ منه حالة في رجليه قيد وفي يديه قيد أيضا ويقول من الكلام القبيح ما لا يعلمه إلا الله تعالى فما برحنا في تلك الدار التي أتانا فيها حتى أمره الشيخ بالمسير إلى أهله عن برء صاحبه. اهـ وشاهدته أيضا يأتيه صاحب الصرعة التي يقال لها الكرين فيبرئه الله تعالى على يديه وسمعتة أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته معافى في أكمل نعيم يحدث أنه قد أتته امرأة شريفة يقال لها: مان بابن لها أظن والله أعلم أنني أعلمه وأعلمها منذ ولد وهو فاسد المزاج لا عظم فيه بل إنما هو لحمة لها ثقبان يخرج منهما الأخبثان وثقب يدخل معه الطعام والشراب صورتها ليست كصورة بني آدم، فلما أردت الارتحال إليه لهذا الشأن قال الشيخ محمد الامين بن سيد محمد القللمي وقد كانت جارا له: والله لا يقدر على صلاح ولدك إلا من صنع لك ولدا من هذه الأرض، فلما أتته وأخبرته بذلك قال لها: أليس الله تعالى يقول: لو كان الله على كل شيء مقتدرا { فكان من قدر الله أن رد الله ولدها صورة إنسان له عظام ولحم، وأظن أنني رأيته بعيني شابا فتيا. اهـ.

وشاهدته أيضا أتاه رجل مجنون ذو قدر فكان الشيخ حفظ الله ساحاته يأتيه مساء وصباحا ويقول له: كيف حالك لا أشمت الله بك أعدائك فما لبث أن شفاه الله والشيخ حفظه الله ما رقاها ولا زاد له على ذلك. اهـ.

وشاهدته أيضا وقد أتاه تلميذ الشيخ بن عبد الرحمن بن امد برجل مجنون أخبت ما يكون فكان هناك مدة ثم أمر الشيخ أعزه الله أمه بالارتحال به إلى أهلها وهو في تلك الحالة التي أتى فيها أزيلي عني القيود وأعطني شيئا ألبسه ففعلت فتم برؤه بذلك. اهـ وأخبرني من أتق به أنه أخبرته أمنا منين بنت المعلوم أنها كانت أصابتها قرحة عظيمة نبتت في ذراعها فأتاها ليلة فإذا هي إلى الموت أقرب وأخذ شيئا من ثرى الأرض ورمى منه أربع طوبات إلى الجهات الأربع فما لبث أن نامت في ذلك الوقت ثم أصبحت وكأنها ما أحسته قط. اهـ— وأخبرني أخي محمد الامين بن البشير وغيره أنهم شاهدوا أمر بن الحسن السكباوي أتى الشيخ حفظه الله ورعاه بأخ له قد عظم بطنه وكان مقعدا حتى رقت ساقاه واعوجت ركبته ونحل جسمه وكان أسوأ المرضى وأهل العلل حالة فأهدى للشيخ بجاريتيه وأم أولاده سلام فوجد الشيخ حفظه الله في سفر فلما أتاه به أمره الشيخ أن يسير ويترك أخاه مع التلاميذ ففعل فأعطى الشيخ للمريض شيئا من اللحم يأكله فلما أكله أعطاه شيئا من حسي الخضر الذي يقال له فند فقال له بعض التلاميذ هذا لا يأكله بعد اللحم صحيح إلا ومات، فلما أله بعد اللحم أطلق الله بطنه وبات على تلك الحالة فأصبح أهيف الناس بطننا فأمره الشيخ أن يقوم، فقال: لا حيلة لي للقيام لضعف الأعضاء فقال: بل قم، فجعل يقوم ويسقط حتى استقام قيامه وكان ذلك سبيله، فلم يبت بعد أخيه إلا ليلة واحدة ثم أبرأه الله تعالى وشاهدته وقد أتاه أخي محمد المختار بن الحاج امر يابس الأسفل لا يقوم إلا بمسند يسنده ولا يقدر على قليل المشي إلا متوكئا على إنسانين وله في ذلك أعوام فلما أتى الشيخ قال له: اعلم يا شيخنا أنني نساخ للكتب وإن شفاني الله صرت لك نساخا فالفت الشيخ إلى الحاضرين وقال لهم الطفل: قد اكرتاني ثم التفت إليه وقال له: نعم يشفيك الله تعالى، وكتب له في ذلك اليوم كتابا وأبرأه الله من حينه، فكان بعد ذلك من أقوى الناس على المسير، فكان يجاري الخيل والجمال الجياد وكان معروفا بالسبق. اهـ— وكان قد أتاه أخونا اعل مولود بن الاكوان يابس الجسد كله ليس يحرك منه شيء فكان أخي محمد الفاضل بن أحمد الهيب في صغره يضع الجمرة على رجله فلا يستطيع هو أن يسقطها عن نفسه ليبس أعضائه وعدم قدرته على تحركها،

فلما أتاه جعل الشيخ يرقيه فأبرأه الله فكان بعد ذلك من أحسن التلاميذ خدمة للشيخ حفظه الله ورعا. اهـ.

قلت: وإنما أعددت هذا كله شاهداً لكمال الشيخ ولم أعده من الكرامات بل هو أثر أكرم الكرامات التي هي التمكين في مقام ظهور العبد في معاني الأسماء والصفات لأن الكرامة إنما هي الأمر الخارق للعادة، الغير المقرون بالتحدي يهبه الله تعالى للعبد الصالح ليثبت له فؤاده ويقوي به يقينه وليس ذلك الأمر في طوق العبد ولا حيلة له في استجلابه إلا مجرد الرجاء أو ميلان القلب إليه وليس هذا كذلك لأن هذا أثر إقدار الله تعالى عبده على الظهور في تنوعات الأسماء والصفات فكانت الكرامة من بركة الأعمال الصالحات وهذا أثر الحال الوهبية والمقام في مقام الزلفى والقربة، وليست الكرامة تحت الطوق لصاحبها بخلاف هذه المظاهر، فإن صاحبها قد أقدره الله تعالى عليها وراثته نبوية وخلافة محمدية يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتى هو وأبو بكر الغار دخله أبو بكر قبل النبي ليقية بنفسه وأنه رأى جحراً في الغار فألقمه عقبه مخافة أن يخرج منه ما يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلت الحيات والأفاعي يلسعنه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نائماً في حجره فما أيقظه إلا دموع أبي بكر تقطر على وجهه الشريف من ألم ما أصابه من السم فقال مالك: يا أبا بكر، فقال: لدغت فداك أبي وأمي، فتفل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عنه ما كان يجده من الألم ببركة ريقه ويروى أيضاً أن احبيب بن مالك اليهودي أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فقال له: يا محمد أنا أشهد أنك رسول الله لكن بقيت لي عندك حاجة أخفيها في نفسي فأخبرني عنها وأريد منك أن أرى فيها ما يسرني فقال عليه السلام: أو كما قال أخبأت في نفسك شأن ابنتك فلانة واذهب إلى بيتك تجدها أحسن ما يكون من النساء وأكملها خلقاً فأتى فوجدها كذلك وقد كانت ولدت لحما لا عظم فيه مع تغير صورة خلقها البشري. اهـ من بعض كتب المعجزات وبعضه بالمعنى.

وأما ما شفاه الله تعالى على يديه في بدء أمره بواسطة الكرامة فأكثر من أن أحصيه ولست بصدده إذ قصدي هنا إظهار ثمرات ظهوره في تنوعات الأسماء والصفات ولذلك ما عدت في هذه النبذة إلا ما أظهره الله على يديه بعد أن أخبر عنه كمل

أولياء الله تعالى بدخوله في هذا المقام الذي ما مثله من مقام ولا ينال إلا بوهب من ذي الجلال والإكرام غير اثنتين أو ثلاث من تلك القصص فإني نكرتهن لأمرين أحدهما أنني لا أدري هل وقعت منه قبل دخوله فيكون وقوعها منه على وجه الكرامة أو بعد دخوله فيه فيكون وقوعها منه على معنى ظهوره في تنوعات الأسماء والصفات وثانيهما عظم شأن تلك الخوارق وهي مسألة ابن الشريفة وصاحب البطن الذي قال فيه الأطباء لا دواء له إلا بعد شق بطنه والثالث تلميذه اعل مولود الكاني وأما ما شفاه الله على يديه بواسطة الرقى فأكثر من أن يحصى ولست من هذا في شيء لأنني لست بصدده فلقد كان كثيرا يؤكل تلميذه المختار بن أحمد وتلميذه أحمد بن صالح أو سيد المختار ابن اتفاق أو غيرهم على رقى المرضى ويحصل البرء بذلك أكثر مما يعد العادون أو يتوهم المتوهمون ولست بصدد ذلك ولا ألقى بآلي لما هنالك إذ ما حصل بواسطة الرقى ينسب تأثيره إليها بواسطة قوة عزم الراقي وحسن ظنه برقيته وما يهديه المرقي إليه فمتى حصلت هذه الشروط الثلاث نفعت الرقية برا كان الراقي أو فاجرا رأيت في كتاب الجواهر والدرر ما معناه أنه سأل شيخه عليا الخواص عن بعض الرهبان يؤثر بهمته في الأشياء، وهو كافر فأجابه الشيخ أن ذلك لقوة عزمه وثبوت يقينه وجزمه أنه يؤثر في معموله ولأجل ذلك كان قوم من أهل اليمن ذوو همم يؤثرون في الأشياء بهمهم وعزوماتهم بلا رقية فكانوا تجتمع منهم الجماعة على الإنسان فيوجهون همهم إليه ويعزمون بها عليه فيسلون قلبه من جوانحه فيكون فاسد العقل وربما فعلوا ذلك بذاته فيذبحونها فإذا هي لا قلب لها وربما يعزمون على اللوزة فإذا كسروها وجدوها لا قلب لها بعد أن كانت إذا حركت سمعت صلصلة قلبها في وسط قشرها وهم معدودون من أنواع السحرة. اهـ يروى أن خالد بن الوليد رضي الله عنه كان في غزوة من غزواته فحاصر قوما أهل همة فكان كلما غدا عليهم بجيشه اجتمعوا وأجمعوا همهم وعزوماتهم أن يرجع عنهم فيختبل قومه حتى يرجع عنهم بإذن الله تعالى فكان من قدر الله تعالى أن أدخل الله الإيمان في قلب بعض أشياخهم فدخل على خالد خفية وأخبره الخبر وقال له: إذا أردت أن تغدو عليهم فاضرب الدفوف وائتهم ودفوفك أشد ما تكون ضربا فإن أصوات الدفوف ترهشهم فلا تثبت همهم وفعل خالد ذلك فأخذهم. اهـ. ويروى أيضا نحو هذه القصة

بعينها عن بعض خلفاء العباسيين في حصاره بعض الخوارج أيضا. اهـ وأما حسن الظن بالرقية فأمر لا بد منه في حصول النفع بها وإلا فلا يتصور قوة اليقين والجزم بنفعها لحقارتها عند الراقي وسوء ظنه بها وبمجرد حسن الظن بها يحصل الانتفاع يروى أنه عليه السلام قال: لو طلبتم البركة في حجر لوجدتموها. اهـ. ويروى أيضا أن قوما من السفهاء قتلوا كلبا ودفنوه ونقشوه باسم رجل متعبد، فقال في نفسه لأجلسن

عند قبر هذا الولي أسأل الله بجاهه

الله حتى فتح الله عليه بمراده من بركة الصدق وحسن النية وأما الهدية للراقي فأمر مشروط في حصول نفع الرقى أخرج مسلم والبخاري وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: كنا في مسيرتنا فنزلنا منزلا فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم أي لديغ وإن نفرنا غيب فهل منكم راق، فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية فرقاه فبرئ فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبنا، فقلنا له: أكنت تحسن رقية، فقال: لا ما رقيته إلا بأم الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئا حتى نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسأله فلما قدمنا ذكرنا له ذلك فقال: وما يدريك أنها رقية، اقتسموا واضربوا لي بسهم. اهـ.

وفي بعض رواية فلئن أكل أحد بباطل فلقد أكلت بحق، وفي بعض الروايات فنزلنا بحي بضض فلدغ سيد الحي فأنت جارية تطلب له راق، فقلنا: قد امتنعتم من ضيافتنا فلا نرقوا لكم حتى تعطونا شيئا فأمر لنا بقطيع من الغنم. اهـ. ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أصابه صداع شديد فدعا أبا بكر ليرقيه فرقاه فلم يبرأ ثم عمر ثم عثمان كذلك ثم دعا عليا فقال له علي: يا رسول الله: سمعتك تقول: الهدية أمام الحاجة، لا أرقيك حتى تعطيني شيئا فسأل عليه السلام عائشة هل في البيت شيء فيعطى لعلي فأخرجت له صاعا من التمر فقال عليه السلام: خذ هذا وأول هدية أوتيت فهي لك فرقاه فبرئ من حينه فأول ما أوتي غدا لسرحان فأعطاه إياه. اهـ.

ويروى أن الرقية إذا عملها صاحبها تسجد بين يدي الله تعالى تطلب الشفاعة للمرقي فيسألها الله سبحانه وتعالى وهو أعلم: هل أوتيت بالتعظيم ما التعظيم

فيقول: التعظيم المال فإن قالت: نعم يقول لها اذهبي فقد شفعتك فيه، وإن قالت لا

أمر وأمرًا ملكا العلة فلا
تستطيع تصل إلى العلة. اهـ — وربما حصل النفع بالرقى بمجرد
حصولها دون شرط وليس بالغالب. اهـ.

وقد جزم المحققون أن المشاركة على الرقى من باب الإجارة فيحصل الأجر للراقي
برئ العليل أم لا وليست من باب الجعالة التي لا يثبت الأجر فيها إلا بتمام العمل
ويعنون الرقى بأسماء الله تعالى وآيات الكتاب العزيز، قالوا: لأن قاعدة الجعل أن
يكون فيما فيه الغرور ولا يحصل النفع للجاعل إلا بتمام العمل كرد الأبق والبعير
الشارد وصيد الطير في الهواء أو الوحش عن الفلاة، إذ لا نفع للجاعل في نحو هذا
إلا بحصول مراده بتمام العمل بخلاف الرقية بالأسماء الحسنی وآيات الكتاب العزيز،
فقد قال تعالى: ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾.

وشفاء وقال: ﴿ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها﴾ أي فإن دعوتموه بها فإنه يستجيب
لكم يدل على ذلك المحذوف نسبة الأسماء إليه تعالى تعقيبها بالدعاء فإن ثمرات
الدعاء وفائدته الإجابة ودلت نسبة الأسماء إليه مع تعقيبها بالفاء السببية على
حصولها. اهـ.

فبهذا تعين القطع بحصول الإجابة والشفاء في الأسماء والآيات إما عاجلا في الدنيا
بحصول الغرض المقصود كائنا ما كان وإما آجلا في الآخرة بحصول الثواب
وتضاعف الأجور ويخشى على من زعم خلو الرقى بالأسماء الحسنی والآيات
العظمى عنها تكذيب ما ورد في ذلك من الكتاب العزيز فيكون كافرا ويدل على أن
النفع في ذلك لا بد منه ما روي أن امرأة كانت تصرع وتتكشف فأنت النبي صلى الله
عليه وسلم فقالت: يا رسول الله: ادع الله أن يبرئني فقال عليه السلام: يا أم فلان إن
شئت دعوت الله لك فأبرأك وإن شئت أصبر ولك الجنة، فاختارت أن تصبر ولها
الجنة فكان طلبها الدعاء بالبرء من رسول الله صلى الله عليه وسلم سببا لحصول
الخيار لها بين البرء الذي قصدت ودخولها الجنة. اهـ.

ونصوص المحققين في هذا أكثر من أن تحصى وتنتشر في هذا المحل الذي ليس
مرادا لهذا فلقد جزم به صاحب التلخيص على الرسالة عند قوله: ولا بأس بتعليم
المعلم على الحذاق ومشاركة الطبيب على البرء، وجزم به أيضا الشيخ سيد المختار

بن أحمد بن أبي بكر في الأجوبة المهمة وأخبرني الأخ العالم العدل الورع سيد المختار بن اتقاغ رحمه الله أنه أخبره الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود أنه حكم له سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم بثبوت أجره في كتاب كتبه لأحد من ادوعيش بمال ثمين ثم ادعى أن الكتاب لم ينفعه وأراد أن يظلمه، فرفع الشيخ سيد محمد أمره لمحمد بن محمد شين، فأمرهم محمد أن يتحاكموا إلى سيد عبد الله ففعلا، فلما تداعيا لديه أمر بإبراز الكتاب ليرى ما فيه، فإذا فيه آيات من كتاب الله وبعض من أسمائه الحسنی فحكم له بثبوت أجره.

وقد رأيت في هذا كتابة لشيخنا أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته في العافية وكمال النعيم ساق فيها من الأدلة الشرعية والنصوص الفقهية ما لا يكاد الشك يعقبه إلا ممن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. اهـ.

وبالجملة فلست بصدد الرقى ولا بصدد شؤونه بل قصد في هذا المحل تبين الدلائل على إكرام الله تعالى هذا الشيخ بالاختصاص بالأثر المحمدي والتفرد بذلك المقام السني بتبيين آثار ذلك المقام الذي ما مثله من مقام ولا ينال إلا بالوهاب من ذي الجلال والإكرام من قدرته على المشي على الهوى، فأقول والله المستعان: أخبرني القطب بن شيخنا أعزهما الله ورعاهما وحفظهما أنه كان يوما هو وبعض إخوته جالسين مع الشيخ أعز الله جنابه ومتعنا بحياته في كمال العافية ودوام النعيم يقرؤون له كتاب الشيخ عبد الكريم الجيلي فلما رآه إذا فيه آيات من كتاب الله تعالى وأسمائه، فإذا الشيخ عبد الكريم يذكر في كتابه يقول: أسري بي ويذكر معراجا أشبه شيء بمعراج النبي عليه السلام فقال الشيخ كلنا والله الحمد أسرى به هكذا. اهـ وأخبرني أيضا الشيخ سيد المصطفى بن شيخنا أنه مكث في هذه السنين السبعة التي بين قدومه إلينا عام إحدى وثمانين بعد المائتين والألف وبين مسيره عنا وهو كلما أراد القدوم إلينا تراءى له الشيخ على جانبه الشمالي من أرض الغرب وقال اثبت فما أنا هنا. اهـ وأخبرني أيضا من أثق به أن الشيخ سيد المصطفى أخبره أنه يوم قدومه المدينة المشرفة لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى دور المدينة لم يمكث نفسه على الرحلة حتى نزل وأسرع الجري إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متيقن أنه لا

يأتيه إلا وخرج له من قبره الشريف فلم يلبث في ذلك الجري إن نزل به الشيخ وتمكن منه وأمسكه هناك حتى سكن روعه ورجع إلى جأشه وركب على راحلته. اهـ.

وحدثني أيضا سيد عثمان بن شيخنا أنه كان ليلة في سفر ومعه قوم فأصابهم عكس فلم يلبث أن جاءه الشيء في ذلك المكان وأخذ طوبة من الأرض وأمسكها فوقه فسأل منها الماء عليه حتى روى وأراه جهة الماء فأمر قومه بالركوب إليه وأخبرهم الخبر فركبوا إليه فوجدوه قريبا منه فشرب قومه وهو لم يشرب لعدم عطشه فكان ذلك عندهم أعظم آية. اهـ وحدثني أيضا سيد المصطفى بن شيخنا أنه كان في سفر ومعه أخوه سيد القوم رحمة الله علينا وعليه فيأتوا في الخلاء فأتاه الشيخ بعدما نام قومه فأيقظه حتى تمت يقظته وأعطاه قدحا ممتلئا من لبن الإبل وسطلا فيه ماء ومزج اللبن بالماء وناوله إياه فشرب منه حتى روى ولم يعط غيره شيئا، قال: فلما أصبحنا أصبح سيد القوم يحدث رفقاءنا بأن الشيخ أتاني بلبن وفعل بي كذا وكذا قال: فتعجبت أيهما أكبر آية إتيان الشيخ إياي ومكاشفة أخي بأمرى. اهـ وحدثني أيضا أبي أنه حدثه المختار بن محمد بن اخيار أنهم كانوا ليلة مع الشيخ في المسجد آخر الليل ينتظرون طلوع الفجر فلم يرعهم إلا أن أخذ الشيء رداءه وتغطى به واضطجع مسرعا فما لبثوا أن تحرك الشيخ تحته ثم جلس فإذا بثوبه بلل فسألوه عن خبره فقال: ما هو إلا الخير فأقسموا عليه أن يخبرهم خبره، فقال إن امرأة خلف البحر اليماني كانت قد أخذها الطلق فلما اشتد عليها الأمر وعظم الكرب استغاثت بأهل الله تعالى فابتدروا عباد الله فسبقتهم فلم يمكني لمسها لكونها ليست بذات محرم مني، فأخذت صبيها بإزائها فألقته على بطنها فسقط الولد من بدنها بشدة فتطير على ثوبي أذى فلما مررت بالبحر أغمست ثوبي فيه لأطهره. اهـ.

وحدثني أيضا من أثق به أن بعض تلاميذ الشيخ كانوا في سفر فلقبهم الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود فقال لهم: أيها التلاميذ: هل رأيتم جرحا في ساق شيخكم؟ فقالوا: نعم، فقال: أتدرون ما شأنه؟ قالوا: لا قال: فما قال لكم الشيخ؟ قالوا: إقال إنه مسه عود فجرحه، فقال لهم: أولم يخبركم بشأن العود قالوا: لا قال: أنا أخبركم أن امرأة خلف البحر أخذها الطلق فاستغاثت أمها بأولياء الله فابتدروها فسبقهم شيخكم فجرحه الباب وألقى على بطنها صبيا فسقط ولدها من بطنها فلما اجتمع عندها

الأولياء إذا هو قد سبقهم وإذا فيه الجرح فحشوته له من هذا الدواء الذي في بيتي وأراهم الدواء. اهـ قلت: ولا أدري هل هذه الواقعة متحدة مع التي قبلها وإنما المتعدد كيفية الرواية أو هما واقعتان. اهـ.

وحدثني أيضا تلميذه محمد المصطفى بن الحبيب أنه كان في قومه فأغار عليهم عدو فتبعوا ما لم يتقاتلون مع العدو فكان متلاقيا مع رجل من العدو وآخر يستخفي له ليصيبه فلما أشرف على قتله إذا بالشيخ أعز الله جنبه الكريم وأطال حياته معافى في أكمل نعيم نزل به فألفته على الرجل المستخفي له فكانت عمارته في الذي كان يستخفي له، فأصابه فهرب الآخر. اهـ.

وحدثني أيضا تلميذه اعل مولود رحمه الله أنه كان مسافرا نحو قرية انيامن وكان يوما يسير بجانب البحر وهو ضعيف جدا فعلا رجله موضعاً مزلقاً فزلق، فوقع في موضع قلع الطين فانغمس فيه فلم ينشب أن أخذه الشيخ وأزاله من موضع غرقه وقال: لا بأس عليك ولا ضرر لن تراع. اهـ.

وحدثني اعل مولود أيضا أنه كان يوما بقرية انيامن فجعل يتجر في عشبة الشم فلم يلبث يوما يصنع منه صناعة أن جاء الشيخ وهو جالس فأضجعه على قفاه وملاً فاه من التبن ولم ينزل عن صدره حتى أعطاه العهود والمواثيق أن لا يعود. اهـ ولو تتبع ما شاهده أهل البصائر فيه من مشيه على الهواء منه لا بعضه أعني المسائل التي يشاهده فيها الرائي طائراً في الهواء، وأما غير ذلك فيحتمل المشي على الهواء وطى الأرض أي انزواءها ولكليهما شواهد في السنة، أما شواهد المشي على الهواء فمعراج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى السماوات ثم إلى سدرة المنتهى ثم إلى العرش ثم إلى الرفرف، فقد ورد من رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسري به فقال: بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجع زاد في رواية بين النائم واليقظان أتاني آت فش ما بين هذه إلى هذه يعني ثغرة نحره إلى شعره قال: فاستخرج قلبي ثم أوتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً فغسل قلبي، ثم حشا فأعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض يضع خطوة عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح فقيل له: من هذا، قال:

جبريل، قيل: ومن معك، قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه قال: نعم، قيل مرحبا به فلنعم المجيء جاء، ففتح الباب فلما خلصت إذا فيها آدم عليه السلام قال: هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد علي السلام وقال: مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح، ثم صعد بي حتى أتينا السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا؟ فقال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا فلما خلصنا إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة قال: هذا يحيى وعيسى فسلمت عليهما فردا علي السلام ثم قالوا: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح فقيل: من هذا، قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم قيل: مرحبا به فلنعم المجيء جاء، ففتح لنا فلما خلصنا فإذا يوسف عليه السلام فقال: هذا يوسف عليه السلام فسلمت عليه فرد علي السلام فقال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فلنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصنا فإذا بإدريس عليه السلام فقال هذا إدريس عليه السلام، فسلم عليه فسلمت عليه فرد علي السلام فقال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فاستفتح فقيل: من هذا فقال جبريل، قيل: ومن معك، قيل: وقد أرسل إليه قال: نعم، قيل: مرحبا به فلنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصنا إذا هارون عليه السلام قال: هذا هارون عليه السلام فسلم عليه فسلمت عليه فرد علي السلام ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح ثم صعد بي إلى السماء السادسة فاستفتح فقيل من هذا قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحبا به فلنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصنا فإذا موسى عليه السلام قال: هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه، فرد علي السلام ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، فلما جاوزته بكى، فقيل: ما يبكيك، قال: أبكي أن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، ثم صعد إلى السماء السابعة فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فلنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصنا فإذا بإبراهيم

عليه السلام قال: هذا أبوك إبراهيم عليه السلام فسلم عليه فسلمت عليه فرد علي السلام ثم قال: مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا أوراقها مثل آذان الفيل، وإذا أربعة أنها نهران ظاهران ونهران باطنان، قال: أما الباطنان فنهران مع الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفعت إلى البيت المعمور ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك، قال: ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة في كل يوم، فرجعت فمررت على موسى عليه السلام فقال: بم أمرت؟ فقلت: بخمسين صلاة في اليوم واللييلة، فقال: إن أمتك لا تستطيع ذلك، وإني والله قد جربت قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرة فرجع إلى موسى فقال: بم أمرت قلت: وضع عني عشرة، قال: ارجع إلى ربك فسئله التخفيف لأمتك فرجعت فوضع عني عشرة فرجعت إلى موسى فقال مثله فلم أزل بين ربي وموسى حتى أمرت بخمس صلوات، قال: أمتك لا تستطيع خمس صلوات، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عن أمتك، قلت: قد سألت ربي حتى استحييت منه ولكن أَرْضَى وأسلم فلما جاوزت موسى عليه السلام نادى مناد أمضيت فريضتي وخففت على عبادي زاد في رواية هن خمس وهن بخمسين ما يبذل القول لدي، أخرجه الخمسة إلا أبا داود.

وأخرج ابن الخطيب في المواهب اللدنية من رواية ابن عباس بعد أن ذكر ما هنا رفعه إلى العرش وإلى الرفرف، وأما شواهد انزواء الأرض وطبها له عليه الصلاة والسلام فأكثر وأوفر من أن تحصى وأتم وأغزر، فمن ذلك ما روي عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: توفي اليوم رجل صالح من الحبشة، فهللوا فصلوا عليه، قال: فصفنا عليه، فكنت في الصف الثاني أو في الثالث، فصلى عليه أخرجه الشيخان والنسائي وفي بعض الروايات أن أصحمة النجاشي لما توفي رفعته الأرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رآه وزويت له حتى كان بين يديه فصلى عليه هو وأصحابه. اهـ.

وفي الخبر أيضا أن حمزة بن عبد الله الأسلمي توفي والنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة فزويت له الأرض حتى كان بين يديه ثم صلى عليه. اهـ.

وفي الخبر أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال: زويت لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها. اهـ.

قلت: وقد امتد والله الحمد سلطان أمته في مشارق الأرض ومغاربها فطفى ما بين أقصى أرض الهند إلى مشارف الصين ثم امتد في المغرب إلى بحر طنجة حيث لا عمارة، وذلك مما لم يتقدم مثله لأمة من الأمم كما في بعض كتب المعجزات.

فرع فيما أظهر الله عليه من شواهد هذا المقام المخصص بالزلفى والله دون كل مقام ما قدرته على التصور بكل صورة، اعلم وفقني الله وإياك لسبيل مرضاته وجعلني وإياك من أهل رؤيته ومحبته ومناجاته أن هذا المظهر هو مظهر عين الكمال الجامع بين الجمال والجلال الذي لا يطبق الظهور فيه إلا كمل الرجال المجاوزين لرتبة أهل الأحوال وشاهده من كتاب الله قوله تعالى: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًا﴾ قال الله تعالى: ﴿وكان الله على كل شيء مقتدرًا﴾ فعلى المؤمن بمضمون هذه الآية أن لا ينكر ما قصر عنه علمه ولم يصل إليه فهمه وقد قال تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ ولا مانع من كونه تعالى يخلق في أحدنا الجالس معنا المشاغل لنا فيما علمنا ما لا نعلم وقال: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا﴾ قيل: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم: أي قليلًا بالنسبة لعلمه تعالى، وقيل: الخطاب للسائلين أي يسألونك وهم اليهود الذين أنزلت على نبيهم التوراة وبلغها إليهم فقرأوا فيها علم الظاهر كلها عن حقيقة الروح، قل لهم يا محمد: الروح من أمر ربي، أي علمه الباطن وما أوتيتم معشر أهل الظاهر من العلم إلا قليلًا بالنسبة لما يكن عنكم، ولم تعلموا حقيقته ولا وصلتكم إلى علم أدنى معلوم منه. اهـ.

وقد أعطى الله تعالى لهذا الولي مقام الظهور في تنوعات الأسماء والصفات حتى صار فيه بحيث يتصور بأي صورة شاء، فمن ذلك ما أرانيه الله تعالى فيه ليلة من الليالي رأيته والله على ما نقول وكيل في صورة شمس نيرة متوسطة وسط السماء وابنه سيد عثمان بصورة شمس أيضا تحاذي شمسها في السماء وشمس سيدي عثمان أنور وأسرع سيرًا، وشمس الشيخ في تلك الصورة تسير سيرًا ثابتًا حتى كان الكون بأسره يسير بسيرها وأنوارها تغلبها العيون مع شدة الضوء فلما كان الصباح أخبرته

بما رأيتها فيه فضحك وقال لي: إلى صاب سيد عثمان غرض إلا يكفيه أن يساويني ثم تبسم وقال لي: لقد رأيت عجا. اهـ.

ومن ذلك أيضا أني رأيت ليلة في صورة النبي صلى الله عليه وسلم فكنت أراه الشيخ وأراه الرسول. اهـ. ومن ذلك أني رأيت ليلة وأنا بين النائم واليقظان جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن معه في المسجد ومنتظر صلاة العشاء وأنا جالس وهو على صورة النبي صلى الله عليه وسلم والنبي على صورته فكنت كلما التفت إلى أحدهما إذا هو الشيخ والرسول، فبعد ساعة قام النبي صلى الله عليه وسلم وبقي الشيخ أطال الله مدة حياته في نعيم وعافية، فأمر بإقامة الصلاة. اهـ.

ومن ذلك أيضا أنه تجلى لي مرة أو مرتين في صورة أبي فكنت أراه الشيخ حفظه الله ورعاه وأراه الوالد رحمه الله. اهـ.

ومن ذلك أيضا أني رأيت يوما بعد صلاة العصر وأنا أسير معه من المسجد عامدين نحو البيوت فلم أدر إلا وأنا معه عظما أو أحدا أبيض أقوى ما يكون لا مفصل فيه ولست أميز لي ولا له من ذلك العظم شيئا خاصا بأحدنا دون الآخر وما ذلك إلا من قدرته على التصور بكل صورة خنى لو شاء أن يتصور بصورة ويدخل معه فيها غيره لفعل. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما أخبرني به بعض الإخوان من أنه رأى الشيخ حفظه الله ورعاه وأطال حياته فيما يرجو من مولاه زمن عتو الأغلال متصورا بصورة أسد عظيم الخلقة له لبد عظام وأظفار جسام منقبضا على برائينه يريد الوثوب عليهم. اهـ.

ومن ذلك ما أخبرتني به منين بنت المعلوم أنه زمن تزويجه بها كان ليلة واقفا قدام البيت يذكر الله جعرا إذ جعل يطول حتى كاد رأسه يثقب السماء فجزعت وخرجت إلى أهلها تشتد، فلما أتتهم سألوها ما شأنك فقالت: إن الرجل جعل يطول حتى مس رأسه السماء، فقام إليه أحد إخوتها فلما أتاهم قال لهم أما أنا فلم يدرك بصري رأسه. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما أخبرني به المختار بن محمد اخيار رحمه الله أخبرني أنه كان قد سار مع شيخنا ببعض خيامه في أهل الإبل وترك بنيه مع بعض خيام شيخنا في أهل البقر فأصابته حمى شديدة وارتحلوا يوما وأصابه في ذلك اليوم من الحمى أكثر

مما يوصف، فوجده الشيخ أعز الله جنبه الكريم وأطال حياته في العافية ودوام النعيم متلوًا وجهه من القيء فأسنده حتى أضجعه مع غروب الشمس في مقدم بيت منين بنت المعلوم وكان البيت خيمة عظيمة أكبر ما يكون وأعظمه فأتى الله تعالى في تلك الليلة بمطر عظيم بعد المنام وسقطت أوتاد الخيمة وبقيت الخيمة على الدعامتين المسماة فيعرفنا بالركيزتين، ففرج الله عنه في وقت من الليل وبقي هناك ساكنًا فلم يرعه إلا أن تغوطت باركة بنت شيخنا على الفراش وهي صبية ترضعها أمها فجعلت أمها تتأدي الأمة، فقال لها الشيخ ما غرضك بالأمة في هذا الوقت، فقالت له: إن الصبية قد أنجست الفراغ وأريد أن تأتي بالنار وتمسح الفراش مما عليه فقال: دعها الآن واصبري حتى يصبح الصباح فقالت: إذا يضيع الفراش واللباس وتؤذيك أنت الرائحة الكريهة، فقال لها: رأيت لو وجدت الضوء أتقدين على إزالة ما بفراشك دون الأمة؟ قالت: نعم، قال: وأين لك شيء تمسحين به عن الفراش؟ قال: حشيش الحرج وهو الهودج وهو بلغتنا أركان فقال: تأهبي فأزال بعض الثوب عن جانب صدره فخرج نور عظيم حتى صار البيت كأن الشمس طلعت فيه دون البناء فأخذت أعوادًا من حشيش الحرج ومسحت الأذى عن الفراش وعن الصبية حتى تم غرضها ثم رد ثوبه عليه فرجعت الظلمة كما كانت. اهـ.

وأخبرني غير واحد ممن أثق به عن أمنا منين بنت المعلوم بنحو هذه القصة حرفًا بحرف غير أنها ذكرت أن الصبية فاطم أم الفضل وذكرت أنه لم يزل الثوب ولم يحركه بل إنما أخرج النور من صفحة عنقه، ولم تذكر حضور المختار بن محمد اخیار وبهذا يحتمل أن تكون الواقعة متعددة، وكلاهما أخبر عن قصة بحدتها، ويحتمل الاتحاد وأن أحدهما وهم في محل التخالف بينهما. اهـ.

ومن ذلك أيضًا ما أخبرني به عنه أخوه العباس قال: ركبت مع الشيخ أطال الله حياته وأدام عليه نعمه وأكمل عليه عافيته لنزور والدنا في زمن صيف والأرض في محل عظيم، وكانت زوجة لشيخنا ذاهبة إلى بيتها بالإبل ومعها تلاميذ يسيرون بها قبل الإبل، فلما خرجوا من جانب محمودة الأيمن وإذا بالأرض محل قالت تلك المرأة وهي أمنا الشريفة لا عريز بنت ملاي عبد الرحمن والدة مريم البتول بنت شيخنا: ما أقبح شدة المحل، فقال لها الشيخ حفظ الله ساحته وأطال الفسحة في مدة حياته وأفاض

علينا جزيل بركاته: أتحبين أن تقطعيها خصبًا، قالت: نعم، قال العباس: فوالله لقد صارت الأرض إذ ذاك جنانا واحدا ممتلئا من الربيع والبقل على أحسن ما يكون وما معنا من الدواب يرتع فيه حتى أتينا الصالحين وزرناهم وذهبت المرأة والتلاميذ إلى الإبل فلما رجعنا إذا الأرض محل كما كانت. اهـ.

قلت: وهذا أيضا دليل على قدرته على التصور بكل صورة، إذ تصورت الأرض بما شاء أن تتصور به، اهـ وهذا نظير ما ورد في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخاطب أهل كل قطر بلغتهم ويناجيهم بحكمتهم وينتقي لهم بيانهم حتى كأنه أحدهم لتصوره في منطقهم بصورتهم. اهـ ويروى في المعجزات أنه ربما يجتمع عليه الحلقة وتحيط به وتتصرف عنه وكل واحد من تلك الحلقة يرى وجهه كان إليه. اهـ.

وأخبرني أيضا العالم العدل المختار مولود رحمه الله أنه رأى في بعض كتب السير أنه عليه السلام ربما تحيط به الحلقة فيها العرب وفيها العجم فيخاطبهم بلغته الشريفة فيسمعها كل تلك الحلقة بلغته حتى يظن أنه إنما تكلم بلغته خاصة فهذا وإن كان التصور فيه بالصور منطقيا دليل أن التصور بالصور الذاتية له شاهد في السنة وليس يطبق التصور بكل صورة إلا الكمل الطاهرون في تنوعات الأسماء والصفات ففي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جبريل ربما كان يأتيه في صورة رجل كما في حديث الصحاح عن عمر بن الخطاب من مجيء جبريل على صورة رجل ليس عليه آثار السفر ولا يعرفه منهم أحد. اهـ وقد أخرج السيوطي في الخصائص الكبرى والمعجزات أن الطفيل بن عمرو الدوسي لما أسلم وصرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه يدعوهم للإسلام قال: أسأل الله أن يجعل لي آية فقال: إن الله جاعل لك آية، فلما أشرف على ثنية مهبطه على قومه أضاء له نور كالمصباح في جبهته فقال: الله في غير وجهي ليلا يقول قومي مثلة ظهرت في حين فارقت دينهم فانقل النور إلى يده فقال اللهم في غير جسدي فانقل النور إلى سوطه فجعل قومه ينظرون إلى ذلك النور ويتعجبون منه فكان سببا لإسلام دوس. اهـ.

وأعطى قتادة بن النعمان وقد صلى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة عرجونا وقال: انطلق به فإنه يضيء لك من بين يديك عشرا ومن خلفك عشرا فإذا دخلت بيتك

فسترى سوادا فاضربه به حتى يخرج فإنه الشيطان فأضاء العرجون حتى دخل بيته
ووجد السواد فضربه حتى خرج رواه أبو نعيم.

وأخرج البيهقي وصححه الحاكم عن أنس قال: كان عباد بن بشر وأسيد بن حضير
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة حتى ذهب من الليل ساعة وهي ليلة
شديدة الظلمة ثم خرجا وبید كل منهما عصا فأضاءت لهما عصا أحدهما فمشيا في
ضوئها حتى إذا افترتت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى كل واحد منهما
في ضوء عصاه حتى بلغ أهله.

أخرجه البخاري في التاريخ والبيهقي وأبو نعيم وعن حمزة الأسلمي قال: كنا مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم في سفر فترقنا في ليلة ظلماء فأضاء أصابعي حتى جمعوا
عليهم ظهرهم وما تخلف منهم وإن أصابعي لتتير. اهـ.

فمن تأمل هذا وجده من معنى التصور لأن فيه تصور الأصابع والعصي بصور
الأشياء المضيئة. اهـ.

فرع في شواهد تحقق بهذا المقام مما أظهر الله على يديه من هداية العباد وسلوكهم
على التحقيق بالحقائق الإلهية بواسطة التمكين بظهوره في تنوعات الأسماء
والصفات.

اعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه وسلك بي وبك طريقة وده وسبيل تقواه أن
كون العبد وسيلة القلوب إلى السلوك على التحقيق بالحقائق الإلهية رتبة عظمى وهي
المنزلة الأسمى والمقام الأسمى وقد اختص الله تعالى هذا الشيخ منه بما لا يحطيه
إلا علام الغيوب ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولقد كان المشائخ قبله يروضون المريدين
ترويضاً شديداً لا يطيقه إلا من كان موفقاً سديداً، فلقد روى في كتب القوم أن
المشائخ كانوا يعاتبون المريدين كل العتاب على الخطأ وبعض الصواب، فلقد كان
الشيخ عبد القادر يعاتب المريدين على الاحتلام في النوم وعلى الخطرات القلبية،
وكان الشيخ محيي الدين بن العربي يقرن المريدين مع فرسه الراكب عليها، وفي ميارة
على منظومة ابن عاشر أن الجنيد كان يقول: لو لم يشاورونا على نفقاتهم ما أفلحوا.
اهـ وقيل إن ذلك من كلام الشيخ عبد القادر الجيلي، يروى أن بعض علماء الظاهر
كان جالسا مع الشيخ عبد القادر أو الجنيد فأتاه بعض تلاميذه بخضارة فقال له: يا

سيدي ما أفعل بهذه الخضارة، فقال الشيخ: هل أنت صائم أم لا؟ فقال المريد نعم، فقال له الشيخ: أفطر عليها، فقال العالم الظاهري: حتى خضارة يشاور عليها، فقال له: والله لو لم يشاورونا على نفقاتهم ما أفلحوا. اهـ. ويروى أن الشيخ عبد القادر الجيلي كان يقول لمريده أمري مقدم على أمر الله. اهـ وحدثني من أثق به أنه حدثه أحمد بن علي الجعفري حدثه أنه كان يوما جالسا في حلقة الشيخ سيد المختار بن أحمد بن أبي بكر فالتفت الشيخ إلى أهل الحلقة وقال: أترون قدمي هذا؟ قالوا: نعم فقال لهم: لقد مكثت أربعين يوما في شدة زمهرير الصيف وأنا أقود النوق والجمال لسقي آبال أشياخي لا أضع راس الجمل لحظة إلا وقت الصلاة، وما شربت في تلك المدة شرابا إلا وأنا قائم فتورمت أقدامي وامتألت قيحا حتى صرت أعصر القيح من أعلى معاطفي إلى بياض قدمي، وصرت أبرد قدمي في قيحها حتى أنزل الله المطر وشربت منه آل شيخي. اهـ ورأيت في بعض تأليف الشيخ سيد محمد الخليفة أن أباه مكث سبعة أيام يقوم الجمل لسقي آبال شيخه، ورأيت في الطرائف والتلائد من عجائب ما لاقى الشيخ سيد المختار من المشقة في خدمة شيخه أمرا لا يحصى وعجبا لا يوصف وكانت تربية الشيخ سيد المختار للمريدين أصعب تربية وأشق ما يكون منها وتزكيتهم إياهم أثقل تزكية وأعسر ما يكون منها فلقد أخبرني سيد محمد بن محمود بن الحاج احمد أن أباه محمود زمنه عند الشيخ سيد المختار عامله بأشق مشقة حتى كان لا ينام الليل كله ولا النهار ولا يجلس ولا يستريح، فقد كان في تلك المدة جامعا بين رعاية الإبل وسقي البقر من البير بيده ونسخ كتب للشيخ وصناعة بعض الطعام. اهـ.

وحدثني سيد محمد بن محمود بن عبد الباقي بأن باب بن ابيد حدثه أنه كان تلميذا عند الشيخ سيد محمد الخليفة وكانت عنده إبل جرب فأرسل بها تلاميذه إلى أرض بها شجر اللين الذي تداوى الإبل به وهو الذي يقال له افرنان ولم يرسل في الإبل ناقة تحلب ولا أعطاهم نفقة فمكثوا هناك دهرًا لا نفقة لهم، وجعلوا يهربون عن الإبل رجلا رجلا فبقي فيها باب بن ابيد وآخر وسكنا فيها لا نفقة لهما إلا شيئا من خشاش الأرض حتى برئت الإبل فأتياه بها فلما وصلا إليه بالإبل وأتاه باب كالمبشر انتهره الشيخ سيد محمد وقال لهم إنه أراد أن يسحرني. اهـ.

وكان تربية الشيخ محمد الاغظف أيضا صعبة جدا فكان منها أنه قال للشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود وهو مريد عنده فرسي هذا لا تنزع عنها يدك إلا وقت الصلاة، فلازمها الشيخ سيد محمد حتى ابيض موضع يده من تلك الفرس، وكان لا ينام الليل ولا النهار عنها، ولا يفراقها، وكان يحمل مريديه من المشقة ما لا يكاد الفكر يحصره ولا الذكر ينشره. اهـ.

وكان الشيخ سيد محمد بن أحمد الأسود يشق على المريدين بأنواع المشاق كلها، ومع ذلك فمواريد هذه المشائخ تمكث الدهور الطوال مرهونة بجميع هذه الأشغال، فقد رأيت في كتب الصوفية أن الجني مكث في خدمته شيخه دهرا طويلا وأظنه حده بثمانين سنة. اهـ.

وذكر مشائخ آخر مكثوا في تلك المشاق الدهور الطوال يرتكبون عظيم الأهوال، وكانت عادة المشائخ قبل هذا الشيخ أطال الله حياته أن يربوهم بالجوع والعري ويأمرهم بالتقشف فربما ألبسوهم الجلود وربما ألبسوهم الصوف، وكانوا يأمرونهم بكنس المراحيض وحمل الجيف وكل مكروه، وبهذا يتبين أنهم لا قدرة لهم إلا على قلوب المريدين إلا بذلك، وإلا فلم ذا يحملونهم مثل هذا والحق أنهم ما حملوهم ذلك إلا ليستعينوا به على كسر أطواد نفوس المريدين. اهـ وقد اختص الله تعالى هذا الولي بخرق العادة التي كان عليها المشائخ، فكانت تربيته أسهل تربية، فلكثيرا

ما أرى المريد المقلد البليد المطرود عن حضرة الله البعيد يصحبه على رسم التلميذ من غير أن تكون له همة في الطريق إلى الله تعالى بل إنما مراده أن يقرأ العلم أو ينفق الشيخ عليه ويكسيه فينال في أسرع مدة من صلاح قلبه وانجماع همته إلى الله تعالى وملازمة ذكره ما لا يكاد يدخل تحت حصر حاصر ولا يحوم حوله قلب متأمل ناظر ولا فطنة مستيقظ باصر، ولم يكن سبق له اهتمام ببعض ما ناله لشدة جهله وفرط غفلته وتقفله، ولم يكن أوصل إلى الشيخ إحسانا ولا أهدى إليه عرضا ولا عينا ولا حيوانا ويصير بعد ذلك من خاصة أهل الله تعالى المكاشفين بحقائق العلوم وغوامض الفهوم ودقائق السر المكتوم، ولم تكن هذه المزية العظمى والمعجزة القومية لغيره من أولياء الله المرابين فيما بلغني من خبرهم في كتب المتقدمين منهم والمتأخرين ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

بل كان الأقدمون يستلزمون للمريد شرطا من عندهم وهو الانجماع إلى طلب الوصلة ويسمونه الصدق في الطلب، فمن لم يأتهم بهذا الشرط فلهم فيه مذهبان فمنهم من يطرده ويقصيه ويبعده ويلحيه ويقول: لا يبيت مثل هذا في حضرتي ليلا يفسد على أهل نظرتي فإنه مملوك لإبليس اللعين وأخاف أن يفسد علي بعض أحوال قومي عندما يتردد إلى رفيقه وأسوتهم في ذلك ما روي عن حديث الإمامة، وقصة الصحابة فيها، وذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه جهز جيشا وأمر عليه خالد بن الولي رضي الله عنه وأمره إذا أخذ أهل الإمامة أ، لا يدع منهم محتلما فسار خالد في جيشه وأخذ كثيرا من الأعراب وفتح من مر به من المدن ثم توجه إلى الإمامة فلما دنا منهم أخذ أهل الإمامة أن لا يدع منهم محتلما، فسار خالد في جيشه وأخذ كثيرا من الأعراب وفتح من مر به من المدن، ثم توجه إلى الإمامة، فلما دنا منهم أخذ بعض الجيش رجلا منهم فأتوه به فأمسكه خالد عنده أسيرا، وكان خالد له زوجة معه في الغزو فباتوا قريبا من الإمامة فلما أصبح الصباح إذا بأهل الإمامة وهم بنو حنيفة وكانوا أشد الناس بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويقال أشد الناس بغضا لبني هاشم بنو أمية وبنو حنيفة وثقليل، وكان في بني حنيفة مسيلمة الكذاب المتنبئ وكان يقال له رسول الإمامة ويقال رحمان الإمامة، فخرجوا مع طلوع الشمس مخترطين السيوف من أعمادها معرضين بها للشمس فلما رأى ذلك أهل الجيش قالوا: لقد جبن أهل الإمامة وأرادوا أن يجبنونا بسيوفهم فالتفت إليهم الأسير فقال: والله ما جبنوا ولا أرادوا أن يجبنوكم ولكن سيوفهم من الهند متى أحست وهج الشمس قطعت كل ما لاقاها وإن لم تحسه كانت كسائر الحديد فاشتغل أهل الجي بالركوب وأهل الإمامة يزحفون إليهم، فلما قربوا منهم صاح أهل الإمامة: يا أهل الجيش لا تزعموا أنا جبننا بسل السيوف ولا أردنا أن نجبنوكم ولكنها الهند يزيدنا وهج الشمس قطعنا فالتقيا الفريقان وجعلوا يتضاربون بالسيوف فتارة تكون الهزيمة على الجيش حتى يجاوزوا رجالهم فإذا وصل بنو حنيفة إلى امرأة خالد أرادوا قتلها فيحنى عليها أسيرهم حتى يمنعها وتارة تكون الهزيمة على أهل الإمامة حتى يصلوا إلى دورهم فيكرون على أهل الجيش، وإذا أراد بعض أهل الجيش أن يقتل الأسيرة انحنى عليه امرأة خالد حتى تمنعه فكانت الحرب بينهم هكذا حتى تمكن وقت الظهر، فلما رأى أصحاب الرسول

عليه الصلاة والسلام من شدة بأس اليمامة ما رأوا وكثرة فرار أهل الجيش تتادوا فيما بينهم أخلصوا أخلصوا فجعلوا يخلصون وتركوا من لم يكن من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فجعلوا يتضاربون ساكنين لا ينزع أحدهم رجله عن مكانها، قال الراوي: فلما كان وقت العصر ونحن كما كنا إذا بصف المشركين كثرت فيه الثلم فأينا بالظفر فما أدخلناهم البيوت حتى كان الليل واشتدت الظلمة وقد استحر القتل في كلا الفريقين وبتنا في ناحية من القصر وهم في ناحية أخرى فلما كان الصباح استسلموا وانقادوا وسألوا الصلح، فصالحهم خالد وكان ذلك بعد أن حلقوا رؤوس نسائهم وصبيانهم وغلماهم وألبسوهم ثياب الرجال وأجلسوهم على ظهور الديار حتى رآهم الناس وظنوهم رجالا كلا يريدون بذلك أن لا يؤخذوا عنوة فيصيرون ممالك فاستدل القوم بتخليص المهاجرين والأنصار نفوسهم عن لم يكن عزمهم ولا همهم وإن كان يزيد العدد ويكثر المدد وربما ضر العدو وربما نفع الصديق في وقت البأس على من لم تكن له همة نافذة إلى الله تعالى فضره أكثر من نفعه.

وطائفة منهم لا تطرد ولا تقصيه ولا تقربه ولا تدنيه بل يتركونه كما هو ويكلونه إلى نيته يرون أن لا حق له عليهم ولا يعتنون بشأنه في أمر ما لكونه لم يأتهم لطلب ما هم معدون له ويقولون: من أردنا بعة في إرادته تركناه مع علته وسنؤتيهم في ذلك ما صح كتابا وسنة وإجماعا أن النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يكون معه المنافقون في المدينة يزعمون أنه صحبه وعلى دينه وهم في ذلك كاذبون وهو بكذبهم عالم والله تعالى أعلم منه، ولم يطردهم ولم يقصهم بل كان يقبل معاذهم وإذا سألوه أن يستغفر لهم فعل ولم يروا أنه قال لأحد منهم أنت لست مني ولا أنت منافق بل كان يجاريهم في ميادينهم بأهويتهم وهو أعلم بما في نيتهم، وقد كان لهذا الشيخ من الكمال في الله وعلو الهمة وكمال المروءة عن أن يرى بنت انتسب إليه نقص ما كان يجذب به من لا همة له في طريق الله تعالى إلى حضرة القرب وكمال التمحيص في ميادين التخصص، فلقد رأيت عبد الله بن المختار بن حمان اتاه يريد إلا الراحة من رق أخيه أبي بكر والطعام فقط فلم يلبث إلا ليالي قلائل أن جذبه الله تعالى بواسطة بركة الشيخ وهمته النافعة حتى صار من أهل العرفان المشاهدين للرحمن الواصلين إلى حضرة الملك الديان، القائمين في مقام الإحسان بلا قليل كلفة ولا يسير مشقة، وسبب

ذلك كما سمعت شيخنا حفظ الله جنبه الكريم وأطال مدة حياته في كمال العافية ودوام النعيم يحكى أنه أتى المسجد ليلة ذات برد ليصلي الصبح فوجد عبد الله مضطجعا في المسجد مع سائر التلاميذ والنار ليست في المسجد فلما وقف الشيخ قام عبد الله وأسرع الجري ليأتي بنار فيوقدها للشيخ فما لبث أن أتى بها، قال شيخنا: فأعجبني منه ما فعل حتى مال قلبي فرأيت ضوءين كالشهابين خرجا من عيني عندما نظرت إليه نظرة رضى حتى وصلا إلى قلبه فأصابه منهما ما أصابه، قلت: لعمرى فلعمري ما أنا له بعد هذا ولا قبله من مشقة ولا كلفة بل كان مع الله في جميع أحواله. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما شاهدته في كثير من المريدين مثل الطالب بن امر وعبد الرحمن بن محمد امبارك وغير وغير ممن لا يحصى كثرة من كونهم إنما أتوا الشيخ لا يعرفون لماذا يراد المشائخ ولا سمعوا الوصلة لله ولا كان لهم من علم، فلما أتوا الشيخ حفظ الله ساحته، وأطال الفسحة في مدة حياته تنعشت همهم، حتى صاروا يطلبون ما يطلبه كمل علماء المريدين. اهـ.

ومن ذلك أيضا ما حدثني به الأخوان الوليان الرضيان العارfan بالله تعالى أبو بكر بن محمد بن اعل بن دخنان والطالب اعل بن المختار بن عثمان رحمهما الله تعالى، حدثني الأول منهما أنه إنما أتى الشيخ حفظه الله يريد العلم وتعلمه، ولم يكن له علم بطريق أهل الله ولا بالوصول إليه ولا نظر لغير علم اللسان وليس له بالقلب علم.

وحدثني الثاني أنه إنما أتى الشيخ تائبا من ذنوبه وخباثت أعماله يرجو أن يغفر له ذنبه ببركة التوبة من الذنب ونية عدم العود إليه، وأن يموت في دائرة المؤمنين، فكانا بعد ذلك من أكابر أولياء الله المقربين، أهل المكاشفات المخصصين بالزلفى من رب العالمين، فأما أبو بكر فكان يحدث أن سبب ما أعطاه الله أنه أمره الشيخ أعز الله جنبه الكريم وأطال حياته في كمال المسرة ودوام النعيم أن يسرح غنما فلما سرحها أياما معدودة لم يلبث أن جذبته الله تعالى إليه بواسطة همة الشيخ وبركة النصح له فكان من أهل الله، وكان له من العلم ما يكفي ويشفي. اهـ.

وأما الآخر فلم يكن لما أعطاه الله من سبب غير همة الشيخ وبركة صحبته وكان وليا الله تعالى. اهـ. ومن أكبر المريدين عندي آية على ما اختص الله به هذا الولي شأن

أخي الولي الواصل ذو المكاشفات محمد الفاضل بن الطالب محمود كان إنما أتى المصطفى بن بي ليقراً عليه الفقه وكان المصطفى مريداً لشيخنا مجاوراً له فحضر الأخ محمد فاضل بن الطالب محمود ليلة مع الشيخ في المسجد وقت ذكر التلاميذ لله تعالى فكان جالسا بإزاء الشيخ حتى التفت إليه الشيخ وسقاه بمجرد النظرة الأولى، وكان بعد ذلك من أكابر المريدين وكمل الواصلين، وكان قبل ذلك من أقل المقلين. اهـ.

ومن ذلك أيضاً أن أخي محمد الأمين بن عبد الوهاب أتى الشيخ لقراءة علم المعقول واشتغل به ابتداء فأنعشه الله تعالى بهمة الشيخ حتى انتقل إلى صحة الإرادة ثم إلى الوصول ثم إلى الفناء والمكاشفة. اهـ وكذلك أيضاً محمد الحسن فإنه أتى الشيخ صبياً لا همة له إلا في كتاب الله ثم انتقل ببركة الشيخ حتى صار من أرباب القلوب وقد ظفر كل منهما بمراده الذي أتى به مع ما اختصه الله تعالى به من ولاية الله تعالى إياه، وزاد بعلوم لم تكن مقصودة له قبل وهما والله الحمد من أكمل الكمل. اهـ وهذه المزية البديعة والعطية الرفيعة التي اختص الله تعالى بها هذا الولي أكمل دلالة على صحة اختصاصه بمقلع الحب الإلهي المعبر عنه بظهور العبد في تنوعات الأسماء والصفات، وهو مقام الإرث المحمدي، والتخصيص الأحمدي في مقام الزلفى من الله تعالى والقرب الاصطفائي لأنه ما من نبي ولا ولي تتعلق همته بشيء ما كمتعلقها بنجاة أتباعه وكثرتهم في فضل الله تعالى، ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾ وذلك يقتضي طلب مساواة أتباعه إياه فيما فيه بدليل قوله: ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فإن قوله: فإنهم عبادك يقتضي طلب الحنان والرفقة عليهم والرحمة. اهـ.

وفي حديث الإسراء أن موسى عليه السلام لما جاوزه النبي صلى الله عليه وسلم بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

وفي الخبر عنه صلى الله عليه وسلم: وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، وفيه أيضا: فإني مفاخر بكم الأمم يوم القيامة، فقد احترم هذا الولي على أتباعه احترام أولي العزم من الرسل وأعطاه الله في أتباعه من سرعة الانتفاع ووفوره ما أعطى نبيه ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، ألا تراه يأتي البليد المقفل لغرض دنيوي فإذا تعلق به لقصد ذلك الغرض نقله من سجين القطيعة إلى عليين الوصلة في أسرع لحظة، فينال من تلك المزية أوفر قسمة ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وكذلك كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم أحدهم ويكمل إيمانه أسرع ما يكون، يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أسلم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله ألك حاجة في الطواف؟ قال: نعم» وكان المشركون يمنعونه صلى الله عليه وسلم الطواف ثم قال: والله لأيسر هذا الدين بعد اليوم أبدا. اهـ.

ويروى أيضا أن بعض الصحابة أسلم عند التقاء الصفيين فكر على المشركين وجعل يقاتلهم عندما أسلم حتى قتل أباه وقطع رأسه، وأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويروى أن سعد بن معاذ رضي الله عنه قال: منذ أسلمت ما دخلت صلاة وخطر ببالي غيرها حتى خرجت منها، ولا رأيت جنازة وحدثتني نفسي إلا أنني أنا الميت حتى توارت عني ولا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كلمة فشككت فيها إلى الآن.

ويروى أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: والله ما تمنيت ولا تغنيت ولا لمست فرجي بيمينني منذ أسلمت، ويروى منذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويروى أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لأنت يا رسول الله أحب إلي من نفسي التي بين جنبي، فقال عليه السلام: الآن تم إيمانك يا عمر، فانظر يرحمك الله إلى ما اختص الله تعالى به سعد بن معاذ وعثمان بن عفان رضي الله عنهما من عظيم المزية عندما أسلما وانظر كيف تم إيمان عمر بعد أن كان ناقصا في أسرع مدة وأندر برهة. اهـ.

وكذلك كان المشائخ إنما يعتنون بتربية المرید إذا كان صحيح الاعتقاد فيهم سالم الخاطر من الاعتراض عليهم والانتقاد منهم، ولذلك كانوا يقولون: صحة الاعتقاد وحسن الظن موجب الفوز بكل المنن والسلامة من سائر الفتن، ويعنون بصحة الاعتقاد اعتقاد المرید بشيخه أي جزمه بأن شيخه ولي مرب مرشد متمكن أي يوصله إلى مراده في ربه، والمراد بحسن الظن أن لا يظن الحرمان بنفسه ولا يقنط مما يرجوه من ربه ولذلك كانوا يقولون: من لم يصح اعتقاده في شيخه ولم يعد خطأه صوابا لم ينتفع به، ولم يصادف صوابا ووجه ذلك أن من لم يعتقد الخصوصية في إنسان ولا المزية في طاعته كيف يطاوعه قلبه وغالبه على إتعاب نفسه في أوامر ذلك الإنسان، وكيف ينتفع بقولك من لم يعتن بشأنك ويلقي ما تشير به إليه وراءه ظهريا وكذلك القانط من الأمر فإنه لا يتشوف إلى تحصيل أسبابه ولا يتعب نفسه فيها ألا ترى أنك إذا قلت لإنسان قم فاصعد إلى السماء تجد فيه ما تهواه لا يتعب نفسه فيها لقنوطه من وصول السماء ومن كلام القوم: القنوط سبب السقوط، ومن كلامهم أيضا: الاعتراض سبب الانقراض والانتقاد سبب الطرد، والإبعاد، وقد اختص الله تعالى هذا الولي فضلا منه ومنة بتمكين إلهي اقتدر به على تربية من هكذا حاله فلقد رأيت أخي محمد يس محمد كان الله لي وله أتى الشيخ وكثيرا ما يقول للمريدين إن كنتم مجتمعين لمزية فلعلي أنال منها وإن كان غير ذلك وهو ظني فإني ضعت وكان كثير الاعتراض على الشيخ وبنيه وعشيرته ومريديه حتى إنه لربما يعترض على الشيخ أو على بعض أبنائه الأمر الصريح كونه من السنة وكان إذا انتقص شيئا أتاني فأخبرني به فإذا أريته وجه الحكمة فيه أو دليله في السنة استسلم وانقاد وكان كثير القنوط لا يفارقه السخط ثم نقله الله تعالى ببركة الشيخ إلى أن صار أكمل المريدين تعظيما للشيخ فيما أعلم ومحبة له، وأوثقهم بما عند الله وأرضاهم بقضائه وهو الآن واصل مقرب مجيد زاهد في غير الله تعالى. اهـ.

وإخوان هذا المرید المتصفون في ابتداء أمرهم بحاله في ابتداء أمره ثم صاروا أواخر أمرهم إلى ما انتقل هو إليه من صلاح الباطن وكمال المقصد ببركة الشيخ وعظم مكانته عند الله تعالى. اهـ.

وهذا الاحترام على من هكذا حاله حتى تكمل له آماله إنما يقع من كمال الشفقة على خلق الله والرفق بهم والسعي في منافعهم، ففي الخبر عنه صلى الله عليه وسلم: من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل وفي الخبر أيضا: ما جعل الرفق في شيء إلا وزانه وما نزع من شيخ إلا وشانه، وفي الخبر أيضا: الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعِيالِهِ، وفيه أيضا: خير الناس أنفع الناس للناس، وفي الذهب الإبريز أنه عليه السلام لما نزلت عليه استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم قال: خيرني ربي فاخترت الاستغفار وحد لي السبعين وسأزيد عليها. اهـ.

وكان المشائخ قد عدوا للمريد آدابا وقتوها وحددوها وانفقوا أن من لم يتأدب بها من المريدين فهو المطرود الممقوت المبعد ولذلك كانوا يقولون: من جالس الملوك بغير أدب فقد جنى لنفسه الغضب، ويعنون بالملوك الأولياء لأنهم ملوك الباطن والظواهر، وقالوا أيضا: من لم يأخذ مع شيخه الأدب فقد تعرض للسخط والغضب. اهـ.

وسرد آداب المريد على سبيل الاختصار أنه تجب عليه مبادرة أمر الشيخ واجتتاب نهيه تمسكا بقوله: ﴿ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾ أي على متابعتك وما عسى أن تلقاني به من مكروه وعلى جميع ما تأمرني به من حلو ومر ومنشط ومكسل ولا أعصي لك أمرا أي ولا أتعدى لكل أن الأمر بالشيء نهى عن ضده كما أن النهي عن الشيء أمر بضده ولا يطلب منه علة الأمر بل يبادره عندما يأمره به من غير تأخير عقل معناه أو لم يعقله ولا يتناول عليه كلاما بل يقف عند ظاهر كلامه ولا يسير لأمر إلا بإذن ولا يقضي لأحد حاجة حتى يشاوره ويجالسه بالاحترام والاحتشام، فلا يرفع صوته بحضرتة إلا بذكر الله ولا يحد النظر إليه، ولا يغضب أحدا بحضرتة إلا إذا كانت مغاضبته مناقشة عن جانب الشيخ ولا يتنخم ولا يمتخط في مجلسه ولا يدخل إلا قبل يده ولا يجالسه إلا مطرقا، ولا يضاحك أحدا ولا يؤنس بحضرة الشيخ ولا يبتدئ أحدا بالسلام بحضرتة أيضا وليتذرع به من كل المكاره والمساوي وليستغن به في كل شيء يهمله عن غيره من المخلوقات ولا يترك له وردا ولا يجنح لسهولة وليحترم جميع من ينسب إليه من أهل وولد وقبيل ومريد ومال وغير ذلك وليكتم علمه بحضرتة إن كان عالما وليرغب في علم الشيخ وفيما

عنده، وليحب أصدقائه ويبغض أعداءه ولا يجالسهم ولا يعاشرهم وليحب جميع محابه من مأكّل ومشرب وملبس ومركب وليكره ما يكرهه من ذلك إلى غير ذلك من جملة الآداب التي مدارها على أربع قواعد وهي الصحبة المقرونة بحسن النية والمتابعة المقرونة بالخدمة والتفويض له والاستسلام في كل ما لك فيه مشورة شرعا وما عسى أن يصدر لك منه والتعظيم المقرون بالتحبيب فمن لم يكن متأدبا بهذا الآداب كلها أو بعضها فليس له عند القوم حظ من الظفر وقد أكمل الله لهذا الشيخ من الاقتدار على تربية المريدين الغير المتأدبين ببعض هذه الآداب المتقدمة ولم يصلوا من أدناها لأدنى المرتبة ما لا يكاد الفكر يحصره ولا اللسان يذكره ولا يستطيع العقل يحصيه ولا الوهم ينشره ما شاء الله لا قوة إلا بالله فلكثرا ما أراه أعز الله جنباه الكريم وأطال حياته في كمال العافية ودوام النعيم يصر على يديه المريد الجاهل البليد الذي ليس له بالآداب من تقييد فلمثل هذا أكثر وأغزر من أن يحصيه الخبر فلقد رأيت أخي محمد بن لمخيطير كان حسانيا وأتى الشيخ تائبا وطبيعته طبيعة حسان من رفع الصوت وقلة الحياء وإحداد النظر وغير ذلك من مساوي الأخلاق غير أنه منجمع الهمة على متابعة الشيخ في كل الأمور فلم يلبث أن جذبته الله تعالى على يد الشيخ جذبة وصل صار منها عارفا بالله تعالى ممتلئ القلب من شهود عظمته ينطق بالحكمة وما يدري من يعرفه من أين تأتيه ودام كذلك حتى توفي رحمة الله علينا وعليه وأمثاله والله الحمد فينا موجودون الآن ولقد رأيت كثيرا ما ينزل به الأضياف وليس لهم غرض إلا عشاء ليلتهم ثم يصحبون راحلين إلى وجهتهم، ثم يجذبهم الله تعالى من سجين غفلتهم ونيران طبيعتهم إلى جنان حضرته وفرش قربه عندما يرون وجهه الشريف أو يقبلون يده الكريمة على الله تعالى أو يجلسون إليه في المسجد ساعة فلقد رأيت أخي البشير بن الصغير أتانا ضيفا فلما جلس الشيخ في المسجد ساعة جذبته الحق سبحانه وتعالى إليه وكان ذلك سبب تلمذه وكونه مريدا فكان بعد ذلك محبا لله تعالى لا يفتر عن ذكره لحظة ولا يتخلف عن أمره طرفة عين فيما أعلم، والله تعالى أعلم، وخرقت على يديه بعد ذلك العوائد، ونيلت منه الفوائد، وظهر للعام والخاص أن قد اتخذ الله تعالى ولها بواسطة رؤيته لطلعة الشيخ الميمونة فتنفست عليه بوارق الأنوار المكنونة المصونة المخزونة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ولكثيرا ما أرى المريدين يسقون بمجرد رؤياه أو عندما يشمون من رياه وما رأيت في حضرته ممن لم يكن تلميذا له محجوبا قط ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وأما تلاميذه الذين يأتونه واردين وإلى حضرة العلي الأعلى عامدين متأدبين معه بأداب الصحابة مع سيد المرسلين فمعاذ الله لا تفشى أسرارهم ولا تنتشر ولا تذاغ أخبارهم ولا تنتثر، فهم محل العجب العجاب، وقرّة أعين الأحباب، لا تجاريهم في ميادين القرب نجب الركاب، ولا تباريهم في تلك المنح فحول الأصحاب، فلقد رأيت فيهم ما سأذكر بعضه إظهارا لكرامة الشيخ أطال الله بقاءه وأكمل في كل المعالي ارتقاءه بما أعطاه الله فيهم من سرعة الانتفاع وبراعة ما أوتوا به من خصائص الإبداع، فمن ذلك أني رأيت الأخ الصالح سيد عبد الله بن أبي بكر بن البشير أتاه بنية التجريد حتى يصل للحي المجيد فلم يلبث عنده إلا ثلاث ليال فصدره الشيخ وأذن له في التصدي للمشيخة فهو الآن والحمد لله له تلاميذ كثيرون يقرؤون عليه العلم ويتربون ويجذبون.

ورأيت الأخ الولي العارف بالله تعالى محمد المختار بن محمد بن البشير بن اطالب صالح أتانا هو واطالب جد بن الرايس أتونا على نية التجريد وقطع الحظوظ إلا حظ الوصلة للمجيد فما لبثوا أن جاءهم الفتح فوصلوا إلى الله وساروا إلى أهلهم أولياء محبوبين، ثم أتى بعد ذلك محمد المختار زائرا في مدة شديدة فقال له الشيخ: إن قدومك زائرا في هذه المدة أكسيك فيه بعلم النحو يهبه الله تعالى لك، ففتح الله تعالى بصيرته في ذلك الفن حتى صار من علمائه، وأتى بما يسمو فوق الظن. اهـ ولقد رأيت أخي محمد الصغير بن عبد الله صحبه أحسن صحبة فنال في مدة يسيرة مواهب كثيرة وأيادي غزيرة فوهبه الله الولاية والعلم من لدنه فكان فوق ما أقول وكان في محض العبودية وصفات العباد من ذل وتواضع وغير ذلك بحيث لا يجاريه غير الفحول، ورأيت الأخ الولي العارف بالله تعالى سيد عبد الله بن سيد احمد ما ياب أتى الشيخ آخر شهر شعبان وصحبه على رسم التلمذ وأدخله الشيخ الخلوة لما استهل رمضان أمره الشيخ بالخروج من الخلوة فخرج منها كامل الوصلة منجمع الهمة على بارئ البرية لا يرقأ دمه ولا يفرق جمعه ثم أطلق له الشيخ بعد ذلك عنانه ولم يثن عن إرادته إنسانه، وأتانا بعد ذلك زائرا فأدخله الشيخ خلوة أقرأه فيها ألفية ابن مالك وبعض كتب فن البيان وكان فيهما بعد ذلك صاحب تبيان. اهـ.

ولقد رأيت أخي محمد العاقب صحب الشيخ أطل الله بقاءه وأصحابه العافية وأدام في المعالي ارتقاءه مدة طويلة ونال فيها كل مزية جلييلة فكان من كمل العارفين وأجلة المرابين، فما رأيت أحدا من المرابين أخذ من الشيخ مثل ما أعطاه الله منه فيما أعلم، والله تعالى أعلم.

ولقد رأيت أخي محمد نعم بن الإمام بن مكي صحبه مدة أربع سنين ونال في تلك المدة ما أعجز حصره الثقلين، فأمره الشيخ أن يتصدى للمشيخة ويتزيا بزى المشايخ وكل من هؤلاء يهبه اللعم ويعلمه إياه بلا مشقة وكان الشيخ كثيرا ما يقول للمريد أعطيتك الفن الفلاني من فنون العلم فيهبه الله له بلا تعب ولا نصب، وربما أدخل أحدهم خلوة نحو من ثلاثين ليلة أو أربعين ليقرأ فيها فنا من فنون العلم فخرج منها وهو خاتمة العصر في ذلك يجاوز فيه حد الظن والحمد لله والشكر له على ذلك الفضل والمن، ولقد رأيت أخي محمد الامين بن الشيخ سيد احمد زروق صحبه مدة فنال في تلك المدة الولاية الكبرى والمنزلة العظمى وكان صاحب كشف وجذب وخصوصية وكان المشائخ يقولون: المواريد ثلاثة مريد الإرشاد وهو الذي يصحب الشيخ ويبايعه على أن يصلح له جوارحه الظاهرة فقط دون نظر إصلاح القلب، ومريد الترقية وهو الذي اعتنى بصلاح باطنه أي طهارة قلبه من كبائر القلب كالحقد والحسد والعجب والرياء وحب المدحة وحب الجاه والشرف واتصافه بالأوصاف الحميدة كالتوبة والإنابة والزهد والتوكل والتقويض والتسليم والرضى والإخلاص، ومريد التربية وهو الذي يريد الوصول لله تعالى والفناء في شهوده عن تلمح عالم جنسه وشهود وجوده، فأما الأول فاللازم تكرير زيارة الشيخ مع ما أمكنه من الهدية ليستفيد بذلك محبة المبايع لأن المحسن محبوب لا محالة، لأنهم قالوا: من أحبهم وصل ومن أحبوه فاز واتصل يعنون صدق المحبة، ولهذا التابع سؤال الأسرار وللمتبع إعطاؤه إن كان أهلا وإلا فليمنعه برفق لئلا تنفر نفسه منه قبل الهداية، ولهذا التابع أيضا الإفادة من الإخوان وغيرهم، وله النافلة بالصوم والصلاة والاعتكاف والعزلة دون إذنه في حال تخلفه عنه اللهم إلا أن يكون مضى عنه على عهد في العبودية فلا يتخلف عنه لما في ذلك من عقوقه، وقد ضيقوا في ذلك إلى أن قال قائلهم:

ولا جزاء لعقوقهم سوى خاتمة السوء وللنار هوى

وأما إن كانت البيعة على الترقية بأن كانت على اكتساب باطنه للتقوى والاستقامة بأن يترقى من الدرجات السفلية إلى الدرجات العلوية أعني أخلاق الإيمان التي بها ينال العبد غاية المنى والحسنى والزيادة، فهذا التابع له أن يسأل عن الأدوية لما به من الأمراض القلبية، وعن ما تتال به الأوصاف الحميدة، إلا أن عليه متابعة قوله في ذلك ولا يخرج لرأيه ولا عن محله إلا بإذنه، والأحسن له أن لا يطالبه من نفسه بذلك، وإن فعله فلا حرج، وله أن يسأل من السر ما يستعين به على آخرته ودنيا من غير أن يلح عليه في ذلك.

وأما إن كانت البيعة على التربية التي هي معرفة العبد لربه حتى لا يرى في الوجود سواه وبعبارة كشف الغطاء عن القلب أي ازدياده في مقامات الإحسان من الرجال والخوف إلى القبض والبسط ومنهما للإنسان، والهيبة وهكذا إلى أن يتربى في مقامات الإحسان إلى أن يفنى في الأفعال ثم في الصفات ثم في الوجود حتى يفنى عن فنائه، فصاحب هذه البيعة حكمه مع الشيخ كحكم الميت بين يدي غاسله يسلم إرادته في إرادته واختياره لنفسه في اختياره له، ولا ينفرد عنه بأمر ما قبل انقطاعه فصاحب بيعة الإرشاد على الشيخ تعليمه وتبيين المعنى له وتوضيح الوجه الذي يرشده، وصاحب بيعة الترقية يتوجه الشيخ لربه في أمره مع الإشارة بالعمل في أسباب ما يطلب منه من العمل بالسنة وشهود المنة، وصاحب بيعة التربية يدرجه الشيخ في سلوكه إلى الحقيقة كتدرج الحجر عند أصحاب الطريقة وينظر في كل على ما هو به من أصل معدنه إذ الناس معادن. اهـ.

فكان المشائخ إنما يستفيد منهم مرید الإرشاد إرشادا فقط، ومرید الترقية الترقية فقط، ويجتهدون لمرید التربية في تربيته فإن تحمل وصبر ظفر وإن عجل وتولى حرم وانبت وكان لهذا الشيخ من التمكين الإلهي والسلطنة في جانب الحق سبحانه وتعالى ما أقدره الله تعالى بسببه على نقل مرید الإرشاد المهتم بصلاح ظاهره فقط إلى الوصلة الكبرى والولاية العظمى والمنزلة العلية القومية ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فلقد رأيت أخي الولي الزاهد العارف بربه أحمد بن محني إنما أتى الشيخ لاستقامة جوارحه وتسخيرها في طاعة ربه وهو الآن واصل مجيد ذو رأي رشيد وفكر سديد وحال حميد ولكن كثيرا ما يأتيه مرید الترقية المهتم بصلاح الباطن والاتصاف بالمحاسن

وتخلي قلبه عن الخبائث والخشائن فيقلبه ما شاء الله لا قوة إلا بالله في أسرع مدة إلى حضرات القدس الأعلى ومنزلة التجلي الأسمى أطال الله عمره وأصلح دهره ويسر أمره أمين بجاه سيد الأولين والآخرين. اهـ.

لقد رأيت أخي محمد الامين بن أحمد بن اطالب ناجم أتى الشيخ لا يريد غير صلاح باطنه وصار في أسرع مدة من أهل المشاهدة وأرباب المكاشفة واصلا فانيا في الله عن شهود غيره.

ورأيت أخي الشريف ملاي المهدي بن ملاي ابراهيم إنما أتى لصلاح باطنه وسكنى قلبه على مذهب أهل السنة من الموحدين فصار من الأولياء العارفين والأصفياء المحققين. اهـ.

وكان تربية هذا الشيخ للمريدين بمحض التمكين الإلهي والهمة النافذة والمكانة الاصطفائية فلقد رأيت يومًا كتابه بعض الأبناء الكرام في شأن التربية فكتب الشيخ له: واعلم أنني لا أستعمل للمريدين عادة ولا قصد لهم شيئًا غير أنني إذا أتاني أحدهم وجمعت همتي إلى الله تعالى أن يفعل به ما هو خير له وكان لا يأمر أحدهم بأمر ما قليلا كان أو جليلا إلا عن إذن من الله تعالى، كما سمعته كثيرا ما يصرح بذلك، وكان مع ما أعطاه الله من التمكين الإلهي والظهور في معاني الأسماء والصفات وإن تنوعت إلى ما لا يدخل تحت حصر بكل الأمور إلى الله تعالى ولا يحتال فيها بقليل ولا جليل إلا عن إذن من الله تعالى لكن بركته جاذبة وهمة نافذة ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وبتلك الهمة النافذة يجذب المريد إلى حضرة رب العالمين على التحقيق بحقائق التمكين في ميدان حق اليقين فيغنيهم بالجذب إلى حضرة القرب عن سلوك الطريقة الصعب وذلك عند القوم أحسن وفي دلائل الخصوصية أمكن وأوضح وأبين، وبالمريدين أرفق، ولصلاح أحوالهم أوفق، لأن المجذوب محبوب، ووصوله إلى الله بلا علة وبلا سبب ولا طلب، والمريد السالك عكسه إذ السالك ووصوله بالوسائط والأسباب، والمجذوب ووصوله بلا واسطة ولا سبب، والسالك حكمة ووصوله عبادة وخدمة، والمجذوب حكمة ووصوله فضل ومنة السالك عامل لله والمجذوب عامل بالله السالك واصل بنفسه، والمجذوب واصل بربه، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب، فالاجتباء للمحبوبين والهداية للمريدين السالكين. اهـ ومن أعظم المريدين

عندي آية رجل أتانا عام أول فأتى الشيخ وقت صلاة الظهر وقال له: يا شيخ أتيتك من أرض الترارزه مشتاقا بك حابسا نفسي عندك ممتثلا أمرك فيما تأمرني به مجتنباً نهيك فيما تنهاني عنه، صابرا على مكروه الطريق كائنا ما كان حتى أصل إلى الله وأعلم أنني لا يعلم الرجال عملا إلا وأنا خبير به، فإني نساخ للكتب خبير برعية المواشي خبير بأمر الحراثة والزراعة لا تفوتني حرفة ولي قوة على كل الأعمال، وقد حبست نفسي عليك فمرني بما شئت وأنا تلميذك، فقال له الشيخ: قد سمعت كلامك وقبلت تلمذك، ثم ذهب الشيخ إلى بيت خلوته ومجمع كتبه وترك المريد مع التلاميذ في المسجد، فلما صلينا العصر أخذ الشيخ بيد ذلك المريد وقال له: اي بني اذهب إلى أهلك فقد قضى الله حاجتك فقال المريد: إنما جئتك لأسكن عندك حتى أنال الوصل فقال الشيخ: نعم وقد وهبك الله ذلك وقضى حاجتك وما كنت لأفتات على الله تعالى في أمر ما، فذهب ذلك المريد لاهله بعد أن خلا به الشيخ ساعة يسيرة علمه فيها ما شاء الله أن يعلمه وقد رأيت من لقيه من الإخوان بعد ذلك فإذا هو كامل في الله. اهـ وأما من قضيت حاجته على يد الشيخ بعد ليلة أو ليلتين أو ثلاث أو أكثر إلى شهر إلى ستة فأكثر كثير وأغزر غزير ما شاء الله لا قوة إلا بالله وقد عن لي أن أختم كرامة المريدين بذكر اثنين مهم خبأت شأنهما لختمها رجاء أن يختم الله لي بحسن الختام وأن يجعلني من المحبوبين عند ذي الجلال والإكرام لأن مزيتهما عندي أحسن مزية وخصوصيتهما أكمل خصوصية وهما محمد الفاضل بن محمد بن اعبيد بن السيد، ومحمد عبد الفتاح بن الشيخ سيد محمد بن أحمد الاسود أما الأول فهو ابن عم شيخنا وكفاه فخرا وهو ولي واصل مرب عالم عامل خاصة ظهرت في مريديه، فقد أخبرني من أثق به من أبناء شيخنا ممن لقيه أن مريديه منتفعون غاية الانتفاع فمنهم الواصلون ومنهم المرتقب وصولهموكيف لا وهو والله الحمد محقق أكمل التحقيق وخاصة الآخر برأ به العلل والأمراض وقد منح الله كلا منهما صيتا رفيعا والحمد لله رب العالمين.

وأما مزيتهما التي اختص الله تعالى بها فهي أنهما أكثر المريدين هدية للشيخ ولأبنائه فيما أعلم والله تعالى أعلم، فما رأيت غيرهما يساويهما فيها، وكان القوم يقولون: الهدية أكمل دلالة على صدق المريد، يعنون بذلك صدقه في طلبه وصدق نيته في

شيخه وأكمل دلالة أيضا على الثقة بالله والتوكل والاعتماد عليه، ففي الخبر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه تجرد من ماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وشاطره فيه ثلاثا وثالثه ثلاثا وفي الخبر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ما معناه: ما نودي لمعروف قط إلا سبق إليه أبو بكر بماله كله فقال عليه السلام ما تركت لعيالك؟ قال: تركت الله ورسوله، قال عمر: فما سابت أبا بكر بعد ذلك. اهـ.

وفي الخبر أيضا ما أحد أمن علي بصحبته وماله من أبي بكر. وفي الخبر أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها ما خلا أبي بكر فإن له عندنا يدا يكافيه الله بها يوم القيامة، وما نفعتي مال أحد ما نفعت مال أبي بكر، وما عرضت الإسلام على أحد إلا وكانت عنده كبوة إلا أبا بكر فإنه لم يتلعثم ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن صاحبكم خليل الله تعالى. أخرجه الترمذي.

وكان الأشياخ يحثون المريدين على الهدية جدا ويقولون هي أكمل دلالة على صدق المرید، ويقال: ما هدى مرید لشيخه هدية إلا عوضه الله بها مزية، ويقال: صاحب الهدية يجازى بالحكمة والمحبة، ويقال: الهدية تزرع المحبة وتذهب السخيمة ومن كلامهم اللهم تفتح اللهم، فاللهي الأول بضم الأول العطية، والأخير بالفتح جمع لهأة وهي الحلق ومعنى ذلك أن من يعطي الهدية لا يكتم الفم عنه ما في القلب ولا يبخل عليه المهدي له بما وصل إلى حلقه فكيف بغيره، ويقال الهدية تعور عين الحكيم، وفي الخبر أيضا: الهدية أمام الحاجة وفيه عنه صلى الله عليه وسلم: تهادوا تحابوا وفيه أيضا جبلت القلوب على حب من أحسن إليها.

فإذا كان هذا كهذا فلا شيء أنفع للمريدين من الهدية للشيخ لأن المحسن محبوب طبعاً حبا جبل الله عليه القلوب.

ومن كلام القوم: من أحبهم وصل ومن أحبوه فاز، وأيضا من كلامهم: المريدون أربعة: مرید البركة الذي يكثر عليه المال وتسخر له العباد وتقصم على يديه الظلمة، ولا يتوجه للأمر إلا كان وهو الذي يكثر الهدية للشيخ ومرید العلم وهو الذي يشتغل بقراءة تأليف الشيخ ومرید الإرث وهو الذي يلزم الشيخ ويلزم امتثال أمره فيما يأمره،

ومريد الجميع وهو الذي يكون مع الشيخ كما يكون الإنسان لنفسه، في جميع الأمور. اهـ ويقال: ما من سبب يستعمله الإنسان لزيادة المال وكثرة الدنيا عليه إلا ربما أخطأ ولم ينفعه إلا هدايا المريدين للمشائخ فإنها سبب لا ينقطع وعادة لا تتخرم. اهـ. ولهذا قال بعضهم:

وقدم فتوحك إذ عليك مداره فإن طريق الشيخ بذل العطية
آخر:

وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم وخير تجارات الكريم اكتسابها
فرع: ومما أكرم الله تعالى به هذا الولي من شواهد اختصاصه بهذا المقام أعني مقام الختم الذي ما مثله من مقام وهو تراث سيد الأنام ومقام الظهور في تنوعات الأسماء والصفات لذي الجلال والإكرام ما قصم الله على يديه من الجبارة المتمردين وهلك بدعوته من الظلمة العاتين وكفاه شأنه من المستهزئين فمن ذلك ما وقع في بدء أمر الشيخ أعز الله جنابه الرفيع وأطال حياته في عافيته مكلوء بحصن الله المنيع، فقد ثبت عندي بالتواتر أن محمد بن أحمد هنون الاعبيد أتى الشيخ وزعم أنه يطالب بعض تلاميذه بدية فقال الشيخ لا سبيل لك إليها إلا بحكم الله فركبا يتحاكمان فلم تثبت الدية ولم تلزم فتوجه القاضي لشيخنا أطال الله بقاءه وأكمل في كل المعالي ارتقاءه أن يعطي للحساني أربعة أحقاق لتندفع عنه الحشمة فأبى شيخنا من ذلك حتى قال القاضي وهو الشيخ محمد الامين بن عبد الوهاب أنه يعطي الأحقاق هو بنفسه، فقبل شيخنا أنه يعطيها فطلب الحساني أن يكون أول الأحقاق بقرة سمينة ليذبحها فقبل الشيخ ذلك فأعطاه بقرة فسار بها لمحلة من أصحابه فذبحها عندهم فلما وصلت لحمة منها إلى بطنه أخذه الإسهال حتى كان يقتله فأرسل قومه لابنه فأتى وحمل لحم البقرة وسار بأبيه إلى الشيخ وأهدى له فرس الأب ومدفعه فشفاه الله إذ ذاك وساروا إلى أهليهم فلما برئ أتم البرء نزغ فيه الشيطان أيضا وقال إنه يذهب إلى الشيخ ويأخذ فرسه ومدفعه ويأخذ الدية أيضا فعلم الشيخ بذلك وكان قد أرسل إليه به فلما عزم على الركوب أخذه الإسهال أيضا ودام عليه حتى قتله فحلف كبير أولاده مبارك ليأخذن الديتين يعني دية المبطون والدية التي كان يدعيها وعزم على ذلك شر عزيمة وأرسل للشيخ بكل ذلك فلما جاءه الرسول وبلغه الرسالة قال له لا

يجمع الله بيني وبينه ولقد أغريت به القروح المشؤومة فركب لولاعة لبعض شؤونه يريد إذا رجع منها أن يفعل بآل اطالب المختار ما كان يقول فلما وصل ولاعة أنبت الله فيه القرحة المشؤومة التي تقول لها العامة كنج وهو اجنكور ومكث هناك يعالجها حتى مات.

ومن ذلك أيضا ما صح بنقل الثقات تواترا أن حسان زمن بدئه قبل أن ينكفوا عنه كانوا يرغبون فيه وفي عشيرته كما يرغبون في سائر المؤمنين، فأتى منهم قوم زمنا كلهم يطلب أن يظلم أما أحدهم فكان الشيخ في المسجد ليلة حتى أتاه تلميذه محمد سالم بن اجوير رحمه الله وقال: إن فلانا أخذ لنا كبشا ليذبحه فقام الشيخ إليه فوجد بعض عبيد الحساني قد أضجع الكبش ليذبحه فقال له لا تذبح، فقال له الشيخ: والله لا يسبقك للموت، فرفع العبد يده فأراد الحساني يقوم ليكون الذابح بيده فلصق السرير بوركي الرجل فما استطاع القيام حتى اعتذر للشيخ أطال الله بقاءه وأرضاه. اهـ.

وأما أحدهم فكان الشيخ تلك الليلة أيضا بالمسجد حتى أتاه بعض التلاميذ فقال له: إن فلانا أخذ لنا شاة ليذبحها، فقام إليه الشيخ فإذا بعض عبيده مضجعا للشاة ليذبحها فقال له الشيخ والله لئن ذبحتها لا تسبقك إلى الموت فقال له الحساني والله إن لم تذبحها لأقتلنك بمدفعي هذا فذبحها العبد فما رفع السكين عنها حتى وقع في دمها ميتا.

ومنهم واحد يقال له ابن الدليل فطلب أن يعطى له مال فقال له الشيخ لا نعطيك شيئا بيدي وافعل ما قدرت لي عليه فحلف ليأخذن اليوم من الأموال ما يحب ولا يردها فقال له الشيخ: اذهب إلى وجهتك فوالله لا يراك بعد اليوم الأحياء ولا الأموات فسار إلى وجهته وما رآه قومه بعد ذلك الوقت، ولا رآه أحد غير أنه في ذلك اليوم رآه جمع من قرية ولاعة يخوض الزقاق والطرق راكبا حمارا أبيض غير مفترش فراشا فما كلمه أحد ولا كلم أحدا وما رآه بعد ذلك، ولم يكن مسيره مغاضبا للشيخ قريبا منها، وكان يوم رؤياهم هو يوم المغاضبة، فكان مثلا يضرب عند الناس يقول بعضهم لبعض أركبك الله على حمار بن الدليل، أو يقول له: والله لو كنت تجعلني على حمار بن الدليل ما فعلت لك كذا. اهـ.

قلت: لعل معنى قول الشيخ له: لا يراك الأحياء ولا الأموات، يشير إلى ما في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من مات من هذه الأمة إن كان من أهل الخير يকাশف عنه للأموات ويتلقونه كما يتلقى الأحياء إلى بشير الرفقة يسألونه عن أقاربهم، فإن سألوه عن من هو حي أخبرهم الخبر، وإن سألوه عن من مات قال لهم: قد مات قبلي، فيقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون سار إلى أمة الهاوية، والأصل في ذلك ما في شرح الصدور في شأن الموتى وأخبار القبور أن هذه الأمة المشرفة ما دام الميت منها مطالبا بحق يحجبه الله عن الأموات ما دام معذبا من بركة سيد المرسلين وأفضل خلق الله أجمعين.

ويروى أيضا أن الكافر من هذه الأمة يرجع الله عنه العذاب في ليلة الجمعة وشهر رمضان مطلقا، ويروى أن المؤمن من هذه الأمة إن عوقب ولم يعرف عنه إنما يعاقب إلى ليلة الجمعة ثم يرفع عنه العذاب ولا يعود إليه على يوم القيامة كما في أجوبة شيخنا حفظه الله ورعاه على أخبار القبور، فيحتمل أن يكون معنى قول الشيخ أعز الله جنباه الكريم وأطال حياته معافى في كمال النعيم أن هذا الرجل لا إيمان له كما هو ظاهر حاله أو أنه قد تمت مدة حياته فبتمام مدة حياته لا يراه الأحياء وبكونه كافرا لا يراه الأموات، ويحتمل أن يكون كشافا منه بأن هذا الرجل وإن كان مؤمنا قد ابتلاه الله على فسقه بهذه البلية والعياذ بالله.

ومما أهلك الله على يديه من الجبايرة المتمردين والجهلة الطاغين والعتاة الجافين ما ثبت عندي وصح أن بعض حسان أتى محلة شيخنا وأخذ منها شاة فأتى صاحب الشاة لشيخنا وأخبره أن الحساني أخذ شاته يريد ذبحها فأتاه الشيخ ونهاه عن ذبحها فأبى أن ينتهي فحلف له الشيخ بالله لئن ذبحاه لا يسبق دمعا رجيعك إلى الأرض، فأهوى بيده ذابحا فأطلق الله بطنه عندما وصل دمها الأرض. اهـ.

وحدثني أيضا الثقة أن اثنين من حسان ذبحا نعجتين كان التلاميذ يستعملون لبنهما في بعض المهمات، فلما أخبر بذلك لم يلتفت إليه حتى لحت عليه أمنا عيش أم اخلخال في شأن الذابحين وقالت إنهما أعداء الله وقد فعلوا بالمؤمنين كذا وكذا، فقال لها إذ ذاك: لا يطعم أحدهم بعد هذا الوقت طعاما عوض فأصابهما في ذلك الوقت ما أصابهما فأتى بهما أهلها للشيخ أطال الله بقاءه، فقال لهم: أطعموهما فإن وصل

شيء إلى جوف أحدهما فلا بأس عليه، وإلا فما أرى لهما شفاء، فلما فعلوا ما أمرهم به لم يجاوز الشراب حلق أحدهما فكانا كذلك حتى هلكا. اهـ.

قلت: ونظير ذلك في السنة ما رواه الشيخان والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند البيت وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل أيكم يقوم يسير إلى سلا جزور بني فلان فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة لطرحته عن ظهره والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد لم يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله عنها فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه ثم أقبلت تشتمهم فلما قصى صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم وكان إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاث مرات، فقال: اللهم عليك بقريش ثلاثا فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وذكر السابع، ولم أحفظه، فوالذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم لقد رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر قد سحبا إلى القليب قليب بدر. اهـ.

وفي الخبر أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قد دعا على بعض بني أبي لهبا فقال: اللهم ساط عليه كلبا من كلابك، فخرج المدعو عليه في رفقة من قريش فلما كانوا بالبيداء سمعوا زئير الأسد وهم في مبيتهم فأرجف قلب ابن أبي لهب وقال: يا ويلاه ما يمنع من الأسد وقد دعا عليه محمد به فأرادوا أن يسكنوه ويثبتوا قلبه فلم يثبت حتى حفروا له بئرا وأدخلوه فيها وجعلوا رجالهم وأثقالهم على فم البئر وجلسوا عليه بأيديهم أسيافهم ليمنعوه من الأسد، فلما دنا منهم الأسد حفر الأسد في الأرض وسار عامدا إليه يمشي تحت الأرض حتى وصل إليه وأكله فلما أصبحوا أزلوا رجالهم عن فم البئر فإذا بالأسد يأكله. اهـ.

وشاهدت رجلا من حسان يقال له النفاع بن اعل بن المختار أرسل للشيخ حفظ الله ساحته وأطال الفسحة في مدة حياته وأفاض علينا جزيل بركاته في مرید عنده يسمى سيد بن باب وحلف لا يستهل هذا الشهر الذي ما دونه إلا ليالي قليلة إلا أتاه إما أن

يدفع له صاحبه وإما أن يأخذ الصاحب من بين يديه عنوة، فلما جاءه الرسول بذلك قال له: عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا، والله أشد بأسا وأشد تنكيلا، فلما كان بعد ليلتين أو ثلاث لم يرعهم إلا أن فقدوه بعضهم يقول: لقد تقدم أمامنا وبعضهم يقول: لقد تأخر وراءنا ولم يجدوا له أثرا ولم يهتدوا له سبيلا إلى الآن. اهـ.

وشاهدته ليلة وقد أتاه حساني يقال له اعل كلاب يطلب صاحباً له يدعيه بالمغرم المكسي وأظهر ذلك الحساني الشيطنة فلما تعشى هو وقومه أخذهم الإسهال كلاباً وباتوا كذا فلما كان الصباح أتوا الشيخ يعتذرون له وركبوا إذ ذاك ولم يعلم أمرهم أحد حتى جاء الناس لأخذ الفرش فوجدوها ضائعة نجاسة.

وشاهدته أيضاً وقد أتاه حساني يقال له بوسيف بن محمد يطلب تلميذاً له بالمكس فوقع منه ما أغضب الشيخ، وذهب لأهله على نية العود، فمات شر ميتة ولم يعدو كثيراً ما أشاهد من كفاية الله تعالى الظلمة المتمردين والعتاة الجاهلين لهذا الشيخ ما لم تتبعته لأشغلي عنه الدهر كله، ونظير ذلك في المعجزات النبوية ما أخرجه مسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم، قالوا: نعم، قال: واللات والعزى لئن رأيتَه يفعل ذلك لأطأن رقبتَه ولأعفر وجهه في التراب، ثم إنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليظاً على رقبتَه قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ويتقي بيديه، فقيل له: مالك، قال: عن بيني وبينه لخذقا من نار وهولا وأجنحة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو دنا مني لاخطفته الملائكة عضوا عضوا، فأنزل الله تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ إلى قوله: ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾. اهـ.

وعن جابر رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فأدركنا صلى الله عليه وسلم في القائلة في واد كثير العضاة فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها وتفرق الناس بالوادي يستظلون بالشجر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا رجل اتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي والسيف في يده صلتما، فقال: من يمنعك مني، فقلت: الله، فشام السيف وهو هذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ملك قومه فانصرف حين عفا عنه فقال: والله لا أكون في قوم هم

حرب لك. اهـ. أخرجه الشيخان. العضاه شجر الشوك، والسيف الصلت المسلول من غمده، وشام السيف أغمده واستله فهو من الأضداد. اهـ

ومن عجيب ما أظهر الله على يديه من قضم الظلمة فساد دولة أبناء امبارك على يديه حين ظلموا وطغوا وأرادوا جيرانه بسوء حتى غضب عليهم فما برحوا أن احتوتهم السودان وخانهم الأنصار والأعوان فتفرقوا أيادي سبا وصاروا كرماد أغرى الله به ريح الصبا، حتى استرضوه فردهم الله عندما أرضوه. اهـ.

ومما ظهر لي على يديه من قضم الجبابرة ما ثبت عندي بالسماع الفاشي عن الثقات وغيرهم أنه قد كان أبناء الناصر أخذوا له أغناما فركب إليهم في طلبها فأظهر الله على يديه من القضم ما ردوا له أغنامه بسرعة وكان من الآخذين للأغنام رجل عات متمرد يقال له المختار بن ألمين فقال ذلك للرجل للشيخ أطال الله حياته وكمل عليه النعيم وأدام عافيته: أيها الشيخ لقد رددت لك جميع ما وصلني من أغنامك لكن من غير خوف منك وأنا أعلم أن كل إنسان لا بد يموت ولكن إنما يتم الله منه هو والعياذ بالله بأن يؤخذ حيا ويوضع في النار حتى يموت، وإن لم يفعل به هكذا فما جعل الله لك عليه سبيلا وهذا بمحضر قومه كلهم، فقال الشيخ: وأي حاجة لك بما تقول وأي حاجة لي بالانتقام منك وقد رد الله لي مالي من عندك، فقال الحساني إن لم يفعل الله لك في ما قلت لا يخافك أبناء الناصر وهم مجربون لك في أمري، فقال الشيخ أطال الله بقاءه وأكمل في كل المعالي ارتقاءه أما أنا فقد قبلت وقلت والله على كل شيء قدير، فكان من قدر الله أن سار ذلك الرجل في نفر من قومه يطلبون أعداءهم من ادوعيش فأخذوا بقرة وذبحوها وأوقدوا نارا عظيمة فلم يرعهم إلا أن أحاط بهم عدوهم راحلين إلى أهلهم فقتلوا منهم من قتلوا وهرب من هرب وأخذوا ذلك الرجل حيا وألقوه في النار التي كانت معدة للبقرة مكتوف اليدين والرجلين حتى مات فيها، فلما أتى الخبر لأهلهم خافوا دعوة الشيخ أي خوف، ويروى أن الآخذين للأغنام ثلاثون رجلا فما دار العام على رجل منهم حيا، ويروى رواية صحيحة أن رجلا منهم يقال له الامنيكر كان قد أخذ شاة من الغنم بعد أن وصلت يد الشيخ فذبحها ليكرم بها صهره فلما أخبر بها شيخنا بذلك وأظهر له التوجع قال له الشيخ أطال الله حياته لا تجزع فلعمرك ما يخرج المنيكر من هذه الدار فلما سمع كبيرهم ذلك قال: وهذا قد عجل

أمره والله ليخرجن اليوم من هذه الدار فاشتغلوا بالرحيل حينئذ فلما وصل أول انقالهم ظهور جمالهم اضطجع الامنيكر ينتظر حمل آخر القماش فمات من ذلك الوقت فقام فيهم المنادي بوضع الحمول عن ظهور الجمال وهو مع هذه الحالة مهيبا والله الحمد ما واجهه إنسان إلا وخضع له وذل وخنع. اهـ

ومما أظهر الله على يديه من ذلك ما أغرى بين أهل تكانت من العداوة والبغضاء حتى صارت نار الحرب موقدة بينهم آناء الليل والنهار بعد أن أتوا أرضه متظاهرين على أهلها يريدون الفساد فيها، ونظير ذلك ما أوقد الله من العداوة بين اليهود والنصارى لما علم سبحانه أنهم أعداء النبي صلى الله عليه وسلم. اهـ.

ومن عجيب ما أظهر الله تعالى على يديه من قصم الجبابرة ما وقع بمحلة الأغلال زمن عتوهم وتحيرهم وطغيانهم حتى أفسدوا في البلاد وجاروا على كل العباد، فأغاروا على محلة من تلاميذ الشيخ ومعهم ابنه سيد عثمان فدعا عليهم، فأظهر الله إجابة دعوته فيهم بأن أظفر بهم أعداءهم وشتت شملهم وفرق جمعهم وأبدلهم مكان العز ذلة ومكان القدرة ضعفا ومكان الغنى فقرا ومكان مخافة الناس إياهم مخافتهم إياهم، وكان الله على كل شيء مقتدرا.

وكان إنما أحنق عليهم وسأل الكفاية منهم عندما ظهر له منهم ما لم يكن في حسان بأن صار أكابره يقولون لمن أتاهم من أبنائه قل للشيخ يرضى مني أو من بعض أكابر الأغلال ويفرق قومه فيهم وإلا أكلوه، فوالله لا يترك الأغلال أحدا ليس تحتهم إلا جعلوه كعصف مأكول فلما عزموا له هذه العزيمة وعقدوا له تلك النية كفاه الله تعالى إياهم كما كفى رسوله عليه الصلاة والسلام المستهزئين من قومه، قال تعالى مخاطبا لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون﴾ فكفاه تعالى إياهم بأن قتل كلا منهم شر قتلة ونفاهم من الأرض أسرع نفية.

قال في الذهب الإبريز: أي كفيناك المستهزئين بك بأن أهلكنا كلا منهم بأفة وهم خمسة الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب بن الحارث بن عبد العزى بن أسد بن عبد العزى وهو أبو زمعة، والحارث بن قيس وهو أبو الطلالة، وابن عيطلة وعيطلة أمه، وقيس أبوه والأسود بن يغوث بن وهب بن عبد مناف بن

زهرة ابن أخي آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوماً جبريل إليهم بأصبعه فهلك الوليد بشوكة في ساقه منعه الكبر لما أصابته أن يطأطئ فينتزعها والعاص بن وائل بسرقة في رجله فقال: لدغنتي لدعة فطلبوا لم يجدوا شيئاً وعمي الأسود بن زمعة رماه جبريل بورقة خضراء فعمي ومات وهو يقول: قتلني رب محمد، وفي رواية الكلبي أنه سافر فأصابه السموم فاسود حتى صار حبشياً أسود فأتى أهله ولم يعرفوه، فأغلقوا دونه الباب حتى مات وهو يقول: قتلني رب محمد، والحارث بن قيس ابتلي بأكلة في رأسه فامتلاً قيحا فقتله وقيل أكل حوتا مالحا فأصابه العطش فلم يزل يشرب عليه حتى أنفذ مقتله فمات وقد ذكرهم البوصيري في همزيته فقال:

وكفاه المستهزئين وكم سا	ء نبيا من قومه استهزاء
فرماهم بدعوة من فناء الـ	بيت فيها للظالمين فباؤوا
خمسة كلهم أصيبوا بداء	والردى من جنوده الأدواء
فدهى الأسود بن مطلب ا	ي عمى ميت به الأحياء
ودهى الأسود بن عبد يغوث	أن سقاه كأس الردى استسقاء
وأصاب الوليد خدشة سهم	قصرت عنها الحية الرقطاء
وقضت شوكة على مهجة العا	صي فله النقعة الشوكاء
وعلى الحارث القيوح وقد سا	ل بها رأسه وساء الوعاء
خمسة طهرت بقطعهم الأر	ض فكف الأذى بهم شلاء

وقد كان انتصار الله تعالى أوليائه أكمل علامة وأدل دليل على صحة الإرث النبوي والمقام المحمدي، ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾ وأخبر سبحانه وتعالى بإجابة دعائه بقوله: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾.

وقال تعالى حكاية عن كلمه موسى: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيببت دعوتكما﴾ وما دعا صلى الله عليه وسلم على أحد إلا استجيب له فيه ويروى عن أكابر الأولياء أن قصم الأعداء من

أكمل المظاهر في تنوعات الأسماء والصفات، ولذلك قال محيي الدين بن العربي في كتاب الفتوحات المكية في صفة القطب: وإذا أخذ فبطشه شديد، وحكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: بطشي أشد من بطش الله، قالوا: وجه ذلك والله أعلم أن الله تعالى يقول: رحمتي سبقت غضبي وقال رحمتي وسعت كل شيء، وأما الولي المتمكن من الظهور في تنوعات الأسماء والصفات فلم يذكر له من ذلك شيئاً أي من كون رحمته سبقت غضبه وما كون رحمته وسعت كل شيء فيها كان بطش القطب أشد من بطش الله تعالى، لأن بطش الله تعالى لا يخرج عن كونه رحيماً وأما إذا ظهر الولي في إحدى الصفات فإنه يتخلق فيها ما دام ظاهراً فيها. اهـ.

فرع ومما أظهر الله تعالى على يدي هذا الولي من شواهد اختصاصه بمقام الظهور في تنوعات الأسماء والصفات ما أحيا الله تعالى على يديه من الأموات، فمن ذلك ما حدثني به أخي محمد جد بن المختار بن محمد بن اخيار أن أخاه محمد ناجم كان مألوماً بمرض شديد مات منه حتى انقطع روحه وفارق الدنيا، فلما أذن أبواه شيخنا بذلك يريدون من يعينهم على حفر القبر وغسل الجنازة وخبوطها أتاهم وقال: أرجو من الله أن لا يشمت الله بكم عدوكم، وأهوى بيده ليضعها على الميت، قال محمد جد: فأخذت يده فرفعتها وقلت له: لقد توفي رحمه الله منذ ساعة طويلة، فقال له الشيخ أطل الله بقاءه وأكمل في كل المعالي ارتقاءه: أليس الله يقدر على أن يحيي الموتى قال: فقلت بلى قال: فدعني، قال: فتركته فوضع عليه يده ثم أهوى إليه ونفخ في أنفه فتحرك فجعل ينفخ في أنفه ويسوق الروح بيده الشريفة إلى ساء البدن فيسوقها إلى الذراع فيتحرك ثم إلى الآخر فيتحرك ثم إلى سائر الأعضاء حتى أحياه الله تعالى فمكث مدة وهو أبكم لا يعرف الكلام ثم جعل يتدرج في أمور الأحياء كما يتدرج الصبي الوليد فأول ما توجه إليه القيام ثم الكلام ثم عاش والله الحمد ومكث مدة ولم يولد له حتى قال الناس لا يولد له وهو قد مات، فلما سمع الشيخ ذلك قال الذي أحياه يعطيه الأولاد بفضل فولد له ببركة هذا الشيخ ووجاهة وجهه عند الله تعالى، قلت: وهذه الآية أدل دليل وأكمل علامة على صحة اختصاص هذا الولي بالظهور في تنوعات الأسماء والصفات إذ قال تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ وقال ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾ إلى أن قال:

﴿وبدأ خلق الإنسان من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾ وقال تعالى حكاية عن عيسى: ﴿إني أخلق لكم من الطين كهيئة فأنفخ فيه فيكون طائرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله. اهـ وهذا النفخ أعني نفخ الروح في الجسد لا يقتدر عليه إلا كمل العارفين المتمكنين من الظهور في تنوعات الأسماء والصفات، ولأجل ذلك لم يحكه الله تعالى عن أحد من عباده إلا جبريل وعيسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، أما جبريل فذكره عنه بقوله: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويًا﴾ إلى قوله: ﴿لأهب لك غلامًا زكيا﴾ ثم ذكر في آية أخرى: ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ فكان النفخ بواسطة جبريل عليه السلام كما في الأخبار الصريحة والآثار الصحيحة.

وأما عيسى فذكره بقوله: ﴿إني أخلق لكم من الطين﴾ الآية، قيل: وإنما كان عيسى إذا نفخ في الجسم الميت دخلت في الروح وحي بإذن الله تعالى لأن عيسى تكون من نفخة جبريل عليه السلام فكان من سر ذلك ما حكى الله عنه، ويقال أصل الروح الريح، فكانت في البدن روحا وفي الهوى ريحا والمشهور أن الروح هي الأصل والريح مشتق منه، لأن الريح تجمع على أرواح. اهـ وإنما اختلفت أسماؤهما لأن منافعهما مختلفة فإن الريح تحرك الجمادات والروح تحرك أجسام الحيوانات وكلاهما من أمر الله، ومما أحيا الله تعالى على يديه بعد الموت ابنته الحج حدثني أخي محمد جد بن المختار بن محمد بن اخيار أن الحج ابنة شيخنا كانت قد مرضت مرضا شديدا فوكله شيخنا هو وأخوه المختار بن أحمد تلميذا لشيخنا كان من أولياء الله العارفين رحمة الله علينا وعليه بتمريضها لأنهما محرمان لها فتوفيت وفاة صحيحة فارقت فيها روحها جسدها كسائر الأموات فلما آذنوا الشيخ بذلك أتاهم وجعل يسأل الله أن يحييها وأن لا يشمت به العدو بموتها وهم إنما يتشوفون لأمر الموت من دفن وغيره، حتى أخبرهم الشيخ أن قد شفعه الله في رد روحها ولم يروا علامة لذلك إلا بعد ساعة فتحركت ثم رجعت لها روحها وأبرأها الله تعالى ثم عاشت وولدت كما عاش محمد ناجم وولد له وهما سالمان الآن والله الحمد.

وأخبرني أيضا من يوثق به أن محمد الأمين بن محمد المختار بن الأمين كان قد مات من خنق أمه إياه فأتوا به الشيخ أطال الله بقاءه وأكمل في المعالي ارتقاءه

فأحياه الله من بركته ووجاهة وجهه عند الله تعالى، ونظير ذلك في السنة ما أخرجه البيهقي في الدلائل أنه صلى الله عليه وسلم دعا رجلا إلى الإسلام فقال: لا أومن حتى تحيي لي ابنتي فقال: أرني قبرها، فأراه إياه فقال صلى الله عليه وسلم يا فلانة، فقالت: لبيك وسعديك، فقال: أتحبين أن ترجعي إلى الدنيا؟ فقالت: لا والله وجدت الله خيرا لي من أبوي ووجدت الآخرة خيرا من الدنيا وكان أبوها قد وأدها.

وفي الذهب الإبريز عند قوله تعالى: ﴿وَأَحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ما نصه: إن عيسى عليه السلام أحيا عازر صديقا له لما أرسلت أخته إليه عليه السلام إن أخاك عازر مات وكان بينهما ثلاثة أيام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقال لأخته انطلقي بنا إلى قبره فدعا الله تعالى فقام عازر فخرج من قبره وبقي وولد له. اهـ.

وأحيا ابن العجوز لما مر به وهو ميت على عيسى بن مريم يحمل على السرير فدعى الله تعالى فجلس على سريريه ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وأتى أهله وعاش وولد له. اهـ. وأحيا بنت العشار وكان أبوها يأخذ العشور من الناس وقد ماتت بالأمس فدعا الله عز وجل فأحياها وبقيت وولدت، وأخرج ابن عدي وابن أبي الدنيا والبيهقي وأبو نعيم من رواية أنس بن مالك أن شابا من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء فسجناه وغرناها فقالت: مات فقلنا: نعم قالت: اللهم إن كنت تعلم أنني هاجرت إليك ونبيك رجاء أن تعينني على كل شدة ولا تحملني على هذه المصيبة فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه وطعم وطعمنا. اهـ.

وعن النعمان بن بشير قال: كان زيد بن حارثة من سراة الأنصار فبينما هو يمشي على طريق من طرق المدينة بين الظهر والعصر إذ خر فتوفي فلما علمت به الأنصار أتوه فاحتملوه إلى بيته فسجوه ببردين وفي البيت نساء ورجال يبكون عليه فمكث على حاله حتى إذا كان بين المغرب والعشاء سمعوا صوت قائل يقول: أنصتوا، فنظروا فإذا الصوت تحت الثياب فحسروا عن وجهه وصدره فإذا القائل يقول على لسانه محمد رسول الله النبي الأمي خاتم النبيين لا نبي بعده، كان ذلك في الكتب الأول ثم قال: صدق صدق، ثم قال: هذا رسول الله السلام عليك يا رسول الله ورحمته وبركاته، رواه أبو بكر وابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت، وأخرج

أبو نعيم أن جابرا ذبح شاة فطبخها وجعل لحمها في جفنة وأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل القوم وكان صلى الله عليه وسلم يقول لهم: لا تكسروا عظما، ثم إنه صلى الله عليه وسلم جمع العظام ثم وضع يده عليها ثم تكلم بكلام فإذا الشاة قد قامت تنفض أذنيها. اهـ.

وأما من أخرج الله تعالى لهذا الولي من قبره بعد الموت فأكثر من أن يحصى أو يعد، فمن ذلك ما ثبت وصح بالنقل عن محمد بن المصطفى بن أحمد ومحمد الفاضل بن أحمد غل من أنهما أتيا مع الشيخ حفظه الله ورعاه إلى قبر الشيخ سيد المصطفى بن محمد الكيحل بن عثمان ليزوره الشيخ فلما دنوا من القبر قال لهما الشيخ: امكثا هنا وتقدم هو نحو القبر، فلما وصل إليه انشقت الأرض وخرج الشيخ سيد المصطفى على حاله الذي يعرفان عليه ثوب أخضر ما رأوا ثوبا أحسن منه قط، وقام حتى عانق الشيخ وجلس يتحدث معه فلما رأى محمد الفاضل بن أحمد غل ذلك أصابه جزع فجعل ابن المصطفى يسكنه حتى مكثوا هناك مدة فأتاهم شيخنا أعز الله جنباه الكريم مبرورا وأطال حياته معافى مكرما محبورا قال لهما الشيخ سيد المصطفى يقرئكما السلام ويقول لكما: قد قضيت حوائجكما. اهـ — ومن ذلك أيضا ما حدثني به شيخنا أطال الله حياته، وأدام عزه، وحفظ ساحته قال: لما أرسلني أبي إلى الشيخ محمد الاغظف أتيته بعد وفاته بهدية وقد كتب لي والذي كتابا أمرني أن أقرأه عند الشيخ محمد الاغظف فأتيت محل قبره آخر النهار ووجدت هناك تلاميذ مجاورين وفيهم واحد مجذوب مكاشف فأتاني يرسف من غير معرفة ببني وبينه، وقال لي: يا ابن المرابطة الشيخ محمد الاغظف يقرئك السلام ويقول لك: قد قضيت حاجتك فسر قال: فما التفت إليه فلما كان بعد المنام أتيت الروضة لأقرأ ورقة رسالة أبي فخرج لي الشيخ محمد الاغظف وأتى النبي صلى الله عليه وسلم واجتمع هناك من أولياء الله ما لا يحصيه إلا هو سبحانه فقضى الله حاجتي وأتم أمري هنالك، وأمرت بالمسير في ذلك الوقت بعد أن بايعني كثير من أولياء الله هناك فسرت لأزور بعض مقابر الصالحين في تلك البلدة، فلما وصلت ابير آكنيب لأزور بعد الصالحين به كنت قائلا عنده فلما كان وقت الظهر خرجت لأتوضأ فأتاني هناك الشيخ سيد المختار بن أحمد بن أبي بكر ومعه كثير من أولياء الله فبايعني هو والقوم الذين أتوا معه كلا

قال: وسرت إلى شجرة سرح في تلك الأرض بببغاء خالية وعنه قبر بعض أولياء الله الخمل الكمل، وكان رجال الغيث من الصوفيين يسكنون تحتها، فأتوني وبايعوني ولقيت هناك من الأمر ما الله أعلم به. اهـ.

قلت: ونظير هذه الخصوصية الكبرى ما ثبت وصح من إحياء الأنبياء وبعثهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقديمهم إياه وصلاتهم خلفه ببيت المقدس، ولقد رأيته يوما من الأيام جالسا مع فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستندا عليها وكثيرا ما أراه جالسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد رأيته يوما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين والله حسبي فيما أقول، وهؤلاء أفضل الخلق وخير من يحييه الله تعالى للولي حتى يلقاه ويجالسه، ولنعم هيمنة ما مثلها منة ونظير هذه المنة من المعجزات ما روي من حديث عائشة رضي الله عنها في إحياء أبيه عليه السلام حتى آمن به، أورده السهيلي وكذلك ابن الخطيب في السابق واللاحق، لكن قال السهيلي في إسناده مجاهيل، لكن ينبغي حمل هذا الإسناد على الصحة رعاية لجانب الرسول فيهما، ولو كان إسناد حديث إسلام أمه وبعثها أثبت من حديث إسلام أبيه وبعثه ولقد أحسن الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين حيث قال:

فأحيا أمه وكذا أباه لإيمان به فضلا منيفا
فسلم فالقديم بذا قدير وإن كان الحديث به ضعيفا
وأما حديث إسلام أمه فهو ما أورده الطبراني عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل الحجون كئيبا حزينا فأقام به ما شاء الله ثم رجع مسرورا قال: سألت ربي عز وجل فأحيا لي أمي فأمنت بي ثم ردها فهذا حديث حسن له شواهد، منها قوله صلى الله عليه وسلم: أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمي. اهـ واتفق الخلف والسلف على جواز إحياء الموتى بعد الموت ويعيشون وعلى وجوب كونهم يخرجون من قبورهم حتى يلقاهم من له نصيب في لقاءهم، واتفقوا أن المتشخص في ذلك اللقاء إنما هو الروح، قال تعالى: ﴿ويسألونك﴾ أي اليهود عن الروح الذي يحيى به البدن المركب فيه، وقد اختلفوا في حقيقته ولم يأت أحد منهم على دعواه بدليل قطعي غير أنه شيء بمفارقته يموت الإنسان وبملازمته له يبقى قل

لهم الروح من أمر ربي أي علمه لا تعلمونه ولا تمكن معرفة ذاته إلا بعوارض تميزه عما يتلبس به، فلذلك اقتصر على هذا الجواب كما اقتصر موسى في جواب: وما رب العالمين بذكر بعض صفاته وذلك أن قريشا قالوا: لنسألن اليهود عن محمد فإنه نشأ فينا بالأمانة والصدق وهم أهل كتاب فسألوهم فقالت اليهود: سلوه عن ثلاثة أشياء فإن أجاب عن كلها ولم يجب عن شيء منها فليس بنبي وإن أجاب عن اثنتين ولم يجب عن واحد فهو نبي، فسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أخبركم غدا، ولم يقل إن شاء الله فلبث الوحي مدة، وأهل مكة يقولون: وعدنا محمد ولم يخبرنا بشيء فحزن صلى الله عليه وسلم من مكث الوحي وشق عليه قوله، ثم نزل جبريل بقوله: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾ ونزل ما في سورة الكهف من خبر أهل الكهف وخبر ذي القرنين ونزل ﴿ويسألونك عن الروح﴾ الآية، وهو الروح المركب في الحيوان أو جبريل أو القرآن لأن به حياة القلوب أو عيسى روح الله أي ليس كما يقوله اليهود ولا ما يقوله النصارى، أو هو ملك له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف فم لكل فم سبعون ألف لسان يسبح الله بكلها، أو خلق على صورة الأدميين لهم أيد وأرجل ورؤوس ليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام، وقال ابن جبير: لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش لو شاء أن يبتلع السماوات السبع والأرضين السبع وما فيهما بلقمة واحدة لفعل، وهو أقرب الخلق إلى الله اليوم ويوم القيامة، وهو ممن يشفع لأهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة ستر من نور لاحترق أهل السماوات من نوره، وقال بعض الحكماء: خلق الله الروح من جوهر النور فيذهب السمع والبصر بذهاب الروح ويذهب الطيب والبقاء والحياة وينتن الجسد ويفنى بذهاب الروح، ويذهب العلم لأنه لم يعلم شيئا بعد الروح، ويذهب العلو لأن الجسد يكون سفليا كثيفا بعد الروح، وقال ابن عباس: إن الذي يتكلم الروح بصوت في جوف الجرم فإذا خرج الروح صار الجسد صفرا و صار الروح صورة أخرى فلا يطبق الكلام كما أن الريح إذا دخل في مكان ضيق سمعت له دويا وإذا خرج منه لم يسمع له صوت، وكذلك المزامير قاله الواحدي.

قوله جل وعز: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ أي بالنسبة لعلمه تعالى، وقيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم حقيقة الروح ولم يخبرهم به لأن ترك إخباره كان علماً لنبوءته والأول أصح وهو أن الله استأثر بعلمه، وقال عبد الله بن أبي بريرة إن الله لم يطلع على الروح ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا ووقف فيها قول إمام الحرمين إنها جسم شفاف لطيف لذاته مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر، وقيل إنها جسم نوراني شفاف سار في الجسم سريان النار في الحم، وقيل إنها عرض وهو الحياة التي صار البدن بوجودها حياً أو عرض نشأ عن كيفية التركيب فإذا انحل التركيب ذهب قال القرطبي: الدليل على أنه جرم أنه يؤمن ويكفر ويعلم ويجهل ويفرح ويحزن ويتنعم ويتألم، فيستحيل قيام هذه المعاني بالإعراض. اهـ. من الذهب الإبريز ببعض اختصاصار، ثم قال: وفي التحقيق مقر أرواح الأنبياء بعد الموت في الجنة وأرواح المؤمنين في أفنية قبورها لما ورد أنها تعرف من يسلم عليها وترد عليه السلام وفي البرزخ عند آدم في سماء الدنيا عن يمينه أو في عليين وأرواح الكفار في سجين ولكل روح بجسدها اتصال معنوي لا يشبهه الاتصال الدنيوي بل أشبه شيء به حال النائم وهي مأذون لها في التصرف وتأوي إلى محلها من عليين أو سجين. اهـ.

فرع:

ومما منح الله تعالى هذا الولي مما يدل على تحقيق كونه الوارث للرسول المخصص بما يرجوه من ربه من كل سؤال ما أعطاه الله من كشف عالم الغيب فكان لا يخبر بأمر إلا ريء كما أخبر به فلقد كان يخبر بالأمر السماوي من مطر أو ريح أو ظهور غيم أو طلوع هلال في اليوم الفلاني فنراه كما أخبر، ولقد كان يخبر عن الأمر الأرضي من حدوث مسرة أو دفع مضرة أو ضدهما أو ولادة مولود أو موت أحد أو قدوم مسافر أو خصب يقع في العام أو عافية أو ضدهما ونرى ما أخبر به كما أخبر.

وأما ضمائر النفوس وخواطر القلوب وخفايا السر فلهو أعلم بها من الظواهر، فلقد أخبرنا قبل مقدم الحاج عمر بقدمه وبجميع شأنه فرأيناه كما أخبر وأخبر قبل فساد أولاد امبارك بفسادهم فكان كما أخبر، ولقد أخبر قبل مقدم أهل تكانت لأرض الحوض بمقدمهم إليها وكثيراً ما كنا نعلم قدوم المسافر بإشارة منه كان يسأل عنه،

أو يقول عدو لفلان كم له أو نحو ذلك حتى كنا نرى أن لا ستر بينه وبين شيء من الغيب قط، وكان إذا وعد أحدا منا بمزية إلهية نالها كما وعده وأنواع مكاشفاته وإخباراته بالغيب عجب لا يوصف وأمر لا ينشر، وكان أكثر ذلك منه في البدء، وأما الآن فإنه إخباره بالغيب على وجه الإشارة التي لا يفهما إلا الفاهم النحرير الملازم البصير، ولقد كان في بعض الأحوال يشير إلى بعض كلام الدواب وربما صرح به. اهـ.

ونظير ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتتفق كنوزهما في سبيل الله، أخرجه الشيخان.

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: بينما أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة فأتاه آخر فشكا إليه السبيل فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، فقال إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله، فقلت في نفس فأين دعار طيئ الذين سعروا البلاد، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملئ كفه ذهباً أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد من يقبله منه، وليلقين الله أحلكم يوم القيامة ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له فيقول: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك فيقول: بلى يا رب فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وعن يساره فلا يرى إلا جهنم فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة.

قال عدي رضي الله عنه: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله.

وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم يخرج الرجل ملء كفه ذهباً أو فضة فلا يجد من يقبله، أخرجه البخاري، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم نمة ورحما. أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. أخرجه أبو داود، وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فما ترك شيئا يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحاب هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه، أخرجه الشيخان وأبو داود.

وعنه رضي الله عنه أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فما من شيء إلا وقد سألته عنه إلا أنني لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة. أخرجه مسلم. اهـ.

فرع ومما اختص الله به هذا الولي من شواهد اختصاصه بمقام الإرث المحمدي والمنزل الاصطفائي تكليم الجمادات والبهائم إياه حدثني من أثق به أن شيخنا حفظ الله جنابه الكريم وأطال حياته في دوام العافية والنعيم كان يوما جالسا هو وخاله محمد التقي في مكان من الأرض فلما قاما قالت الأرض: السلام عليكم: استودعتك الله، فقال محمد التقي في نفسه: هذا التوديع تعيني به أو تعني الشيخ، فاطلع شيخنا على خاطري فقال: إن الأرض منذ كذا وكذا سنة ما قمت عنها إلا استودعتني فقال محمد التقي إن كنت لم أعهد منها ذلك وكنت يوما جالسا بإزائه في المسجد بعد طلوع الشمس والناس مجتمعت فمرت بنا جذعت بقر تصيح فقال سبحان الله الجذعة قالت: إنها لأهل الحبيب وتريد من يهديها إلى بقرها فما لبثنا أن أتى عبد أهل الحبيب يناديها وردها لبقرها، وكانت عند شيخنا أعز الله جنابه الكريم سترة من حديد فمها كفم الرمح تغرز بالأرض ومنتهى أعلاها فرعان، وأخبرني بعض من سبقني من المريدين أنها كانت إذا غرزا بالأرض ترتعد فلا تثبت حتى يضع الشيخ يده الشريفة عليها. اهـ ونظير ذلك في المعجزات النبوية ما أخرجه الترمذي من حديث علي رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله. اهـ وأخرج مسلم

والترمذي عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن بمكة حجرا كان يسلم علي ليالي بعثت وإني لأعرفه الآن. وعن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زق جذع فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حن الجذع حنين الناقة فنزل صلى الله عليه وسلم فمسكه فسكن أخرجه الترمذي. اهـ.

وتقدم حديث تكليم الغزالة له صلى الله عليه وسلم وشكايتها تعقد اللبن في أخلافها وشهادتها له بالرسالة بعدما أطلقها ما يناظر تكليم الدواب وإخبارها للشيخ أطال الله حياته وأشاع في العالمين ذكره وكرامته. اهـ.

فصل ومن كرامات الله تعالى لهذا الولي الشاهدة مع استقامته باختصاصه بالإرث المحمدي ما أجرى الله تعالى على يديه من ازدياد الطعام والشراب واللباس وقلب الأعيان فمن ذلك ما صح متواترا أن شيخنا أطال الله عمره وعظم قدره ويسر أمره نزل عنده عبد الوهاب بن أحمد بن الحاج حمى الله وغيره ضيفا، فوجدوه في رحيل قد سبقه أكثر الناس والمال كله وبقي معه كثير من الضعفاء وليس عندهم إلا بقرة واحدة لها ولد صغير وهي عجفاء جدا ليس فيها من اللبن ما يكفي ولدها فلما كان وقت العتمة دعا الشيخ عبدا وأمره أن يجعل حجابا بينهم مع الناس وجعل العبد يحلب ويملأ الأقداح فلما حملوا الأقداح لعبد الوهاب وقومه قال لقومه اشربوا وقال للحاملين ارجعوا بهذا اللبن وقولوا له إنني لا أشرب لبن قريبة عهد بالولادة فأخذ الشيخ لبنا آخر وبعث به إليه وقال للحاملين قولوا له ليس هذا لبن جديدة الولادة، فقال عبد الوهاب ليس هنا بقرة إلا هذه البقرة العرجاء العجفاء ثم تذكر أن البقرة لا يمكن أن تحلب هذا الحلاب وعلم أن هذه كرامة فأخذ اللبن فإذا هو لبن بعيدة عهد بالولادة وتعشى جميع من هناك من الناس. اهـ.

وحدثني أيضا عبد الرحمن بن المختار بن عبد الله أن شيخنا أطال الله بقاءه وأدام في العافية ارتقاءه دعاه ليلة فوجده جالسا وبين يديه زهاء صاع من لبن فأمره الشيخ أن يأخذ إناء ويأتيه به ففعل فجعل كلما أتاه بإناء صب فيه من اللبن حتى امتلأ وقال له: اذهب بهذا لفلان أو لفلانة حتى أروى خلقا كثيرا من ذلك الصاع، فلما تم الغرض منه قال له الشيخ: اذهب أنت بأخره فذهب به فنقد كما ينفد الصاع. اهـ.

وحدثني محمد الامين بن البشير أنه أخبرته أمه أنها رأت الشيخ وبين يديه لبن قليل مقدار مد النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي واللبن إزاءه والصبيان يريدون العشاء وكلما جاء أحدهم أشار له الشيخ إلى اللبن فيكرع حتى يروى ثم يتخلف حتى لم يبق أحد ممن حضر منهم إلا روى. اهـ.

وحدثني أيضا عبد الرحمن بن المختار أنه عاين شيخنا أخذ مخزومة من القطن الأبيض ولبس منها ما ينيف على أربعين إنسانا من بين التلاميذ والعبيد والإماء. اهـ. وحدثني أيضا محمد الامام بن شيخنا أنه كان قد رأى الشيخ حفظ الله ساحته وأطال الفسحة في مدة حياته وأفاض علينا جزيل بركاته أخذ مخزومتين وهما قدر ثمانين ذراعا وجعلهما تحت فخذيه وناوله رأس أحدهما ليذرع منها فجعل يذرع وكلما تمت أربعون قطعت لإنسان يلبسها حتى لبس منها خلق كثير. اهـ.

ولقد أظهر الله هذه الكرامة البليغة على يد ابنه سيد عثمان فلقد حدثني من أثق به أنه عاين سيد عثمان في بدء أمره أخذ خمسة أمداد من الزرع وجعلهما في ظرف ومكث مدة طويلة يعيشي منها كل ليلة خيلا عنده وكثيرا من الأضياف والعيال وعابنته في بدء أمره كثيرا ما ترضع عجاليه أمهاتها وهو في المسجد يصلي العشاء فإذا أتى أهله وأخبروه بأمر العجاجيل قال: ما معناه إن جاعل اللبن في الضرع إنما هو الله وإن لبن النهار كله ليس جعله في الضرع في قدر اللحظة عسيرا عليه ثم ينادي عبده ويحلب من اللبن من تلك الشوائل قدر ما كانت تحلب. اهـ.

ونظير هذه الكرامات في السنة ما أخرجه مسلم والبخاري ومالك والترمذي والنسائي من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بوضوء فوضع يده فيه وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس عن آخرهم.

وعن جابر رضي الله عنه قال: عطش الناس يوم الحديبية فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه ركوة وقالوا: ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشر إلا ما في ركوتك فوضع صلى الله عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال

العيون فتوضأنا وشربنا قيل لجابر كم كنت يومئذ، قال: لو كنا مائة ألف كفانا، كنا خمسة عشر ومائة، أخرجه الشيخان.

وعن جابر رضي الله عنه قال: كنا في حفر الخندق فرأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا فانكفأت إلى امرأتي فقلت: هل عندكم شيء فإن رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا فأخرجت جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داخن فذبحتها وطحنت ففرغت إلى فراغي وقطعتها في برمتي ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فجئته وساررته فقلت ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير كان عندنا فتعالى أنت ونفر معك فصاح بأعلى صوته: يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع سؤرا فحي هلا بكم، ثم قال: لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء، فجئت امرأتي وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم الناس فأخرجت العجين فبصق فيها وبارك ثم قال: ادع لي خابزة فلتخبز معك واقدحي من برمتك ولا تنزليها، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوا وإن برمتنا لتتط كما هي وإن عجيننا كما هو. أخرجه الشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بتمرات فقلت: يا رسول الله ادع لي فيهن بالبركة فضمنهم ثم دعا لي فيهن بالبركة ثم قال: خذهن فاجعلهن في مزودك هذا وكلما أردت أن تأخذ منهن شيئا أدخل يدك فيه ولا تنتثره نثرا ففعلت فلقد حملت منه كذا وكذا وسقا في سبيل الله فكنا نأكل منه ونطعم وكان لا يفارق حقوي حتى كان يوم قتل عثمان انقطع رين فسقط فحزنت عليه أخرجه الترمذي. اهـ.

وحدثني محمد فال بن زروق رحمه الله في هذا المعنى بأن الشيخ أعز الله جنباه الكريم وأطال حياته فيما يرجوه من المولى الرحيم كان يوما واقفا عليهم بينون بير تتمل بالخشب فأخذوا خشبتين غليظتين يريدون جعلهما تحت الخشب لقوتهما فإذا هما قاصرتان عن الحجارة التي يريدون البناء عليها بقدمين، فقال شيخنا اجعلوا هاتين أسفل فقال هو أعني محمد فال فإني قد قسمتهما فوجدتهما قاصرتين بقدمين فأخذهما الشيخ بيده الشريفة الكريمة على الله ثم قال له قسمهما أيضا قال: فقستهما فوجدتهما زائدتين بأربعة أقدام قد بلغا الغاية المرادة منهما وزادتنا بقدمين. اهـ.

قلت: ونظير هذه القصة ما رأيته في كتاب الجواهر والدرر من أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما توجه النبي عليه السلام كان يأخذ كفا من ماء فيتوضأ به وضوءاً تاماً، وكان يوماً يبني داره فوجد خشبتين قاصرتين بذراعين فمدهما فامتدتا حتى زادتا على الغرض.

وأما قلب الأعيان على يديه فلقد رأيته ليلة أتاه تلميذه خيار الحداد رحمه الله وقال له: إني أريد شيئاً من الملح أسقي به حديدي فقال له الشيخ أعز الله جنباه الكريم خذ لي حجراً، فأهوى التلميذ بيده إلى الأرض وأخذ حجرتين وناولهما إياه فأخذهما بيده الشريفية وجعلهما في طرف ثوبه وناولهما إياهما ملحتين كبيرتين كأني أراهما الآن.

قلت: ونظير ذلك في السنة ما ورد من قلب العرجون سيفاً في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من يأخذ هذا بحقه؟ فأخذه أبو دجاجة الأنصاري رضي الله عنه، وسار إلى العدو يتبخر في مشيته كمشية الخيلاء، فقال عليه السلام: هذه مشية يغبضها الله إلا في مثل هذا الوقت كما في الكلاعي.

وحدثني أخي محمد الأمين بن البشير أنه كان قد رأى الشيخ أعز الله جنباه الكريم وأطال حياته في كمال العافية ودوام النعيم في بدء أمره كان مسافراً ومعه تلاميذه إذ أتاهم رجل من أهل علم الكيمياء يقرب الحجارة والبعر تمرًا، وكان يصنع ذلك بين يدي الشيخ والشيخ يتأدب معه حتى قام الرجل فإذا بعض التلاميذ قد مال خاطره على مثل ذلك فقال الشيخ أطال الله حياته لتلاميذه ليس هذا بهمة الرجال ولا من طرق أهل الكمال وإنما همم الرجال التقوى، ثم قال للمريد الذي مال قلبه على ذلك: ناولني ذلك الطست فأخذ المريد الطست من الشيخ فإذا به ممتلئ تمرًا فقال: أي بني هذه ثمرة تقوى الله، ولكن لا يميل إليها ذو قلب، وأما ثمرة علم الكيمياء فبيست هي ثمرة. اهـ.

وحدثني أمنا منين بنت المعلوم أنها كانت قادمة مع الشيخ من عند أهلها راحلة لبيتها فلما كانوا ببعض الطريق أصابها جوع فقال لها: يا ابنة المعلوم ما تشتهين اليوم من الطعام فقالت أشتهي منه الخبز الجديد الصناعة السخون المأدوم بالدهن قالت: فما أتممت كلامي إلا وفي يده رح أسود جديد فيه الطعام كما وصفت قالت:

فقلت له: هذا طعام الجان وإنما لا آكله، فقال بل كليه إنما هو من عند الله لا من عند الجان. اهـ.

وحدثني أخوأي محمد نعم بن الإمام وسيد محمد بن أهد صالح أنهما كانا مسافرين مع اطالب اخيار بن شيخنا فأصابهم عطش شديد وباتوا في الخلاء فأصبح جملهم ذاهبا فذهبا في أثره وتركوا اطالب اخيار جالسا عند رحلهم فما وجدوا الجمل حتى كان الضحى وقد أتى الجمل الناس فشربا عند الناس وبادراه خائفين عليه العطش فوجداه قد شرب وعنده ماء في طسته فقالا له: أنى لك هذا؟ قال: هو من عند الله، فالتمسا هل يجدان أثر أحد أتاه بعدهما فإذا هو لم يأتته أحد ولم يخرج من ذلك المكان بعدهما. اهـ.

وهذا نظير ما حكى الله تعالى عن مريم ابنت عمران من قوله: كلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها رزقا قال يا مري أنى لك هذا قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

وشاهدته يوما ونحن معه في سفر ورجعنا قافلين إلى أهلنا فأردفني خلفه أنا وأخي محمد الفاضل بن أحمد الهيب وأرانا خيام أهلنا من ذلك المكان وكان دونهم مسافة بعيدة فظللنا في ذلك اليوم والفرس تسير سيرا جيدا والتلاميذ الأقوياء مسرعون في المشي وما أتينا أهلنا إلا آخر النهار وأما الضعفاء من التلاميذ والمحمول من الأنتقال على المراكيب فما أتى إلا من الغد. اهـ. وأخبرني إذ ذاك أنه إذا توجه لمكان رفعته الأرض، فكنت بعد ذلك إذا توجه لمكان رفعته الأرض لي حتى أراه ثم يغيب عن بصري.

وحدثني محمد الفاضل بن أحمد الهيب أنه دام كذلك مدة قلت: ونظير ذلك ما صح من انزواء الأرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأى مشارقها ومغاربها. اهـ. وما صح من حديث رفعها للنجاشي عند موته حتى رآه الرسول عليه السلام وصلى عليه. اهـ.

وشاهدته مدة وأنا صبي أقرأ عليه ألفية ابن مالك ومعني رجال كبار يقرؤون أيضا عليه وكانوا يتسابقون للإقراء وأنا أتأخر عنهم فإذا اشتد الحر وأقرأهم ألواحهم قال لي: إيت يا فلان لأقرئك درسك فأقول له: الآن اشتد الحر وأنا لا أحب أن أحبسكم عن

البيت الآن وقد تركت إقرائي هدية لكم فما فعلت ذلك في درس إلا وهب الله لي تفسيره بلا معلم بل منة من الله من بركة الشيخ وبركة صدق النية فيه. ومن جليل كراماته أني منذ أتيت صيبيا ما رأيت أحدا تقرب إلى الله تعالى بجبر خاطره إلا أحسن الله مثوبته عاجلا والمغبون كل الغبن من غبن به أو فيه.

فرع ومما أظهر الله تعالى على هذا الولي مما يدل على تحقيقه بوراثته النبي صلى الله عليه وسلم ورسوله به في ذلك المقام السني وظهوره في تنوعات الأسماء والصفات للملك العلي ما أظهر الله عليه من التعداد وكثرة الأشخاص عندما يكون ذلك هو المراد لحكمة اقتضاها الوقت والاستعداد، فمن ذلك ما حدثني به الولي المكاشف محمد الفاضل بن اطالب اخيار وكان شيخنا في سفر فأتى من سفره بين المغرب والعشاء ونزل بالمسجد واشتغل الناس يزورونه ويسلمون عليه حتى حانت صلاة العشاء فأمر بالصلاة فأقيمت فصلينا العشاء فتعجب بعض الناس بعد أن خرج الشيخ من المسجد من صلاة الشيخ العشاء ولم يصل نوافله على عادته فقال لهم محمد بن الفاضل: لقد صلاها أنه لما نزل عن فرسه قام منه شخص هنا يصلي النافلة بجانب المسجد اليماني وأرانا موضع صلاته.

ومن ذلك أيضا ما حدثني به بعض الصادقين من أن بعض أمهاتنا الطاهرات الزاكيات أخبرته أنها كانت ليلة قائمة والشيخ معها فجسته بيدها فإذا هو هناك ثم لم تزل واضعة يدها عليه حتى أتى شخصه الذي كانت تسمعه يقول: الله الله ودخل البيت وصار شخصا واحدا.

ورأيت ليلة وأنا جالس إذا هو قام منه شخصان وكلاهما ذهب إلى ناحية. وأخبرني من أثق به أن شيخنا أطال الله بقاءه وأكمل في كل المعالي ارتقاءه كان في بدء أمره كثيرا ما يأتي الشبان إذا اجتمعوا يلعبون واختلط الذكور والإناث ليغير منكر ذلك ويهربون فإذا اجتمعوا حلف كل منهم أن الشيخ أعز الله جنابه الكريم وأطال حياته في كمال العافية ودوام النعيم ما تبع غيره ولا طرد إلا إياه. اهـ.

وحدثني أيضا اطالب محمد بن الشيخ سيد محمد فال كان أول رجوعي أني خرجت يوما مع الشبان يلعبون وكنا زهاء الأربعين أو الخمسين فلم يرعنا إلا أن خرج الشيخ

علينا ففترقنا نشدت عدوا فلما اجتمعنا حلف كل منا أنه ما طرد غيره ولا رجع عن أحد منا حتى أدخل بيت أهله. اهـ.

وحدثني أيضا بعض الإخوان من التلاميذ أنه كان مدة في شيء من الأغنام لآل الطالب المختار فلم يرعهم إلا أن قد شاهدوا غزوا عظيما من غزاة الفلانيين كان يقصدهم ورآهم أهل الغزو وشنوا الغارة نحوهم فاستغاثوا بالشيخ ينادونه، فسد بينهم وبين أهل الغزو وفي صورة سحائب الجراد حتى أعمى الله به أهل ذلك الغزو عنهم ورجع إلى أهله قهرا بقهرية ذلك الجراد ولم تبق منه فرس إلا أعماها ذلك الجراد. اهـ. وشاهد ذلك في السنة ما روي في حديث الإسراء من قول عائشة: لم يزل جنبه في تلك الليلة لازقا بجنبي إلى الصباح، مع قول ابن عباس إنه أسري به وبجسمه إلى حضرة ربه. اهـ.

ومن شواهد إرثه لهذا الرسول وتخصيصه من الله بكل سؤال ما سخر الله له من الأجناد الباطنة من الجن والملائكة فأما الجن فكثيرا ما كانوا يختطفون سبحة الشريفة ليتبركوا بها ثم يردوها، وكثيرا ما يختطفون نعله الشريف ليتبركوا منه ثم يردونه، ولقد أخبرني الولي العالم العلامة العارف بالله تعالى صاحب المكاشفات الحطاب بن شيخنا أنه كان ليلة جالسا فإذا باتنين من الجان أتياه أحدهما على صورة الإنس والآخر على صورة الورل الذي يقال له باللغة الحسانية الكوت، فلما رأهما رفع يده ليضرب الورل فقال له الآخر: لا تفعل، فعرف أنهما جنيان فسألهما عن شأنهما فقالا له جننا من قبل البصرة عامدين لهذا الولي تلاميذ فسلم عليهما. اهـ.

ورأى من الغد جيشا عظيما منهم أتى الشيخ وأحدقوا به وجعلوا يتبركون فلما كان بعد ساعة إذا ببعض التلاميذ قام إلى الشيخ أعز الله جنباه الكريم وأطال حياته معافى دائم النعيم فلما ولى قال الشيخ بعد ذلك: أما إن فلانا أتاني في وقت لولا رحمة ربي لأصابته جنة. اهـ.

وشاهد ذلك في السنة ما يشير إليه الكتاب العزيز من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ﴾ قيل هم جن نصيبين وقيل جن ببندى وكانوا سبعة أو تسعة وكان صلى الله عليه وسلم ببطن مكة يصلي بأصحابه الفجر عند انصرافه من الطائف يلتبس من ثقيف النصره والمنعة له من قومه وفي شرح الشفاء أن عددهم

ثمانية شاصر وماصر وماشي ومنشئ وسوف والأحقف وعمرو بن جابر وقيل في أسمائهم عمرو بن طارق وأحقب ووردان وقيل من ساداتهم هام بن أهيم بن لاقيس بن إبليس.

فائدة: وفي الذهب الإبريز: واختلف هل للجن ثواب زائد على النجاة من النار وهو الصحيح وهو قول مالك وابن أبي ليلى والضحاك وأنهم في حكم بني آدم قاله الثعالبي أم ليس لهم ثواب إلا النجاة خاصة واختلف أيضا هل رأى النبي صلى الله عليه وسلم جن نصيبين أم لم يرههم ولم يعلم باستماعهم حتى أعلمه الله بذلك هو، أما الملائكة فكثيرا ما كان أهل الكشف من أبنائه وتلاميذه يرونهم يتنزلون على بيته ومكان حضرته أكثر من تنزل المطر وقت نزوله وشاهد ذلك في السنة وما روي من حديث تنزلهم على أسيد بن حضير وعلى أبي موسى الأشعري عند قراءة القرآن. اهـ. ومن شواهد إرثه النبي عليه السلام ما خصه الله به من انزواء الأرض له وانطوائها حتى كانت له لا مسافة بها فلقد رأيت يومًا وكنت مسافرا لأرض بعيدة فلم أظن إلا وقد أخرج وجهه الشريف وقال لي: إيت فالتفت فإذا هو بمكانه أعني مكان بيوته وأنا في المكان الذي أنا فيه وهو بعيد جدا وليست بيننا مسافة بل كان ما بيننا من الأرض زواها لله له وطواه حتى كان كالعدم وكان جانبا تينك البقعتين المتباعدين متلاصقان. اهـ.

وسمعت يومًا قال: إن من الرجال من يكون على فراشه في مكانه فإذا مد رجله وضعها على جانب بيت الله الحرام أو على جانب روضة خير الأنام. وسمعت من أثق به قال حدثته إحدى أمهاتنا أن شيخنا كان يوما جالسا معها وقت الهجرة في شدة الصيف فوقف فوقف يقم البيت ثم قال: لقد أراني الله في وقتي هذا قوما في شدة البرد وكلابهم داخنة في الرماد وشاهدته يوما أتى المسجد وقت الظهر في شدة الصيف فقال: اتعظت جدا أوقفني الله الآن على قوم هذا الوقت عليهم ليل شديد الظلمة وإذا بقوم منهم يشوون شاة وتخلف أحدهم فقالوا: لا تبعد ليلا يأكلك الأسد وشاهد هذا ما روي من انزواء الأرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأى مشارقها ومغاربها. وبهذا تم باب الكرامات والحمد لله. اهـ. خاتمة في ذكر ما ينبغي ذكره وليس ملزوما لأحد الأبواب

فأقول وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب: البدء في الخاتمة بابتداء الشيخ حفظ الله ساحاته وأطال الفسحة في مدة حياته وأفاض علينا جزيل بركاته، وذلك أن هذا الشيخ كان في ابتداء أمره ملازماً للجد في مرضاة ربه فقد كان لا يسمع بولي من أولياء الله في بلدته إلا ذهب لزيارته ولا يسمع بعابد من العباد إلا استخبر أمره بماذا يعبد ربه، وكان ملازماً للعزلة دائم الذكر والفكرة، لا يرى مسلماً مشتغلاً في أمر إلا أعانه عليه، وكان منكشف الحجاب فيما بينه وبين ربه، لا يرى في الوجود غيره، ولا يأنس إلا به، يتعجب من يعرفه من شدة فرطه في طاعة ربه زمن صباه قبل بلوغ أو أن اختتان أترابه فلقد حدثني أطال الله حياته في العافية أنه كان ذات يوم بعد صلاة العصر وهو صغير قبل المراهقة عند بئر محمودة فاهتم بزيارة الصالحين ببير بج كنت فتوجه إليهم من حينه يشد الجري لا يلوي على نفسه، فأتاهم قبل غروب الشمس وبات عندهم تلك الليلة فلما كان في وقت من الليل أتاه النبي صلى الله عليه وسلم ومعه كثير من الأولياء فكان من أمره هناك ما كان، وكان يطوى الأسبوع والأسبوعين قبل إثغاره مجاهدة في ربه، وكان بعد الإثغار أشد مجاهدة في ربه وأشد الناس فرطاً في طلبه، لشدة ما جعل في قلبه من حبه فلقد كان قبل المراهقة يمكث الأسبوع والأسبوعين ابتداءً والشهر والشهرين بعد ذلك لا ينام الليل ولا النهار ولا يشرب ولا يجالس الناس ولا يتحدث معهم ولقد دخل خلوة عند الصالحين بمحمودة مكث فيها تسعين ليلة ما نام فيها قط ولا أكل ولا شرب ولا كلم أحداً سمعته حفظ الله جنبه الكريم في العافية ودوام النعيم يحدث أنه في تلك الخلوة مكث عشر ليال عند ابتداء دخوله فيها وهو يستوحش عندما يكون آخر النهار ويصدر الواردون عن آبار محمودة وإذا رآهم قادمين أول النهار يستأنس بهم فلما تمت العشرة الأولى انعكس الأمر صار يتوحش بورودهم ويستأنس بصدورهم حتى تمت العشرة الثانية زال الاستيحاش والاستيناس بهم وكان ورودهم وصدورهم عنده كالعدم، فلما تمت العشرة الثالثة كان لا يعرف بين الأحياء والأموات ولا بين الليل والنهار إلا في وقت الصلاة. وحدثني محمد الأمين بن البشير رحمه الله عن الشيخ حفظه الله ورعاه في بدء أمره بما لا أستطيع ضبط عشره، ولقد حدثني محمد فال بن زروق رحمه الله أن شيخنا أعز الله جنبه الكريم وأطال حياته في كمال العافية ودوام النعيم سار بهم يحفرون

بير انكمل وكان أحمد زيدان بن محمد بن لحبيب تلميذا لشيخنا وهو المتولي لشؤون خدمته ومؤن عياله وكان أبا لمحمد فال بن زروق لأمه قال: فسألته عما تزود به الشيخ لنفسه فأراني مخلة صغيرة فيها سبع عشرة تمرة فمكثنا في حفر البير كذا وكذا وسمى مدة بنحو من ثلاثين ليلة، فلما أردنا الانصراف إلى أهلنا سألت أخي أحمد زيدان عن شأن التمرات فأراني بعضهن في مخلتهن وشاهدت فيه في تلك المدة آيتين عظيمتين أما إحدهما فإننا قطعنا تلك البير خشبة عظيمة فلما سقطت ما قدرنا على تحريكها من محلها، فأخبرناه بذلك فذهب معنا إليها فلما أتيناها قال: خذوا بسم الله فلما مستها أيدينا رفعها الله لنا حتى كأننا نروها طائرة في الهواء تجري بان من غير ضغط لأحدنا ولا إحياء عليه ولا ثقل قال: فلما وصلنا بها لابيير وأردنا جعلها على فم البير نزل رأسها على يد أحدنا فكسر عظامها كلا من ساعد وغيره كعظام الأصابع والكف وغير ذلك فأريناه إياه فأخذ اليد وضمها بيد الكريمة وقال: لا بأس عليك فصار كأنما نشط من عقال وجعل يعمل معنا في حينه ذلك مستوي اليدين. اهـ.

وسمعتة حفظ الله جنابه الكريم وأطال حياته في كمال العافية ودوام النعيم يحدث أنه مكث سنتين ما نام فيهما ليلا ولا نهارا حتى قال الشيخ سيد المصطفى لقد أعطيتك نوم ساعتين من الليل وحدثني محمد تقي الله أنه حدثه من يثق به أن الشيخ كان في بدء أمره يمكث عن الطعام والشراب أربعاً وعشرين ليلة فإذا تمت أخذ قليلا من اللبن وجعل عليه الماء ثم يشرب ثم يستقبل أربعاً وعشرين أيضا. اهـ.

وحدثني من أثق به أن مدة مكث الشيخ عن الطعام والشراب في بدء أمره كانت ثمانية وعشرين ليلة إن كان في غير الخلوة وإلا فالخلوة كلها. اهـ.

وكننت كثيرا ما ألزمه في الأسفار مدته يسافر فلقد كان يطوي الليالي العديدة. اهـ.

ولقد سمعته يوما يقول: من قال إنه يحس بالجوع قبل الأسبوعين فهو الكذاب. اهـ.

ولقد اعتنى بهذه المجاهدة وأمد الله بالعون عليها من أبناء شيخنا محمد تقي الله ومحمد المامون، فلقد حدثني بعض الثقات ممن كان ملازما لمحمد تقي الله أنه كان يطوى أسبوعا وأسابوعين. اهـ ولقد حدثني أيضا بعض الإخوان أنه رآه طوى خمسة عشر يوما بلياليها وحدثني أخي الإمام بن المختار بن الحاج عيسى أنه سأل ابنته

عن طعام محمد تقي الله وكانت زوجة له فأخبرته أن لا طعام له، وحدثني غير واحد ممن أثق به أن محمد المامون كان يطوي الشهر والشهرين والثلاثة ما أكل ولا شرب ولا نام.

وسألت أخي اطالب عمار وكان ملازما لمحمد المامون وهو عدل ثقة كم تعلم أكثر ما مكث محمد المامون عن الطعام والشراب فتفكر في نفسه ساعة ثم قال لي: ما أكثر ما يمكث عنه في علمي، فلم أحصه لكني أتذكر مدة مكث تسعة عشر يوما وليس في الله أكثر مدة تركه إياه، قلت: وهذا أدل دليل وأقوم سبيل إلى التخلق بالأخلاق النبوية والتحقق بالمزايا المحمدية، فقد أخرج مسلم والبخاري والترمذي عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إني لست مثلكم إني أظل يطعمني ربي ويسقيني، ومن حديث البخاري أنه صلى الله عليه وسلم واصل فواصل الناس فشق عليهم فنهاهم صلى الله عليه وسلم أن يواصلوا قالوا: إنك تواصل، قال: لست كهيئتكم إني أظل أطمع وأسقى.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: نهاكم صلى الله عليه وسلم عن الوصال رحمة لهم فقالوا: إنك تواصل فقال: إني لست كهيئتكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني، رواه أبو داود والترمذي.

وعن أبي هريرة نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الوصال في الصوم فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوما ثم رأوا الهلال فقال: لو تأخر لزدتكم كالتكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا. أخرجه البخاري والمشهور جواز الوصال لمن قدر عليه، وهو مروى عن عبد الرحمن بن الزبير وغيره من السلف، وكان ابن الزبير يواصل الأيام، وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يواصل خمسة عشر يوما وذكر معه من الصحابة أخت أبي سعيد ومن التابعين عبد الرحمن بن أبي يعمر وعامر بن عبد الله بن الزبير وإبراهيم بن يزيد التيمي كما نقله أبو نعيم في الحلية.

ومن حجتهم عليهم أنه عليه الصلاة والسلام واصل بأصحابه بعد النهي فلو كان النهي للتحريم لما أقرهم على فعله، فعلم أنه أراد بالنهي الرحمة لهم والتخفيف عنهم

كما صرحت به عائشة في حديثه، فمن لم يشق عليه ولم يقصد موافقة أهل الكتب ولم يرغب عن السنة في تعجيل الفطر لم يمنع من الوصل. اهـ.

الجواز إقدام الصحابة عليه عبد النهي لأنهم فهموا أن النهي للتنزيه والتخفيف وإلا لما أقدموا عليه، اهـ واختلف في معنى قوله: يطعمني ربي ويسقيني، فقيل: هو على حقيقته وأنه صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بطعام وشراب من عند الله كرامة له في ليالي صومه أو في أيامه، ولا يقدر ذلك الطعام الخارج عن المعتاد في الصوم إذا أتاه ليلاً على رواية أبيت، أن الخارج عن العادة لا يتناول الخطاب التكليفي ولا يصدق عليه إذ الصورة النادرة المشهور عدم تناول الخطاب لها فكيف بالمفقودة. اهـ وشاهد ذلك ما روي من حديث غسل قلبه صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء في طست من ذهب، وإن كان استعمال آنية الذهب محرماً في شريعته. اهـ وقال بعضهم كل أمر خارق للعادة ليس من جنس الأعمال بل هو من جنس الثواب. اهـ.

وقيل أن قوله يطعمني ويسقيني مجاز فيكون المعنى إني يعينني ربي أي يقويني بما تستعينون عليه وتتقون بالطعام والشراب فهي استعارة مطلقة. اهـ.

ويحتمل أن يكون المراد به من معارفه فيض على قلبه ولذة مناجاته وقرّة عينه بقربه ونعيمه بحبه والشوق إليه وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح وقرّة العين وبهجة فلروح والقلب بها أعظم غذاء وأجله وأنفع له وقد يغني هذا الغذاء عن غذاء الأجسام مدة من الزمان ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الجسماني لا سيما الفرحان الظافر بمطلوبه الذي قرّة عينه بمحبوبه الذي هو عين مرغوبه وأنشدوا في المعنى:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
إذا اشتكت من كلال السير أوعدها قرب المزار فتحياً عند ميعاد
قال تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ وقال: ﴿قل كل من عند الله﴾ بخ بخ، وحدثتني أمنا منين بنت المعلوم أنها كانت معه في البيت ليلة في مدة بدئه فكان يتكلم وهي جاعله أذنها بجانب صدره تسمع له دوي كدوى النحل أو رهجا كرهج الجيش العظيم من الرجال هـ.

قلت وهذا معنى قولهم قلوب الأحرار أو قبور الأسرار هـ.

وحدث أعز الله جنبه الكريم وأطال حياته معا في دائم النعيم أن بدء أمره كان داخلا خلوة فكان إذا خرج من بيت خلوته يهرب منه الشجر والحجارة وجميع الجمادات فلا تسكن له شجرة ليستظل بها ولا يأخذ منها سواكا ولا غيره قلت وذلك نتيجة خوفه من الله ففي الخبر من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء وفي كتاب منافع القرآن أن ابن عمر رضي الله عنهما قال إنما يخاف الأسد ولا يخاف الأسد فالأسد الأول مرفوع فاعل يخاف الأولى والثاني منصوب مفعول بخاف الثانية هـ.

ومصدق ذلك قلوبهم وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء هـ.

وكان هذا الشيخ مجتهد هذه الأمة اليوم ومجدد دينها أعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه وسلك بي وبك طريقة وده ومنهج تقواه أن هذه الأمة لا تخلوا من مجتهد منها يقوم فيها فيجدد لها في دينها فقد أخرج أبو داود وورد من رواية أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها وقال صاحب المرافي السعودية وهو العلامة سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم.

* والأرض لا عن قائم مجتهد * تخلو إلى نزل القواعد

وأستدل بهذا الحديث على ذلك في شرحه وإذا كان ذلك كذلك فلا بد من تبين حقيقة المجتهد وهو المجدد أعمل وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه منا وكان له ولك في كل ما أهمنا أن المجتهد وزنه مفتعل من الجهد الذي هو بذل الوسع فالمجتهد هو الكلف المصر لأن يبذل جهده أي طاقته في تحصيل معرفة كيفية حكم الله تعالى الفروع الواردة نازلته عن وجوب أو ندب أو إباحة أو كراهة أو تحريم وإنما يكون المكلف معدا لذلك لشدة فهمه الطبيعي وتحصيله العلوم الشرعية التي يصح أن يشي على شيء منها فقه وهي علم النحو ولغة العرب في حقيقة وشرعية وعرفية وعلم البلاغة من معادن وبيان وعلم ميزان المنطق الذي هو المعارف من حد ورسوم وغيرها ومبادئها ويعرف موضع الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة ولا يشترط حفظ

متون نصوصها ويعرف أيضا أنه يجب عليه الرجوع إلى الدليل العقلي أن لم يجد في النازلة دليلا سمعيا ولا يشترط أن يكون ماهرا في كل هذه العلوم بل إذا وصل إلى الرتبة الوسطى منها تم غرضه من تلك الفنون وصح اجتهاده فهذه شروط صحته التي بها تحصل له القوة على تخريج الفروع الشرعية من أصولها وأما شروط كماله فهو كونه يعلم علم الإجماعات مخافة أن يخرف باجتهاده الإجماع وأن يعلم شرط خبر الأحاد وخبر التواتر وشروط صحته الخبر وضعفه ويعرف الناسخ والمنسوخ كتابا وسنة ويعلم أسباب النزول في الكتاب والسنة إذ بها يتقوى على معاني الألفاظ ويعرف أحوال رواة الأخبار من الصحابة هـ.

ولا يلزم في صفات المجتهد كونه يعلم فروع الصفة ولا علم الكلام هـ.

وقد كان هذا الولي أعلم الناس بهذه الفنون بل كان مجاوزا فيها حد الظنون هـ.

وأما المجدد مفعول من التجديد والمراد هنا تجديد الدين والدين هو الإسلام والإيمان والإحسان كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتجديد الإسلام يكون بتجديد ما ادرس من الأحكام الشرعية التي عليها مدار الإسلام وأما الإيمان الذي هو التصديق بالقلب بوجود الله تعالى وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وبالقدر وأما الإحسان الذي هو ازدياد اليقين في القلب حتى يكون العبد بالله تعالى وبجميع ما ينبغي التصديق به تصديقك بما تراه فعينيك وبمن تعلم أنه يراك في الحالة التي متلبس بها كائنة ما كانت فإنما تجديدهما بالتربية والأنوار الواصلة من قلوب المشايخ إلى قلوب المريدين بواسطة الصحبة والمتابعة في الدين ولقد جدد هذا الشيخ قيدها ولا تطلب منه حل عويصة إلا وجدت لديه حلها وإنما تجديده إياه بالتأليف والتدريس وتدوين كتبه وجمعها وتحقيق مسائله وضبطها ولقد كانت هذه البلاد قبله مغمورة بالجهل معمورة بالجهال فلا تكاد تجد فيها من يحسن تفسير آية من كتاب الله تعالى ولا تجد من يحسن لفظ حديث ولا من يبحث عن حال رواية ويفنى عمر المرء فيها ولم يسمع لفظ كتاب من كتب علم العربية ولا من فنونها وأما مباحث الألفاظ ومحتملات النطق فمعاذ الله أن يسمع الإنسان من ألفاظها أقل مسموع حتى أظهر الله تعالى فضله على العالمين بإظهاره لهم هذا الولي المكين فتجددت العلوم بعد الاندراست حتى كانت عند العامة والخاصة أظهر من شمس الزوال ليس دونها حجاب

فإنما يمنع الإنسان من رؤيتها ما يعلمه من نفسه من ضر وبصر ، وكذلك والله الحمد أهل هذا البلاد فلقد صار تدريس الفنون حرفتهم وتحقيق مسائلها شيمتهم ولا تكاد تجد منهم مقصرا عن ذلك إلا وهو يركض إليه على متن همته ويسبح نحوه في بحر عرامته على ظهر سفينته فلقد سقى القلوب ورباها وزكى الأركان وهداها حتى استقامت الرجال وتزكت الأحوال فانتشر الإيمان في قلوب العامة والخاصة واختص المریدون بالإحسان فهو لهم خاصة فلقد صلى على يديه من المریدین ما لا أكاد أتشوف لتعداده لكثرة عدده وامتداده ما شاء الله لا قوة إلا بالله ولقد أفاض الله به على القلوب سيب العرفان حتى رسبوا في مقام الاطمئنان من تأسوا بالملك الديان واستقاموا في مقامات الإحسان فكان خليلهم الرحمن وحسبهم دون سائر الأكوان يحبهم ويحبونه ليس بينهم وبينه حجاب ولا تطلع في سماء قلوبهم السحاب بل داموا في حضرته ضاحين وفي خدمته صافين يدعون ربهم بالغداة العشي يريدون وجهه لا يلهون مع اللاهين وقد تبين بهذا أن المجتهد والمجدد غيران فالمجدد أعم لدخول المجتهد فيه إذا كل مجدد مجتهد ولا عكس لقصر الاجتهاد على الصفة أي الملكة الراسخة في النفس التي بها يتمكن العبد من إدراك كيفية الحكم في النازلة والتجديد تحصيل ذلك وزيادة سريان الأنوار في السرائر وانزراع اليقين في الضمائر حتى يتجدد الإحسان بعد الإيمان في قلوب أهل ذلك العصر ومن ظن فيه غير هذا فقد أخطأ معنى الحديث فلا يكون المجدد إلا مجتهدا مريبا لانسحاب لفظ الدين على تلك المقامات ولا يمكن تجديد اثنتين منهما إلا بالمربي كما يشير لذلك الحديث الذي أخرجه ابن العربي في كتاب الفتوحات المكية أعني قوله عليه الصلاة والسلام الوصول لله تعالى لا يمكن إلا من تحت بيعة نبي الأولى وقد جدد الله تعالى على يد هذا الولي أربع وظائف من الإسلام مندرسة اندراس علم إدريس عليه السلام فجددها كما ينبغي حتى صارت بحمد الله مشيدة البنيان عالية الحيطان حصينة الحظائر من تلاعب الشيطان وهي الوظائف الأربع ذكر الله تعالى والصلاة لأول وقتها وقد تقدم فيها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يعلم به من لم تتطمس بصيرته بظلم الحسد وحجاب الغفلة أنهما الدين القويم والصرراط المستقيم وأما الاخرتان فهما تغير منكر اجتماع

الأجانب وقد ورد في ذلك من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية ما يدل على أن تلك الشريعة أولى ما يجدد من شعائر الله تعالى. هـ

وأما الثانية من الأخيرتين فهي الحجة وصيانة الحلائل عن التبرج فلقد وجدها هاتين الشعيرتين من شعائر الله معدومتين في هذه البلاد لا ينتجها منتج ولا يتبع أثرهما متبع طارت بهما في الجو عنفاء مغرب فنحت بهما أقصى البلاد مما ليس من المشرق ولا من المغرب فجدهما كالثنتين قبلهما أحسن تجديد حتى سد الناس في طريق الله أكمل تسديد وقد ورد في الأخيرتين من كتاب الله وسنة رسوله ما يكفي ويشفي أما الأولى منهما فكيف فيها قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون﴾ وقال: ﴿ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ وفي الآية الأولى اعني قوله تعالى ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ إلا أن غض البصر موجب لحفظ الفرج وإرسال البصر وعدم حفظه موجب للزنا نعوذ بالله منه نظير قوله تعالى ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ فأوماً بذلك إلى أن أكل الطيبات بذلك إلى أن أكل الطيبات موجب للعمل الصالح وهذا يتوجه على قول من يرى الواو تفيد الترتيب فتكون الآية دالة على أن حفظ الفرج مرتب على غض البصر ومسبب عنه وأن أعمال الصالحات مسبب عن تطيب النعمة ومرتب عليه وورد فيه من الأحاديث الصحاح ما لا يكاد يدخل تحت الحصر ولا يكاد يجمعه الفكر فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك وليس لك الثانية وفي رواية فإن الأولى لك والثانية عليك وفي الحديث النظرة إلى المرأة سهام مسمومة من سهام إبليس ويروى أن عيسى عليه السلام كان يقول عليك بغض بصرك فإنه لن يزيني فرجك إلا بما رأته عينك هـ. وفي الحديث العينان تزنيان وزناهما النظر إلى محاسن المرأة سهم من سهام الشيطان مسمومة فمن صرف بصره عنها رزقه الله تعالى عبادة يجد حلاوتها وعن عيسى عليه السلام إياكم والنظر فإنه يزرع في القلب الشهوة وفي الخبر من وسع على نفسه في البصر ضيق الله عليه في البصيرة ومن ضيق على نفسه في البصر وسع الله عليه في البصيرة ويقال من أراد أن يقل الوسواس عليه فليضبط النظر أي لا ينظر عبثاً ومن أراد أن لا يمثل بخاطر النساء

فليغض بصره عن النظر إليهن ورأيت في التلخيص على الرسالة ما نصه وفي كتاب الترغيب والترهيب لا يجوز النظر إلى وجه المرأة ولو عجوزا سواء هـ.

وفي الخبر ما خلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما ويقال ما خلا ذكر بأنثى إلا همت به وهم بها ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد فرسا يركب عليها إلى العوالي فأوتي بفرس أنثى فأبى أن يركبها فقيل له في ذلك فقال لا اخلوا بأنثى ليس معنا إلا الشيطان وانشروا أن الدراهم والنساء كليهما لا تأمنوا عليهما إنسانا ينزعهن ذا لب السليم عن التقى فيرى إساءة فعله إحسانا ولد جدد الحجة في هذه البلاد بعد أن كانت الديوثة غالبية على كل العباد وقد قال تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَاكُمُ أَخْبَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبَهُنَّ﴾ وقد اتفقوا أن الكلام وارد في زواج النبي ﷺ وسلم واختلفوا في حكمه هل مقصور عليهن تعظيما لحرمة النبي ﷺ أو عام في نساء المؤمنين بأسرهم والاحتياط اتخاذها وقد جدد الجهاد الأكبر وكان قبله كالكبريت الأحمر وهو أصعب ما يقاسيه الرجال وعتي به الكماة الأبطال ففي الخبر رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر يعني جهاد المشركين بالسيوف وتعريض المهج للحتوف إلى الجهاد الأكبر يعني جهاد النفس على فطمها عن ملذذاتها والإعراض بها عن مالوفاتها فقيل اللفظ نبوي كما رأيت في بعض الكتب وقيل العمر وقيل لعني كما رأيت كلا منهما أيضا والله تعالى أعلم وبتجديد هذه الخصال ونشر العلم وبعثه مع زيادة العلم ليقيني وانتشاره في جميع الأقطار عن موارد الشيخ الصادقين عنه صح كونه المجدد للدين دون غيره من العالمين ولقد قال الله في كتابه العزيز تيسيرا بليغا ما شاء الله لا قوة إلا بالله فلقد سمعته يوما من الأيام سأله تلميذه محمد الامين بن المعلوم فقال وهل يمكن أن يختم إنسان كتاب الله في ليلة فقال له الشيخ أطال الله بقاءه وأكمل في كل المعاني ارتقاءه نعم والله لهذا الرجال الذين يختمون كل ليلة أربعة عشر ختمة في الليالي التي لم تحرق لهم العادة وأما ليالي خرق العادة فليس من هذا القبيل: هـ.

وحدثني بعض الأخوان أن الشيخ سيد محمد بن أحمد الاسود قال بمحضر جمع من الصالحين أنه يختم القرآن في ركعة فاستغربها بعضهم فقال شيخنا أعز الله جنابه الكريم للذي استغربها ناولني أذنك فناوله إياها فقال فيها كه فاسمعه الله القرآن كله

العظيم واستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه توبة عبد ظالم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشور اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولأشياخنا وأصهارنا ولأئمتنا ولمن سبقنا بالإيمان واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله كلهم وأزواجهم وذرياتهم الطاهرين الطيبين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين اللهم صلى على محمد وآل محمد وصحبه وأزواجه أجمعين وسلم تسليما أ

هـ.